الكتاب: تثبيت الفؤاد بذكر مجالس القطب عبدالله الحداد
جمع: الشيخ أحمد بن عبدالكريم الشجَّار الحساوي.

تحرير: السيد الإمام أحمد بن الحسن بن عبدالله الحداد
الطبعة الأولى لصالح مقام الإمام الحداد - تريم الحاوي
طبع بسنغافورة - ربيع الأول 1420هـ.
***

تثبيت الفؤاد بذكر مجالس القطب عبدالله الحداد

جمع تلميذه الشيخ
أحمد بن عبدالكريم الحساوي الشجَّار

(1/1)

الجزء الأول

(1/1)

{ أَلاَ إِنَّ أولياءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الذِينَ ءَآمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى في الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ }

(1/2)

المقدمة

الحمد للَّه على أياديه المتواترة ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، وصلى اللَّه على سيدنا ومولانا محمد ذي المعجزات الباهرة ، والأخلاق العظيمة الظاهرة ، وعلى آله وصحبه أنصارهم والمهاجِرة .

وبعد : فهذا أنموذج يسير ، مغترف من بحر تيار كبير من العلم العزيز الغزير ، من كلام الإمام القطب الشهير ، العارف باللَّه والدال عليه ، حجة الإسلام وبركة المسلمين ، غوث البلاد والعباد ، أبي الحسنين( ) ، وإمام العارفين ، الشيخ عبداللَّه بن علوي بن محمد الحداد باعلوي رضي اللَّه عنه ونفع به ، مما جمعه ودونه فقيره وتلميذه الشيخ أحمد بن عبدالكريم الحساوي الشجار( ) ، بارك اللَّه له في ذلك ، وبلغه ما أمله هنالك ، إنه جواد كريم ، وقد أحببت أن أنقل كلام سيدنا الحبيب برمته ، مع تصرف يسير في تقديم بعض المقالات ، أو تأخيرها إلى مقالة أخرى ، وإذا كان في شيء من المكرر زيادة لفظة أو فائدة أثبته وحذفت المكرر العري عن الزيادة ، وأذكر كلام سيدنا الحبيب نفع اللَّه به برمته إلا شيئاً يسيراً من كلام الحساوي المذكور ، مع تلخيصه إذا كان له تعلق بكلام سيدنا الحبيب نفع اللَّه به ، كما ستراه إن شاء اللَّه تعالى ،

قال الحساوي المشار إليه لطف اللَّه به ، آمين :
بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، الحمد للَّه وحده ، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، قال العبد الفقير إلى كرم اللَّه الغني الكبير أحمد بن عبدالكريم الحساوي الشجار ، سامحه اللَّه وعفا عنه :
هذه كلمات كلية نافعة ، وحكم جُمَلية جامعة ، وجواهر نفيسة غالية ، ولآلٍ أنيسة عالية ، وهي قريبة العهد من موطنها ، طرية غَضة من معدنها ، أخرجَتْها من بحر الحكمة الزخار أمواجُه المتلاطمة آناء الليل والنهار ، حتى أَلْقَتْها( ) بأمر اللَّه على ساحله ، فالتقطها من ظفر بها وكتبها من فاز بها بأنامله ، وهي لعزتها قليلة الورود ، عزيزة الوجود ، سريعة الشرود ، وكل كلمة منها توازن الدر عند الأحرار ، وإن لم تكن لها قيمة عند الجهال الأغمار ، إذ ما كل أحد يعرف قدر اللؤلؤ ، لكن أهله ، ومن عرف عزيز قيمته غاص له في البحار ، حتى استخرجه من تلك القعار ، ولكن هذه( ) للآدمي قدرةٌ

على التوصل إليها ، حتى يبلغها ويشرف عليها ، وأما( ) الجواهر النفيسة العزيزة ، فلا وصول إليها إلا إذا هبت رياح الأقدار ، فحركت بحور قلوب أكابر الأولياء الأحرار ، أخرجتها منها فألقتها على ساحل ألسنتهم فاحتفظها( ) من وجدها ، وضن عليها من ظفر بها ، وذاقها وعرف قيمتها من عرفها ، وقد جاء في الخبر : عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه عنه : أنه قال : استأذنت رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم أن أقيد ما سمعته منه ، فأذن لي ، فجاء عنه أنه قال : حفظت عن رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ألف مثل ، وحزروا أحاديثه التي رواها أربعة آلاف حديث( ) ، وقال أبو هريرة رضي اللَّه عنه : كان عبداللَّه بن عمرو يكتب ولا أكتب ، وكذلك قيد أصحاب المشايخ المتقدمين ما سمعوا من مشايخهم ، كأصحاب الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي اللَّه عنه ، قيدوا ما سمعوا منه مما تكلم به على الكرسي وغير ذلك ، فقُيد وجُمع في كتاب ، سمي "جلاء الخاطر في كلام محيي الدين عبدالقادر" ، وكذلك قيد عبداللَّه بن بدر الحبشي ما قيد به( ) كلام الشيخ ابن عربي ، مما تكلم به في مجالسه وأوقاته ، وما خاطب به غيره ، وما فصله من علم أو شرح لكلام مَنْ تَقَدَّمَه أو تحدث به مع أصحابه ، أو شئ مما فيه فائدة ، فإذا كان الأمر كذلك ،

ففي أولئك قدوة وأسوة حسنة ، لمن حذا حذوهم واقتدى بهم ، وكانوا له حجة ، فإني قد جمعت نبذاً مما قيدته من كلام سيدنا وقدوتنا ، ومَنْ عليه بعد اللَّه ورسوله عمدتنا ، السيد الشيخ الإمام القدوة للخاص والعام ، قطب الأقطاب ، ونخبة الأولياء الأحباب ، سيدي الحبيب عبداللَّه بن علوي الحداد علوي ، رضي اللَّه عنه ونفعنا ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة ، مما تكلم به في مجالسه أو شرحه وفصّله في بيان مسألة ، أو على حديث أو أي معنى مما سمعناه منه ، فإنه لسان حال الوقت ، وقطب العصر وإمام الدهر ، وقدوة هذا الآن ، ومقدم هذا

الزمان ، كما أجمع على ذلك أهل الظاهر وأهل الباطن ، وأهل الشريعة وأهل الحقيقة ، وأنه المجدد للدين في وقتنا ، وحامل سر الحق فيه ، وحامل اللواءين ، لواء الشريعة ولواء الحقيقة ، المشتمل عليهما مقام القطبية ، وأنه لا يحمله عنه بعده من كل الوجوه إلا المهدي ، كما قال رضي اللَّه عنه مراراً : عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي ، وستقف على تحقيق ذلك في هذا النقل عن كبار المحققين ، من أهل الظاهر وأهل الباطن ، وأهل النقل وأهل العقل، من المكاشفات المحققة لذلك، والمرائي الصادقة ، والعلامات الدالة القاطعة به .

ذكر شيء مما نَوَّهوا به من وَصْفِه
قال السيد الكامل العارف باللَّه محمد بن عبدالرحمن مديحج باعلوي( ) رضي اللَّه عنه ، وكان من أكابر العارفين ، وأهل الحقيقة واليقين : كلام السيد عبداللَّه الحداد دواء لأهل القلوب المنورة لأنه طَرِيٌّ من عند ربه ، وقال أيضاً : نحن ما أَذِنَ لنا في هذا الزمان ، والسيد عبداللَّه أذن له ، وقال : لا تغتر في هذا الزمان بأحد ، ولو رأيته يفعل ما يفعل [أي من الطاعات والكرامات] ، فإن أهل الزمان إن لم ينتموا إلى السيد عبداللَّه الحداد بالقلب ، وإلا ما جاءوا بشيء ، لأن اللَّه وهبه أموراً لا تُكيَّف ، لا تجلس إلا عنده ، فإن الفائدة في مجالسته ، وقال أيضاً : إن أهل الزمان لا يتأسفون على السيد عبداللَّه إلا بعد موته خصوصاً العلماء ، فإنه حجة عليهم ، وقال سيدنا عبداللَّه نفع اللَّه به : إن فلانا - وذكره - قال : ما في تريم إلا الفقيه المقدم في التربة ، والسيد عبداللَّه الحداد في الأحياء ، ثم قال سيدنا: نعم ذاك قبرٌ وهذا باب ، يعني نفسه الشريفة ، ولكن ما يعرفون الباب حتى يصير قبراً ، فيعرفون أنه ذلك الباب الذي كانت تنفتح عليهم منه الأمور.
وقال السيد العارف أحمد بن عمر الهندوان نفع اللَّه به : ما بقي اليوم شيخ مرشد إلا السيد عبداللَّه الحداد ، قال : وظهر لي أنه مملي الكون ، وقال السيد العارف أبوبكر بن سعيد الجفري : ما رأيت

للسيد عبداللَّه الحداد مثيلاً ، لأنه نَفَسٌ رحماني ، وقد اجتمعت بأزيد من أربعين ولياً ، ما رأيت أحداً يُسَاميه، وقال أيضاً: مجالسة السيد عبداللَّه علم من غير تعلم ، وفي مجالسته الخير كله .
وقال السيد العارف علي بن عمر بن حسين بن الشيخ علي : السيد عبداللَّه ظهر في الكمال ، لأن أمر التصوف قد خفي ، ما ظهر اليوم إلا ببركته .

(1/4)

وقال السيد العارف باللَّه علي بن عبداللَّه العيدروس : السيد عبداللَّه سلطان آل أبي علوي ، وقال عبدالعظيم شراحيل : وممن أثنى عليه - يعني سيدنا الحبيب عبداللَّه نفع اللَّه به - شيخه السيد العارف باللَّه عمر بن عبدالرحمن العطاس نفع اللَّه به ، فإنه قال لجماعة ذكروه له : السيد عبداللَّه ثوبٌ طُوِي ، نُشِرَ في هذا الزمان ، لأنه من أهل القرن السَّابع( )، إنما أخره اللَّه سعادةً لأهل وقته ، قال : فلما سمعت ذلك أخبرت به سيدي عبداللَّه ، فقال لي : يا عبدالعظيم أنا بحمد اللَّه ما أنا من أهل هذا الزمان ، قد جعلني اللَّه بينهم ، وأنا وحدي منفرد عنهم بقلبي ، كما قال في بعض قصائده نفع اللَّه به وببركاته في الدارين :
وإني مقيم في مواطن غربة ... على كثرة الأُلاَّف في جانبٍ وحدي
قريب بعيد كائن غير كائن ... وحيد فريد في طريقي وفي قصدي
أقول : وقد رأيت بخط خادمه المحب المبارك عمر باحميد( ) يقول : سمعته مرة يقول : ما أنا من أهل هذا الزمان ، بل أنا من أهل القرن الثاني ، ولولا الأدب مع أهل القرن الأول ، لقلت أنا منهم ، لأن ما فيهم إلا الصحابة رضي اللَّه عنهم ، فانظروا في حالي وحال أهل الزمان ، إن كنت أشبههم أو يشبهوني ، وقال عبدالعظيم : وقد قال لي يوماً : أسِّسَ أمري وبني على الأكابر ، منهم الشيخ عبدالقادر والفقيه المقدم محمد بن علي علوي ، وعبدالرحمن بن محمد السقاف ، وعبداللَّه بن أبي بكر العيدروس رضي اللَّه عنهم ، فهؤلاء الأربعة هم

قوام أمري ، فهؤلاء سادة أهل التصوف وأئمتهم ، ودخلت عليه يوماً وجلست معه ، فتحدث في الفضل ، ثم قال : أما أنا بحمد اللّه قد خرجتُ من نفسي والتجأتُ إلى ربي ، ولا يطرقني خاطر في الرزق ، ولولا خوف الشهرة لَشَلِّيت من تحت هذه القطيفة( ) ما يكفي أهل تريم .انتهى .

(1/5)

أقول : وقد رأيت بخط سيدي السيد الشريف الجليل الحبيب أحمد بن زين الحبشي( ) رحمه اللّه ونفع به ، وعرضته عليه وأقره : قال الفقيه محمد بن أبي بكر باجبير : كنت خارجاً مع سيدنا الحبيب عبداللّه الحداد ليلة بعد المغرب من التربة ، فقال لي : يا فقيه إن حبيبك - يعني نفسه - قد له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية .انتهى .
أقول : بين قول سيدنا هذا وبين وفاته مدة طويلة ، أظن نحو ستين سنة ، وقل أن يبقى في هذا المقام من بلغه إلا القليل من الزمان ، فإن أكثرهم بقاءً فيه من يبقى فيه خمس سنين ، وإنما أكثرهم ما يبقى فيه إلا أياماً قريبة ، وقد أشهره اللَّه بها( ) عند أهل الظاهر وأهل الباطن ، وعند أهل الخصوص وأهل العموم ، وقد طار نسبتها إليه في الجهات ، وانتشر صيتها له في الآفاق ، وبلغ خبرها المشارق والمغارب ، وقد قال لي السيد الفاضل المتبحر في العلوم محمد بن أبي القاسم المعروف بأبي الطيب المغربي بمدينة الأحساء قال : أنا من مُوَلَّدِي المدينة المنورة ، وأبواي من أهل المغرب ، فلما كبرت وبلغت الحلم ، سرت إلى المغرب لزيارة أخوال لي - أو قال : أعمام لي - هناك ، فرأيت في المغرب رجلاً مشهوراً بالولاية شهرة عظيمة ، وتأتي إليه القوافل من أماكن متعددة وجهات بعيدة للزيارة ، ويفد الناس إليه بالهدايا ، وله سمت عظيم وصيت شهير ، فمضيت لزيارته ، فحين وقع بصري عليه ، ورأيت حاله ، اعتقدته كثيراً ، وخطر بقلبي أن هذا هو القطب اليوم - أي في هذا الوقت - فبمجرد خطور ذلك في خاطري ، التفت إليَّ وقال : ياولدي ما أنا بالقطب اليوم ، وإنما القطب اليوم السيد عبداللّه

الحداد باليمن ، فمن حينئذ اعتقدت في السيد عبداللّه كثيراً. انتهى .

(1/6)

وقد وقفت لسيدنا على رؤيا( ) رآها هو دالة على ذلك أيضاً ، رآها فيما سبق من الزمان ، وأخبر بها بعض خواصه ، فكتبها ووقفت عليها في خطه ، ونقلتها منه حرفاً بحرف ، وصورة ذلك قال : قال سيدي القطب الرباني ، السيد الأكبر والغوث الأشهر ، عبداللَّه بن علوي الحداد علوي الحسيني نفع اللّه به ، قال : رأيت كأني في مسجد يشبه مسجد قيدون( ) في رواقه النجدي ، وكأن فيه خلقاً كثيراً ، قال : وفيهم من أصحابه جماعة ، من جملتهم السيد حسن بن علوي الجفري( ) ، قال : وكأن واحداً أتى إليه وقال له : أنت صاحب الوقت ، أنت الغوث ، قال : قلت : لا ما هو أنا، قال : أنت ، حتى أكثر عليه وهو يقول له : لا ما هو أنا ، ثم بعدُ خرج هذا الشخص إلى حوش( ) المسجد ، وقال بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأشهد أن محمداً رسول اللَّه ، وأشهد أن سيدنا عبداللَّه بن علوي الحداد القطب ، قال : ثم بعدُ أتى إليَّ ، وشق على صدري ، ولم أحس لذلك ألماً وأخرج قلبي وجعل يغسله ، ويخرج منه أشياء لم أرَهَا ، وكأنه يريد أن يجعل فيه شيئاً بعد أن يفرغه ، قال فذكرت عند ذلك قصة شق قلب المصطفى صلّى الله عليه و آله وسلّم ، وإيداع العلم والحكمة فيه ، قال : والرؤيا جزء من النبوة( ) ، وهي تسر ولا تغر ، كما قال الإمام مالك رضي اللَّه عنه انتهى ، قال الراوي : انتهى من لفظه .

(1/7)

أقول : وقد قرأت أنا هذه الرؤيا بهذا اللفظ على سيدنا، وسمعها وتأملها وهو ساكت لم يتكلم بحرف ، والسكوت إقرار وتقرير ، وأظن أن هذه الرؤيا قريب من ذكره لباجبير ماذكر ، وهي تقدمة لذلك المقام العظيم ، كما تقدم الوحي للنبي صلّى الله عليه و آله

وسلَّم في الرؤيا قبل وحي الملَك ، إشارة إلى قوة متابعته للنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم حتى رأى في نفسه شبهاً مما اختص به النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم من شق صدره ، وإيداع العلم والحكمة فيه . ومن دقيق متابعته وغزير علمه وشدة اقتفائه واقتدائه لجده رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، أني كثيراً ما أسمعه إذا سلم من الركعتين الأولتين من الأربع قبل العصر ، يقول : السلام على ملائكة اللَّه والمقربين ، وعلى أنبياء اللَّه والمرسلين ، وعلينا وعلى عباد اللَّه الصالحين ، فأردت أن أسأله عن أصل ذلك ، فما جسرت على سؤاله ، فمر علينا في الدرس بعد العصر ، في قراءة السيد الجليل عمر بن حامد في سنن أبي داؤد بإسناده إلى سيدنا علي كرم اللَّه وجهه ، قال : كان النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم يصلي قبل العصر أربعاً يفصل بينهما( ) بالتسليم على الملائكة والمقربين ، وعلى الأنبياء والمرسلين ، وعلى عباد اللَّه الصالحين .
وقد رأيت بخط السيد الفاضل عبدالرحمن بن محمد بن عقيل بن زين باعلوي ، قال : أخبرني السيد الشريف الفاضل أحمد بن عقيل بن يحيى باعلوي قال : أخبرني رجل ثقة من أهل مكة أنه تخلف عن زيارة النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم مدة عشر سنين ، قال فرأيت النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ليلة في المنام ، فقال لي : يا عبداللَّه لِمَ لم تزرنا ، أما علمت أن من زار السيد عبداللَّه بن علوي الحداد قُضِيَت له سبعون حاجة ، فكيف من زارنا .

ورأيت رؤيا أوائل ما وصلتُ إلى حضرة سيدنا نفع اللَّه به ، تشهد لمكاشفة ذلك الولي الذي في بلاد المغرب للسيد أبي الطيب ، وهي : أني رأيت كأني وسيدي القطب الشيخ أبوبكر بن عبداللَّه العيدروس صاحب عدن نفع اللَّه به في جمع ، وأراه متقشفاً جداً وثيابه خلقان بالية ، إنما عليه ملحفة متمزقة من كل جانب ، وكأنه في شبه السيد شيخ بن إبراهيم السقاف ، من أهل قسم( ) ، فتعجبت واستنكرت من حالته هذه ، وقلت في نفسي لو خلوت به لفاتشته

في ذلك ، حيث إنا كنا نسمع عنه خلاف هذا ، فما لبثت وأنا أشتهي الخلوة به ، أن جاء داع دعا أولئك الجماعة ، وقال : فلان يدعوكم ، فمضوا إليه ، فخلوت بالشيخ فأقبلت عليه ، فقلت له : يا شيخ أبابكر ما هكذا ما نسمع عنك ، أين صولتك ، أين كرامتك التي نسمع عنك ، وإنك كنت تلبس غلمانك وخدامك الثياب الفاخرة النفيسة ، فما بالك هكذا متقشفاً؟ ، فهكذا صورة ما وقع في الرؤيا ، فقال رضي اللّه عنه : الناس اليوم غير الناس ، والزمان غير الزمان ، كان ذلك في وقتنا ، والوقت لنا ، واليوم الوقت لغيرنا ، فقلت له : ومن هو الذي له الوقت اليوم ، فقال : الآن أريك إياه ، فإذا بالداعي الذي دعا أولئك الجماعة قد جاء يدعونا ، وقال : فلان يريدكم ، وسمى الذي سماه لأولئك الذين دعوا قبلنا فقام الشيخ مسرعاً ، فقمت معه مجيبين لداعيه ، فمضى بنا إلى باب بيت يشرف على حوش كبير واسع جداً وفيه خلق كثير ، وهو ملآن منهم ، وفيهم الذين كانوا معنا ، وهم مستندون على الجدار وحافون به ، دائرين عليه كالحلقة ، وفي صدر المجلس رجل ، هو الذي دعاهم والناس عن يمينه صافين إلى شماله ، وهم متأدبون معه غاية الأدب ، مطرقين رءوسهم ، لا يتكلمون ولا يلتفتون مغضين أبصارهم حياءً منه ، وهو يبدأ بالمصافحة وبالقهوة ، ولا يُصافَح في مجلسه أحد غيره ، وكل من صافحه قابله بوجهه ، ومشى القهقرى إلى قفاه حتى يجلس ثم يبقى مطرقاً برأسه ، فلما وقفت مع

الشيخ على باب الحوش ، ونظر إليه أطرق برأسه أيضاً حياءً، وقال لي : هذا اليوم هو صاحب الوقت ، والوقت اليوم له هو صاحبه ، ثم ولجنا جميعاً من الباب داخلين ، ثم سرنا معاً حتى وقفنا عليه وصافحه الشيخ ، وقبَّل يده ثم مشى القهقرى كغيره ، حتى جاء إلى آخر المجلس ، فجلس هناك لأنه لما كمل مقامه ، وعلا قدره ، زاد تواضعه ، ثم إني أقبلت على الرجل ، وقبضت يده لأصافحه ، وقبلت يده رفعت رأسي ، ونظرت إلى وجهه وإذا هو سيدي

الحبيب عبداللَّه الحداد نفعني اللَّه به ، فلما عرفت أنه هو برد خاطري ، وعرفت أني آهلي من أهل المكان فأردت الجلوس بالقرب منه ، لكني استحييت من الشيخ ، حيث جئت معه وجلس هو في آخر المجلس ، وأجلس أنا عند صدر المجلس ، فجئت إلى جنب الشيخ ، وجلست بينه وبين النعال ، إلى هنا انتهت هذه الرؤيا المباركة . وأول ما قصصت هذه الرؤيا على سيدي الحسن ابن سيدي الحبيب عبداللَّه ، فقال : قصها على حبيبك ، فكأنه ذكرها لأبيه ، أو مكاشفة منه نفع اللَّه به ، فدعاني سيدي عشية بعد الدرس إلى موضعه الذي يجلس فيه بعد الدرس أيام الصيف ، وهو شرقي داره بالحاوي( ) مقابل النخل ، فقال : كيف رؤياك التي رأيت؟، فقصصتها عليه بهذه العبارة ، فلما سمعها تكلم في نفسه سراً بكلام ما فهمته ، وسألته ما سبب مشابهة الشيخ أبي بكر لذلك الرجل ، فقال: لعله حصل له منه حال أو مدد .

ومن العجيب الذي يدل على عظيم تصرفه وشدة كراهته للشهرة ، أني رأيت أيضاً أوان وصولي إلى حضرته : كأني وقفت على حافة نهر عذب الماء ، ودخلته وسبحت فيه ، فأخبرت بذلك سيدي في طريق السبير( )، وطلبت منه تأويلها، فقال : أتحسن السباحة؟، قلت : نعم ، قال : والماء عذب؟، قلت : نعم ، ثم سكت ولم يؤوِّلها، فقلت : أَوِّلُوهَا لي ، فلم يرد جواباً وسكت ، وسكتُّ ، فلما جئنا من السبير فتحت الخزانة ، وأخذت كتاب "حياة الحيوان" لأنظر فيه كلمة ، وليست رؤياي لي على بال ، فحين فتحت الكتاب قابلني فيه قوله ، التعبير مكتوب بالأحمر ، كما هي عادته فتأملت في عبارته في ذلك الموضع ، وإذا به يقول : من رأى أنه دخل نهراً عذباً وهو يحسن السباحة ، فإنه يخالط رجلاً من الأكابر ، فعجبت من ذلك الاتفاق ، وبقيت هذه الرؤيا تتكرر لي بعد كل مدة حتى تكررت لي مراراً كثيرة ، فكأن سكوت سيدنا رضي اللَّه عنه عن التأويل المذكور ، كأنه اطلع قطعاً على ذلك التأويل ، وعلى أن القدرة

ستسوقني إلي الوقوف على ذلك التأويل ، الذي لم يستحسن هو أن يذكره لي ، لما رأى فيه له من الإطراء ، مع رغبته في وقوفي عليه للحاجة الداعية إليه ، فأراد أن أقف عليه من غيره ، فاكتفى بوقوفي عليه في ذلك الكتاب من غير أن يذكره هو ، وكل هذه واللّه عجائب آيات ، وكرامات باهرات ، ومناقب عاليات .

ومما يدل أيضاً على عظيم تصرفه وشدة كراهته للشهرة لنفسه ولمن يحبه ويتصل به ، أن الأخ الأكرم عبدالرحمن بن أحمد باكثير( ) الشحري ، علمني عزيمة مجربة للحمى ، فاستعملتها لأناس كثير وأفادت واشتهر أمرها في حضرموت ، حتى إن أناساً من دوعن وغيرها يرسلون إليَّ يطلبون أن أفعلها لهم ، وسمع سيدي بها فقال : كيف العزيمة التي تفعلها للحمى ، فأخبرته بها ، ولم يتكلم لي من جانبها بشيء ، لا بأمر ولا بنهي ، بل سمعها وسكت ، فسلب منفعتها حتى إنها ما أفادت بعد ذلك ، ولا نفعت فتركتها مدة حياته نفع اللّه به ، وبعد ذلك صرت أفعلها لبعض الناس في بعض الأوقات ، رجاء أن يرد اللّه خاصيتها لنفع المسلمين ، فمراراً تفيد ومراراً لا تفيد، فانظر هذا التصريف العظيم والتربية التامة . انتهى ما أردنا نقله مما يحقق كلمته للفقيه باجبير ، التي أسرَّها إليه .
والآن إن شاء اللّه بعون اللّه نبتدئ في المقصود ، وقد أردت أن أصدّر هذا النقل بخطبة لسيدنا نفع اللّه به ، ليكون كله مقتبسٌ منه ، ومأخوذٌ عنه ، وكان رضي اللّه عنه وضع هذه الخطبة ، وأراد أن يجعلها على حِكَمه( ) ، ويجعل الحِكم كتاباً مفرداً ، ثم عَنَّ له أن يجعل الحكم مع مجموع المكاتبات والوصايا والديوان ، وجعلها رابعة الأربعة ، فكان الأربعة مجموعاً، وجعل له خطبة تشتمل على الأربعة الأقسام ، وبقيت هذه الخطبة مفردة ، ليست على كتاب ، فاستحسنت أن أصدر بها هذا النقل ، لتكون فاتحته وهي هذه :
بسم اللّه الرحمن الرحيم

{ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }( ) ، الحمد للّه الحنان المنان ، دائم الإحسان والامتنان ، الذي تقدست مواهبه عن التخصيص بمكان أو زمان ، وعن الحصر في فلان دون فلان ، جل عن التقييد ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً فسبحانه كُلَّ يوم هو في شأن .

(1/12)

أحمده حمد من غرق في بره ، فاعترف بالعجز عن القيام بشكره ، وعن أن يُقْدِرَهُ حَقَّ قدره بعد الإتيان بحسب الطاقة والإمكان ، وصلاتُه وسلامه على خيرته من خلقه والمبعوث بخير الأديان ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه في كل حين وأوان .
أما بعد : فإني بعون اللّه قد عزمت بعد أن استخرتُ ربي على تقييد كلمات وأمثال وأبيات ، ترد عليّ عند التذكّر والمذاكرة ، أرجو الانتفاع بها في الدنيا والآخرة ، وقد جردت العزم على هذا الأمر مراراً ، فلم تتم العزمة ، ولم تنفذ الهمة ، والسبب في ذلك بعد سابق القدر احتقار النفس ، والاتكال على الحفظ والدرس ، ثم إني لما رأيت أني نسيت من ذلك الشيء الكثير ، ولم يبق منه إلا القليل اليسير ، ورأيت الحاجة في بعض الأحيان تدعوني إلى ما دخل تحت دائرة النسيان ، ووقفت على كلام للشيخ ابن عربي حاصله : أن الإنسان ترد عليه الأشياء في نهاية الطلب ، ينبغي له أن يعتني بحفظها ، لأنه سوف يحتاج إليها فيما بعدُ، وما وَرَدت إلا لذلك ، فعند ذلك صممت على تقييد ما يخطر في البال ، وإليه أضيف إن شاء اللّه تعالى ما يكون في الاستقبال مستثنياً بمشيئة اللّه تعالى النافذة ، ومفوضاً إليه ، ومتوكلاً عليه ، وراغباً فيما لديه ، ومعتصماً به : { وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }( )، ثم إني أعلم أخاً وقف على ما هنا ، فرأى فيه مقاربة لكلام أحد لفظاً أو معنى ، أن ذلك وقع بطريق الموافقة ، إذ ليس بخافٍ أن من أثبت كلام أحد ، ولم يعزه إليه ، أنه سارق أو غاصب ، وكلاهما قبيح ، وهذا أوان الابتداء، أصلح اللّه النية ، وصَفَّى الطوية .
انتهت الخطبة المباركة الميمونة ، وما رأيتها قط في

حضرموت ، ولكن يَسَّر اللَّه وقوفي عليها في كتاب عند رجل جاء بها من الهند ، فنقلتها منه ، وقرأتها على سيدي الحبيب نفع اللّه به وأقرها.

والآن أشرع إن شاء اللَّه في المقصود ، مستعيناً باللّه سبحانه وتعالى :
اعلم أن كلام سيدنا عبداللَّه نفع اللَّه به مستمد من علمه ، وعلمه مستمد من النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم كما هو وصف القطب ، وقد وصفه في بعض قصائده بقوله( ) :
يمتد من بحر العلوم( ) محيطها ... خير الأنام بعاجل وبآجل
واعلم أيضاً : أن كلام مجالس سيدنا عبداللَّه نفع اللَّه به ، على حسب ما يجريه اللّه تعالى على قلبه ، وينطق به لسانه ، لا على حسب مادة ينسهب فيها الكلام ويطول ، ويرتبط بعضه ببعض ، كما هو في أبواب العلوم المعروفة ، كالفقه وغيره ، ولهذا يكون كل كلام منه على حدة ، لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده غالباً ، ورأيت فيه من الخاصية ، أنه لا يَمَلُّ قارئه ولا سامعه ، ولو تكرر عليه مراراً كثيرة ، وذلك من سر نَفَسه الشريف ، فلذلك حسن منا أن نسميه كتاب : تثبيت الفؤاد ، بذكر كلام مجالس سيدنا القطب السيد عبداللّه بن علوي الحداد نفع اللّه به ، وقد استأذنته في نقل ذلك مراراً ، فأذن لي في كل مرة وقلت له مرة : إنا نسمع كلامكم ونحرص عليه ونكتبه ، ولا ندري هل فهمناه على الوجه الذي أردتم أم لا؟، ولكنا نتحرى لفظكم إن أمكن ، وإلا كتبناه بالمعنى على ما فهمناه ، وربما حصل زيادة أو نقصان ، فقال : اكتبه وعادك تعرفه ، حتى إني رأيته رضي اللّه عنه في المنام ليلة ، وهي ليلة الجمعة في 14 ربيع الأول سنة 1127هـ ، وهو في جمع يتكلم عليهم ، وذلك بمسجده بالسبير ، فبينما هو يتكلم عليهم إذ التفت إليَّ وقال : فلان مهيَّم القلب ، والقلب المهيم لا يتأهل للواردات الإلهية ، ولا يحصل الهيام إلا لقلب فارغ ، فأخبرته بذلك يقظة وقلت : أأكتبه في جملة ما أكتب مما أسمعه

وأحفظه من كلامكم؟ ، فقال : أكتبه ، ثم إنه رضي اللَّه عنه شرحه ، فقال الهيام والغرام من أسماء المحبة ، والهيام هي الواردات الإلهية بنفسها ، فلا يتأهل ، أي لا يحتمل القلب المهيم من الواردات الإلهية أكثر

مما هو فيه ، ولا ترد إلا على القلب الفارغ( ) انتهى ما شرحه .
كذلك رأيت أيضاً كأني في حلقة فيها خلق كثير ، وسيدنا في وسطهم يتكلم عليهم ، إذ التفت إليَّ وجعل يملي عليَّ كلاماً كثيراً ، ويقول : احفظ كلامنا هذا ، فقلت : يا سيدي ما يمكنني حفظه لكثرته ، فقال : هات دواة مع قلم وقرطاس ، فأتيته بذلك ، فقال :
بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، الحمد للَّه الذي جعل القلوب محل أسرار الغيوب ، فانتبهت بعد ما كتبت هذا ، فأخبرته بهذه الرؤيا بعد ستة اشهر في طريق السبير ، فقال : أكتبها، فقلت له: الكلام الذي ننقله عنكم بلفظه ، نحس له أثراً ونرى له رونقاً أكثر مما ننقله بالمعنى ، فقال رضي اللَّه عنه : ولو قد غِبْتُ ظهر له حال غير الحال الأول ، لأن المخالطة والاجتماع مانع وحجاب عظيم .
وتكلم رضي اللَّه عنه يوماً على الناس كثيراً ، ثم قال في آخر كلامه ذلك : إذا تكلمنا في مجلس ، فلا يظن أحد أنا قصدناه بالكلام خصوصاً ، بل هو عام لكل من سمعه ، ثم تمثل بهذا البيت :
وإذا فتىً طرح الكلام بمجلسٍ في مجمع أخذ الكلام اللَّذْ( ) عنا
ثم قال : وإذا تكلمنا في مجلس ، فإن عرفه الحاضرون وأخذوا به ، كان حجة لهم ، وإلا فله من يسمعه غيرهم لا يرونهم ، وكلامنا بأمر إلهي .
وقد أخبرني السيد محمد بن شيخ الجفري( ) : أنه رأى يوماً حية في جنب سيدنا في مدرس العصر ، فأراد بعض الحاضرين أن يأتي بعصا يضربها ، فصاح سيدنا بالرجل لا تقتل الحية ، واتركها، فبقيت إلى أن فرغوا من الدرس ، وقرأ سيدنا الفاتحة ، ودعا

فلما ختم الدعاء تسببت( ) وذهبت .
وتكلم رضي اللَّه عنه يوماً على رجل وهو يسمع ، ثم قال له : إنما هذا تأديب لك من اللَّه سبحانه أجراه على لساننا ، وقال رضي اللَّه عنه : إن كل كلامنا الذي نتكلم به معكم ، إنما نحثكم( ) به على الوسط لا غير .

وقلت له رضي اللَّه عنه : هل تأذنون لنا أن أَتَسَمَّع كلامكم إذا سمعتكم تتكلمون؟، إذ كل ما نسمعه منكم يحصل لنا منه فوائد ، فقال رضي اللَّه عنه : أذِنَّا لك تسمع كلامنا ولا نأذن لك تتكلم ، فَتَسَمَّع كلام عظة ، أو فائدة أو علم ، ونحن لا نتكلم إلا لأمرين ، إما لأحد حاضر غير مرئي ، أو لأجل رجل في نفسه كلام لا يمكنه يتكلم به ، وكانوا( ) مستعدين للنقل بآلته ، وقد نقل كلامنا أناس كثير نقلوه بالمعنى ، فأخطأوا في نقله ، فإذا سمعناه منهم ، رأيناهم مخطئين ، قال رضي اللَّه عنه : وينبغي أن يعرف الناقل الكلامَ ودرجاتِه ، وقيودَه ، وخصوصه ، وعمومه ، وكونه فيه استثناء ، ويبقى يستمعه من أوله إلى تمامه ، فرب قائل تسمعه يذم العلماء ، إلا أهل الخشية ، والورع ، والتقوى ، فتستعجل وتقول فلان يذم العلماء ، قال : والقيود كمن سمعنا نقول في التوبة - مثلاً - بعد ذكر شروطها ، ولزومها : أنها تعسر في هذا الزمان ، فيقول قال فلان : التوبة عسرة فلا تمكن ، ولا ينقل الكلام من أوله ، فلما علمنا بذلك من أهل الزمان ، تركنا الخوض معهم والكلام إلا في المجالس العامة ، فيما يتعلق بعبارات الكتب ، فإن فهموه وإلا فعهدته على أهلها ، وقد أقل اللَّه من ضعفاء الفهم ، وكذا من أهل النفاق ، وإن كانوا أقل منهم .
وقال رضي اللَّه عنه : نحن إذا أمرنا بشيء ، أو تكلمنا بكلام قيدناه ، فكل كلامنا مقيد ، فافهم القيود ولا عليك ، لأنا عارفين بأحوال أهل الزمان ، وقد عثر عندنا ناس كثير بترك القيود ، وأخذوا الكلام غير مقيد ، كالإناء بلا غطاء ، أو الغطاء بلا إناء ، بعضهم تَعَسُّفاً ، وبعضهم تعنتاً ، وبعضهم ضُعْفَ فهم ، حتى لما علم بأمرنا بأخذ القيود بعضُ الناس ،

قال: لا ينبغي أن نحضر مجلسكم ، فقلنا لا يتعطل المجلس بغيبتك ، ثم إنه رجع وحضر.

وقال رضي اللَّه عنه : إذا نقل أحد كلام أحد ، فليذكر الكلام كله من أوله إلى آخره ، فإن الكلام يُذكر بالكلام ، ويُعرف معنى بعضه من بعض ، ولا يُذكر بعضه ويُترك البعض ، فلو سمع رجلا يقول : إن فَعَلَ فلان كذا فلا خير فيه ، فيقول : سمعته يقول : ما في فلان خير ، فليس الكلام على هذا الوجه ، وأحسن التكلم نقل الكلام على وجهه ليعتبر بما اعتبر ، وقد تكلمنا أيام كنا بالهجيرة يوماً في التوبة ، فقلنا : التائب المصر على الذنب ، بأن يقول : استغفر اللّه بلسانه ، وفي قلبه إنه متى تمكّن منه فَعَلَه ، إن هذا لا توبة له ، ولكن الاستغفار باللسان لا يخلو من خير ، فنقل عنا رجل كان حاضراً ، إنا نقول : إن ما للتوبة معنى أصلاً ، وأن ما لأحد توبة ، فسمعه علي بن عمر بن حسين ، فقال له : تَخْزَا( ) ما قال هكذا ، وأشياء من الخواطر ما تدخل تحت الاختيار ، يعفى عنها ، كمن ترك ذنباً ، وإنما تركه للّه لا لشيء آخر ، ولكن بقيت له في قلبه لذة فيعذر في مثل هذا ، ولا يؤاخذ به ، ثم قال : وأصول الأحكام وأصول الدين كلها في القرآن ، ولكن لمن يعرف ، وهذه الأشياء تُنقل وتُعرف ، وبعض منها ما يحسن أن ينقل .

أقول : وقد رأيت بخط من نقل عنه رضي اللَّه عنه أنه قال : إن الجَوابي( ) لم تُبْنَ في الأصل للقذر ، فلما حصل فيها القذر عارضاً فلا يكره ذكر اللّه فيها ، فمثل هذا نقل عنه خطأ ، فلما سمعه أنكره ، وهو الذي أشار إليه بقوله : فإذا سَمِعناه منهم رأيناهم مخطئين ، وهو خلاف ما نقلناه عنه من قوله الذي نقول به ونختاره فانقلوه عنا ، وقولوا هذا اختيار فلان ، والذي نقول به : أنه لا ينبغي ذكر اللَّه في الجوابي ، ولا جواب المؤذن فيها لما فيها من القذر ، ونكره ذلك فيها ، ولكن إذا خرج منها ينبغي أن يأتي بأذكار الوضوء ، وجواب المؤذن على وجهه

يقضيه بعد ما يخرج من الجابية ، وهذا خلاف ما ذكر عنه صاحب ذلك النقل .

(1/17)

وكذلك ذُكِر : إن سيدنا قال : إذا عوقب أحد من أصحابنا بعقوبة في الدنيا والآخرة فهو بسبب من جهتنا ، لأنا وإن سامحناهم في التقصير الواقع منهم في حق اللّه وحقنا ، فللطريق غَيرة لأهلها . انتهى .
(وقوله) : وإن سامحناهم في التقصير الواقع منهم في حق اللّه ، لعله وَهْمٌ ، أو سبق قلم ، أو هو من الخطأ الذي أشار إليه ، فإنه نفع اللّه به ، من عادته أنه لا يسامح أحداً في التقصير في حق اللّه قط ، بل في حق نفسه ، هو شيمته وعادته المسامحة به ، وسمعته غير مرة يقول ما معناه : من تهاون بحقنا لا بد أن يعاقب وإن سامحناه وعفونا عنه ، وإن اللّه ليغار لعباده الصالحين وإن سامحوا في حق أنفسهم ، قال : وإذا غضبنا على أحد ونحن نحبه لا بد من أن نتكلم عليه ولو كليمة واحدة لئلا يعاقبه اللّه ، لأنا جربنا أن من قَصَّر في حقنا أو أَغْضَبَنا عوقب إلا أن نتكلم عليه فتتعداه العقوبة ، أو كما قال .

(1/18)

أقول : وذلك كما وقع للرجل الدمشقي من الطرد والعقوبة ، حيث حصل منه التقصير وسوء الأدب في حقه نفع اللّه به ، وقصته : أني رأيت بتريم رجلاً من أهل دمشق الشام ، يقول : إنه شريف ، واسمه زين العابدين ، فأقمت سبع سنين ما أراه يصل إلى الحاوي للزيارة ، إنما أراه في الجامع يوم الجمعة ، فتعجبت من مقاساته الحال في تريم ، مع عدم تردده إلى حضرة سيدي ، فمضيت إليه يوماً قاصداً معاتبته ولومه على ذلك ، وقلت له : أنت رجل من أهل بلد رفاهية ، وسعة معاش ، والغريب لا يتكلف المقام هنا إلا لأجل الاجتماع بسيدنا الحبيب ، وأنت لا أراك تتردد عليه ، ولي منذ سبع سنين ما رأيتك أتيته زائراً ، فما معنى مقامك هنا ، فقال : ما جئت هنا إلا

لأجله ، ولا قصدت إلا عنده ، ولكني خفت من ضعف العقيدة بسبب المخالطة ، فاستحسنت البعد مع العقيدة ، ولا القرب مع ضعفها ، فقلت له : كلامك حكمة وصواب ، ولكن عملك يكذب قولك ، فلو كان قولك هذا صدقاً ، لكنت تتردد للزيارة ، ولو في الأسبوع أو الشهر أو السنة ، وأكدت عليه بذلك شفقة عليه ، فلم يفعل ، ثم بعد سنة أتيته كذلك وقال كما قال أولاً : وبقيت سبع سنين أتردد عليه في كل سنة مرة ، وأسأله فلا يجيبني إلا كذلك ، ولا دخل في خاطري ما قال ، واعتقدت أن الأمر بخلافه ، ولم يعطني أحد عنه خبراً ، حتى يوماً كثر عليَّ الوسواس من جانبه ، وهذا عادتي إذا رابني أمر لم أصبر حتى اطلع على حقيقته ، فلما كان الليل زاد عليَّ ذلك الوسواس ، فلما كان بعد الراتب ، وكانت ليلة الثلاثاء وعادة سيدنا فيها الطلوع إلى البلاد للمبيت ، وركب سيدنا وأنا أسايره مع قائد الفرس عكيمان فقط ، وبقي يقرأ ورده مشتغلاً به ، وأنا مشغول بتلك الخواطر التفت إليَّ، وقال لي مكاشفةً منه رضي اللّه عنه: يا حاج ، قلت : لبيك ، قال : إن هذا الرجل الدمشقي ما جاء إلى هنا إلا لأجلنا ، ولا قصد إلا عندنا ، ولكنه مَرَّ في مجيئه من بلده إلى عمان ،

وجاء إلى قرية على الساحل تُسمى الرمس ، وفيها أناس يقال لهم آل ثالث ، وكانوا محبين لنا ويكاتبونا، فقصد عندهم لما علم أن لهم بنا صلة ، فلما علموا منه أنه قاصد إلى عندنا قاموا به وكسَوه وزودوه ، وأعطوه خرجيَّة ، وأركبوه في مركب لهم إلى الشحر بلا نول ، وكتبوا لنا معه كتاباً يوصونا به ، فبعد ما وصل إلينا بأيام كتب لهم كتاباً ، وذكر فيه كليمة من جانبنا أزعلتهم ، فكتبوا لنا كتاباً، وجعلوا كتابه ذلك في طي كتابهم إلينا ، يريدونا نقف على كلمته ، فقرئ علينا كتابهم وكتابه ، وإذا فيه يقول : إنا قد زرنا السيد فلاناً واجتمعنا به ، ولكن ما رأيناه على ما نسمع عنه ، فأخذت الكتابين من يد القارئ ، وأخذت عليه أن لا يتلفظ بتلك الكلمة لا له ولا لغيره ، ثم إنه

شل حوائجه وما معه ، وانتقل من نفسه إلى البلاد ، وهو آخر العهد به ، ونحن من عادتنا أنا إذا أردنا أحداً جذبناه إلينا ، ولو كان بأبعد محل ، ومن لم نرده نفيناه ، ولو كان حاضراً عندنا. انتهى .
ثم إن ذلك الرجل ضاق عليه المعاش بتريم ، فسار إلى الهند مع جماعة من أهل تريم ، فجاء إلى سيدنا عند سفره يستودع ، فأوصاه بتقوى اللّه ، وملازمة الطاعة ، ونحو ذلك ، وما رأيت له منه تلك البشاشة المعتادة لمن استودع منه ، فلما كان بعد مدة دون السنة ، جاء الذين سافر معهم ، فلقيت منهم رجلاً فسألته عنه ، فقال : كنا ليلة سائرين في البحر ، متوسطين الغبة ، فقام من آخر الليل ليتوضأ ، فزلت رجله فسقط في البحر ، فصاح وفطن به أهل المركب ، فأرخوا الشراع ، وجعلوا يدنون المركب إلى نحو الصوت ، فعجزوا عن القرب منه ، ولم يمكنه القرب منهم ، وبقوا في علاج من ذلك إلى أن قرب استواء الشمس على الرأس ، فانقطع صوته فساروا وتركوه ، فنعوذ باللّه من سوء الظن بالصالحين .

ورأيت بخط ابنه الحبيب علوي مما نقله عن والده أنه قال : إذا تكلمنا لأحد منكم بكلام ، فليُعِهْ( ) وليقبله بكليته ، فإنْ ما ظهر له معناه اليوم ، عاده يظهر له ، ولا يعرف قدره إلا عند فقد متكلمه ، فيطلب من يقول مثله ، فلا يجده ، وذلك من تمام الكلام ، لأنا مارسنا الأمور وجربناها ، ولنا نحو ستين سنة ونحن في مطالعة الكتب إلى الآن ، انتهى .
والذي سمعته أنا من سيدنا يقول : من حين سننا أربع عشرة سنة وإلى الآن ونحن في مطالعة الكتب ، وما مر عليكم مرةً مَرَّ علينا مراراً ، ثم تمثل بهذا البيت :
ومن عجب إهداء تمر لخيبر ... ... وتعليم زيد بعض علم الفرائض
وقيل له : يا سيدنا لا تروا علينا ، فإنا ما نخاف إلا من مخالفة أمركم ، فقال : لا، ما نحن بصدد ذلك ، وإنما نطلب الجزاء من اللّه ، لأن اللّه سبحانه ما خلق الإنسان طويلاً إلى جهة السماء ، وجعل رأسه أعلاه ،

إلا ليطلب حوائجه من السماء لا من الأرض ، ولا عليك إلا أن تعمل ما يرضي ربك ، فذلك هو الذي نرضى به .
وقال رضي اللَّه عنه : من أتانا قاصد الانتفاع ، فليسمع ما نقول ويفهمه ، ويُصَدِّق ويَصْدُق فيه إذا نقله إلى أحد ، لكن مع فهم القيد ، لقوله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((رحم اللَّه امرأً سمع مقالتي فوعاها : فأدَّاها كما سمعها)) ( ) الحديث ، وللوارث حكم الموروث ، والنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ما وَرَّثَ إلا العلم ، وما كان له من ذلك مطلقاً كان لورثته مقيداً ، وإذا أخذ الناس من ذلك بسهم ، أخذنا منه بسهمين ، سهم من جهة العلم ، وسهم من جهة النسب ، انتهى .
أقول : وما أحسن قول البوصيري صاحب البردة والهمزية ، شاهداً في ذلك :
يا وارثاً بالفرض علم نَبِيِّه ... ... شرفاً وبالتعصيب غير مقيد
اليوم أحمدُ من عليّ وارثٌ ... حَظَّيْ عليٍّ من وراثة أحمد

(1/21)

ومراده بعلي أبو الحسن الشاذلي ، وبأحمد المذكور أول البيت أبا العباس المرسي ، وبأحمد المذكور آخر البيت النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، ومعناه أن علياً المذكور ورث من النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، من جهة النسب سهمين سهماً بالفرض ، وسهماً بالتعصيب ، فورثهما منه أبو العباس ، كليهما من جهة العلم ، وسيدنا نفع اللَّه به ورثهما من النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم كليهما من جهة النسب ، أي سهماً بالفرض ، وسهماً بالتعصيب وهما المراد بقوله (وسهم من جهة النسب) أي فرضاً وتعصيباً ، وسهماً آخر ثالثاً من جهة العلم ، وهو المراد بقوله سهم من جهة العلم.
وقال رضي اللَّه عنه : إذا سمعت شيئاً فانقله بحروفه على أصله ، خصوصاً ما كان عن أهل الدين ، لأنهم طرائق إلى رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم .

وصافحه رضي اللَّه عنه رجل أعمى بعنف ، فقال له : أنت ما تفهم الإشارة ، أَوَ كُلَّ حينٍ يكون الكلام ، ونحن حتى عيالنا مُرَبِّينَهُم على فهم الإشارة وحفظ الكلام ، وستر المعنى المطلوب منه ، وقد كانوا - أي السلف - إذا تكلم المتقدم بالكلمة ، أخذها الطالب بالقبول وفهم الإشارة ، فيحصل له مقصوده ، واليوم يسمعون منا الكلام ولا يفهمونه ، وكلام الإشارة لا نسمح به كل حين ، كان الشيخ عبداللَّه العيدروس يقول : كان في تريم أُسُودٌ تَنْهَم فذهبوا وما بقي اليوم إلا هذا الأسد النهام ، يعني نفسه ، وقد كان في القرن التاسع ، فما بالك اليوم في القرن الثاني عشر، وإذا حضر مجَالِسَنا العامَّةُ والصغار ، لا نرغب في الكلام ، خوفاً من أن يسمعوا كلاماً لم يفهموه فينقلونه على غير المعنى الذي أردناه ، ومن كان ولابد ناقلاً شيئاً فلينقل أيضاً سببه الذي حصل من أجله الكلام ، وقد قال لنا بعض أصحابنا ، إذا تكلمتم في المجلس ، فذاك أحب إلينا من قراءة الكتب ، فقلنا له : نحن أحب إلينا قراءة الكتب من الكلام ، لأن في الكلام زيادة ونقصاً ، ولا نسلم فيه من الخطأ غالباً( ) ، والكتب أصدق ، وإن كان فيها شئ فهو على المصنف ، وهو المسئول عنه، وأما كلامنا فنحن المسئولون عنه، فالقراءة في الكتب أسلم لنا من الكلام .

أقول : قوله رضي اللَّه عنه : كان الشيخ عبداللَّه الخ ، فافهم الإشارة أن سيدنا نفع اللَّه به عنا بذلك نفسه في وقته ، وَوَرَّى بإسناد القول إلى الشيخ عبداللَّه نفع اللَّه بهما .

اعتناؤه بمن تعلق به نفع الله به

وقد قال سيدنا رضي اللَّه عنه : إنا لا نترك ولا ندع المتصل بنا ومرة قال : المتمسك بنا ، سواء كان دويلاً( ) أو جديداً، والتمسك إنما هو من الطالب ، ومرة قال : من مَسَكْناه لا نُسَيّبه( ) ، وإن هو

سيّب( )، أصل أنا نمسكه ، ومن لم نمسكه فإنا لا نحب كثرة التحمل ، ومرة قال : من تعلق بنا ، ووضعنا عليه نظرنا لم نُفْلته ، ولم نَدَعْه ، وإن بَعُدَ عَنَّا ، ولكن ما لم نطرح عليه النظر ، فإنا لا نحب كثرة التحمل ، وعلى هذا جرت عادة سلفنا من السادة ، أن من تعلق بهم لم يتركوه ، ويكون مقتدياً بمن تعلق به منهم فيما يقدر والباقي يحمله عنه ، وقد قال الشيخ عمر المحضار : نرد موسومتنا ولو بالصين . أقول : وفي ذلك أيضاً تورية منه رضي اللَّه عنه ، وإنما عنا بالمقالة هذه نفسه الشريفة ، كما ورى بها في قصتنا التي وقعت لنا في البحر ، لما حكيتُ له بها قال : قال الشيخ عمر المحضار : نرد موسومتنا ولو بالصين ، والقصة المشار إليها : أني في وصولي إليه في شعبان من سنة خمس عشرة ومائة وألف( ) ، أصابنا في البحر في (غبة قمر) طوفان عظيم ، ونحن في سنبوق صغير ، كل الذي فيه سبعة أشخاص ، وصار الماء يدخل من جوانبه وجعلوا يبكون ، فقرأت أبياتاً من قصيدة لسيدنا نفع اللَّه به (نادي المهاجر صفي اللّه) إلى قوله (بجَدِّكم وبكم تنجاب ، سحب البليات والضر) فعند ذلك أخذني النوم فقمت( ) ، فرأيت كأني واثنين معي نمشي في المعلاة ، مقبرة مكة المشرفة ، ونحن نستعجل في المشي ، يقال لنا : إن هناك السيد عبداللّه الحداد جالس ، وإنه في آخر المجلس يريد القيام ، فتعجل المشي لتلحق عليه ، فمررنا بقبر سيدتنا خديجة الكبرى رضي اللَّه عنها ، فزرت زيارة مطولة ، ثم سرت ولحقت سيدي في مجلسه ، فقبلت يده وحصل لي سرور عظيم ، وبكاء كثير ، فانتبهت وإذا أهل السنبوق في ضحك وأنس ، وقد ذهب عنهم الطوفان ، وإذا أحدهم يقول : يا شيخ ادع اللّه أن يرزقنا حُلاً يعني

خصاراً ، قلت : ما هو إلا من البحر ، فصيدوا لكم بمجرار قالوا : ما يمكننا ذلك ، وإذا بسمكة كبيرة عليها لون الخضرة ، قد ظفرت( ) في المركب فوضعوا عليها ثلاث قواصر حتى ركدت ، فبقينا كل

يوم نطبخ منها سبعة قدور ، إلى أن وصلنا سيحوت( ) ، ثم إني أخبرت سيدي بهذه الوقائع كلها فتعجب وقال : سبحان اللَّه ، وذكر كلمة الشيخ عمر المذكور آنفاً ، انتهى ما أردنا ذكره ، مما يتعلق بنقل الكلام .

ثم الآن نبتدي بالنقل على ما سنح ، أول ذلك مما يتعلق بالنية ، لأنها أساس البناء وكل عمل يتبعها :

قال رضي اللَّه عنه : اعمل للَّه على قدر همتك ونيتك ، فإن الأجر على قدر الهمة والنية لا على قدر العمل ، فإن خزائنه تعالى مملوءة عبادة ، فإذا كان المَلَكُ الواحد من الملائكة ، من قَبْل خلق الدنيا إلى يوم القيامة في سجدة ، وآخَر في ركعة ، ونعَّمهم بذكره ، كما هو معلوم من أحوالهم ، فما قدر عملك فإنما هو بالنية ، فإن اللَّه تعالى شكر للضفدع حيث حملت في فيها ماء لتطفئ نار النمرود عن إبراهيم عليه السلام ، فقيل لها : أتقدرين على طفئها ، قالت : هذا حد قدري ، فنهى الشرعُ عن قتلها ، والوزغ حيث جعل ينفخ فيها ، وقال أريد أن أظهر له الشماتة ، ذمَّه اللَّه جداً حتى رغب الشرع في قتله.

وقال رضي اللَّه عنه : رب قليل كَثَّرته النية ، ورب كثير قللته النية .

وقال رضي اللَّه عنه : كل عمل يعمله الإنسان للَّه ، يعلم من نفسه أنه لم يعمله إلا للَّه فلا عليه بأس من خواطر السوءَ.

وقال رضي اللَّه عنه : من ادعى إن له نية صالحة ، فانظر إلى عمله ، فكل عمل يدل على النية فإن صلح عمله دل على صلاح نيته ، وإن كان فاسداً دل على فساد نيته ، وقال : إذا عملتَ خيراً فانو العود إليه ، فإن لم يتفق لك العود فتثاب على نيتك ، وكذلك إن لم تكن قد عملته فانوه .

وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه لم يُعِن الشخص إذا نوى فعل خير حتى يشرع فيه .

وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه لا ينظر إلاّ إلى هَمِّ الإنسان ونيته ، فمن كان همه للَّه ، وإن كانت أفعاله على خلاف ذلك ، فيوشك أن تتبع( ) الهَمَّ ، ومن كان

يظلم ويعصي ، وهمه المعاصي ويتلفظ بالذكر ، فلسانه حجة عليه ، فانظر إلى الرجل من الصالحين ، كأن قائلاً يقول له من قِبَلِ اللّه : أعطني قلبك وهمك ، واترك جوارحك وظاهر عملك ، فلا يمكث أن تتبعه جملته ، فمن تعلقت همته باللّه ، وإن كان غير مرضي العمل في جوارحه ، فإنها تصلح ولا بد ، ومن كان عمله في الظاهر طاعة ، وهمه خلاف ذلك تتبعه الجوارح لا محالة ، ولهذا قال النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم : ((إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم))( ).

وقال رضي اللّه عنه : المخطئ في الطاعة لا يؤاخذ ، لأن اللّه رفع عنه الخطأ ، وهو كفاعلها على وجهها ، بل يثاب على قصده ، والمخطئ في المعصية كالعاصي ويأثم على قصده ، لأن المدار على القصد لا على نفس العمل .

وقال رضي اللّه عنه : ما أُمِرْتَ أن تصلي وثوبك طاهر( ) ، بل أن تصلي وتعتقد أنه طاهر ، وإنك غير متعبد بما هو في نفسه حلال ، بل ما هو في اعتقادك حلال .

وقال رضي اللّه عنه : من لم تَصْفُ له الطاعات ، لم تصح له نية في المباحات .

وقال رضي اللّه عنه : كلامك ثمرتك ، فانظر هل هو خبيث أم طيب ، فأنت كذلك ، وهو جزء منك ، فالوعاء الطيب ينضح طيباً ، وضده بضده ، وكذلك النخلة والشجرة الطيبة تثمر طيباً، والخبيثة تثمر خبيثاً، (كل إناء ينضح بما فيه) ، : {وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّه ، وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلا نَكِداً } ( ).

وقال رضي اللّه عنه : الفهم من جانبين ، فهم يحصل من العلم ، وفهم يحصل من العمل ، والعلوم كثيرة ، لا يحتاج الإنسان إلى العمل بجميعها ، بل ببعضها كالعبادات ، وأيضًا لا يحتاج إلى العمل بكل العبادات ، والذي يخصه العمل به منها قليل جداً ، وما لا يحتاج أن يعمل به كالعادات ، فينوي أنه إن عمله أن يحسن فيه ، ليحصل له ثواب النية.

ولما شرح السيد الجليل الحبيب أحمد بن زين الحبشي القصيدة العينية ، وتأخر إتمامه ، فقال سيدنا : لو لم يظهره قبل تمامه ، لتيسر عليه وأتمه سريعاً، وفي الحديث : ((استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان))( )، فقلت له : هل تخلف إتمام "الفصول العلمية" لهذا السبب ، حيث نويتم أن لا تظهروها حتى تتم أربعين ، أي فصلاً ، فأظهرتوها قبل ذلك ، فلم تتم ، فقال : ليس تأخر إتمامها من هذا السبب ، لأنا وإن نوينا أن لا نظهرها إلا بعد تمام الأربعين ، فإنا إنما أظهرناها بنية ، وأيضاً كل فصل بمنزلة كتاب ، لأنه معنى مستقل غير معنى الفصل الآخر ، وأيضاً إنما هي واردات ، فمتى ورد شئ أثبتناه ، إلا أن هذا الزمان ليس أهله أهلاً للواردات ، فبهذا السبب توقفَتْ فيه ، فلم يرد منها شئ ، ونحن أعلم بأهل جهتنا منك ، فإنهم غافلون عن كلامنا ، وليس نرى عند أحد منهم شيئاً ، ومن كان معه منه شئ ، فربما أخذه ولم يفهمه ، وسكت ولم يسأل عنه .

ولما عزم رضي اللَّه عنه على إتمام "الفصول العلمية" ، وذلك من فصل الاستقامة وتمامه يوم ثامن عشر صفر سنة ثلاثين بعد المائة والألف ، قال : أين نسختك من كتاب "الفصول العلمية" نشوفها( ) ، قلت : البارحة استعاره السيد فلان ، وسميته له ، فقال : ما يعرفه ، خذه منه بلا جفاء ، ولا تخبره إنا نريد نتمه ، وقل له : لا تطالع فيه ، واجعل مطالعتك في الديوان ، فإنهم أودعوا فيه أسراراً وفوائد لا تكون في غيره ، ونحن هذه الأشياء قامت علينا بتعب واجتهاد كثير ، وهؤلاء بغوها ألاّ بلاش( ) من غير اجتهاد ولا تعب ، ما يريدونها حتى بطريق العدل والإنصاف ، ولو طالعوا كتاباً واحداً من كتبنا وأمعنوا فيه النظر لكفاهم .
وقال رضي اللّه عنه : خذ من الطاعة قدراً لا تمِلَّ وتضجر منه بعد ذلك ، فإن القلب مادام وسخاً لا يستلذ الطاعة ، فإياك أن تكثر منها أولاً مادام كذلك ، فإذا تنور واستلذ بها، فخذ منها على قدره( ).

وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان لا يصلحون للاستعانة على فعل خير ، ولا على ترك شر ، هذا إجمال الأمور ، وتفصيلها يعرفه الإنسان من نفسه بالتجربة .
وقال رضي اللَّه عنه : راحت أعمار الناس بلا شئ ، وسيبوا كل شئ ، وادعوا كل شيء ، وفاتهم كل شئ .
وقال : هذا الزمان أهله كثيري العجائب ، قليلي الغرائب ، كثيري المثالب ، قليلي المناقب .
وقال رضي اللَّه عنه : إنا لما رأينا حال الزمان وتغيره ، عقدنا عقداً أن لا نكون تحت أحد ، ولا يكون أحد تحتنا ، إلا أن نأخذه بسياسة العلم والطريقة ، لأن ذلك يسعه أو يخرج المهدي ، فيكتفوا به منا إن أدركَنَا، قال : وقد قال بعضهم لرجل جاء يطلب منه الطريق : لا، بعدُ ، فإني لم أر قلبي مجتمعاً عليك .

وقال رضي اللَّه عنه : الناس يحسبون أنا ندعو إلى الطريق الخاصة( ) وليس كذلك ، لأن من كان عند الضيقة( ) ، لا نطرب عليه( ) اطلع إلى الغيلة( ) ، بل ننزل نفتح له الضيقة ، ثم نطلعه ، وذلك لأنا لم نر من يقوم بالدعوة العامة ، ولو رأينا ذلك وعلمنا أن فيه كفاية لكان ، إن كان عندنا شئ من الطريق الخاصة فهي مطوية ، وإن دعونا أحداً مخصوصاً إلى طريق مخصوص ، ونرى بعض الناس يدعون إلى الطريق العامة( ) ، ونحن وإياهم عليها ، ولكن دَعْوتُهُم إلى مجرد العلم ، ونحن ندعو إلى الخوف من اللَّه والخشية والعمل الخالص ، ونحن مع أهل الزمان كصاحب الحمار الشيبة ينخسه كل ساعة إلى أن يُقَطِّع ظهره من الحك ، ولا يسير .
وفي مجلس آخر قال : لا تظنوا أنا على الطريق الخاصة أبداً ، لقلة أو عدم من يطلبها بصدق ، وإنما نحن على الطريق العامة ، طريقة أصحاب اليمين ، وما يدريك لأن هذه( ) طريق إليها( ) ، لأن الطريق الخاصة قيل إنها رفعت ، فإن كان قد رفعت فذاك ، وإلا فهي مطوية وإن وجدت ، ولكنا لو رأينا فقيهين ورعين لهما ديانة وأمانة ، وقاما بإرشاد الناس ،

ويأمران بالمعروف ، وينهيان عن المنكر ، ربما تكلمنا بشيء من الطريق الخاصة ، مع من هو أهل لذلك للتنفس والتروح .

(1/29)

وقال رضي اللَّه عنه يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة 1128 ثمان وعشرين ومائة وألف : اعمل في هذا الزمان من الخير ما لا يشق عليك ، ويمكنك المداومة عليه ، فقليل دائم خير من كثير منقطع ، واشكر على القليل يعطك اللَّه الكثير ، ولا تنظر مثل أحوال بِشْرٍ والفُضيل( ) وأمثالهما ، فإن هؤلاء حتى الصحابة رضي اللَّه عنهم لم يعملوا بمثل عملهم ، لكن معهم( ) نور النبوة ، وقد سئل بعضهم عن ذلك ، فقال : كان الصحابة أكثر إيماناً ، وكان التابعون أكثر أعمالاً ، وأين زمانك اليوم من زمانهم ، فإنك في القرن الثاني عشر ، ولو بعث اليوم من هؤلاء واحد لتعجب وقال : ما ظننا أن الوقت يمتد قبل قيام الساعة إلى الآن والزمان يتناقص ، من ذلك الوقت إلى الآن ، ولما رأينا الزمان يتناقص ، وأثر النقصان ظاهر على أهله ، بنينا أمرنا في الابتداء على ثلاثة أشياء ، الأول : أن لا نتحكم لأحد حتى نرى فيه أهلية التحكيم ، فلهذا صحبنا كثيراً من مشايخنا من غير أن نتحكم لأحد ، بل صحبة مجردة كما هي عادة السلف ، صحبة بلا تحكيم كعادة الحسن البصري وغيره ، كما يقال صحب فلاناً ولقي فلاناً ، والثاني : أن لا نحكِّم إلا من نراه أهلاً ، فإذا رأيناه متأهلاً لذلك ، وألقى إلينا نفسه منطرحاً حَكَّمناه على مقتضى حاله ، والثالث : أن لا نفيد ولا نستفيد إلا من متأهل للإفادة والاستفادة ، والناس إذا سمعوا بأحوال الصالحين ، يظنون أنهم يطلعون على الغيب( )، فمتى أرادوا كاشفوا الناس بخواطرهم ، ويقال : الأنبياء يعلمون الغيب من أكثر الوجوه ، والأولياء يعلمونه من بعض الوجوه( )، ولا يعلم الغيب كله إلا اللَّه :{ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ}( ) ، { وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}( ).
وقال رضي اللَّه عنه: علوم الغيب تتفرع إلى أمور كثيرة ، وعلم الغيب المطلق هو للَّه خاصة .

وقال رضي اللَّه عنه: كلما بَعُدَ ما أخبر به الأولياء من المغيبات، كان ذلك أعظم للكشف.
أقول : وقد رأينا مما أخبر به سيدنا نفع اللَّه به شيئاً ما تبين إلا بعد أربع سنين ، وشيئاً بعد تسع سنين ، وشيئاً بعد أربعين سنة ، وغير ذلك .
وقال رضي اللّه عنه : أخبرنا رجل عن أبيه ، أنه قال : إذا مات فلان [أي سيدنا] بقي الناس يضرب جباههم بعضها ببعض ، فقلنا : لا ، إن شاء اللّه ، وليس هذا الظن باللّه ، بل الظن باللّه سبحانه أنه إذا راح واحد ، خلفه بدل منه ، قدم على قدم ، إلى خروج المهدي ، ونزول عيسى عليه السلام .
أقول : وفي ذلك رائحة من معنى قوله رضي اللَّه عنه : عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي ، ومرة قال : أو أربعون من أصحابنا ، ومرة قال : أو ستون ، ومرة قال : أَخَذْنا من الكتاب والسنة ما لا يحمله إلا المهدي ، وهكذا كل من بلغ رتبة الكمال ، ومرة قال : عندنا من الشيخ عبداللّه بن أبي بكر( ) أمانة لا يحملها إلا المهدي ، صدر منه هذا الكلام متفرقاً في مجالس متعددة .
وذكر رضي اللّه عنه في سند سلسلة إلباسه الذي طلبه السيد عبداللّه بروم (من أهل الشحر) : ولنا بحمد اللّه منه أي العيدروس يد باطنة في واقعة عظيمة ، بل وقائع متعددة ، ولعل الواقعة هذه هي التي تروى عن السيد العارف علي بن عبداللّه العيدروس : أن سيدنا الحبيب نفع اللّه به زار التربة مرةً وَحْدَهُ ، فلما أتى إلى ضريح سيدي عبداللّه العيدروس بن أبي بكر رضي اللّه عنه ، رآه جالساً خارج القبر وداخل التابوت ، وأنه صافحه وأعطاه وديعة ، وأفهم هذا أنه محمول عنه ، لا عن غيره للمهدي تتفرق عنه في المذكورين ، حتى تجتمع كلها للمهدي ، ولعلها مقام القطبية ، والدعوة إلى اللّه ، وتجديد الدين ، واللّه أعلم.( )

وقال رضي اللَّه عنه( ) : لا تصلح الخلوة والرياضة في هذا الزمان ، لعدم شروطهما فيه ، كأكل الحلال وغير ذلك ، ولكن من بنى أمره فيه على ملازمة الفرائض ، وترك المحرمات ، وما استطاع من نوافل ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإعانة ضعيف ، وإحسان إلى محتاج أو إقامة بمؤنته ، وما شاكل ذلك ، وثبت عليه حصل له ما حصل لأولئك برياضاتهم وخلواتهم ، وأدرك ما فاته منها.
وسألته : ما السبب في استقواء الشهوات في هذا الزمان أكثر من الزمن السابق ، فقال رضي اللَّه عنه : لأن أهل الزمن السابق كانوا أقوى يقيناً وأكثر حلالاً وأقرب عهداً بالنبوة .
وقلت له : أي عمل يعمل في تقوية القلب ، كعمل الشهوات في تقوية النفس؟ ، فقال رضي اللَّه عنه : اليقين الكامل ، فإن النفس لا تترك الشهوات إلا لخوف مزعج ، أو شوق مقلق .
وقال رضي اللَّه عنه في بعض مكاتباته : إنا نسمح عند المذاكرة والمشافهة ، بالشيء من هذا العلم( ) ، وإن كان دقيقاً ويحتاج إلى طول كلام ، ولا نسمح بمثله في الكتب والمكاتبات ، لأن المذاكرة إنما يعقلها ويعيها من هو من أهلها ، ومن ليس منهم فعارض يعرض له ، وشئ يمر به لا يبقى في يده منه شئ ، وهذا من التأييد الذي أيد اللَّه به هذه الطائفة ، ولا هكذا ما يرسم في الدفاتر ، فإنه عرضة للبر والفاجر ، فافقه .

وقد أخبرني الأخ الأكرم عوض بن صَبَّاح ، وكان له فيما سمعت في خدمة سيدنا نحو سبعين سنة ، قال : زرنا في قديم الزمن مع الحبيب التربةَ ، فلما فرغنا من الزيارة ، وبعد زيارة أهله ، جلس على الدكة تحت قبة الشيخ عبداللَّه العيدروس رضي اللَّه عنه التي عند بابها النجدي( )، فتكلم علينا رضي اللَّه عنه بكلام جزل( )، ثم قال : أتظنون أنا مع أهل الزمان في مكان واحد يسمعون كلامنا ، هيهات ، بل بيننا وبينهم بحر عميق ، واسع الطرفين ، نحن في طرفه هذا ، وهم في الطرف الآخر ، ومَثَلُنا معهم

كمثل رجل جاء من بلد بعيدة لا تعرف ، وفيها من كل شيء من الأشياء النفيسة الغالية القيمة ، وجاء معه منها بشيء كثير ، وأراد أهل الزمان أن يشتروا منه شيئاً يسيراً جداً ، فأخرج لهم من دنيّ القماش ، فلم يوصلوا فيه قيمة ، فأمسك على بقية ما معه من المليح ، حيث لم يعطُوا في الدني قيمة ، فاللَّه المستعان .انتهى .
وقال رضي اللّه عنه : نحن مع أهل الزمان في العبادات والعادات ، كالغريب الذي جاء إلى بلد لا يعرفها فرأى أمراً لا يعرفه ، فسأل عنه فأخبر به .
وقال رضي اللَّه عنه : علم الشريعة إذا عمل به يكون للعلم اللدني كالوعاء ، فإن من هو من أهله يعمل به على مقتضى الشرع ، وإن اطلع به على أمور لم يطالب بها شرعاً ، كمن يُدعى إلى طعام وكشف له أنه حرام ، فيجيب تبعاً لأمر الشرع ، ولا يأكل فيجمع بين ذلك وبين جبر خاطره .
وقد قلت مرة لسيدنا نفع اللَّه به في معرض الكلام : إن في الكشف عن شأن الزاد الحرام لفائدة ، ليَسلم من أكله ، فقال : فإذا كشف له عنه أيجلس بلا أكل( ).

وقال رضي اللَّه عنه : إذا أحس العبد في قلبه بداعية للطاعة ، وبغض للمعاصي ، فلا يخلو قلبه من نور ، وبه اهتدى( ) إلى ذلك كالسراج في البيت المظلم ، إذ لولاه لم يهتد إلى رؤية أدنى شئ عنده ، ثم إنه يظهر بعد تمكنه في الباطن على الظاهر، كما حكى : إن حجّاماً دعا جماعةً من الصالحين على طعام حرام ، فلم تمتد إليه أيديهم ، فعالجوا أن يأكلوا منه ، فلم يستطيعوا فخرجوا ، فقال بعضهم لبعض : رأيته دماً عبيطاً ، وقال آخر منهم : رأيته ناراً ، وهذا أكمل من الأول ، إذ رآه على حقيقته وهي النار .
وقال رضي اللّه عنه : إذا سمعت من بعض الأولياء شيئاً من الخوارق ، فإذا عجز عنها العقل يسعها الإيمان ، وابق على تنزيهك لربك ، وانسب ذلك إلى القدرة . ودعوى الولاية يقابل بالإنكار ، فيتعين على الولي السكوت عن دعوى الولاية ، وإنما الذي يتعين

أن يُدَّعى النبوةُ ، لأنه مطالب بالتبليغ لها ، ولا كذلك الولاية فلا يدعيها أحد منهم ، إلا في حالة الغلبة .
وقال رضي اللّه عنه : الولاية من سر النبوة ، إلا أن الولاية لا تبقى مع النبوة ، فينطوي سر الولاية في سر النبوة ، حتى لا يبقى له ظهور إلا في عالم الظهور .
وقال رضي اللّه عنه ما معناه : درجة الولاية تحت درجة النبوة ، وقد يعطي الإنسان من هذا المقام ما يعينه على الإنابة إلى اللّه ، والزهد في الدنيا ، وقد يعطى منه ما يرى بسببه الطريق إلى اللّه ، وإن لم ير السالكين عليها ، وأحدهم يعطى ما يرى به أقدام السائرين ، فيسير على آثارهم ، ومنهم من يعطى ما يرى به آثار أقدامهم في الطريق ، وكل مرتبة أعلى من مرتبة ، فينبغي أن يكون الإنسان على شئ من هذه المراتب ، وإن قدر أن يكون على الأعلى
فالأعلى ، ولا يمكث أعمى لا يدري ذهابه إلى أين ، وكلما قَرُبَ من التشبه بهم، وتسَيّر بِسِيَرِهم فَحَسَنٌ ، ويرجى أن يلحق بهم ، أو كما قال .

وقال رضي اللّه عنه : كل رتبة من رتب النبوة تحتها رتبة من رتب الولاية ، وقد يكون ما مع الإنسان إلا خمس رتب ، فيحكمها ويدعو إليها في الظاهر ، وقد يتحقق بها في الباطن ، فإذا أحكم الرتب كلها
وتحقق بها ، صار هو القطب ، وقد قال بعضهم :
أعطيت مقام القطبية ، ولكني إسْتَنَبْتُ فيها غيري .
ورأيت بخط السيد العارف أحمد بن زين الحبشي رحمه اللّه ، قال : حضرت عند سيدنا الحبيب عبداللّه الحداد نفع اللّه به ، فسأله رجل : ما أجزاء الولاية؟ ، فقال له في الحال - أي من غير تفكر -: أربعون جزءاً ، فقال : مكتسبة أو موهوبة؟ ، فقال : كلها مكتسبة إلا جزءاً واحداً ، فإذا وصل إليه اندمجت كلها فيه ، وصارت كلها حلقة ملقاة في فلاة .انتهى .
وأنشدتُ يوماً بين يدي سيدنا عبداللّه نفع اللّه به،بأمره لي أن أنشد بقصيدته التي أولها( ):
سقى اللّه ربعاً حل فيه الذي أهوى ... ومَنْ حبهم والقرب كالمن والسلوى

ثم بعدما فرغت ، قُدِّم طعام لمن حضر ، فقال سيدنا حينئذٍ : ما يكون الرجل عندهم رجلاً حتى يكون فيه من كل جزءٍ من أجزاء الإنسانية( ) نصيب ، وينقص منه جزء من كل جزء من أجزاء النفس( )، ويختلف الناس في ذلك ، كل على حسب مرتبته ومنزلته عند اللّه تعالى ، فالأولياء في ذلك مختلفون ، حتى ينتهي إلى مرتبة القطب ، فهو أكمل في ذلك من غيره ، ولا أحد استوفى من ذلك أكثر من النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، وكلما كمل العبد صارت الغلبة للأعمال الروحانية ، وانغمرت فيها أمور النفس ، حتى يتوهم فقدها أو كما قال .
وقال رضي اللّه عنه : على قدر خصوصية الإنسان ، تَلطُف كثافاتُ نفسه ، والانتفاع الأعظم في قوة الاعتقاد .
وقال رضي اللّه عنه : لا يعرفُ منازعَ العلوم ، ويعمل بما علم ، إلا ولي أو من هو سائر على سير الأولياء .

وقال رضي اللّه عنه ما معناه : إن الإنسان إذا نزل من درجة الإنسانية بأن غلب عليه الهوى والشهوة جداً ، بحيث تذهب منه المروءة فيصير حيواناً بحسب ما غلب عليه ، لأن كل حيوان تغلب عليه صفة من هذه الصفات ، يُعرف بها ، ومن غلبت عليه واحدة منها من بني آدم نسب بسببها إلى ذلك الحيوان الموصوف بها ، فإذا أراد الوصول إلى اللّه ، يحتاج إلى مجاهدة ، حتى يصل إلى درجة الإنسانية أولاً، وهي ما يختص بها الإنسان دون بقية الحيوانات ، ثم يجاهد أيضاً حتى يصل إليه [أي إلى اللّه تعالى] .
وقال رضي اللّه عنه : من ازداد في دينه بكثرة الطاعات وقلة المباحات ، وربما كان المباح بفعلهم طاعة وزُهداً في الدنيا ، فمن كان كذلك فقد ارتقى من درجة الإيمان العامة إلى الخاصة ، ومثله كمثل طير معلق في قفص . وقد خرج منه ولم يبق إلا رجلاه فيه ، أو على الدرجة العامة ، إذا لم يترك لازماً ، ولم يفعل محظوراً ، ولكن لم يمعن فيما يحمده الشرع كالأول ، ولا فعل محرماً أصالة ، فهو متوسط ، وهو الغالب من الناس ، وإن نزل عن هذه

المرتبة ، بأن جعل المباح حراماً ، وإن لم يقصر في الواجب ، كمن ينظر إلى مَحْرم بشهوة ونحو ذلك ، فهذا طبعه فاسد ، انحط عن الطبيعة العامة ، إذ لم يقيد اللَّه ورسولُه إباحة ذلك على عدمها ، حيث كان لا يقتضيه الطبع ، فمثال هذا يجب عليه أن يرقّي نفسه ، إما برياضة ، أو عزلة ، أو ارتقاب( ) أو نحو ذلك ، حتى يرجع إلى الوسط( ) وإن قدر بعد ذلك على الترقي فلا يَتْرُك .
وقال رضي اللَّه عنه : طرق التصوف وإن تعددت فهي طريقة واحدة ، وهي مجاهدة النفس ، والخروج من كل ما تدعو إليه ، وهذا أمر عسر .

(1/36)

وقال رضي اللَّه عنه : إنا لم نحمل الناس على طريقة المقربين ، ولم نكلف أن نحملهم عليها كثيراً ، إن حملناهم حملناهم على طريقة أصحاب اليمين ، لأن الناس كلما لهم ينكصون قليلاً قليلاً ، ينكصون أولاً عن مقام الإحسان ، ثم عن مقام الإيمان ، ثم هم في هذا الزمان ، أكثرهم يكاد يخرج عن دائرة الإسلام والعياذ باللَّه ، حتى قال بعض الشاطحين ، لما قيل له ادع للمسلمين : أخاف ما عاد أحد من المسلمين ، وهذا كلام في غاية الخطر ، لأن أثرَ ظاهرِ الإسلام ظاهرٌ عليهم ، وقد قال الإمام أبوبكر الباقلاني : إن إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة إسلام واحدة ، أسلم من تكفير مسلم واحد ، بألف شبهة كفر .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا حصلت العناية الإلهية ، حصل السلوك كسقي السيل ، ودون ذلك كسقي الآبار ، وفي الحقيقة كل عمل إنما يحصل بالعناية الإلهية ، قال بعضهم : لا بد في كل عمل من الجذب ، ولولاه ما أمكن ذلك .

(1/37)

وذكر رضي اللَّه عنه الأعمال واحتياج الإنسان إلى فعل الخير ، وذلك يوم السبت خامس عشر شهر

رمضان سنة 1124 ، فقال رضي اللَّه عنه : (الجَدُّ في الجِدِّ والحرمان في الكسل) وأن اللَّه تعالى لا يترك المؤمن في الخير من إحدى همتين : إما همة العادة ، أو همة الفتوح ، فهمة العادة أن يكون يعتاد شيئاً من الخير ، فهو يفعله ويهتم به لاعتياده له ، والثانية يعرفها من حصلت له وذاقها ، وقد جاء في الحديث : ((إن الخير عادة))( ) ، فقلت : إن همة العادة ناقصة بالنسبة إلى الأخرى ، فقال رضي اللَّه عنه : لا ، إذا لم تحصل لك تلك فلا تترك نفسك ، بل كلفها واحملها على فعل الخير بالتكلف لتعتاده ، وقد يحصل للإنسان شيء من همة الفتوح ، فإذا باشر مفسداتها فسدت ، فقلت : وما مفسداتها؟، فقال : مجالسة الغافلين ، وترك الذكر ، وفضول الكلام ، وأكل الحرام ، والكذب ، وأمثال هذه ، ولها أركان ، إن حصلت استقامت وثبتت ، وإلا ذهبت وانمحقت ، فقلت : وما ذاك؟، فقال : أكل الحلال ، ومجالسة الصالحين ، والذكر ، وترك الخوض فيما لا يعني ، أو قال فيما لا ينبغي .
وقال رضي اللَّه عنه : وفي الغالب إن اللَّه سبحانه وتعالى إذا أجرى عبداً على عادة( ) ، أنه يمشيه عليها لأن عادة اللَّه جارية( ) .
وقرأت عند سيدنا يوماً قصيدته التي أولها( ):
إن كان هذا الذي أكابده يبقى عليَّ فلست أصطبر
فلما وصلت قوله :
ما كادت الفانيات توقفني ... إلا زوته( ) العلوم والفِكَرُ
فقال رضي اللَّه عنه : العلوم الحقيقية لا تفهم وتُعرف بالشرح ، بل من وصلها عرفها ، كتعليم الصغير الوقاع، فإنه لا يعرفه حتى يكبر، وأصل وضعها مع ذلك خواطر تخطر لهم.

ورأيت بخط الشيخ عبداللَّه بن سعيد العمودي( ) ما لفظه ، قال : كنت ذات يوم بمسجد الهجيرة عند سيدي عبداللَّه الحداد ، وذلك في صفر من سنة 1095 عشية ذلك اليوم بعد الدرس ، وهو جالس على العادة في ممشى البركة إلى المسجد ، وأنا في

الضاحي ، وفي نفسي يحوك أن يدعوني ، إذ نادى عليَّ وعنده شريف وخادم ، إذ فرقهما كُلاًّ في حاجة ، وأقبل عليَّ بالكلام وقال : كم ألسُنُ الدعوة؟، فقلت : اللّٰه ورسوله وأنتم أعلم ، فقال : ابتداءً - أي من غير تفكر - خمسٌ ، وهي : أن تدعو العامة بلسان الشريعة إلى الشريعة ، وأن تدعو أهل الشريعة بلسان الطريقة إلى الطريقة ، وأن تدعو أهل الطريقة بلسان الحقيقة إلى الحقيقة ، وأن تدعو أهل الحقيقة بلسان الحق إلى الحق( ) ، وأن تدعو أهل الحق( ) بلسان الحق( ) إلى الحق( ) ، قال : وهذه الأخيرة فتح علينا بها الآن .

وقال رضي اللّٰه عنه : إذا دعوت لأحد فادع له بالبركة والصلاح والهداية ، فإذا وُجِدَ الدين فلا معول على الدنيا ، ولن تعدم من اللّٰه الكفاية ، فإن وُجِدَتْ معه فالحال تمام ، ولا تنفع الدنيا إذا عدم الدين .

وقال رضي اللّٰه عنه : يجب علي من أراد الدخول في الطريق الخاصة ، طريق أهل اللّٰه أن يتفرغ عن الدنيا بقلبه وقالبه أولاً ، وإنما يدخر قدر الحاجة بأمر آخر في النهاية آخراً ، وإشغال الأوقات كلها بالذكر والطاعة ، وحفظها كلها والإقبال على أمور الآخرة بالكلية ، كل هذا( ) من الطريق العامة ، وهي المهيع الواسع( ) الذي عليه السلف ، وهو الذي يسع عامة المسلمين ، وأما الخاصة فهي الفراغ عما سوى اللّٰه في الظاهر والباطن ، والتخلي عن الصفات المذمومة بتفصيلها ، والتحلي بالمحمودة بتفصيلها ، والعامة هي طريق أصحاب اليمين ، والخاصة للمقربين ، ولا ينالها قبل إحكام الأولى ولو عاش عمر نوح ، ومن لا يحكم صلاته أو زكاته أو غير ذلك كما ينبغي ، كيف يصل إلى الخاصة ، بل هذا عَادَهُ خَلْف الباب ، لم يصل إلى قرب الدخول ، ولكن من أحكم العامة في هذا الزمان ، بلغ ما بلغه الخاصة المقربون ، لانقطاعها فيه ، وعدم سالكيها ، ومن يرجو المخلوقين ويتعلق بهم ، أو يرجو نفعاً منهم ، كيف يحصل له الترقي في مقامات اليقين ، ومن تعلق بهم فقد ترك اليقين ، وتعلق بالوَهْم ، وفعلُ

اللَّه هو اليقين والحقيقة ، وأفعالهم هو الوهم ، ولا هكذا ينبغي ، بل ينبغي كما هو في قاعدة الفقه ، أن يستصحب اليقين ، ولو طرأ الوهم والشك لا يترك اليقين لأجله ، ولهذا يكون المتعلق بهم( ) خائباً في الغالب مع الذلة وشغل القلب ، قال ذلك عشية يوم الاثنين وعشرون في المحرم سنة 1123 .
وقال رضي اللَّه عنه : الإنسان ضعيف ، ولأجل ضعفه يتعلق بالتوهمات أكثر من تعلقه باليقينيات .

وتكلم رضي اللَّه عنه ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الثاني منها ، فقال : دَرَكُ الأولياء أهل الإدراك صحيح من توجههم إلى اللَّه في تحصيل ما ينفع ، ودفع ما يضر ، وهم العمدة في تحصيل ذلك ، لكن يكون هذا إذا كان المطلوبُ لهم أو قال الرعية ، مستقيمين لما طلب منهم ، مجتنبين لما نهوا عنه ، وأما إذا خالفوا فلا يحصّل الأولياء لهم ذلك ، كمن يطلب لبناً من ثور ، فلا تكون الكرامة إلاّ مع الاستقامة ، كيف يطلبون حقاً لأنفسهم ، ويضيعون حق ربهم ، وقد ذُكِر أن بعض الدول( ) أراد دخول البلد في وقت الشيخ عمر المحضار، فلم يقدر إذ كانوا مستقيمين ، وآخر في وقت الشيخ عبداللَّه العيدروس ثلاث مرات يطلب الدخول ، فلم يُمَكَّن ، ثم في الثالثة تلقاه الشيخ عبداللَّه ، وقال له : إنك لا تدخلها الآن ، وعادك تدخلها ، فلما تغيروا بعد ذلك دخل عليهم فأشغلهم .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل البرزخ من الأولياء في حضرة اللَّه ، فمن توجه إليهم( ) توجهوا إليه( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : أحياء الأجسام( ) ما عاد ينفعون ، بل أحياء الأرواح ، لكونهم قريبين من الحضرة الإلهية .
وقال رضي اللَّه عنه : الصالح الحي فيه خصوصية وبشرية ، وربما غلبت إحداهما الأخرى ، وخصوصاً في هذا الزمان تغلب البشرية ، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط .

وقال له رجل : أريد زيارتكم ، فقال : إن شاء اللَّه إن لحقتمونا ، وإلا فقبورنا تنوب مَنَابَنَا، فإن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعيانهم وصُوَرهم ، وأما حقائقهم فموجودة ، فقيل له : اللَّه يمتع ببقائكم ، فقال : وإلى متى يكون ذلك؟، قد دنت الأمور ، وإذا رأى الإنسان الضعف ، وأمارات الكبر ، ظن أنه قرب أمره ، ومرادنا عسى أن العيال يكبرون ، عسى اللَّه أن يكون منهم نائب عنا، قال تعالى : { وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي }( )، ولو ناب عنا حتى أربعون رجلاً ، وقد أخذنا عن كثيرين من المشايخ ، لو عددناهم بلغوا مائة وأربعين .

وقال رضي اللَّه عنه : يقال : في زيارة القبور ، نُجْحٌ لِمَا تَعَسَّر من الأمور .

وقال رضي اللَّه عنه : قاعدة : من كان في المرتبة ، يعينه أهل زمانه كلهم ، ويعينه الأولياء، الظاهر منهم والخامل ، ولو بالدعاء ، وأهل الدوائر ما يتسببون في أمر المعاش ، إنما سببهم الإيمان والتقوى ، وقد قيل للشيخ أبي مدين : إن أصحابك يتسببون لمعاشهم ، وأنت ما تتسبب ، فقال : إني تسببت بسبب خير من سببهم ، قال اللَّه تعالى : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ }( ).

وقال رضي اللَّه عنه : إن الإنسان ضعيف ، إلا إن أَمَدَّه اللَّه بقوة وَسَلْطة . وكل الأمور ينبغي أن يأخذ بأوساطها ، لأن عن يمينك طريقاً وعن يسارك طريقاً( ) ، فإذا كنت على الوسط ، إن ملت ملت إلى أحدهما ، وإن خرجت منه( ) خرجت إلى المزلة ، إلا إن شككت في الأمر المطلوب ، فخذ بما فيه من اليقين ، كمن يشك أنه كريم أو بخيل ، فليأخذ بالكرم يفعله أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : جعل اللَّه في الإنسان قابلية لكل شئ ، لكونه يريد أن يجعله محلاً لخطابه ، فلو لم يكن قابلاً لكل شئ لم يكن أهلاً لخطابه تعالى ، وقد قال سبحانه : { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ }( )

الآية ، وقال تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}( ) الآية .
ولما جلس في الضيقة خارجاً لصلاة العصر ، يوم الأحد سادس شوال سنة 1126 ، فأول ما تكلم به رضي اللّه عنه حين جلس ، استأذنه بعض الفقراء أن يعاود( ) بعض السادة ، فقال : كيف تروح وأنت صائم؟( )، تريد أن تحكي لهم أنك صائم ، قال : ما أحاذره( )، قال لو لم يكن إلا علمهم بكونك صائماً ، خل عملك إذا تعبت فيه يكون مستوراً ، لعل اللّه يقبله ، وإلا راح التعب بلاش ، ثم التفت إليَّ وقال : فلو كان لك عبد قائم لك بالخدمة لكرهت أن يُعلم الناس بأنه يخدمك ، وللشيطان على الإنسان مداخل خفية ، والرياء يجري فيه مجرى الدم ، أما ترى يحيى بن معاذ الواعظ المشهور ، وكان من كبار تلامذة أبي يزيد البسطامي ، وكان يرقى للوعظ على المنبر ، قال لجاريته : إذا جئتُ بغداد إنفتح لي الكلام في الوعظ ، وكان يحضره( ) الخلفاء والأمراء وأبناء الدنيا ، وإذا كنتُ في غير بغداد لم يكن مثل ذلك ، فقالت له : يا سيدي هذا بسبب الرياء ، واللّه سبحانه لا يأخذ العبد حتى تقوم عليه الحجة من عمله ، بحيث لو بلغ هو رتبة القضاء ، وقيل له : إقض أنت فيمن عمل هذا العمل ، لقضى بما جوزي عليه ، وإن لم يكن هو عمله ، فقال فقير آخر : إني رأيت هذا في نفسي ، وتيقنت إنه الرياء لأنه كان في شهر رمضان ، إذا طلعت البلاد أحس نشاطاً ، ولا يجيني نوم ، مع أني ما أحب أن يعرفني أحد ، ولو أحرمت بركعتين في الحاوي طرأ عليَّ النوم ، حتى إني لا أتمهما إلاّ بشدة ، فقال رضي اللّه عنه : هو الرياء بعينه ، واللّه تعالى خلق جنة وجعل لها درجات ، وخلق ناراً وجعل

لها دركات ، وقد حكم بأن يُمْلِيَ كل واحدة منهما ، ولهذا اختلفت أحوال الناس في الرياء ونحوه ، وفي الإخلاص كذلك ، فليس إخلاص العامة ، كإخلاص الخاصة ، ولا إخلاص الخاصة ، كإخلاص خاص الخواص ، فكل طبقة من الناس لهم رياء ، ولهم إخلاص ، ويكون إخلاص قوم رياء قوم آخرين ،

فحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وكان بعضهم قد صلي في الصف الأول نحو أربعين سنة ، فتخلف يوماً حتى ضاق الصف الأول حتى لم يمكنه الصلاة إلا في الصف الأخير ، فرأى في نفسه حياء ، حيث خالف عادته فقضى صلاته في تلك المدة كلها.
وسمعت المعلم باغريب( )، يستأذنه في بناء مسجد في نَخْلِهِ قرب مسيلة عِدِم ، بعد ما خَرَّب السيل مسجداً كان به ، فقال رضي اللّه عنه له : إن كان نيتك في بنائه خالصة للّه ، ما نردك عن بنائه ، وإن كان نيتك ما هي خالصة فلا تبنه ، قال : بلى إن نيتي خالصة ، قال : انظر لو بنيته وتعبت في بنائه ، وصرفت فيه مالاً كثيراً، فلما تم لم ينسب إليك ، إنما نسب لغيرك ، فقيل مسجد فلان ، واشتهر بذلك وأنت ما نسب إليك ، ولم تذكر به في شيء ، هل ترى نفسك تطيع لذلك؟، ففكر قليلاً ، ثم قال: ما أرى نفسي مطيعة لذلك ، فقال سيدنا له : اتركه فإن نيتك غير خالصة .

وقال رضي اللَّه عنه لبعض الفقراء وقد استأذنه في صيام الاثنين والخميس ، فقال : خذ نفسك بما سهل عليك ، فقال : لو لم آخذ نفسي إلا بما سهل علي ، ما فعلت شيئاً ، فقال : خذ نفسك بما سهل عليك وأحكِمْه ، ثم ترق إلى ما هو أعلى منه ، وهكذا الأول فالأول ، وترق من درجة إلى ما هو أعلى منها ، ولو فعلت بعضاً من هذا وبعضاً من هذا لبقي محجوزاً ناقصاً ، ولكنك تِمَّ الأول ، ثم ارجع إلى الثاني ، وهكذا وخذ من العمل ما تطيق ويمكنك المداومة عليه ، ولا تكثر حتى تمل ، فتفعله مع الملل والتكلف ، فإن هذا وصف المنافقين ، قال اللَّه تعالى : { وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى }( ) فذمهم بالفعل مع الكسل ، لا بعدم الفعل ، ولا تقصر بحيث لا تعمل شيئاً، فإن اللَّه ما كلف العبد بشيء إلا وجعل له من المعونة أضعافه ، ونحن وإن لم نحكم كل المقامات بالعمل( )، فنحكمها بالعلم ونعمل بعمل العامة( ) ، ونأخذ الناس بأعمال العامة( )، على ما سَهُلَ عليهم وتيسر أولاً، ثم نرقيهم ونأمرهم بما يناسبهم أولاً،

ثم إلى أعلى منه ، وبهذا السبب تَبِعَنا ناس كثير، أكثر ممن اتبع المشايخ ممن مضى ، لأنا نعلم ضعف الناس وعجزهم ، ولو كلفنا الناس أن يعملوا بما نعلم ، أو قال : بما نريده منهم ، لنفروا عنا بمرة( ) ، انظر إلى عمر بن عبدالعزيز لم يساعده زمانه على الكلام الذي قاله له ابنه عبدالملك ، وهو في القرن الأول ، أفيساعدنا على ذلك زماننا هذا ونحن في القرن الثاني عشر ، ولو قلنا لأهل تريم : افعلوا كذا ، ونأمرهم بما أردنا، لما جاءنا منهم واحد ، وهذا هو الذي منعنا من الكلام في هذه العلوم( ) ، لأن الكلام فيها يؤيسهم ، وهل تحاول الغزل المبلول إذا اشتبك بما تحاول به الحبال القوية من القوة ، لا بل باللطف والسهولة ، فخذ من العمل ما خف وسهل عليك ، ثم ترق من شيء إلى شيء، فسيروا إلى اللَّه عرجاً ومكاسير .

وسُئل رضي اللَّه عنه عن معنى الترقي الذي يذكرونه؟، وبأي شيء هو؟، وما الذي يُبدأ به؟، فقال نفع اللَّه به : هو الترقي في أحكام الإسلام وحقائق الإيمان واليقين ، ويحكمها شيئاً فشيئاً ، فيبدأ بإحكام الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان .
وقال رضي اللَّه عنه لرجل يمازحه : لئن تُرِد عشاك من سماء الدنيا ، فإن حُجتك إلا على قدْرها ، فإن سماء الدنيا حد حقائق الإيمان ، وتحتها خزائن النيران ، ولا تظنن أن أحداً له مع الحق كلام ، إنما هم عبيده يعطيهم حقه ، ويثني عليهم .
وقال رضي اللَّه عنه : قد بطنت علومنا الظاهرة لعدم المتلقي لها، ما هو إنه ظهرت علومنا الباطنة ، وهنا أقوام يتكلمون في علوم ، لا نعدهم في العلماء أصلاً ، ولا نعدها في العلم .
وذكر رضي اللَّه عنه أقواماً أنكروا على بعض الصالحين ، فقال : أقوام تجردوا من الدنيا وزهدوا فيها ، وأقبلوا على اللَّه ، وأخلصوا له الدين وانقطعوا عن الدنيا بقلوبهم ، حتى ظهرت عليهم أمور غريبة ، كيف يسوغ تكفيرهم ، وقد قال الإمام أبوبكر الباقلاني : إن إدخال ألف كافر في الإسلام

بشبهة إسلامٍ واحدة ، أسلم من تكفير مسلم واحد، بألف شبهة كُفرٍ( )، وقد ذكر ابن عربي( ) أنه لما استلم الحجر الأسود في الحج ، خرجت من فيه لا إله إلا اللَّه كالسلك، فالتقمها الحجر إشارة إلى أنه هو العهد الذي أخذ عليه لما أداه.
ورأيت بخط الحبيب علوي رحمه اللَّه تعالى ابن سيدنا الحبيب عبداللَّه نفع اللَّه به ، قال : تكلم الوالد في المشورة وفي نفعها ومحمود عاقبتها حتى قال : ينبغي للإنسان أن يشاور كبيره حتى في قبره بعد موته .انتهى .

(1/46)

وتكلم سيدنا في مشورة أهل الزمان ، فقال : إن مشورتهم اليوم ، إنما هي استفتاء فَأَفْتِه بما تراه من حيث العلم ، فمن استشارك في حجة الإسلام مثلاً ، فانظر له من حيث الاستطاعة وعدمها، وإن أمكنك السكوت ولا تشير على أحد بشيء فهو أحسن ، لأن النيات اليوم معلولة ، لعل مراده يتخلص من حجة الإسلام ، ليصلح لأن يحج بالأجرة ، وإن كان ولا بُدَّ فلا تشر إلا على من تَعْلم حاله ، بأن يكون من أهل بلدك ولا يخفاك حاله ، ولا تبحث عنه فتصير متجسساً ، أوَ يريد الإنسان أن يحمل ذنوب غيره؟، يكفيه أن يحمل ذنوب نفسه ، وما مرادهم إذا استشاروا الصالحين إلا أنهم يعرّفونهم الطريق الأَنْسَب في أمور دنياهم فيشيرون بها عليهم لتنمو وتزيد ، لا أن يعرِّفوهم الصواب وليتباركوا بمشورتهم ورأيهم ، وأنا من عادتي لا أشير على أحد بمسير إلى بلاده ، ولا بأمر من الأمور ، إلا إن طلب المسير ، قلت : ذلك صواب ، وأوصيه بتقوى اللَّه تعالى.
والإشارات الباطنة غير هذه ، لأن تلك أسرار لا يجوز إذاعتها وإطلاع الناس عليها ، فمن أراد سفراً مثلاً فاستشارك ، وعلمت أنه بعد شهر يموت أو يقع في شيء ، أو يقع عليه شيء من الأمور، أفتخبره بذلك وتأمره بالجلوس من أجله؟، لا ، ولم يفعله النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، ولا الصحابة ، وهم المكاشفون بالحقيقة ، وأَحْرى بالكشف من غيرهم ، وهي أمر خاص( ) ، لا يشار بها إلا على الخصوص ،

وأما الإشارات الظاهرة فهي مجرد فتاوي ، وهي مذكورة في فتاوى العلماء ، وقد استشار رجل بعض الصالحين في سفر ، فقال له : إن سافرت هذا الوقت قُتِلْتَ وأُخِذَ مالك ، فاستشار الشيخ عبدالقادر [أي الجيلاني] أيضاً، فقال له : تروح وتجيء سالماً، فقيل للشيخ عبدالقادر في كلام الأول ، فقال : إن كشفه صحيح ، وإني سألت اللّه تعالى أن يحوله في النوم .انتهى بلفظه ومعناه ، وهو من جملة ما تكلم به في داره التي في البلاد ضحى يوم الجمعة غرة شعبان سنة 1124 ، قال : وإذا

(1/47)

استشارنا إنسان في شيء ، ورأيناه مائلاً إليه ، أشرنا عليه به وزَيَّناه له ما لم يكن مخالفاً للشرع ، فإن لم يظهر منه ميل أشرنا بما نراه .
ورأيت بعض الفقراء استشاره في الحج مع والدته ، وذلك في أول شهر رمضان من السنة المذكورة( ) ، وقد علم منه عدم الاستطاعة ، فقال له : صلِّ معها صلاة الصبح آخر جمعة من رمضان في جماعة بحيث لا يراها الرجال ، واجلس معها( ) اذكر اللّه حتى تطلع الشمس ، ثم ليصلي كل منكما ركعتين ، فذلك حجة وعمرة يكفيكما .
وذكر رجلاً من السادة سافر إلى الهند بعد ما أشار عليه بالجلوس فقال نفع اللّه به : محل المشورة الأشياء الاختيارية ، وما عداها فهو فيه مضطر مقهور ، بأن تعلق قلبه بأمر وجزم على فعله ، فلا ينبغي أن تشير عليه بتركه( ) ، فإنك إن أشرت عليه خالفك ، وإن أجاب فبكُرْهٍ وتكلفٍ .
وقال رضي اللّه عنه : إن أهل حضرموت عليهم دعوة ولي بلا شك ، في مسير الهند ، وإلا فأحدهم ما يصدِّق على اللّه يشوف تريم ، أي ثم لم ينشب أن رجع إليها ، ثم قال : الخلق مكلوفين على ما خلقوا له ، فإن الحق أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور ، ثم قال لي : فاحفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً .
وشكا إليه رجل من القاطنين في الحاوي ، من حاله

وسوء طبعه ، فقال : ما عليك ، الطين اليابس إذا سُقِيَ بالماء هو إلا يلين ، وإنما الذي لا يلين بالماء الحجر .

وأتاه جماعة من السادة زائرين ، فلما أرادوا مصافحته قام آخر غير شريف ليصافحه قبلهم ، فقلت له : تأخر عنهم ليصافحوا أولاً ، فأبى إلا أن يصافحه قبلهم ، وسمع قولي له ومعالجتي معه ، فلما أن صافحه قبض يده بيده اليسرى حتى صافحوا ، ثم قال له : لِمَ تتقدم عليهم ، وقد قدمهم اللّه عليك وكان ذلك وهو خارج لصلاة الظهر ، فلما دخل الضيقة بعد الصلاة ، قال لي : إنما نحن قائمين للناس في مقام الرفق ، فتعلم منا الرفق واللين ، فقد شكا الناس من قوة طبعك ، ونحن نعرف طباعكم ، يا أهل تلك الجهة( ) أنها قوية ، فلا تتغلظ على أحد ، قال اللّه تعالى لنبيه صلّى الله عليه و آله وسلّم : { وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ}( ) الآية ، وإذا رأيت أحداً يسيء الأدب ، فإن كان معذوراً في ذلك ، بأن كان غريباً لم يعرف الحال ، أو بدويًّا فنحن نؤدبه ، وإن كان غير معذور بأن كان متجريًّا فتكفيه القدرة .
وقال رضي اللّه عنه لأحد رجلين من الزوار: اجلس إلى الآخر ، فقال رجل آخر ممن كان حاضراً مرحباً ، فقال له لا تقل ذلك ، أكان الكلام إليك؟ ، ثم قال نفع اللّه به : إن أهل الزمان طائشة نفوسهم ، فإذا طلبت من أحدهم أن يجيء ببدنه أدبر بقلبه ، ولو جاء بالبدن عشرين مرة مع إدبار القلب ما نفعه ذلك ، ولو جاء بالقلب مرة واحدة انتفع وإن أدبر ببدنه ، ونحن ما نطلب من الناس أن يَجُوا بمجرد أبدانهم ، إنما يَطْلُب ذلك الملوك ، فيجون طوعاً وكرهاً، وإنما نطلب نحن القلوب لا الأبدان ، وأنشَدَنا هذين البيتين للإمام الشافعي رحمه اللّه تعالى( ) :
فقل لأناس يتمنون أن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
وقل للذي أُبقيَ من بعد من مضى تهيَّأ لأخرى مثلها فكأن قَدِ

أقول : أنشأهما الإمام الشافعي رحمه اللَّه ، لما سمع أشهب من أصحاب الإمام مالك ، يدعو عليه وهو ساجد ويقول : اللّهم أمِت الشافعي ، وإلا ذهب علم مالك( ) ، فذكروا أن الإمام الشافعي بعد ذلك بأيام ، نحو سبعة عشر يوماً توفي ، واشترى أشهب من تركته عبداً أو جارية ، ثم بعد نحو سبعة عشر يوماً مثل تلك المدة ، مات أشهب ، واشتُري ذلك العبد أو الجارية من تركته ، فذلك قوله تهيَّأ لأخرى مثلها .
وقال رضي اللّه عنه : الطريقة التي تذكر ، إنما هي طريقة باطنة ، وهي العقائد والأخلاق ، وإنما مُثّل لها بالطريق الظاهرة ، لتُعقل وتُفهم .
وقال رضي اللّه عنه : الحقائق إذا تبعتها طرائق سَلّمْنا لصاحبها وإن كان حقائق بلا طرائق فإنما هي أخت الزندقة ، والشريعة علم ، والطريقة عمل ، والحقيقة ثمرة وكل من الثلاثة قسمان ، ولا عليك من فروعها ، فإن عملت ظاهراً فثمرتك ظاهرة ، وإن عملت باطناً فثمرتك باطنة ، ومن أظلم قلبه عمل بالمعاصي وهي ثمرته ، وكان الشيخ عبداللّه العيدروس يمثل للشريعة باللبن ، وللطريقة بالزُّبْد، وللحقيقة بالدُّهن ، والزبد هو الدُّهن بعينه ، ولا فرق بينهما إلا أن يطبخ الزُّبد ويكبس وصار دُهناً ، وقال الشيخ عبداللّه العيدروس رضي اللّه عنه : حكِّمت( ) ربع أهل الدنيا ، قال سيدنا : يعني أُذِن له في تحكيم ربع أهل الدنيا ، ولعل هذا لأجل القدر الذي أمهر عليٌّ فاطمةَ رضي اللّه عنهما ، فقد جاء في بعض الأخبار أنه أمهرها ربع أهل الدنيا ، قال سيدنا نفع اللّه به : والذين انتفعوا بنا أكثر من الذين انتفعوا بالشيخ عبداللّه .

وقلت لسيدنا نفع اللَّه به : ما يطلب الإنسان إلا أن يستيقظ من غفلته ، ويتوب إلى ربه ، فما السبب الذي يتوصل به لتحصيل ذلك ، قال رضي اللّه عنه : إعمل بما تقدر عليه ويمكنك ، واتق اللّه ولا تتعرض

لما يبطله عليك ، فإذا عملت واتقيت ، يكون عندك شيء لم تعلمه ، والاستتار في هذا الزمان أسلم ، كما في قصة إبراهيم الأعزب( ) ، أنه أخذ أحوال أصحابه وقال : هذا أسلم لكم في الدنيا ، ولعل ذلك بسبب تذبذبهم ، قلت : فما ينفع عمل لا ذوق فيه ولا حضور ، أعني إذا سُلبوا الأحوال ، قال : ذلك ليس إليك ، ويكفيك ما ضربه رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم مثلاً لليهود والنصارى مع المسلمين .
وقال رضي اللَّه عنه : ما يصح لأحد عندنا قَدَم في زهد ، أو عبادة ، أو فقر ، أو غير ذلك أصلاً ، حتى يرمي بالدُّنيا خلف ظهره بالكلية ، صادقاً في ذلك ، وأهل هذا الزمان لا يلازم أحدهم أحداً من أهل الصدق والدين إلا لطلب أن تحصل له الدنيا الذي( ) قد حَذَفَ( ) بها، وألقاها خلفه ، وقَلَّ أن يصدق أحد منهم في ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : ما يكون شيخ الإنسان إلا من اجتمع قلبه( ) عليه( ) ، حتى لا يرى أن أحداً أفضل منه ، فذاك هو الذي ينتفع به ، قال رضي اللَّه عنه : ومن كان منتفعاً في العلم الظاهر والعمل ، إذا أذن اللَّه له في الفتوح ، ما يكون إلا على يد رجل كامل ، كما في قصة السيد يوسف( ) الفاسي ، وكان كاملاً في العلم الظاهر والعمل فجاء إلى الشيخ أبي بكر بن سالم فأخذ عنه، وفُتح له على يديه، ولم يجتمع به في هذه المدة إلا نحو مرتين .

وقال رضي اللَّه عنه : لا يزال في كل زمان من آل أبي علوي أولياء، إلا ما بين ظاهر أو خامل ، ولا يكون الظهور إلا لواحد منهم ، والبقية خاملين ، إذ لا حاجة إلى ظهور اثنين أو ثلاثة من بيت واحد وبلد واحد ، والستر على حالين ، ستر الولي عن نفسه بحيث لا يعرف بأنه ولي ، وستر الإنسان عن غيره ، بأن يعرف هو بأنه ولي ، ويخفي ذلك عن غيره ، ولا يطلع الغير منه على ذلك ، وذكر سيدنا في بعض مكاتباته أن سر الولي بينه وبين اللَّه تعالى قد لا يطلع عليه الولي نفسه .
انظر ما قال في سبب خمول الصالحين بتريم

وتكلم رضي اللَّه عنه ليلة الأحد ثامن عشر ربيع الأول سنة 1124 في السادة آل أبي علوي ، فقال : إن غالب حالهم الخمول ، ولا يظهر منهم إلا واحد يُسلّمون كلهم الأمر إليه ، ويُمدونه بالدعاء ، وهم في حالة الخمول ، فيبقى ذلك الواحد ظاهراً لإتيان الناس إليه ، وقصدهم إياه بالخصوص ، لكونه ظاهراً يُعرف من بينهم ، فقلت : وما السبب في كون الصالحين يخملون في تريم ، ويظهرون في غيرها؟، فقال : لكثرتهم فيها، فلو كان في بلدة أربعون مخزناً( ) يباع فيها المسك هل لا تراه فيها رخيصاً؟، أفيكون مثل بلدة لم يكن فيها إلا مخزن مسك واحد؟. وقد كان في وقت الشيخ عمر المحضار في مقامه أربعون من آل باعلوي ، منهم عشرون خلفه وعشرون أمامه ، وقد كان في وقته سريع الانتقام ، كثير الأخذ من المجترئين المتعدين ، لكنه قال : ما دعوت على أحد قط ، وإنما إذا أغضبني أحد بقي في نفسي إشتحان عليه ، لم يزل ذلك حتى يموت ، ولم يظهر من أولئك الذين في مقامه شيء من هذا ، وسألته عن معنى عشرون خلفه ، وعشرون أمامه ، فقال : وهل أحد يدري( ) بهذا ، إنما هي أسرار ، وإن كان شيء يكون عشرون معروفين ظاهرين ، وعشرون خاملين ، لا يُعرفون بأنهم في تلك المرتبة ، وهم يدعون للآخرين ويمدونهم .
ما قال في خمول السادة

وقال رضي اللَّه عنه : الشهرة ليست من عادة سادتنا آل باعلوي ، ومن أحبها منهم فإنما هو من كان أظن قال صغيراً ، ثم يعودون يكرهونها تربية لهم من اللّه عز وجل ، ومن كمل لا يطلبها ولا يريدها ، ومن لا يخاف اللَّه ، إذا رأى أحداً على تلك الحالة ينكر عليه ، ولا يعلم بما في عاقبة الأمر، ثم قال لرجل كان حاضراً من السادة يباسطه : كيف تقول يا فلان ، إن كنت تحب ذلك ، لو جاءك أربعون رجلاً مرتين أو ثلاثاً ، ضجرت منهم ، وشردت عنهم ، كما لو جاءك أحد بكعدة( ) قهوة معسَّلة ، وقال : قف اشرب فإنك تستحلي ذلك وتفرح ، ثم جاءك آخر بخَمْسٍ ضجرت ،

وخفت من مقطعتهم( ).
وقال رضي اللّه عنه : لا يفتقر من هو من أهل البيت ، إلا إن افتقر من الدين ، لأنهم مَدْعُوٌّ لهم منه عليه السلام( )، بعدم الحاجة ، زيادة وتأكيداً على ما ضمنه اللّه من الرزق العام لهم ولغيرهم ، وإذا بطلت صلاة الإمام بطلت صلاة المأموم لأنهم العُمْدَة .
وقال له رجل : إن أهل البيت ما تضرهم الدنيا ، لقوله صلّى الله عليه و آله وسلّم : ((اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتا)) ، يعني قدر القوت فقط ، فقال رضي اللّه عنه : يحتمل أنه أراد عليه الصلاة والسلام ، من في وقته منهم خاصة ، وأما اليوم فتراك تنظر إلى أناس من الأشراف توسعوا في الدنيا ، وتمتعوا بها غاية ما يكون ، ومنعوا الزكاة ، وأضاعوا حق اللّه اللازم .
وذكر رضي اللّه عنه أناساً يدَّعون أنهم في الفضل مثل السادة ، فقال : لا تسابق من لا يُسْبَق ، وإلا وقعت في ثلاث خصال : لأنك لا تدركهم ، فيحصل عليك التعب الشديد ، والفضيحة بين الناس ، والسقوط من منزلتك التي كنت عليها .

وقال رضي اللّه عنه : ماعاد في هذا الزمان ، ولا أحسن من طريقة آل باعلوي ، وقد أقرَّ لهم بذلك أهل اليمن مع بدعتهم ، وأهل الحرمين مع شرفهم ، وما بقي المفاضلة إلا بينهم( ) بعضهم بعضاً ، وهي طريقة نبوية ، ولا يستمد بعضهم إلا من بعض ، فإن حصل لهم مدد من غيرهم فهو بواسطة أحد منهم .
قال رضي اللّه عنه : وهذا الأمر إنما عمدته الانقياد الكلي ، فبه( ) يحصل للإنسان( ) ، وهو( ) أن ينطرح للشيخ في كل شئ ، ولا يعترض عليه في شئ ، ويمتثل ما يأمره به ، وإن لم يعرف وجه ذلك ، وبهذا السبب قيل : إن طريقة الإمامة طريقة مظلمة ، لا يُعرف معنى الشيء فيها ، ومن حضر المشايخ المسلِّكين ، ولا انقياد له سمع من علمهم كما يسمع الناس ، وكل يأخذ ما قسم اللّه له ، وقد ذكر الإمام الغزالي ، إنه لابد للمريد من شيخ صادق ينطرح تحته في كل شئ ، وإن لم يكن فأخٍ صالح يحكي له

بذنوبه ، أو قال بعيوبه ، ولا يداهنه ، وهذا لأهل الرياضات الشديدة ، وأما من لم يكن كذلك ، فلا أحسن له من التسليم ، ولا أسلم ولا أحسن من طريقة سادتنا آل باعلوي ، كل يتربى بأبيه ، أو من ينوب عنه ، وهو تربى كذلك ، وعلى هذا حتى يبلغوا والأمر قريب كالذي يستخرج الماء من قرب ، وفي أمر القوت على ما رُبِيَ عليه ، وفي الثياب قده ما يحصل له إلاّ وهو محتاج إليه ، والفقر( ) في الوسط .

وقال رضي اللَّه عنه : إذا طلب الإمارة من لا يصلح لها ، يدعو عليه أهل الدوائر من الأولياء ، وقال البرزنجي( ) : ما في آل أبي علوي ، إلا أنهم يتركون بلدهم لغيرهم ، فإن السادة آل باعلوي ، ما أسسوا أمرهم إلا بالفقر المجرد ، بقصد منهم ، ولاهمة لهم في شئ من الرياسات وحظوظ الدنيا، بل تركوها لغيرهم ، حتى لو أن أحداً منهم طلب الإمارة ، أخرجه منها الباقون ، إن كان في الأحياء كفاية ، وإلا نزعه منها الأموات ، وإن الحسين بن أبي بكر بن سالم لما قيل لأولاده : أتتركون الولاية لغيركم ، أشار بإصبعه من قبره إلى حمار ، كان مربوطاً بإزاء قبته ، وقال : لو أردنا أن نوليها هذا الحمار لفعلنا .
وقال رضي اللّه عنه : من رأيت من السادة آل باعلوي ، على غير طريقة أهله فإنما منعه الضعف ، والضعف قد يكون في الحال والمال والقلب ، ومَبْنَى أمر السادة آل باعلوي على الكرم والتقوى ، ومثال الدول إذا اثنان كلاهما يريد الولاية ، كثورين يتناطحان عند بقرة ، يأخذها من غلب منهما فلا تكن أنت خلفهما ، ولا أمامهما ، ولا بينهما ، والسادة بني علوي من قديم الزمن خارجين من بينهما ، ولا يدنون منهما، ومن دنا خالف ما عليه سلفه .
وقال رضي اللّه عنه : مَنْ أَكْثَرَ الظلم وامتحن أهل البيت أزاله اللّه كما هو مشاهد.
وذكر رضي اللّه عنه الضعفاء من الناس ، فقال : إن اللّه يغضب إذا ظُلِموا أكثر من الأقوياء ، وإن لم تشملهم دائرة الإسلام، وإنهم كالسمك في البحر

مايعيش إلا إن غمره الماء.
وتكلم رضي اللَّه عنه كثيراً في أحوال الناس والزمان
وقلة الحق وكثرة الباطل ، فقال : اشتبهت على
الناس الأمور ، واختلط عملهم الحق بالباطل ، لكن
اللّه يظهر الحق لأهل الحق ، ويظهر الباطل لأهل
الباطل .

(1/55)

وشكى إليه نفع اللَّه به رجل مالقيه من أمر الدولة ،
فقال : لو وقع للسلطان كأس( ) أو كأسان من
جانبنا أصبح لابِداً في غوضة مسجد ، ودخلوا عليكم
ينهبونكم من بيوتكم ، أحب إليكم ، اصبروا حتى يأتي
اللّه بفرج من عنده ، ولايستقيم الملك إلا بمال ،
ولامال إلا برعية ، ولا رعية إلا بعدل .
وقال رضي اللّه عنه : إذا بقي العود ، فالخير يعود ،
وإن راح فكل شيء إنما هو للفنا ، وإنما هي
مقدمات ، الأول فالأول .
وقال رضي اللّه عنه : الأمور مبنية كلها على
الصدق ، وأما من تعوَّد على الكذب فبناؤه على
الماء ، ومن الناس من يعرّفه اللّه حاله قبل الموت ،
فيتوب منه ، ومنهم من يعرفه إياه عند الموت ،
فيندم حيث لا ينفعه الندم .
وقال رضي اللّه عنه : الخوف طبعه الحرارة ،
والحرارة تستدعي الحركة ، فإذا سكن( ) القلبَ ،
انطبعت حرارته على البدن وانجر إلى الحركة ،
والرجاء طبعه البرودة ، وهي( ) تستدعي السكون ،
فإذا سكن( ) القلبَ انطبعت برودته( ) على البدن
وأوجب ذلك سكونه فيسكن لذلك .
وقال رضي اللّه عنه : وحق اليقين هو علم اليقين ،
إلا أنه إذا شاهد الشيء حصل له زيادة( ) علم .
ما قال في الإخلاص وعزته

(1/56)

وتكلم رضي اللَّه عنه في الإخلاص ، فقال : لا أحد
يدّعي الإخلاص ، بل يلزم حده ولا يتعدى طوره ،

ويعتقد في نفسه الرياء ، فإنه إن كان كذلك فقد وقف عند حدّه ، وعَرَفَ قدرَه ، ولم يتعد طَوْرَه ، وإن لم يكن كذلك لم يزده ذلك إلا رفعةً وقدراً عند اللَّه تعالى ، وأين الإخلاص اليوم ، ومما يدلك على أنه عزيز لا يكاد يوجد ، قول الإمام الشافعي رحمه اللَّه : وددت أن لو انتفع الناس بهذا العلم ، يعني علمه ولا ينسب إليَّ منه حرف ، فكم أعجبنا كلامه هذا( ) ولو قلت لمصنف كتاب : امح اسمك منه ، أو اكتب عليه اسم آخر ، أو لا تكتب عليه رسم أحد، لأن الأجر حاصل لك ، فلا حاجة إلى نسبته إليك لأبى ، وهذا يدل على عدم إخلاصه. وكانت رابعة فيما سمعنا عنها يصح ذلك أو لا يصح ، إنها كانت ماتستحي إبراهيم بن أدهم ، وتستحي غيره كسفيان الثوري وغيره ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : ماذا ترك سفيان للَّه؟ وأما إبراهيم فقد ترك الملك والدنيا للَّه ، فلا عاد يطلب أمراً آخر( ) ، فقل لأقوام إذا تصدق أحدهم بربع أوقية أحب أن يُعلم به جميع الناس ، ولما تكلم الإمام الغزالي في إظهار العمل ، وذكر شروط ذلك ، ثم قال : لا ينبغي ذلك لأمثالنا لأنا لا نطمع في الإخلاص ، إذ مثل هذا( ) مع ما كان له من الجاه والحشمة ، حتى إنه يحضر درسه من أبناء الأمراء ثلاثمائة عمامة ، فضلاً عن غيرهم ، حتى خرج من جميع ذلك للَّه( ) ، حتى قيل : إن خروجه من ذلك عين أصابت المسلمين .

(1/57)

وقال رضي اللَّه عنه مامعناه : إن اللَّه لا يأمر بالإضاعة، والأشياء مربوطة بالحكمة والأسباب والتدريج ، ولا يجوز له( ) أن يدّعي أحوال الصالحين وهو بعدُ يوسوس في صلاته ، ولو مع الإنسان نخلة شغلته في صلاته ، وجميعها( ) شواغل ، وإنما التجرد الكلي لأقوام خرجوا من الدنيا بقلوبهم ، فكل ماشغلهم منها تركوه ، حتى لا يبقى لهم همة إلا نفوسهم ، وقد ادَّعى أقوام أنهم مثل هؤلاء ، وقالوا : إن الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا ، ومع ذلك بخلوا بها واشتغلوا ولم يُخرجوا الزكاة وتخبطوا .
وقال رضي اللَّه عنه : في حديث حسبي اللَّه إلى

آخره ، حتى قال : صادقاً أو كاذباً ، ثم قال : ما كل أحد يقول ذلك( ) ، إلاّ إن الاكتفاء باللَّه شديد، قَلَّ أن يتصف به باطناً وظاهراً ، وإن قال ذلك ، وفي حديث : إن اللَّه يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم . أي كما ترى أقواماً يقاتلون الكفار مرادهم الغنائم وأخذ البلدان ، فيحصل بهذا دفع عن الإسلام والمسلمين ، وآخرين يقاتلون قطاع الطريق ، وغير ذلك مما يقوى به الدين ، وأكثر مايكون ذلك في الولاة ، أفلا يكونوا أولئك من خير الناس( ) .

وقال رضي اللَّه عنه في حديث قول الرجل ، دعوتُ فلم يُستجَب لي( ) إن كان ما دعا به من أمور الآخرة ، فمن أين يعلم أنه ما استجيب له ، لعله حصل له الاستجابة في أمر يكون في الآخرة . أو من أمور الدنيا ، فلعله دعا في شيء لو استجيب له فيه لكان يضره( ).

وقال رضي اللَّه عنه : جزى اللَّه العلماء عن الناس خيراً ، جمعوا للناس ، وصَحّحوا للناس ، ونقحوا للناس ، فأين يروحون اليوم إذا احتاجوا إلى مثل هذا مع انعكاس الزمان ، وإذا رأيت شغل هؤلاء ، عرفت أن أولئك هم المشغولون فيما ينفع ، وهؤلاء كالنسوان شغلهم بما لا نفع فيه ، ثم ذكر حديث ((لا تُنزِّلوا النساء الغرف ، وألهوهن بالمغازل))( ).

ذكر ما يتعلق بالنساء

(1/58)

وذكر رضي اللَّه عنه النساء وخداعهن ، ثم قال : إن بعضهم( ) قال : إذا صاحت المرأة فأدركوا الرجل .

وقال رضي اللَّه عنه : من خاف اللَّه قَيَّد يديه ، وإلا انطلقت جميع جوارحه ، كقصة برصيصاً( ) وهاروت وماروت ، والنفس ما تقدر عليها إلا بمنعها في أول الأمر عن جميع مطالبها ، وإلا أوقعتك في بليَّتين وفتنتين ، الأولى : بلية وفتنة المحرمات ، والثانية : بلية وفتنة المباحات ، ثم إذا طلبت منها الرجوع عن ذلك لا تقدر عليه .

وتذاكر رضي اللَّه عنه مع بعض السادة في النساء واستطالتهن على الرجال ، فذكر له حديث الذي قال

للنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : يارسول اللَّه ، ماذا خير لنا بعدك ، بطن الأرض أو ظهرها؟ الحديث ، ثم قال : لا تجعل للمرأة وجوداً، إلاّ إن كان وجودها من تحت وجودك ، و لا تجعل الأمر إليها ، بحيث لو أردت أن تتصدق بشيء منعتك ، فإن مثل هذه قهرمانة ، ما هي صاحبة أمانة ، وانظر من كل شيء إلى أحسنه ، وقيل : لا تُمْدَح المرأة إذا هي صالحة حتى تموت ، ومنهن عطايا ، ومنهن خطايا ، ولا يحصل للإنسان الأجر إلا بالصبر والاستقامة ، وأن تقوم عليها في حقوق اللّه ، فلا تفرط في أمور الدين فتتركها تمكث بجنابتها وتترك الصلاة ، وكن معها من أول الأمر على حزم ، فلا تمنعها اليوم مثلاً من أمر ، وغداً تمنع( ) فيه ، فقال له ذلك السيد : إنها تحتاج إلى ما لا بد منه ، أي من المداراة ، فقال : لا بُدَّ لها من شيء من العدل والإحسان .

ثم قال : ومثل هذه الأمور لا يمكن العلماء فيها التفصيل ، فلو فَصَّلوها لاحتاجت كل مسألة إلى مجلد وتفصيل كثير ، ولكن يفصله الناس بالعقول ، وهن مجربات ومعروفات بأنهن يغلبن الأخيار ، ويغلبهن الأشرار ، ولايسلك الإنسان معهن إلا بأحد أمرين ، إمَّا باليسر إن أمكن وإلا فبالرفق ، لأنهن إذا أردن أمراً ، فمع الأشرار يغلبونهن ، حتى يدخلن في أنفسهن ودينهن ، ومع الأخيار يأخذونهن باليسر والمسامحة ، فإن لم يجيء مع ذلك منهن شيء ، دارَوهن وَرَفَقوا بهن ، وصبروا عليهن .
ومن رأى حال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم مع أزواجه وكثرة شاغلهن ، لم يستنكر ما يكره منهن ، وإبراهيم الخليل عليه السلام أخرجته زوجته سارة من وطنه الشام إلى الحجاز غريباً مع ولده وسريته قهراً من غير اختيار منه ، وهكذا عادة أهل الخير معهن ، وقد قال الحكماء : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : المرأة والعبد والولد، أي ظلم صوري ، وثلاثة لا يطاقون : جائع شبع ، وشوهاء تزوجت ، أظن قال وفقيراً استغنى ، ومن تأمَّل فتن بني آدم من وقت آدم فأسفل ، رأى كلها أو أكثرها من

النساء، أو هن سبب فيها ، أو لهن في ذلك شرك .
وقال رضي اللَّه عنه : لاتسأل عن أعمال أهل الزمان ، والزمان زمان مسايرة ومداراة وتغافل ، فمن فعل ذلك معهم تمت له أموره ، فإذا كان الإنسان منهم ، لا يحتمل التقصي من والده ، فما بالك من غيره ، لكن ينبغي أن يبذل الإنسان وسعه في الطاعة وإن قلّ ، كالضفدعة أتت في فمها بماء لإطفاء نار النمرود ، وقالت : هذا جهدي ، فشكر اللَّه لها ذلك ، وإذا رأيت الإنسان ماهمه إلا الدنيا ، فانفض يديك منه ، وإذا أقبلت الدنيا خذ منها [أي لآخرتك] وإذا أدبرَت احترز منها مثل النهار( ) .

(1/60)

وتكلم رضي اللَّه عنه في أهل الزمان وقلة الأمانة فيه ، وأكثَرَ ، ثم قال : قال الشيخ حسين( ) بافضل : إن أكثر الناس قوالب بلا قلوب ، إن لم تقهرهم قهروك وما هم داريين ، قال : وحسين هذا أخو أحمد الشهيد( ) ، كلاهما أولاد الشيخ عبد اللّه بن عبد الرحمن بلحاج بافضل( )، صاحب المختصر ، ذرية الشهيد في مكة ، وذرية حسين في تريم .
ذكر ماقال في مطالعة كتاب التنوير
وقال له رضي اللَّه عنه رجل : إني أطالع في كتاب التنوير( ) فقال : اعرف مقصوده وفائدته وماجُعل لأجله ، وهو أن ترضى بما أقامك اللّه فيه ، مع القيام بالأوامر واجتناب النواهي ، ومن تجريد بلا تعلق بمخلوق ، بل محض توكل على اللَّه ، وتَعَلَّق به ظاهراً وباطناً، قلباً وقالباً، أو تسبُّبْ مع عدم الاعتماد عليه ، والقيام فيه بجميع الحقوق ، فإذا عرفت ذلك فطالع فيه ، ولاتكن كلحم على وضم( ) ولكنك اخلط مع مطالعته المطالعة في الأربعين الأصل( ) ، واجعله الطعام ، والتنوير خصار( ) واستخرج الزُّبْد منهما ، إن أحسنت المخض ، ولا تفهم من التنوير ، أن المراد طرح الأمور كلها ، بل أن تتقي اللّه فيما أنت فيه ، فقد ضل أقوام بالكتب ، فلا يكون الرجال إلا بالرجال ، لا بالكتب .
وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه يحب السؤال ، وإنما تركه من هو من أهل التوكل الكامل ، فلا تتشبه

بالأكابر ، فتطرح الثوب على الجَرَب .
وذكر رضي اللّه عنه الشباب ، فقال : وما ينفع الشباب مع الغفلة ، إنما ينفع مع اليقظة ، وإلا راح عليه شبابه ضياعاً، وبهذا السبب ضاع على الناس شبابهم ، لغفلتهم ، والمشيب مع هذا أحسن ، لأنه يُرجعهم إلى اللّه ، من غير اختيار [أي لقلة رغبتهم في المأكول ، والملبوس ، والمنكوح] .

وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ) : ((إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ، أي عينيه)) إلى آخره : يختلف الأجر باختلاف الصبر ، واختلاف طول المدة بعد ذلك وقصرها ، فيزيد الأجر وينقص بحسب ذلك ، وإذا كان ذلك في صغره أو كبره ، وكان يحتاج إلى التمتع بهما أكثر ، فله على قدره ، وتتفاوت منازل الصبر في الدرجة الواحدة ، كما تختلف في الدرجتين ، وكثير من الصحابة والتابعين ، والأولياء والصالحين ، حصل لهم ذلك في آخر أعمارهم ، كعبداللّه بن عباس ، وكعب بن مالك ، والشيخ أبي بكر بن عبداللّه العيدروس ، وغيرهم لكثرة المطالعة والكتابة سيما بعد العصر . والسهرُ في الصبا وكثرةُ البكاء تعمش العيون .
وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه سبحانه لا يعطي بالاستحقاق ، إنما يعطي بالمشيئة ، فإن وافق الاستحقاق المشيئة ، أكمل له الاستحقاق أو قال : أجزل له العطاء ، ثم ذكر : إن رجلاً من الصحابة ، قال : اللّهم أرني الجنة( ) ، فنهاه النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم عن قوله ذلك ، وقال : قل : اللّهم أرني الجنة كما أريتها عبادك الصالحين ، ومن تأمل أحكام اللّه تحقق أنه لا يصلح الأمر إلا كذلك ، أو إلا على ذلك ، كالزكاة مثلاً ، قياسُ من لا بصيرة له ، أنها تنقص المال ، فربما منعها من ماله ، فبعد قريب هلك ماله ، أو انتقل إلى من لا ينفعه .
ثم ذكر رضي اللّه عنه الظلم والميل عن سبيل الحق ، وعدم امتثالهم لمن يدلهم عليه ، فقال ما معناه: ومن يدعوهم إلى ذلك فهو معهم ، كرجل أعمى لا يعرف الطريق ، يقول له بصير عارف

بالطريق : اطرح يدك في يدي، وسر معي ، ولا تتكلم فإني أوصلك ، ولا تقل : تعال من هنا أو من هنا، ثم إنه لا يسمح أن يجعل يده في يدك ، بل يستحلي ما هو عليه من العمى والجهالة ، إذ لا يعرف وجه ذلك . ومن رأيته في الماء ، ولم يعطك يده ، أو أعطاك ولم تقدر عليه ، فاتركه ، ولا تحمل المحفر( ) بعروة واحدة ، فينتثر، بل بعروتيه جميعاً ، أو اتركه في الأرض .

(1/62)

ثم قال نفع اللَّه به : طريق الحقيقة طريق الخصوص ، ما هي إلا في ظلمة لا يبصرها العامة( ) لأنهم بعدوا من طريقهم ، فليس من قوتهم معرفة ما يعرفون ، فإن سلموا إليهم أنفسهم بلا اعتراض ، وصلوا ، وإلا بقوا متحيرين ، أو كما قال بمعناه.
وقال رضي اللَّه عنه لي مراراً وكذلك سمعته غير مرة يقول : طريقتنا طريقة الإمامة وهي طريقة مظلمة. وسألته عن معنى كونها مظلمة ، فقال نفع اللَّه به : المراد الطريق الخاصَّة ، ومعناه أن يقتدي بمن تأهل فيها ويمتثل له ، ولا يدبر معه فيها بعقله ، وبما يستصوبه ، فإن العقل لا مجال له فيها( ) ويسلم له في كل ما أمَره به ، أو نهاه عنه ، وإن كان يرى أن ذلك خطأ ، وأن الصواب عنده خلافُ ذلك ، كما ذُكِر عن بعض مشايخ مصر ، واسمه قطب الدين الحنفي ، أنه كان يوماً يمشي على الماء ، فأخذ بعضَ جماعته يمشي معه على الماء ، فقال له الشيخ : قل بسم الشيخ قطب الدين ، ولا تقل بسم اللَّه ، ففعل وهذا عند ذلك المريد ظلمة ، فسار ساعة ثم قال المريد في نفسه لأي شيء ما أقول بسم اللَّه؟ ، ثم قال ذلك ، وهذا عنده نور( ) يعني قوله بسم اللَّه ، فغرق فصاح بالشيخ ، فالتفت إليه ، وقال : ماذا فعلت؟، قال : قلت بسم اللَّه ، فقال له الشيخ : ألم أقل لك لا تقل ذلك ، لأنك ما تعرف اللَّه [أي حقيقة] وإنما أنت تعرفني ، وأنا أعرف اللَّه [أي حقيقة] ، وما مشيت على الماء إلا باسم اللَّه ، فانظر ما أبعد القياس من هذا الأمر ، فلو كان في المسجد مريد مثلاً في قراءة قرآن ، أو في أمر

ديني ، وهذا عنده [أي المريد] نور ، فقال له الشيخ : قم اجلس في السوق ، أو افعل كذا وكذا من أمر الدنيا ، وهذا عنده ظلمة [أي خطأ] ولكنه ما علم مقصود الشيخ بذلك ، فربما رأى فيه كبراً، أو كان جلوسه في المسجد لرياء، وأراد أن يكسره منه ، فإذا كان في السوق وقلبه متعلق بالمسجد ، أو بأمر ديني خير من عكس ذلك ، وقد كان جماعة من الأكابر

يعملون في السُّوقِ كالسريّ والجُنَيد وغيرهما وله بهم أسوة ، فإذا امتثل له كذلك أوصله من الظلمة إلى النور ، وأما في الأحكام الظاهرة العامَّة ، فكل الناس يعملون عليها ونورها فيها ، وقد سبق إلى ذلك النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، وقبله في ذلك جميع الأنبياء ، وإنما الكلام في الخاصَّة ، فقلت له نفع اللّه به : فعسى الخواطر المخالفة لا تضر في ذلك ، أعني يصير بها كحال المنكر المعترض فقال رضي اللّه عنه : لا، الخواطرُ الغيرُ الاختيارية لا تضر، فقد حصل مثل ذلك لسيدنا عمر يوم الحديبية ، وإنما على الإنسان ما فيه اختياره ، وما وراءه فأمره إلى اللّه ، ما عليه في ذلك شيء ، قلت : فالاختيارية أيضا أعني ما له فيه اختيار وقدرة ، من فعل الأوامر واجتناب النواهي لا يمكن الإنسان أن يأتي بها كلها ، لأن نفسه تقطعه عنها ، فقال نفع اللّه به : تسير معها كما تسير مع المرأة ، فتقدّرها امرأة فتداريها مرة ، وتخالفها أخرى ، فمرة طاعة ومرة معصية ، ومرة بغضب ومرة برضى ، وعلى هذا، ولكنك خذ ضابطاً وهو أن تنظر في أعضائك كلها وأفعالك وحركاتك ، فإن كان أكثرها خيراً فابشر ، فإن العبرة بالأكثر .

وقال رضي اللَّه عنه : وضع القدم على القدم يحصل به خير كثير ، ولو لم يكن التابع من أهل الباطن ، فإذا وضع قدمه على قدمهم ، يحصل له ما يحصل لهم ، ألا ترى لو أن شخصاً من أهل الخطوة تطوى له الأرض ، وضع آخَرُ قدمَه موضع قدمه في المسير كيف تطوى له الأرض بانطوائها للآخر ، وإن لم يكن مثله ، فإذا كان هذا في الأقدام الحسية ، فما بالك

إذا كان في الأقدام المعنوية ، أو قال الدينية ، ومقام الإسلام يجامع الأفعال الإلهية ، ومقام الإيمان يجامع الصفات الربانية ، ومقام الإحسان يجامع الصفات الذاتية.

(1/64)

وقال رضي اللَّه عنه : كان النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم له قوة لا يطيقها البشر ، وكذلك كان قوة في الأولياء، لأنهم جاهدوا أنفسهم بالرياضات حتى اطمأنت نفوسهم بقلة الأكل ، ولم يعولوا على القوت ، وجميع ما تسمعه عن الصالحين ليس من الدنيا إنما هو من الآخرة ، من رؤية حور ، أو قصور ، أو مَلَك ، أو مكاشفة ، أو حصول شيء من الدنيا، فلم يشغلهم عن اللّه ونحو ذلك ، فكل هذا من الآخرة ، قلت له : فلو تكلف الإنسان شيئاً، ما أمكنه أن يحصل له مثل ذلك ، فقال نفع اللّه به : ليعرف قدره ولا يتعدَّ طوره ، ولهذا إذا قَبِل منهم وصَدَّقهم ، كان مؤمناً ، وإذا أحبهم كان معهم ، وأين الناس اليوم ، وكم بينك في الوقت وبين وقت الشيخ عبدالقادر ، إنما أنت في القرن الثاني عشر ، فهل سمعت هذا القرن يذكر في شيء من الكلام ، أو في كتاب ، إنما حدّ ما يذكر الحادي عشر على الندور أيضاً ، واليوم قد ضعفت الهمم ، وضعف كل شيء عن الحال الأول ، حتى الشجر والنبات ، قلت : فماذا يفعل الإنسان ، قال يُحكِم الإسلام والإيمان ، فهذا هو الذي عليه ، وإذا أراد اللّه شيئاً فما هو ببعيد ، قلت : فما يريد الإنسان إلا حصول التوحيد والعبودية ، قال : ليعرف الإنسان حال نفسه ، ويحبهم فيكون معهم ، فتشمله المعية ، ويكفيك ما قال اللّه تعالى لموسى عليه السلام : {فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ}( ) .
ذكر ما قال في حرمان الرزق

(1/65)

وذكر رضي اللَّه عنه حديث( ) : ((إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)) فقال نفع اللّه به : للرزق

جهات متعددة ، وكذلك الذنوب ، فقد يكون الذنب في جهة الرزق ، فإذا حصل ذنب في جهة رزق ، كأن كان رزقه في البيع والشراء ، فأذنب ببخس( )
وتطفيف( ) ونحو ذلك ، حُرِمَ ذلك الرزق ، بأن ذهبت بركته وتلاشى عليه فيفتقر ، وحصلت له آفة أذهبته من يده ، كما هو مشاهد في أهل الربا ومانعي الزكاة وغيرهم ، ويحرم الرزق المقابل لذنبه خاصة دون غيره ، فإن كان له رزق في الحراثة أو غيرها ، ولم يذنب في جهته ، فلا يحرم الرزق منه بذنبه في جهة البيع والشراء ونحو ذلك ، وإن كان ذنبه فيما هو عام لجميع الأرزاق أو أكثرها كالنقد ، حُرِم الرزق بذلك المعنى من جميع الجهات التي يأتيه رزقه به منها ، لأن عليه مدارها ، وإن أحسن في الكل حصلت له البركة والنمو في الجميع ، أو أحسن في البعض ففيه دون غيره ، ويجبر خلل كل واحد بالإحسان فيه دون الآخر ، كما يجبر خلل العبادة بعضها ببعض ، كذلك كما تجبر الصلاة بالصلاة ، والصوم بالصوم ولا عكس ، وإن كان الذنب بأمر خارج عن أسباب الرزق كزنا وترك صلاة وغير ذلك عم الضرر العمر والرزق ، فإن توالت عليه أرزاقه مع عصيانه فذلك استدراج له ، أو كما قال.
وقال رضي اللّه عنه في حديث : ((من أسر سريرة ألبسه اللّه رداءها)) ، قال : أي حسنة كانت أو سيئة ، ويُلبسه ذلك بالجملة لا بالتفصيل ، وهو إنه إذا أسر حسناً حصل له القبول عند الناس وأثنوا عليه خيراً، وإن أسر سيئاً لم تقبله قلوبهم ، وأثنوا عليه شرًّا ، وربما برز منه قليل فاستُدِل به على الباقي من الأمرين ، وعُرف به .

وقال رضي اللَّه عنه : في حديث( ) : ((الفقر على المؤمن أحسن من العذار الحسن على خد الفرس)) ، قال : ليعرف الإنسان أحكام الفقر والغنى من العلماء باللّه ، فإن الفقر المحمود ما كان مع الصبر والرضى ، ولا يَغبط الأغنياء ، وأما الذي يتمناها( ) ويده منها خالية ، ويضجر ويتبرَّم ، فهو أخس من الأغنياء ، فليعرف أحكام الفقر والغنى ،

والدنيا كلها لهو ولعب، فخذ من اللَّهو واللعب ما ينفعك في الآخرة .
أقول : وقد حضرت يوماً مجلس السيد الكامل الفاضل أحمد بن عمر الهندوان رحمه اللّه تعالى ، فقال لي : يا الحساوي ما الفقر الذي استعاذ منه النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم فقلت : كما حفظته من كلام سيدنا، هو المقرون بالتضجر والتبرم والتسخط لقضاء اللّه تعالى ، فقال : ليس هو هذا، فاسأل حبيبك ، فقلت : هكذا أحفظه عن قول حبيبي ، قال : لا، إسأله عن ذلك ، وكان ذلك يوم الخميس ، وكنت مرتباً زيارته وحضور مجلسه الخميس والجمعة ، فبعد ذلك بثلاثة أيام ، وهو يوم الأحد أُمَاشِي سيدنا نفع اللّه به في طريق السبير ، وهو مشغول بقراءة ورده ، إذ التفت إليَّ وقال : يا حاج ، قلت : لبيك ، وما كان يسميني إلا كذلك ، قال : ما قط سألك السيد أحمد عن مسألة؟ ، فقلت : بلى سألني عن كذا ، وأجبته عن قولكم بكذا ، فقال : أنت ما تعرف السيد ، ما سألك ليستفيد منك ، إنما سألك ليرى ما عندك من العلم ، فإذا سألك بعد هذه فلا تجبه بشيء ، وقل : أنا مستفيد ، خَلّه( ) يحكي لك بما عنده ، والذي هو عندك محفوظ ، فأعجب بهذه المكاشفة العظيمة من سيدنا نفع اللّه به ، فلما كان يوم الخميس الآخر ، وأتيته على عادتي ، فلما استتم المجلس سألني عن المسألة بعينها ، فقلت : اللّه يحفظك أنا مستفيد ، فقال : الفقر الذي استعاذ منه النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم هو خوف الفقر ، فأخبرت سيدنا في طريق السبير يوم الأحد الآخر ، فقال : هكذا .

ومرت في الدرس أحاديث في كتاب : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من "الإحياء" ، فقال سيدنا نفع اللّه به : عاد الناس ، الدين فيهم ظاهر ، والمنكر غير مقبول ولا ظاهر ولا معتَقَد حله ، غايته أن يكون في آحاد من الناس ، كالذين يفعلون الربا ويستحلونه بمناذرات وإقرارات باطلة ، سَوَّلت لهم في ذلك نفوسهم وقادهم إليه حب الدنيا ، وأقحمهم

فيها أناس أيضاً ، وهذا متعلق بالولاة وأمرِهم به على الفقهاء ، فلا تُحْوِجْ نفسك إلى مقاربتهم ، والميلُ( ) منهم أحسن .
وقال رضي اللَّه عنه : ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم( )، وما أفسد على الناس دنياهم إلا الأمراء ، ولكن بعد فساد دنياهم ، فبفساد العلماء يفسد الدين ، وبفساد الأمراء تفسد الدنيا ، لأن قوام الأمر إنما هو بالرؤوس ، أهل الدين لأهل الدين ، وأهل الدنيا لأهل الدنيا ، فإذا تغير الرؤوس تغير المرؤوس ، وقد يتعدى ضرر ذلك إلى الأحكام والعقود، لأنها تصير حينئذ أحكام بغاة فتنفذ للضرورة.
وقال رضي اللَّه عنه : إن الناس نزلوا في جميع الأشياء ، وإذا أردت تعرف ذلك فَعِدَّ منازل أو منازع العلوم ، كيف تراها، يفتون بأمور وإقرارات لا تصح ، يتحيَّلون بها، وينبغي للمفتي أن يعرف قرائن الأحوال .
وقال رضي اللَّه عنه في قول بعضهم : علماء السوء قطاع الطريق على عباد اللّه ، أي إذا لم يكن طريق إلى اللّه إلا من جهتهم ، وإن كان علماء عاملون ، فيكون هم الطريق إلى اللّه ، دون الآخرين ، الذين هم علماء انسدت الطريق منهم .
انظر ما قال في الجهة الحضرمية

(1/68)

وذكر رضي اللَّه عنه : ما عم في الجهة ، من الاختلاف بسبب هذه الفئة( ) فقال نفع اللّه به : ما عاد بقي قاضٍ منصوباً على أمر الشرع ولا فتوى شرعية ، إنما هي أحكام البغاة ، إذ السلطان مقهور تحتهم ، لا يمكنه يتصرف معهم في شيء ، يكاد يلحق الناس ضرر في معاملاتهم وأنكحتهم وغير ذلك ، فهذه أمور شرعية قد تغيرت ، وتنفيذ هذه الأحكام إنما هو للضرورة ، وهذه أشياء لا يجوز الرضاء بها والصبر عليها ، ولولا إن هذه دار هجرتنا لخرجنا منها ، ولا لنا موضع هجرة إلا مرباط( )، لكن ما يمكننا ذلك لأجل المكالف( ) والصغار ونحوهم .
وقال رضي اللّه عنه : نحفظ عن بعض جداتنا عن

أبيها ، وكانت حضرت وفاته ، وكان من أهل الكشف ، قالت : كان يغمى عليه عند موته ، فأفاق ذات مرة وقال : عادكم تقولون يا حيًّا دولة الكثيري، ومرة قال عمن قال عنه : يأتي على الناس زمان ما لهم مفر إلا ثمود أو نحو ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه في هذا المعرض: ما في تريم غير الوطن ، إن الإبل تهوى العطن .
وقال رضي اللَّه عنه : رأيت أفعال أهل الزمان كلها هواءً( ) ، وكل ما لا يصحبهم فيه هواء لا يعبأون به ، ولا يعدونه شيئاً.
وقال رضي اللَّه عنه : لا يصلح الجلوس للعبادة إلا للمتجرد المرتاض القوي ، إذا لم يكن له غداء لم يَتْعب ، ويقول : إذا ما وقع يقع العشاء ، وإذا لم يقع يقع وقت آخر ، وهو متفرغ للذكر والعبادة ، لا يشغله هَمُّ الرزق ذلك( ) ، وأما الضعيف عن هذا فيكون في أغلب أوقاته في العبادة ، وفي بعضها في طلب الرزق المعين عليها.

وقال رضي اللَّه عنه في حديث : ((الزهادة في الدنيا تريح القلب والبدن)) إلى آخره ، أي يستريح قلبه عن هَمّها ومحبتها والفكر في جمعها وحفظها ، وبدنُه عن طلبها والسعي لها ، وزهد القلب أفضل من زهد الظاهر ، وأما مع الرغبة ، فإذا زهد بظاهره وهو راغب يكون فتنة وبلاء على نفسه وعلى غيره فُيغتر به. وأما إذا زهد في الدنيا أولاً ثم أقبلت عليه وكثرت فلم تشغله وفَرَّقَها، فهو الزهد الكامل ، وهو زهد النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم وزهد الصحابة رضي اللّه عنهم .
وقال رضي اللَّه عنه لرجل : استقو على الشيطان ولا يغلبنك فإن اللَّه سماه ضعيفاً ، وما سمَّاه بذلك إلا ليستقوي عليه المؤمن ويقهره ولا ينجذب له .
وقال رضي اللَّه عنه : صاحب سر الولاية ما يتظاهر بالكرامات ، وأما أهل علم الحَرْف ولو كانوا أهل سر يتظاهرون بها بالتصرف بالحرف أو كما قال .
وأوصى نفع اللَّه به رجلاً فقال : اللَّه اللَّه في دينك ، احتفظ على دينك ، حتى إذا كنت على أي حال تكون

محمود الحال .
وقال رضي اللَّه عنه : نحن اليوم في أطراف أيام الدَّجَّال ، وفي أيامه ما يكون غذاء الإنسان إلا الذكر، يترفعون في رؤوس الجبال خوفاً من الدَّجَّال ، وغذاؤهم الذكر.
انظر ما قال في بلدان حضرموت
وذكر رضي اللَّه عنه بلدان حضرموت فقال : ما عاد شبام بشبام ، ولا الغرفة بالغرفة ، ولا تريس ومَدُودِه بتريس ومدوده ، راحت الأرواح وبقيت الأشباح ، كانت كلها حيَّة ، ورجعت اليوم كلها ميتة ، وما يهمهم اليوم إلا تحسين الثياب ، فلما ذهبت الأرواح ، رجعوا إلى تحسين الأشباح ، فانعطفوا إلى هذا ، فرجعوا من تحسين السرائر إلى تحسين الظواهر ، أو كما قال .
انظر ما قال في التشبه بالسلف واستدلاله بالحديث المذكور

(1/70)

وقال رضي اللَّه عنه : لا عاد تحرك أهل الزمان ، فإن حَرَّكْتهم ظهر من أمورهم الباطنة ، أشد من أمورهم الظاهرة التي أنت مُشمئز منها ، وأهل الحق إذا فسد الزمان ، يتعين عليهم أن يتشبهوا بأسلافهم ، واستدل بحديث( ) : ((لِيَلِيَنِّي منكم أولو الأحلام والنُّهى)) ، وكذلك السلطان والتاجر ، ينبغي لكلٍّ أن يتشبه بسلفه ، فإذا لم يقدروا على كمال الإقتداء بهم ، والفعل بمثل فعلهم ، فليقاربوهم في ذلك ، لأن كل عامل من محترف أو عابد له إمام يقتدي به ، ومن لا له إمام فإمامه الشيطان ، فكل من يقتدي بأحد يقال له إمامه، حتى إن المتبوعين من الكفار سُمُّوا أئمة ، قال اللَّه تعالى : { فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ}( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : رأيت جدنا( ) الشيخ أحمد الحبشي صاحب الشعب في النوم ، وسألني فقال : ما تقول : مَنِ الرجل الحي؟، فقلت الحي من حيي قلبه ، فاستحسن الجواب ، ثم إنه أخرج قبعين( ) أحدهما صغير فألبسنيه ، وجاء في خاطري إنها خرقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، لأن أهل الجهة كانوا

يُلبسونها ، ثم أخرج قبعاً آخر كبيراً على المعهود ، من أقباع آل باعلوي ، فألبسنيه فوق الأول ، ثم قال سيدنا : وكم مرائي تقع والعبرة على الخواتيم .
وقال رضي اللّه عنه : يقال : ليس العاقل من يميز بين الخير والشر، ولكن العاقل من يميز بين خير الخيرين وشر الشرين ، فيعرف أي الخيرين أرجح فيتبعه ، وأي الشرين أقبح فيتركه .

(1/71)

وتكلم رضي اللَّه عنه يوم الاثنين في 26 شوال سنة 1128 في رؤية الشهر ، وأطال في ذلك حتى قال : هذا زمان شُبَه ينبغي الاحتياط فيها ، وقد قالوا : لا ينبغي للعالم أن ينظر مع اشتباه الأمور بين الخير والشر ، فإن هذا واضح كل يعرفه ، ولكن لينظر بين خير الخيرين وشر الشرين ، فيأخذ بالخير من الخيرين إذا استبانت ، ويترك الشر من الشرين إذا اشتبهت ، كمن أراد أن يضربك بعصا أوسكين ، فإن كان ولا بد فالعصا أخف الأمرين ، وكمن تريد تركّبه معك وهو عاجز عن المشي ، وأنت قادر ، فإن نزلت وأركبته فهو الخير من الخيرين( ) ، ونحن هذا حالنا في هذا الزمان ، وهو من قواعد الدين ، وهو مأخوذ عن السلف كالإمام مالك بن أنس وأمثاله رضي اللّه عنهم ، ومن لا يعرف ذلك فهو جاهل . وإن ظن مع ذلك في نفسه أنه عالم فجاهل جهلاً مركباً ، كمن يظن في نفسه أنه كريم وهو بخيل فهو الجهل المركّب .
وذكر رضي اللَّه عنه يوماً الخير والشر، فقال : لا بد من المكافأة عليه ، إما ممن عاملته به ، أو من غيره في الدنيا أو في الآخرة ، وقد يقع من وجه يطّلع عليه الناس ، وقد يقع من غير ذلك ، ويكون ذلك في البر والعقوق والإحسان إلى الجيران والإخوان والأصحاب والإساءة إليهم ، كما قيل: (البِر سَلَف) والمجازاة على الخير أكثر من الشر ، وذلك من فضل اللّه فإنها تضاعف في الخير دون الشر ، إلا أن الشر يعظم جداً بحسب مواضعه ، فالسرقة على اليتيم والفقير ليست كما هي على الغني والقوي .
واجتماع الإخوان والأصحاب ما يجيئك منهم إلا واحد

من عشرة ، لأنه لا بد في كل واحد خصلة مليحة ،
يريد اللّه أن ينفع الناسَ بعضهم من بعض .

وقال رضي اللَّه عنه : قاعدة : الرجل الصالح إذا كان له وجه وقفا ، جاء الصالحون من وجهه ، وجاء المتفتنون من قفاه ، مثاله إذا كان الرجل الصالح يحب الشّرح( ) ويجالس المذمومين من الناس ، فَعَل ذلك الأنذالُ ، وقالوا : إنهم اقتدوا به ، وإن بقي على الحالة المعروفة التي عليها الصالحون اقتدوا به .
وقال رضي اللّه عنه : إذا رأيت أحداً من الصالحين يتعاطى أموراً منكرة [أي في ظاهر الشرع] ، فذاك ينبغي أن يُجْتَنَب ، ويُعتقد [أي يُحسن به الظن] ، ولا يُفعل كفعله ، إلا من غلبت عليه الحقيقة كما غلبت عليه( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : من سوء أحوال الزَّمان وأهله ، أن يقتدي الإنسان بالآخر في مثالبه وأحواله المذمومة ، ويترك أن يقتدي به في محاسنه وآدابه ، وفي هذا بليتان إحداهما أنه تضرر باقتدائه ، والأخرى أنه نبهه على أمر كان غافلاً عنه ، أو غير غافل ولكن السكوت عنه أجمل ، فلا تقتد إلا بالأحسن ، ولا تنقل إلا الأحسن ، وهذا الاقتداء على هذا الوجه غالب على أهل هذا الزمان ، فترى أحدهم لا يحسن صلاته أو قراءته ، أو يُربي ، فإذا قيل له في ذلك ، قال وَرَىْ( ) فلان ، أو يؤخر الصلاة عن وقتها ، ويقول العالم الفلاني كذا يفعل ، فمثل هذا إنما تضرر ولم ينتفع باقتدائه .
وقال رضي اللّه عنه : حسن الظن بالمسلمين عموماً ، هو الأمر الواجب ، إلا من رأيته على باطل صريح ، فيكون ذلك سوء ظن ، لأنه قادح في الشريعة . وأنت ساير أهل زمانك ما لم يغلبك الجواز ، فإذا لم تجز المسايرة فلا تساير ، قال سيدنا الشيخ أبوبكر [بن عبداللّه العيدروس] :
لا تغالب زمانك يغلبك ... ... كن مساير يسايرك الزمان

وقال رضي اللَّه عنه لبعض الفقراء( ) : لو تلوت القرآن حق تلاوته ، لزهدت في الدنيا بين يديك ، والإنسان في حالة التقصير ، ويرى أنه على الحال الأكمل ، ويعذر نفسه ويستدل لها بأشياء باطلة ، والإنسان لا يعذر نفسه ، إنما يعذره غيره ، لأنه لا يطلع على عيب نفسه ، وإنما يطلع على عيب غيره ، ألا ترى كيف يستقذر نخامة غيره ، ويتحاشى أن تصيب ثوبه ، ولا يستقذر ذلك من نفسه ، فكذلك العيوب لا يعلمها من نفسه ، وإنما يعلم عيوبَه غيرُه ، فينبغي أن يجتنب كلَّ ما رآه من عيب في غيره ، وهو معنى حديث : ((المؤمن مرآة أخيه)) في تأويل بعضهم .

وقال رضي اللَّه عنه : خذ ما بلغك عن رسول اللَّه صلّى الله عليه و آله وسلّم عن نفسه( ) أو عن غيره( ) ، ولا تتركه لشيء، ومن نقل شيئاً فخذ به عنه ، فهو بأمانته، وكلٌّ مطالب بما قال ، والأمر واسع .

وذُكِر له رضي اللَّه عنه بعض الأموات ، فقال : أرحمُ ما يكون الرب بعبده إذا وقع أو قال وضع في قبره ، وإذا رأيت عمل الرجل أيام حياته ، إن كان قائماً بفروضه ، وبارّاً بأرحامه قَوِيَ جانب الرجاء له ، وإن كان بالعكس قَوِيَ جانب الخوف عليه ، وقد كانوا( ) إذا خرجوا مع جنازة لا يعرف المصاب منهم ، لكونهم كلهم يبكون ، وهؤلاء أيضاً لا يعرف المصاب منهم ، لكونهم كلهم يضحكون ويلهون، فكم فرق بين من مضى ومن بقي، فالأمر اليوم كالطعم تحت العقبة ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : من أراد من الدنيا حاجته ، وما لا بد له منها ، لا يقطعه ذلك عن أمور دينه ، بل أمور الدين تُيَسِّره وتزيّده ، فمن جعل الدنيا حذاء منعته النجاسة والشوك والأذى ، ونفعته وهو عزيز، فإن جَعَلها على رأسه قذّرته ووضعت من قدره وهو ذليل ، بل لو جلس وهي في رِجْله ينبغي له أن ينزعها ، فكيف إن جعلها على رأسه ، وقد قال بعضهم : ماذا تريد بأمٍّ أمومتها يتم ، وفائدتها غرم .

وقال رضي اللَّه عنه لبعض السادة يوصيه في أهله : احذروا من العلاق( )، فإن الشحنة كما يقال إذا ما لحقت شيئاً كسّرت القبال( )، وقال لآخر : نوصيك بلا إله إلا اللّه كل وقت ، خصوصاً عند الهموم والشواغل ، وضيق المعيشة ، فإنها توسع الرزق ، ومن طبعها الرطوبة ، حتى قد يحصل منها النوم ، وقال لرجل من المتعلقين بعلم الظاهر : إحْيَ في قلبك ، ولا تمت في نفسك ، فإن القلب له صفات كالزهد والتواضع ، والنفس لها صفات كالرغبة( ) والرياء ، وحب الجاه ، فإذا اتصف القلب بصفات النفس ، اندرج فيها( )، وإذا اتصفت النَّفْس بصفات القلب ، اندرجت فيه( ) ، فاترك عنك الوسواس ، فإنه في الظاهر مذموم ، فكيف به في الباطن ، ألا ترى من يوسوس في صلاته ، نويتُ نويتُ ، ماذا حَصَّل من ذلك ، فوسواس الباطن أشد ، والمتعلق بالفقه [أي فقط] لا يفتح عليه ، فطالع في الأربعين الأصل ، وخذ بما في كتب الإمام الغزالي ، ولا تطلب التدقيق ، فإن هذه الأشياء في هذا الزمان إلى الطي أقرب ، وقد صارت العامَّة( ) فيه خاصة وانقلبت فيه أمور لو سمعتها قبل أن تراها ما صدّقت بها ، فلو قيل : إن فلاناً يفطِّر الناس في شهر رمضان ، ويكلفهم ترك الجمعة والجماعة ، ما صدّقت ، وهو وفلان( ) قد سكرا بخمر الظلم ، فما يفيقان إلا في القبر ، وفي مثلهما.قال اللّه تعالى : { وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا}( ) الآية.

(1/75)

وقال رضي اللَّه عنه لذلك الرجل المتعلق بالعلم الظاهر ، عند الإلباس وقد ألبس جماعة وهو حاضر : إنما يكون الإلباس والتلقين ، لواحدٍ مرة واحدة ، ولكن إذا حصل كذلك ، وهناك أحد ممن قد لبس وتلقَّن ، أو ممن ليس من أهله كعامي وبدوي ، كما فعلنا في هود ، فإنا إذا ألبسنا أحداً دخل مع من حضر تبعاً لا مقصوداً ، ومن هذا الجانب قد يتكرر ، وإلا فلا تكرر ، لأن المقصود بذلك واحد وغيرُه تبع له ، لأن هذه الأشياء عزيزة عند أهلها ، فإنَّ بذلها

فيه ابتذالها ، ولا يجوز لأحد من المشايخ أن يبتذلها ، ولو فعل مُنِع لأنها عزيزة ، ألا ترى أن المسك لو كثر هان ، ولو أكثرت من شمه هانت رائحته عندك ، فكيف بالأمور الإلهية ، وقد ذكر الإمام الغزالي أنه لا عزيز على الحقيقة إلا اللّٰه سبحانه وتعالى ، وصفاته ، وأن شروط العزة ثلاثة : أن يكون عزيز الوجود ، وأن تكون الحاجة إليه داعية ، وأن يعسر الوصول إليه ، وما زال صاحب التلقين والإلباس حيَّاً فيتلقَّن منه ، ويلبس ، ومن واسطة بإذنه ، ويأخذ الناس لهم ولمن أحبوا حتى أولادهم وأهلهم ، ألا ترى لو وصل مركب إلى البندر ، كيف ترى كلا يأخذ منه ، وأهل الطريق عليها ، إلا ما بين كونه بجنبك وتراه أولا تراه ، أو بعيداً منك ، وإذا سقطت في الطريق لا بد ما يحملك المارُّون ، وهذا معنى لا يهلك مع اللّٰه إلا هالك ، وهو ملزم له بذلك ، وإن رمى نفسه في غير الطريق ، فلا يعلم به أحد وهو الهلاك ، أو كما قال ، كل ذلك قاله بعد ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع أول ، سنة 1126هـ.

وقال رضي اللّٰه عنه ما معناه : فرّح الناس ، وبشرهم عن سعة رحمة اللّٰه ، فإنهم يغترفون من بحر لا يُخشى منه الانقطاع ، وإن عصوه فإنه لا يعجل عليهم ، بل يمتعهم إما إلى مدة آجالهم ويجازيهم في الآخرة ، وإما إلى أن تُقبِل عليهم( ) قلوبهم .

وقال له رضي اللَّه عنه رجل : أريد أن أبشر بالرحمة من قولكم ، فإنَّ الناس في ضيق ، فقال له : إن ربك قد وصف نفسه بالرحمة ، فقال تعالى :{وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ}( ) ، فَبَشِّر بالوصف ، ولا تبشر بالقول ، فقل لهم يسترحموه يرحمْهم ، يسترحمونه بأفعالهم( ) وأقوالهم( ) ليرحمهم .

وذكر رضي اللّٰه عنه تأخر الرحمة( ) في البلد مع حصولها لغيرها، فقال نفع اللّٰه به : عسى إنما تؤخر للوقت ، لا لغضب ، فما خوفنا إلا من ذلك ، ولو أراد أن يعذبهم بذنب واحدٍ( ) ، لكن رحمته أوسع ، وهو يمهلهم لأنه واثق بأخذهم ، لا يفوتونه ، فمن أراد له

منهم خيراً وَفَّقَهُ لتوبة وعمل صالح، ومن أراد به غير ذلك فليس يفوتونه ، وعسى أن تحصل توبة وعمل صالح ، فيكون مثل قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، أن يسقيهم بمن منعهم بسببه ، إذ كان مُصِرّاً على معصية فتاب بينه وبين ربه ، وذاك نبي يعمل بالوحي ، وبنو إسرائيل فيهم أيضا تخليط ، ولكن هذه الأمة لما كانت آخر الأمم ، وقريبة من الساعة ، ينبغي أن يكون تعلقهم بالآخرة أكثر ، فإنهم آخر الأمم ، وتلك أمة جاءت من بعدها أمم.
وقال رضي اللّٰه عنه : هذه كلمة جامعة واقعة : من تعدَّى حدَّه ، رجع إلى ضده ، وقال : اسلك ولا تتعمق ، فمن سلك ملك ، ومن تَقَصَّ هلك .
وقال رضي اللّٰه عنه : إن اللّٰه خلق الدنيا وجعل فيها كثيراً من الشهوات ، ليأكل المؤمن قدر ضرورته فقط ، ويعبده في مقابلة ذلك ، ويترك شهواته لدار إقامته في الآخرة ، ولا يَتَعَجَّلها هنا .

(1/77)

وقال رضي اللَّه عنه : يوم الخميس ثالث عشرين من ربيع أول بعدما انجر كلامه في ذكر الجنة ، ثم قال : لا ينبغي أن تقاس أمور الآخرة على أمور الدنيا ، فلو قال قائل : كيف تكون نخلة من لؤلؤ ، تثمر ثمراً يؤكل؟ ، فيقال له : ألا ترى أن نخلة الدنيا خشبة ، تأتي بثمر يؤكل ، فتلك أحرى بالثمر من هذه ، والذي أخرج الثمر من هذه يخرجه من تلك ، ولكن الإنسان يصدّق ولا عليه ، ولا يبخل على نفسه بالتصديق ، ويبتدئ أولاً بترك المحرمات ، ثم فعل الواجبات ، ثم ما استطاع من النوافل ، والطريق في هذا الزمان فعل الواجبات ، واجتناب المحرمات ، واجتناب ما يقدر على تركه من الشهوات ، وإنما قَصُرت أعمار أمة محمد صلّى الله عليه و آله وسلّم ، وقَلَّ ما يتمتعون به من الدنيا مأكلاً وملبساً ونحو ذلك بالنسبة إلى الأمم السالفة ليستوفوا نصيبهم في الآخرة كاملاً .
انظر ما قال في فضل هذه الأمة
وسأل النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم من ربه لأمته لقصر أعمارهم ، فأعطاه ليلة القدر، وسمع

واحد من عُبَّاد بعض الأمم بقصر أعمار أمة محمد ، فقال : لو أدركتهم لقطعت عمر الواحد منهم في سجدة ، فأعطيَ نبينا صلّى الله عليه و آله وسلَّم كرامة له ولأمته ليلة القدر ، ويقال : من عمل فيها اثنتي عشرة سنة فاق عمله عمل ألف سنة ، لأن كل ليلة واحدة خير من ألف شهر( ).

وقال رضي اللَّه عنه : قاعدة : إذا كنت مسموعاً عند الناس في أمر دنياهم ، فكن عندهم أيضاً مسموعاً في أمر دينهم ، فإن سمعوا لك في الكل ، وإلا ففي البعض ، وإن سمعوا كلهم أو بعضهم ، ولو واحداً أو في وقت دون وقت وهكذا وإلا كنت أحق بالعذاب الوارد في قوله تعالى:{وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا}( ) الآية ، فيحل بك قبلهم . ومن يخالط أهل الدولة ، فينبغي أن يفعل ذلك معهم كفارةً لما صدر منه من مخالطتهم ، ولو معنا نحن ما نتطهر به ونطهر به مجالسنا منهم فَعَلْنَا( )، ولا ينبغي أن يُحَرَّكُوا، فإنهم كعقارب وحيَّات ساكنة ، فيزيد في سكونهم ولا يحركهم ، وقد قيل : إن بعض الجبابرة قحطت أرضه جداً ، فقال لنبي زمانه : قل لربك : يغيثنا ، وتخصب أرضنا ، وإلا آذيته ، فقال له ذلك النبي : أَلَكَ قدرة على إيذائه وهو مالك السماوات والأرض؟ ، فقال : نعم ، أقتل أولياءه ، فأرسل اللَّه عليهم الغيث وخصبت تلك الأرض .

وذكر رضي اللَّه عنه ليلةً أهل بلد تجاوزوا الحد، فسلط اللَّه عليهم من آذاهم وتكلم فيهم بكلام كثير إلى أن قال : يحكى عن امرأة منهم ، أنها حملت ابناً لها صغيراً ، وفي يده حجارة ، فقال لأمه : أتجيبين وإلا ضربتك بهذه الحجارة ، فلم تجب فضربها بالحجارة في وجهها ، وقال الشاعر:

عاقبة الظلم مهلكة وإن تراخت مدة الأمد

كم لقمة دخلت حشا شَرِه فأخرجت روحه من الجسد

وقال رضي اللَّه عنه : ما معك في هذا الزمان إلا التعريف باللطف ، بأن تحكي له وتقول : إن هذا واجب عليك ، تثاب عليه في الآخرة ، أو هذا حرام عليك ، تأثم عليه ، ومثل هذا سِرًّا ، وإلا رجع عليك

هو وغيره ، كما لو رأيت مُدّاً فيه نقص ، وأنكرت عليهم ، وأردتَ منهم أن يجعلوه وافياً على المعتاد، ونحو ذلك فبيّن له الأمر الرائق ، في الوقت اللاّئق ، ويختلف هذا بطبقات الناس .

وقال رضي اللَّه عنه : من تحركه الرغبات الدنيوية ، لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً ، كمن يسمع أن من واظب على صلاة الضحى تيسر رزقه ففعل لذلك ، فلا يقل : أرجو بذلك الجنة ، إلا إن كان للتبرك بذكرها ، كما روي أن ابن المبارك خرج يوماً على أصحابه ، فقال لهم : إني استجريت البارحة على ربي ، فسألته الجنة( ).

وذكر سيدنا رضي اللّه عنه جملة أناس من العلماء العاملين المخلصين ، ثم أثنى عليهم كثيراً بثناء حسن ، فقال : نعم مثل هؤلاء من المذكورين ، لا مثل هؤلاء قشاش المعاش ، ولا عاد تفتش ، فكان إذا فتشت لحقت جواهر ، واليوم إذا فتشت لحقت بعراً .

وقال رضي اللَّه عنه : لا ينبغي أن يتخذ الإنسان شيئاً يعسر عليه فَقْدُه لئلا يشتغل إذا فقده ، ولهذا قطع الصالحون جميع التعلقات ، خوفاً من التعب عند زوالها ، وهذا يريد رياضة شديدة ، ولكن مع من لا يبالي بالشيء ولا يتلذذ به ، فما بقي إلا أن يتلذذ به ، ويصبر عند فراقه.

وقال رضي اللّه عنه : ينبغي لأهل الزمان أن يجتهدوا أن يكونوا من أصحاب اليمين ، بأن تغلب حسناتهم على سيئاتهم ، فيكونوا إلى داخل ، لا إلى خارج ، ويسلموا من الكبائر ، ويعتقدوا في أنفسهم أنهم لم يقوموا بشيء ، فمن أحكم ذلك ، صار من المقربين ، وأهل الزمان يطلبون أن يكونوا صالحين مع جمع الدنيا ولا يصح من هذا شيء .

وقال رضي اللّه عنه : الأمور الغيبية الاعتقادية ، كسؤال الملكين ، حظُّ القلب منه التصديقُ والتسليم ، ولا يُطَّلَع عليه إلا بواسطة النبوة فقط ، ولا يُسأل عن كيفية ذلك ، وكيف تكون صفته، فلا بلغنا عن أحد من الصحابة ، أنه سأل النبي صلَّى الله

عليه و آله وسلَّم.
وقال رضي اللَّه عنه : سمعنا فيما بلغنا أن أهل القبور يسمعون صوت الرعد ، ويخافون منه جداً يخشون أنه من مقدمات الساعة ، فإذا كان هذا صوت رحمته فكيف بصوت عذابه ، قال : ولما سمعته ذكرت أحوال منكر ونكير عند سؤالهم .

وقال رضي اللَّه عنه : أمور الآخرة إنما هي على قدر المتكلم بها. قال اللَّه تعالى :{ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً}( )، أي إنها عند اللَّه تكون قريباً وإن بعدت .
وقال نفع اللَّه به : اللَّه يستوفي مظالم العباد في الدنيا ، ثم يردف لهم أيضاً في الآخرة( ) ، إذا ورد عليه بتوبة .
وقال رضي اللَّه عنه : في حديث( ) : ((اهتبلوا( ) العفو عن عثرات ذوي المروّات)) ، وفي رواية( ) : أقيلوا ذوي العثرات : أي إذا كان إنما يعثر نادراً ، وأما إذا كثر منه العثار ، فليس من ذوي المروءات ، فلا يقال كلَّ حين .
وقال رضي اللَّه عنه : نحن ما ينكر علينا إلا مكابر ، فإن كان في أمر باطن( ) فما عاد هذا من الدين ، فإن كان في أمر يريد أن ينكر فيه الحق، حاججناه بحجة اللَّه ، فيحكي لنا بما عنده.
وقال رضي اللَّه عنه : إني لم يُقسَم لي من المراء والجدال حظ أبداً ، لأني ما أحبه وأكرهه بطبعي ، فلو أردته سُلِبتُه فنسيتُه في الحال .
وقال أيضاً نفع اللَّه به : نحن بحمد اللَّه قد نزع اللَّه من قلوبنا المحبة لأمور الدنيا بالكلية ، وما هو إلا إن كان أحد رمى عليك شيئاً، وأردت جبره ، ولكن إذا بدت لشيء حاجة تنكر إنك تريده ، وتفعل في أمورها( ) كما يفعل الناس ، كما قيل : كماهم( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : نحن الملوك والباقون لنا تبع ، فإن تُركنا على ما نحن عليه ، بقينا خاملين ومستترين على ما مضى عليه أسلافنا ، فإن ألجأونا إلى شئ أعطيناهم ما يعجزهم ويسكتهم ، فإن لم يصدِّقوا فليجربوا .

وقال رضي اللَّه عنه : نحن جميع الناس يحبوننا ، ولا يبغضنا إلا منافق ، لأنا نحبهم ، ونحب لهم الخير ، ولا نضايقهم في طلب جاه أو دنيا أو شئ من الأشياء ، بل نترك لهم جميع ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : إن أهل الزمان لا يحتملون شيئاً( ) لكنا نجعله لهم في الطعام ، ولو علموا ما في طعامنا لسارعوا إليه ، ولازدحموا عليه .

وذكر رضي اللَّه عنه شيئاً من أمور الدنيا ، وأحوال الناس فيها ، ثم قال : إن الصحابة ما اغتروا بالدنيا ، ولا افتتنوا بها ، وأنا فيما أراه من نفسي ، لو أن رجلا جاءني بحُمول من ذهب ، وقال : خذها لك افعل فيها ما أردت ، لا أجدني أفرح بها ، ولكن لما حصل الكِبَر والأهل ، نأخذ ما تدعو إليه الحاجة ، وقد قال أنس بن مالك : لولا أولادي ما داريت الحَجَّاج ، لأنه ظالم فخاف عليهم .
وقال رضي اللَّه عنه : نحن مع الناس في فائدة عظيمة بحمد اللَّه بسبب سلامة صدورنا منهم ، لأنا لا نعلم أحوالهم ، ولا نصدق أهل الزمان فيما ينقل بعضهم عن بعض ، ولو تحققنا ما هم عليه من المذموم ، أبغضناهم لأجله ، وما معك يكفيك ، فكيف بالإطلاع على ما عندهم .
وقال رضي اللَّه عنه ما معناه : إذا فعل الإنسان ذنباً ، أوما يَعْتَذِر منه بينه وبين اللَّه ، فكلما أكثر الاعتذار من اللَّه ، كان أحسن ، وإن فعل ما يَعتذر منه بينه وبين الناس ، فلا ينبغي تكرير الاعتذار ، بل مرة واحدة ، إذا لم تؤد إلى زيادته .
وذُكِر له رضي اللَّه عنه رجل شرس الطبع دَعَاه رجل يحبه فامتنع ، فقال رضي اللَّه عنه : محاسن الأخلاق تحسن بها الأشياء وإن كانت قبيحة ، ومساوئ الأخلاق تقبح بها الأشياء وإن كانت حسنة ، ومن أردته يجيك لتجبره ، وتؤنسه فاعتذَرَ ، فاعرف أن له عذراً ، ومن العَجيب أن حَسَنَ الخلق يأكل حق الناس وهم يحبونه ، وسيئ الخُلُقُ يأكلون حقه ويكرهونه ، وسيئ الخلق هو الذي لا تزال تعطيه وترضيه.
وتترقاه( ) فلم تبلغ رضاه ولم يزل خاطره متكدراً

عليك ، وجميع ما قيل في حُسْن الخلق يرجع إلى سعة الصدر والاحتمال ، قيل وبذل النَّدا، وهو كل ما ينفع ، وكَفّ الأذى وهو كل ما يتضرر به ، وفي "الإحياء" : من صدر عنه هذا بسهولة لا تكَلُّف فيها ، فهو حَسَن الخلق ، فإن تكلف فيها فليس بحسن الخلق ، فإن صدر عنه ضدها فهو سيئ الخلق .

(1/82)

وقال رضي اللَّه عنه : الأخلاق الأصلية ما فيها تغير ، لكن يؤكدها العمل بمقتضاها ويُضْعفها العمل بخلافها ، وإذا عُرِفَ الإنسان بطبع يعطونه الناس على مقتضى طبعه ، أو قال : على قدر طبعه ، وما هي إلا ساعة .
ودخل عليه رضي اللَّه عنه بعض السادة ، وكان قد خرج من مرض طال به ، فقال سيدنا له : الحق إلاّ لكم علينا من الزيارة لعيادة المريض ، ولكن الناس تغيرت أحوالهم ، وكل أحد ادّعى بنفسه وأعجب برأيه ، إذا جئنا عند أحد لأمر مقصود طالبونا بأمور غير مقصودة ، فقال ذلك السيد : لأن النفوس كبرت ، فقال سيدنا : نعم ، ولهذا صغرت قلوبهم ، فلو كبرت القلوب وصغرت النفوس لكان أحسن .
وقال رضي اللَّه عنه : كلما غلبت النفوس ضعفت القلوب والأرواح ، وبالعكس ، وإن فُعِل خلاف ذلك فبالتكلف .
وذكر رضي اللَّه عنه يوماً : مَن هو حَسَن الخلق ، ومَن هو سيئه ، وقد جاء ذكر حسن الخلق في حديث ، فقال نفع اللَّه به : لأن سيئ الخلق المُعَبِّسَ بوجهه يسئ إلى الناس وهو لا يحسب أنه يسئ إليهم ، وحَسَن الخلق يحسن إلى الناس وهو لا يظن أنه يحسن إليهم .
وقال رضي اللَّه عنه : جاء في وصف المؤمن ، أنه هين لين( ) ، أي حسن الأخلاق في غير معصية .
وقال رضي اللَّه عنه لي يوماً : حَسّن أخلاقك ، وعليك بسعة الأخلاق ، ففي سعة الأخلاق وَفْرُ( ) الخلاّق .

(1/83)

ولما أشغله رضي اللَّه عنه الزوار بكثرة المصافحة ، أردت أن أؤخرهم عنه ، فقال نفع اللَّه به : إن هذا منهم حسن ظن ، ومِنَّا حُسن خلق ، وكل منا مأمور بذلك ، إلا أن الإنسان لا يبقى على حد الوسط ، بل يجاوزه إلى حد الإفراط أو التفريط لأن في طبيعة ابن آدم الميل عن حد الوسط . وقال بعض الفقراء : سبق مني شئ من القول ، توهمت أنه وجد عليّ بسبب ذلك ، لأنه قال عند ذلك عاد هنا من هو أولى منك بذلك ، قال فقلت له : يا سيدنا إنه جاء عن أحد من الصحابة ، إنه ربما قال للنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم شيئاً ، فغضب عليه السلام حتى عُرِف ذلك في وجهه ، حتى قال ذلك القائل : ليتني ما قلت له ذلك ، فهل يضر الصحابة أمثال هذه الأشياء ، فقال رضي اللَّه عنه : أما الذين قالوا له عليه السلام تَعَنُّتاً ، كان عاقبتهم أن صاروا منافقين ، وأما من قال مثل هذا من الأعراب ، فإنه لم يضرهم ، لأن معهم سلامة وقرب عهد بالإسلام ، وأما من حصل منه مثل ذلك من أكابر الصحابة ، فإن أولئك قوم قد امتلأت قلوبهم إيماناً ، فلا يضرهم ذلك شيئاً( ). وأنت ميّز بين طبقات الناس ، واختلاف الأحوال ، والمجالس والخطاب ، وبين من امتلأ قلبه من الإيمان ، والإنسان ينبغي أن يقف عند حده فلا يتعداه ، قال ذلك الرجل : فقلت وإن لم يعرف الإنسان حده ، فقال : فربما مع الإنسان أولاده وأهله وأقرب الناس إليه ، فلا يتعدى عليهم من هو دونهم( )، وقال سيدنا لذلك الرجل : عليك بالأخلاق( ) ، فإن الأخلاق خير [أي نعمة] من الخلاّق ، ومن حَسُن خلقه يأكل حق الناس ومع ذلك يمدحونه ، ومن ساء خلقه يأكلون حقه ومع ذلك يذمونه فانظر الفرق بينهما .

وصافحه رضي اللَّه عنه رجل بشدة حركة ، فقال نفع اللَّه به : اتركوا هذه الشراجة ، ولو نقدر لفعلنا لكم كما تفعلون مرتين( )، ودَعُونا نتمتع بكم ، وتتمتعون بنا ، واللَّه أعلم بالصادق من الكاذب .

وقد قال الشيخ عبداللَّه بن أبي بكر العيدروس نفع اللَّه به ، شَمّ( ) اليد عندي كقطعها . ولولا الرغبة في طلب الجماعات والجمعات وشريف الأوقات لما خرجنا إليكم ، وخذوا العلم من الكتاب والسنة .
وقال رضي اللَّه عنه : بَشَّرَنا جملة من الصالحين سَمَّى بعضهم ، وكلهم يوصونا بالصبر ، فقلنا : إن هذه قصة عثمان رضي اللَّه عنه ، لما بَشَّره عليه الصلاة والسلام بالجنة على بلوى تصيبه ، لكن الحمد للَّه مَنَّ اللَّه علينا بالصبر ، وجعل مؤنتنا على غيرنا ، فلما فعل بنا ذلك ، حَصَل لنا سَعَةُ الصدر والقوةُ كالجمل الذي يجعل عليه الحمل الثقيل ، ولا يعبأ به .
وقال رضي اللَّه عنه لرجل أعمى مسن يصبره : لا يكره الإنسان ما يؤجره اللَّه عليه من البلاء، فإنه سبحانه لا يُبْلي إلا ليؤجر، ولو لم يكن في ذلك إلا تكفير السيئات .
وذُكِر له رضي اللَّه عنه رجل إنه ينتمي إليه ، ويعظمه الناس لأجله ، سيما في الحرمين ، فقال نفع اللَّه به : إنه ليس إلينا ، ولا نحن إليه ، فقد جاء من الهند ولم يمر علينا ، واكتفى بالمصافحة بعد الجمعة ، وما هذا من الوفاء ، وقد كان هذا الكلام في الخاطر منذ مدة أربع سنين ، ولم نذكره إلا الآن لما ذكرتوه ، وما يُظهره للناس من دعوى الاتصال بنا ، نريد نعلمكم بمعاملته لنا ، ونحن مثل أهل الزمان نتكدر مما يتكدرون به ، ونحنق مما يحنقون ، وإنما غلبناهم بالصبر ، حتى يظنوا أنا لم نعلم بها ، ولم تخطر في بالنا ، ونحن عالمون بها ، ولكنا صابرون عليها .

ومما عجبت من صبره رضي اللَّه عنه وحسن خلقه ، بالنسبة إلى طبعنا أهل الزمان ، إن موضعاً من بيته في البلاد ، كان خادم( ) له موضّعاً فيه ، ويجلس ويرقد فيه من النهار، فما دخله سيدنا منذ كان فيه ذلك الخادم ، حتى مات ، فدخله نفع اللَّه به يوماً وجلسنا معه ، ومعه السيد أحمد بن زين الحبشي ، فقال له سيدنا: علمُنا بدخول هذا المحل من ولادة ولدنا علوي ، وعلوي حينئذ أبو أولاد ، قال : وكنا نقابل في هذا الموضع في الإحياء كل ليلة ، ومنذ

نزل فيه فلان ما دخلناه ، واستعار منه رضي اللَّه عنه بعض الناس الجزء الأول من كتاب "مجمع الأحباب"( )، وكان ضنيناً به ، قَلَّ ما يعيره ، فلما أبطأ به ، سأل عنه مراراً ثم أمر أن يؤتى به من عنده ، فأتي به ، فجعل يقلبه بيده ، وأنا متعجب من شدة اعتنائه به ، فقال لي مكاشفة منه : أتحسب أنه لو تغير أنا نعاتب عليه؟ ، لا ، ولكن هذا مِنَّا حزم والحزم( ) سوء الظن ، نفعنا اللَّه به ورزقنا التخلق بأخلاقه ، وهذا الكتاب "مجمع الأحباب" رآه رضي اللّه عنه في بلد تعز من اليمن ، سنة حج ، وكان ثلاثة أجزاء بخط واحد ، فلما رآه استحسنه ورغب فيه لكونه يستوفي التراجم كما ينبغي ، فتعلق خاطره به نفع اللّه به ، فقال : إن شاء اللّه إذا رجعنا من الحج نشتريه ، فلما رجع وجد أنه قد بيع منه جزء ، وبقي اثنان ، فاشتراهما وبقي الآخر في نفسه ، فقدر اللَّه أن رآه بعض المسافرين من السادة إلى صنعاء فرغب أن يشتريه ويهديه لسيدنا ، ففعل فلما وصله رآه ثالث الثلاثة ، فحمد اللّه على ذلك .

ويشبه قصة هذا الكتاب قصة مسبحة أرسلها له بعض المحبين ، من آشى( ) عدتها ألف حبة من عود الصندل( ) الأبيض ، ونجارتها فوقها في كيسها مع أناس حجاج فطبعوا( ) في البحر ، وسار بها الماء ، ثم في السنة التي بعدها جاء من تلك الجهة أناس حجاج ، فرأوا المسبحة طافية على الماء في البحر وقد اختل منها خمسمائة وبقي خمسمائة ، فأخذوها وأرسلوها لسيدنا ، ولم يعلموا أنها مرسلة إليه، إنما هو اتفاق ، ونجارتها أيضاً معها ، وقال رضي اللَّه عنه لا تكلم من سكت عنك ، ولا توقظ من غفل منك ، فربما ذلك يحركه بإيذائك ، كما يحكى إن رجلاً مرَّ على جماعة من اللصوص ، ناموا حتى طلعت عليهم الشمس وتبدد على وجوههم التراب ، فرحمهم وقال : مساكين راح بهم النوم ، فمسح التراب عن وجوههم ، وأيقظهم فعَدَوا عليه وأخذوا ثيابه . ثم أنشد حينئذ نفع اللّه به هذا البيت :
أيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ويا حاطباً في غير حبلك

تحطب
وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه يستوفي للصابرين على من ظلمهم ، وإن صفحوا وعفوا عنهم في الظاهر، لأن حقوق العباد شديدة ، وحقوق اللَّه أسهل منها ، ولكن لا يَعرِف حَقَّ اللَّه من حقوق الناس إلا عالمٌ كبير .
وقال رضي اللَّه عنه : صاحب الحقيقة مستغرق فيها ، وجميع عمله ومشهوده فيها ، وأكمل منه الجامع يضع الحقيقة موضعها باعتبار ، ويضع الشريعة موضعها باعتبار آخر.

وقال رضي اللَّه عنه : ومن طبيعة الإنسان الاستعلاء ، وطلب ما هو فوق قَدْره والتعدي لحده ، فلو زاد أدنى زيادة طاش لُبُّهُ إلى أزيد من ذلك ، ولو ارتفع نظره إلى خزانة اللَّه لمات من الهيبة ، كما ذكر إن بعض خلفاء بني العباس ، خرج متنكراً ودخل على بعض أخدامه فسقاه الخادم نبيذاً ، ثم قال له : من أنت؟، فقال : أنا من عسكر الخليفة ، فسقاه ثانياً وقد حصل له منه نشوة ، فقال له هو: من أنا؟، فقال : زعمت أنك من العسكر، قال : بل أنا مقدم العسكر، فسقاه ثالثة ، فقال : من أنا؟، قال : زعمت أنك مقدم العسكر، قال : أنا الوزير، فسقاه أيضا فقال : أتدري من أنا، قال : زعمت أنك الوزير ، قال : أنا الخليفة ، فقال له الخادم : قم فاخرج عني لئلا تدعي أيضاً النبوة أو الربوبية، ولهذا ادعاها فرعون اللعين حيث رأى من قومه امتثال ما يقول ، وهل يدعي خلق السماوات أو الأرض .
وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ) : ((ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن)) ، أي وُسْع المعرفة ، وحَمْلُ الأمانة وسع علم ، لا جِرم ، والقلب لا يضيق بكثرة المعلومات وإن كثرت ، وإنما تضيق أماكن الفراغ بما يكون فيها من الأجرام .
وقال رضي اللَّه عنه : إعترف بالعبودية لربك ، فإن لم تعترف بها ، فإنها مكتوبة في ناصيتك ، ومن قال : هذا حقنا ومالنا، فقد أساء الأدب ، إذ لاملك له ، وقد قال تعالى :{ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ

فِيهِ}( ) ، فلم ينسب لهم إلا الاستخلاف في الملك ، فمن أين له الملك ، وهو مملوك .
وذُكِر له رضي اللَّه عنه الفداء المعتاد في الجهة ، فذمَّه وذم المتعاطين له ، ثم قال : اعمل( ) للجاهل والعامي باليقين ولكن ارفعه عن الشك ، ودعه على ما هو عليه ولا تكلمه.

(1/88)

وقال رضي اللَّه عنه : إذا أعوزك وجود الخير ، فلا يعوزْك القرب منه ، بحيث تكون إليه أقرب من المنهمكين على الدنيا ، يباتون ويصبحون مهتمين بها ويعملون فيها ، وخذ من كل شيء بركته ، والميسور لا يسقط بالمعسور، وإذا كانت الغايات لاتدرك ، فالقليل منها لايترك .
وقال رضي اللَّه عنه في قول اللَّه تعالى :
{لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً}( ) : أي ماء القناعة والزهد ، والزاهد في الدنيا المتجرد عنها ، أخف تعباً وأكثر راحة من غيره ، إلا إن الضعيف اليقين إذا أرسل اللَّه إليه نعمة على يد أحد من الخلق تعلق قلبه به ، ويرى أنه هو المحسن إليه ، ولا يمتد نظره إلى المحسن الحقيقي ، ولا ينفعك أحد إلا بعد أن يضع اللّه في قلبه ما وضع ، والحركة( ) مع السلامة من منة الناس ، ما هي إلاّ بركة إن لم يكن فيها إثم .
وقال رضي اللّه عنه : ينبغي أن لا يخلي الإنسان يده في هذا الزمان من شيء يعيش به ، إذ لا راغب في الخير ولا مبالي بمحتاج ، ولعدم الشكر فيه من الغني ، والصبر من الفقير ، وينبغي أن يحفظ ماله ويحصنه بإخراج الزكاة.
وقال رضي اللَّه عنه في قوله تعالى :{ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}( ) إن تفسيرها في قوله تعالى : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ}( ) الخ .
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي للإنسان أن يحترز من كل ما تميل نفسه إليه جهده ، خوفاً من الوقوع في الحرام من نظر وغيره ، وعلامة النظر بلا شهوة أن يكون كنظره إلى شجرة سواء ، فإن فرق فهو شهوة ، والإنسان في هذا في تعب ، قال اللَّه تعالى :{ لَقَدْ

خَلَقْنَا الإنْسَانَ في كَبَدٍ}( )، أي مكابدة وجهد شديد ، مع الداعية له إلى المخالفة .

وذكر رضي اللَّه عنه الناس وأحوالهم ، فقال نفع اللّه به : الناس فيهم ظلمٍ ، منهم المرائي ، ومنهم تارك الزكاة ، ومنهم المخلِّط وغير ذلك ، وسواء لو تولى عليهم عادل أو ظالم ، فهم على حالهم( ) ، فقال له بعض الحاضرين : يا سيدنا عاد الناس لهم بخت( ) ، حيث كنتم بين أظهرهم ويرونكم ، فقال رضي اللّه عنه : عاد في الزوايا خبايا ، ولو لم يكن في الزوايا خبايا ، لدكدكت بهم الأرض ، لكنهم إذا كثر الظلم والفساد ، يخرجون من ظهرانيهم إلى الفيافي والقفار ، يسيحون في الأرض ، ويستريحون منهم ، فقلت : يا سيدنا هل هم في هذا الزمان قد قلوا عما كانوا عليه سابقا؟، فقال : العدد المعلوم المذكور في كلام العلماء وهم أهل الدائرة لا ينقص ، وما كان خارجا منه فيه نقص .
وقال رضي اللّه عنه : قلة العلم مع العمل ، يزكو على الكثير بلا عمل ، إلا أن العامل قليل ، فقد ذكر الشعراوي( ) أنه لم يزل الناس سابقاً ولاحقاً كثيري العلم ، قليلي العمل .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا سألت اللَّه شيئاً فاسأله أن يكون في أحسن أوقاته ، وقيد السؤال بالعافية واللطف ، فقد سمع ابن مسعود رجلا يسأل التوبة ، فقال : هذا يسأل التوبة ولعل توبته في قطع يده ، فليسأل مع ذلك العافية ، وسأل رجل من اللّه ، أن يحصل له كل يوم رغيفان ، ولم يسأل العافية فقدر اللّه أن حبس ، وكان قد قام له أحد من الناس كل يوم برغيفين ، فتذكر بعد ذلك ، فسأل العافية فَفُكَّ من الحبس .

وقال رضي اللَّه عنه : إن الإنسان في أول أمره في حال صغره مجبول على كثرة الحركة ضرورة حتى

قال بعضهم : لو أُمْسِك الصبي عن الحركة لتقطعت كبده . فلم يزل في زيادة من عقله ، ونقص من حركته ، كلما ازداد عقلاً ، ازدادت حركته نقصاً ، حتى يبلغ اثنتين وعشرين سنة. وهذا بلوغ الأشد ، وآخر ما تنتهي إليه زيادة العقل ، ثم لم يبق بعد ذلك إلا التجارب ، وهي من زيادة العقل ، فيَفهم أن ما يضره يضر غيره ، وما ينفعه ينفع غيره ، وما يكرهه يكرهه غيره ، وعلى هذا ، ويقال لذلك عقلاً حتى آخر العمر ، ثم إذا بلغ الأربعين فقد استوى ، بمعنى أنه وقع له من التجارب في نفسه ، ما يقيس عليه غيرُه أيضاً ، وأكثرُ الأنبياء لم يرسل إلا بعد بلوغ الأشد والاستواء إلا ثلاثة ، عيس ويحيى ، وأوحي إلى يوسف بعد بلوغ الأشد وهو اثنان وعشرون وقبل الاستواء وهو الأربعون ، فلذلك قال تعالى في حق يوسف :{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه}( ) ولم يقل واستوى وقال ذلك [أي الاستواء] في حق موسى عليهما السلام .

وقال رضي اللَّه عنه : الأدب والانتفاع على قدر المتأدب والمؤدَّب به ، وإذا كان الوعاء ملآن( ) يطرحون له في أيش ، ونحن أصحابنا مؤدبون بتأديب إلهي ، بسبب الغربة والانقباض ، ولولا أن اللَّه جعل فينا هيبة لابتذلنا الناس ، ثم ذكر قصة الذي صحب الإمام مالك عشرين سنة ، سبع عشرة منها في الأدب وثلاثاً في العلم ، ثم قال : ليتني جعلتها كلها في الأدب . وما كل أحد يعرف الأدب ، وكيف يتأدب ، فإن الناس فيهم جهال ، وفيهم بدو وغير ذلك ، أما سمعت الذي شمت العاطس بحضرة النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فقال له عليه الصلاة والسلام( ) : ((عليك وعلى أمك))( ) والذي قال له عَلّم فلان الاستئذان ، وعَلّم آخر كيفية رد السلام ، وما كل أحد يعفى عنه سوء الأدب ، أو كما قال .

(1/91)

وقال رضي اللَّه عنه : من تأمل أحوال أهل الزمان ، لم ير معهم آخرة ولا دنيا ، لأن الآخرة إنما هي بالعمل الصالح وفعل الخير ، وهم لا يفعلون ذلك ، والدنيا التي بأيديهم ، إنما هي مجرد وسواس ، وشغل في أبدانهم وقلوبهم ، ويزيدون( ) بسببها

تَلهّفاً وشُحًّا .
وقال رضي اللَّه عنه ما معناه : من كان معه شيء من أسباب الدنيا ، كعَقَار وتجارة ، وكان قلبه متعلقاً بذلك ، فقد وقع في شبكة الشيطان ، فهو متمكن منه كما يطلب ، فلا يهتم به كثيراً وإنما يهتم( ) كثيراً في اقتناص المتجردين عنها وطلبهم ، ليوسوس لهم ، ويشغل بواطنهم وجوارحهم بالاهتمام بأمر الرزق والوسوسة فيه ، لأن هذا هو مراد الشيطان ، وقد حصل له في الأولين وطلبه من الآخرين .
وقال رضي اللَّه عنه : مات العلم في الصدور والسطور في هذا الزمان ، لأن أهله لا يطلب واحدُهُم منه ما يلزمه في حقه وفي حق المتعلقين به .
وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ) : ((لو لم تذنبوا لخلق اللَّه قوماً يذنبون ، فيستغفرون فيغفر لهم)) : يعنى أنك لا تَتَقَصَّد ذلك ، ولا تنكر وجِوده في الكون ، فللّه فيه حِكَم ، ولو لم يكن من الحِكَم في ذلك ، إلا ليكون الناس درجات بعضهم فوق بعض ، ومن أنكر وجوده ، أو تقصد فعله ، فهو عاص فاسق ، وهو كمن يتقصد شرب السم .
وقال رضي اللَّه عنه : الاعتماد على المقادير بدعة ، والاعتماد على الأسباب بدعة بل لا بد منهما( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : الرضى بالقضاء هو أن ترضى بكل ما يجريه اللَّه عليك باطناً وتلتزم جميع أحكامه ظاهراً ، والرضى مع تضييعها غرور وفتنة .
وقال رضي اللَّه عنه : لا تخبر الظالم بظلم غيره فيزيد ظلمه ، لكن أخف ما استطعت مع المداراة ، ومن لا يرحم نفسه من عذاب اللَّه ، حيث وقع في الظلم والمعصية ، فلا ترجو منه أن يرحمكم ، ولا يدخل ذلك في خاطرك ، والإيمان نور الوجود ، ومن فُقد منه فهو كله ظلمة .

وقال نفع اللَّه به : من ألجأك إلى الظلم ، فهو أظلم منك .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل الدنيا والنفوس ، يَقْوَون كلما بلغهم ما يفرحون به ، وكلما تَغَذَّوا به من

الشهوات ، وقُوّتهم الحاصلة لهم إنما هي من قوة النفوس وغلبتها عليهم ، والصالحون لا تحصل لهم القوة بما ذكر ، والقوة الحاصلة لهم إنما هي قوة الأرواح فيهم ، لأن قوة النفس قد أذابوها بالرياضات والمجاهدات فلم يبق لها فيهم أثر .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا كانت طاقة الإنسان دون همته ، ما نَفَع ، يهم بأمر لا يستطيعه .
وطلبه رضي اللَّه عنه السيد زين العابدين بن مصطفى العيدروس( ) إلى مكانه : البَدْع ثامن شعبان سنة 1128 ، فقال له السيد زين العابدين : عاد رؤيتكم يتمتع بها الإنسان ، فقال نفع اللَّه به : لكن القُوَى ضعفت ولا يمكنها تساعد الإنسان على ما يريد ، فربما نَهِمّ بالأمر ، لا تساعدنا عليه القوى ، فالهمة قوية ، والقوى ضعيفة ، والروح أقوى من الجسم ، وإذا قَوي الروح حصل للجسم قوة ، وإذا حصل على الروح ما يوجب الانقباض انهدم الجسم .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا وُجدت الهمة ، انبسطت في البدن ، فيقوى البدن بسبب ذلك ، ويقوى الروح أيضاً.
وقال رضي اللَّه عنه : الإيمان الصادق في قلب المؤمن كسراج في ظلمة ، يضئ لمن حوله ، ويستدل بضوئه ، والإيمان في قلب المنافق( ) كالسراج المكفي فوقه سفيح( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : صاحب الجاه الجاهل ، سلامته أن يحيل على غيره ، ويظهر عدم علمه ، ولا يتوسط في شئ ، وإلا هلك وأهلك ، وذو الجاه العالم ، يعرف ما يزن به الأمور ، وعنده نور يعلم به ويفرق ، وتكون أموره في الاعتدال كلسان الميزان .

وقال رضي اللَّه عنه : اعرف أحوال الصالحين وأفعالهم وأوصافهم واعرض ذلك على نفسك وادعها إليه ، فإن أجابتك إليه كله صلحت ، أو إلى بعضه فعلى قدر ذلك ، فإن لم تجبك إلى شيء منه أبداً فتحقق بالإفلاس ، ولا تدّع ما لست من أهله ، فلا أقل من الإنصاف والاعتراف ، على أن أناساً يطلبون الدنيا ويخزنونها بُخْلاً وشُحًّا ، ويتمتعون بشهواتها ،

وهم يظنون في أنفسهم أنهم إنما يأخذون منها قدر الضرورة أو الحاجة ، وأنهم ما يضمُّونها إلا لمواساة المحتاجين ونفع الإخوان ، وهم كاذبون فيما زعموه لأنهم لا يفعلون ما ادعوه مع قدرتهم على ذلك ووجود المحتاج .
وقال رضي اللَّه عنه : اسمعُ ما يقال عن الأولين : إن من الناس من هو كثير العقل قليل العلم ، ومن هو كثير العلم قليل العقل ، والأول أفضل .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا أعرض العبد عن اللَّه وأعرض اللَّه عنه ، لا ينفعه شيء حتى يقبل على اللَّه ، ويقبل اللَّه عليه ، والضلالة إذا رسخت بأن تربّى عليها يعسر إزالتها ، كالنخلة الراسخة ، فلو أمرت أهل تريم - مثلاً - بترك ما استمرت به عادتهم لما أمكنهم ، ولو قلت لهم أن يقلعوا نخلة لازدحموا عليها ، فضاق بهم المكان ، وعجزوا لذلك .

وقال رضي اللَّه عنه : إنا نتحفظ جهدنا من أهل الزمان ، لأنا غرباء معهم ، ونحن معهم مثل الذي قيل له ، أتشهد بكذا وكذا ، قال : نعم ، ثم قيل له أتشهد بكذا وكذا ، قال : ما أسمع ، أقول : لعله رضي اللَّه عنه أراد بذلك قصة أبي مسلم الخولاني( ) رحمه اللَّه ، لما قبضه العنسي الكذاب بصنعاء ، فقال له : أتشهد أن محمداً رسول اللَّه؟، قال : نعم ، قال : أتشهد أني رسول اللَّه؟، قال : ما أسمع ، تَقِيَّةً من شره أن يصرح بتكذيبه ، ولعل معنى سيدنا نفع اللَّه به ، أنا نرى في زماننا أشياء من الحق ، فنقر بها ونشهد بها ، لو استُشهدنا ، ونرى فيه أشياء من الباطل ، ننكرها بيننا وبين اللَّه ، وعمل الناس بخلافها ، ولو نظهر ذلك لانشقت العصا بيننا وبينهم ، فعدم إظهارها لهم أولى ، هذا ما فهمته واللَّه أعلم .
وقال رضي اللَّه عنه : ما أحسن في هذا الزمان من الانقباض والصمت ، فإذا جلست مع نفر منهم فقم ، وأظهر أن لك حاجة دعتك إلى القيام ، وحاجتك حاجة صحيحة ، وهي الإعراض عنهم للسلامة مما يقعون فيه .

وقال رضي اللَّه عنه لبعض الأعيان من السادة : الحزم ترك مجالسة أهل الزمان ، والحذر منهم ، وحَدُّك أن مجالسة المغنِّي أحسن وأسلم من مجالستهم ، وإذا جالستهم وتكلمت معهم ، فأقلل ولا تتكلم إلا فيما لابد منه ، حق التنفس ، أو الاستذكار ، ولا تتعب نفسك معهم ، فإنَّ أوعيتهم مخرّقة .
وقال رضي اللَّه عنه : كلام أهل الزمان ، كقشاش خُمَّ من الدار ومليء به طبقاً( ) ، لا ترى ما ينتفع به ، وقد كان الأولون لابد في كلامهم من فائدة ، ثم إنهم لم ينظروا في الكلام ، بل ينظروا في السِّيَر ، ويتأملون فيها ، وتظهر لهم فيها الكرامات ، أظن قال : تحملهم على العمل ، وأما هؤلاء فمجالستهم فتنة وإثم وغيبة وفضول وتضييع للوقت ، فاعتزالهم أحسن .

وقال رضي اللَّه عنه : إذا تمسك الإنسان وأمكن أن يتبعه أحد من أقارب أو غيرهم على الحق ، فليفعل ويثبت ، فإن الزمان لا يخلو من أهل الحق ، فإذا فُقِد أحد من أهل الحق ، لا بد أن يجعل اللَّه خلفاً في غيره ، وقد يكون في من لا يخطر في البال ، ولا يُظَن به ذلك ، ولا يكون في الوهم استحقاقه له. أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي للإنسان في هذا الزمان أن يهتم بأمر نفسه جداً ، ولا يُقَصّر في ذلك ، ولا يهتم بأمر غيره ، ويلزم نفسه ما به نجاتها ، ويجنبها ما لا ينبغي ، بل يكون كراكب سفينة حصل عليه ما يخشى منه الغرق ، فإنه لا يهتم إلا بأمر نفسه ، ولا يعرّج على غيره ، ومن لا يهتم بأمر نفسه ، فلا عقل له ، وهو كمن هو في معركة القتال مع عدوه ، فطرح سيفه في الأرض وجلس ، فلا محالة يوشك أن يسرع إلى قتله ، لكنه يراعي مع غيره ما يلزمه شرعاً ، قال تعالى :{لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ }( )، فَقَيّدها بالهداية ، وما قال إذا ضللتم .
وقال رضي اللَّه عنه : من الطاعات ما يقيك النار ، ومنها ما يطرق لك إلى الجنة ، والورع مما يقيك

النار ، فاستكثر منه ما استطعت واستقلل الكثير منه ، ولا تستكثر القليل ، والورع هو التقوى .
وذكر رضي اللَّه عنه الجنة فقال : هي في اعتدالها ونورها وصفائها ، كما بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، في وقت شدة الصيف إذا هبت الريح اللطيفة الباردة ، التي تسمى العَليا وهي النَّعَاما( )، وهذا الوقت خلي من الظلمة ، ومن الحر والبرد ، ويوضع نور الشمس والقمر فيها( )، ويلقيان في النار ، لأنهما عُبِدا من دون اللَّه ، وفيها من النور ما لا يبلغه الوصف ، حتى إن نور الرجل الواحد ، لو برز في الدنيا لغطى نور الشمس ، وأهل الجنة لا ينامون ، بسبب النعيم الذي هم فيه ، وأهل النار لا ينامون بسبب العذاب الذي هم فيه ، فانظر كيف اشتركوا في عدم النوم ، واختلفوا في المادة .

وذكر رضي اللَّه عنه في مجلس آخر الجنة والنار ، فقال : من فاته نعيم من الدنيا لا بد أن يستوفيه في الجنة( ) ، ومن فاته عذاب في الدنيا ، استوفاه في النار( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : الإنسان في غفلة عظيمة ، ويعجب هو أيضاً من كونه غافلاً ، والعجب من الغفلة ، مع الغفلة ، عَجَب في عجب .
وقال رضي اللَّه عنه : إن الناس كلهم مع اللَّه في مقام الشكر ، ويظنون أنهم في مقام الصبر ، فإن للّه في كل عرق نعمتين ، ومن العروق المتحرك لا يسكن ، والساكن لا يتحرك ، فلو تحرك الساكن أو سكن المتحرك لتألم لذلك ، ففي كل عرق نعمة وجوده ، ونعمة سكون الساكن ، وحركة المتحرك ، وفي كل شعرة نعمتان ، إذ أسفلها مجوف ، وآخرها مصمت ، فلو انعكس ذلك لتألم الشخص ، فللَّه الحمد ، وعن بعضهم أنه كان عشاؤه قرصاً يابساً ، يصب عليه من الماء البارد ، ويفته فيأكله ، ويحمد اللّه ويقول :
خبز وماء وظل ... هذا النعيم الأجلُّ
جَحَدتُ نعمة ربي ... إن قلت إني مُقِلُّ
وقال رضي اللَّه عنه : خفاء الصالحين في هذا

الزمان ، لأن بعض أهل الزمان مالهم معهم مقابلة ، فما يريدون بظهورهم ، لأنهم ما أرادوهم إلا لهم ، والصالحون ما يكونون لأهل الدنيا ، بل يكونون للفقراء عليهم ، فلو قال صالح عن كشف لبعض أهل الزمان مثلاً : في الموضع الفلاني من بيتك كذا من المال ، لكنكِ هات نصفه ، أو فرقه( ) على المحتاجين لأَبَى ، وغَلَبه الطمع ، ولو أنه قد كان آيساً منه ، وليس على باله ، وربما ساء ظنه به ، وزال اعتقاده ، وقال لو كان هذا صالحا ما قال لي هات منه، ثم أنشد هذا البيت :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها ... سرور محب أو إساءة مجرم

وقال رضي اللَّه عنه : السادة أهل التمييز إذا سموا شيئاً كهدية ما يغيرونه .

وقال رضي اللَّه عنه : إذا رأيت مفتخراً فلا تفاخره ، ولا تقره على فخره ، ولا تلايمه عليه ، وإذا علمتم فعلّموا وكونوا أهم بمنافعهم من أنفسكم .

وقال رضي اللَّه عنه : العلم فضيلة ، لا تتكمل إلا بالعمل به للَّه .

وقال رضي اللَّه عنه : الإيمان : اليقين ، وتزعزعه الأوهام ، وكلما كثرت ضعف وكلما قَلّت قوي .

وقال رضي اللَّه عنه : عند الصوفية ، أكثر الفساد إنما هو من السماع والاجتماع ، لهذا كانوا يرغبون في الصمت .

وقال رضي اللَّه عنه : المداراة هي بذل الدنيا للدين وللدنيا ، والمداهنة بذل الدين للدنيا وللدين ، ولا بأس بالأول ، ويحرم الثاني ، ومِن بَذْل الدنيا في المدارة حسنُ الكلام من غير كذب ولا مجازفة ، واللينُ لمن تكلمه ، والمدارة هي التي نسميها المراعاة.

وقال رضي اللَّه عنه : قراءة الفاتحة ، آخر المجلس : عادة أهل اليمن ورآى بعضهم أن القيامة قامت ، وسمع منادياً ينادي قوموا يا أهل الفاتحة ، فقام أهل اليمن ، وكان رجل من أهل اليمن ذا فقه وصلاح ، يعتاد يختم مجلسه بها ،وكانت له زوجة تكرهه ،

وإخوانها وقراباتها يحبونه ويرغبون فيه لديانته وصلاحه ، ويسمع منها من الكلام ما يكرهه ، فيخبرهم به ، فإذا سألوها: لِمَ تقول له ذلك ، تنكر وتقول ما قلته ، بل كَذَب عليَّ ، فأتى إليها يوماً نساء ، وبقيت تتحدث معهن فيه ، وتتكلم بما يسوءه ، فاتفق أنه كان يسمع كلامهن من حيث لم يشعرن ، فبقي يكتب ما يسمع منهن ليعرضه على أهلها ، فلما كان في آخر المجلس قالت لهن : تعالين نقرأ الفاتحة على عادة الشيخ ، كما يفعله من قراءة الفاتحة على عادته وقراءتها، فكتبها أيضاً في جملة ما كتب ، فلما عرض المكتوب ، وأخبرهم بما قلن وأنكرت فقال : هو ذا مكتوب ، وفتح الورقة فإذا هو لم ير في الورقة مكتوباً سوى الفاتحة فقط ، فعجبوا لذلك ، فينبغي قراءتها رجاء أن يُمحى جميع ما حصل في المجلس من مذموم الكلام واللغط ، ومرة قال : نقرأ الفاتحة في آخر المجلس ، لتكفر ما وقع فيه ، فإن كان المجلس مجلس خير ، فتكفر ما كان من الخواطر السيئة الاختيارية ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : قد قلنا يعني أول العمر نريد أن ننظر ، إن كان نحن من المأذون لهم في السياحة والتنقل ، لا نستصحب أحداً معنا لئلا يكون بلاء وأذىً على الناس ، وإن لم نكن من المأذون لهم في ذلك ، فلا بأس إن لحقنا أحدٌ أن نتركه على نيته ، في مخالطته لنا.

وقال رضي اللَّه عنه : لو أن أحداً له قدرة على السياحة ، مثل الأولين من الصالحين ، وخصوصاً السياحة في الحاضرة ، فإنها أسهل ، لكن السياحة تريد قوة قلب وزهد ، وترجع السياحة في القلب ، فيسيح في قطع فَلَوات النفس ، حتى يصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

وقال رضي اللَّه عنه : إن الصحابة رضي اللَّه عنهم ، حَدَّث كل منهم على حسب علمه وما بلغه عن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ولهذا كثرت الروايات ، وذلك لاختلاف أفعاله وأحواله عليه الصلاة والسلام ، ولما كثرت الروايات عنه عليه السلام وعن الصحابة

المأمونين ، وعن التابعين المقتدين ، إتّسع العلم ، واختلفت الأقوال ، ومن لم يَسِر على الجادة والتقوى ، لم يكن له إمام إلا منافق أو فاسق ، لأن الطريق قد تخفى وقد تظهر .
وقال رضي اللَّه عنه : لا تُحِلْ هذه الأمور على المقادير ، بل حِلْها على هذه القلوب المنصرفة والوجوه المدبرة، قال اللَّه تعالى :{وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}( ) الآية.
ذكر ما يتعلق بالرزق

(1/99)

وقال رضي اللَّه عنه ما معناه : من كان عنده من الدنيا قدر كفايته فقط بلا زيادة فذاك رزقه المقدر له ، أو زائدٌ فما فوق( ) ذلك فهو رزق غيره استخلف فيه ، وهو عنده أمانة فليراع فيه ما يلزمه وكما ينبغي على مقتضى الشرع ، ويتصدق منه ويقدم منه لآخرته ، قال اللَّه تعالى :{وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيه}( ) وإن باع منه شيئاً قنع بما تيسر له في الحال ، دون احتكاره والطمع في غلاه ، ومهما خرج منه شئ من يده إلى يد آخر بأي وجه ببيع أو هبة أو صدقة أو غير ذلك ، فقد رجع ذلك إلى من هو رزق له ، وإن بذّر في الزائد أو أسرف فيه أو ضيعه على مقتضى هواه وشهوته ، فهو متعد في حق غيره ، ومسرف فيه مذموم الحال .
وقال رضي اللَّه عنه : سمعنا فيما بلغنا : إن للَّه ملائكة موكلين بخزائن أرزاق العباد، وإن للعبد في كل وقت رزقاً معلوماً، فإذا أطاع العبد ربه وأحسن له المعاملة أمر اللَّه الملائكة الموكلين بخزائن أرزاق العباد أن يعجلوا له من رزقه في الوقت الآتي ، مع رزقه في الوقت الحاضر ، فيتسع عليه رزقه فيه ، وإذا عصى وأساء المعاملة أمر الخَزَنة وقال : ادخروا رزق هذا له في الخزائن ، فيؤخر إلى الاستقبال ، ويبقى مقتراً عليه رزقه في الحال الحاضر.
ثم قال نفع اللَّه به : لعل المراد أن الرزق شئ مقدر معلوم ، على ما قسم للشخص بلا زيادة ولا نقصان ، وإنما يقدم ويؤخر بحسب معاملته لربه ، ولعل هذا

في بعض الناس ، وبعضهم وسع عليه على أي حال ، وبعضهم بالعكس .

(1/100)

وذكر رضي اللَّه عنه الأرزاق ، فقال : الأرزاق مقدرة ، ولكن إذا عصوا قال للخزنة : أخروا أرزاقهم في الخزائن ، وإذا أحسنوا عجل لهم ، أو يجعلها لهم فيها مرة ، ثم ترد عليهم في وقت آخر لعصيانهم كما ترى كثيرا من السيول تأتي وتروح ضياعاً لا يحسنون تربيتها( ) ، هذه هي التي كانت أخرت لهم ثم أردفت لهم ، مثل العبد السوء ، إذا عصى يجوعه سيده نحو أربعة أيام ، ثم يجمع عليه رزق تلك الأيام مع رزقه الحاضر حتى يكثر عليه ويمل الأكل .
وقال رضي اللَّه عنه : سمعنا فيما بلغنا : إن اللَّه تعالى يقول : يا عبدي أطعني ولا تعلمني بما يصلحك ، فأنا أعلم بما يصلحك منك ، ثم فسره وقال : عليك الذي عليك ، وأمسك الحبل بطرفيه، ولا تختار مع ربك، فاختياره لك أحسن من اختيارك لنفسك .
وتكلم رضي اللَّه عنه يوما في أمر الرزق فقال : إن اللَّه لا يعاقب في أمر الرزق بالتقتير إلا المغترين باللَّه كثيراً ، ثم ذكر : إن رجلاً قال لموسى عليه السلام : أريد أن أوصيك بوصية تبلغها إلى ربك عند مناجاتك له ، قل له : إن فلاناً يقول : لا ترزقني ، فإني غير محتاج لرزقك ، فلما ناجاه قال : يارب أنت أعلم بما قاله عبدك فلان ، فقال سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام : قل له : إن خرجت من مملكتي منعتك من رزقي ، وما أعجب هذا فأين يخرج من مملكته ، والأرض أرضه ، والسماوات ملكه .

(1/101)

وقال رضي اللَّه عنه : الرزق المضمون هو الكفاف ، وهو ما لا يمكن العبادة وإقامة حقوق اللَّه إلا به ، وما فوق ذلك فمقسوم ، والشك في المضمون كفر ، ولا يجوز فيه قصد تجربة ، بأن يقول : أجلس وأنظر إن كان جاءني شئ ، فإنه إن كان بقي له حياة ، فلا بد

وأن يجيئه ، وإلا فالميت لا يطعم قوتاً ، بل يصرف إلى الحي ، ومن جلس في داره مجرباً واشتد به الجوع ، يجب عليه تحصيل حاجته بما أمكنه( ) ، وإن لم يمكنه إلا بالسؤال سأل بقدر الحاجة ، وهو فيه معذور ، فإن لم يفعل حتى مات جوعاً ، مات عاصياً لأنه قتل نفسه ، إلا إذا لم يمكنه بحال ، وسمعته رضي اللّه عنه يقول : إن السؤال من الفواحش ، كالزنا والسرقة ، ما أبيح من الفواحش إلا هو ، عند الضرورة .

وقال رضي اللَّه عنه في ذكر الأرزاق : إن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال : إذا غضب اللَّه على قوم أخّر أرزاقهم عن أوقاتها ولا يمنعهم منها ولا ينقصها ، فيرسل المطر في غير وقته والحصاد في غير وقته فإنه كذلك وليس هو على أصله بل دون ذلك ، وقال بعضهم : لا يمنعهم و لا ينقصها ولا يؤخرها بل يبقيها ويدخرها لهم في الخزائن حتى يرضى ، فإذا رضي أرسلها عليهم كلها بالتمام .

وقال رضي اللّه عنه : أهل الخير ما لهم من يضبط لهم أمورهم ، ولو كان لم يطيعوه ، لأنهم لا يحبون الدناقة ، وأمورهم وأرزاقهم عند اللَّه تحت العرش ، يقول اللَّه تعالى : أعطوا فلاناً بقدر ما يخرج ، وقد يخرج رزق يوم أو أيام في ساعة ، فيبقى محتاجاً في تلك الأيام ، وقد تقع لهم زرَّات في بعض الأوقات ، وقد تفيض عليهم من وجوه كثيرة ، وإذا أراد الإنسان من متاع الدنيا شيئا عن حاجة إليه أو ضرورة فإن اللّه يعينه وييسره وإن أراده بطراً من غير حاجة فليقدر .

وتكلم رضي اللَّه عنه ليلة في ذكر الرحمة والتوسعة لبعض الناس دون بعض ، وفي وقت دون وقت ، فقال : إن اللَّه تعالى لا يسيب عباده ، ولكنهم إذا سيبوا طرف( ) الحبل ، تركهم مدةً ابتلاءً لهم ، ثم يعود عليهم وإن بقوا على ما هم عليه ، وكيف يتركهم وهو عالم بعجزهم وفاقتهم { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ }( ) وقد سمعنا أن رجلاً مكث في غيظة شجر ملتف بعضها ببعض ، ولا معه

ولا دونه فخطر بباله أن اللَّه هل يعلم بحاله في مكانه ذلك ، فسمع صوت قائل يقول :{ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ } .
وتكلم رضي اللّه عنه أيضاً يوما في الرزق ، فقال : جاء في بعض ما ورد عن اللّه تعالى ، أنه قال : عبدي أطعني ، ولا تعلمني بما يصلح لك . ولكن الدعاء مطلوب ، لأن فيه إظهار الافتقار من العبد لسيده ، وهناك أصناف من المخلوقات ، لا يعلمون الغيب ، ولا تظهر لهم أحوال الناس إلا بدعائهم ، من ملائكة وشياطين ، لأن الملائكة يحبون من الناس العبادة والدعاء وإظهارهم افتقارهم إلى ربهم ، فيفرحون لهم بذلك ، والشياطين يكرهون ذلك منهم ، ويثبطونهم عنه ، ويفرحون لهم بتركه ، فيحصل بظهور الافتقار بالدعاء سرور الملائكة ، وإرغام الشياطين ، ولا يزال الإنسان مشبوحاً( ) بين هذين الصنفين ، الشياطين يجرونه من أسفل بالمعاصي ، والملائكة يجرونه من أعلى بالطاعات ، فإن غلبت الملائكة جرته من أيدي الشياطين من أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، وإن غلبت الشياطين ، إجتذبته من أيدي الملائكة من عليين إلى أسفل سافلين ، والعياذ باللّه تعالى أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : الأسباب والحِرَف منها ما هو على صاحبه نعمة ، ومنها ما هو عليه نقمة ، فما يمنعه من أداء حقوق اللّه والصلوات مثلا في أول أوقاتها وفي الجماعة فهو نقمة ، وما كان لأجل الإستمساك ، والاستغناء عن الناس ، مع أداء حقوق اللّه ، وفعل الأوامر في أوقاتها فهو نعمة ، وينبغي أن يعمل بنية نفع نفسه ونفع غيره ومن يأتي بعده ، فإن معظم الناس اليوم في بيوت الأولين وفي أموالهم ، وقد مَرَّ كسرى أنو شروان على رجل مسن شيبة ، وهو يغرس نخلاً ، فقال له : لِمَ تغرس وأنت في هذا السن ، ولعلك لا تدرك ثمرته ،فقال: غرسوا وأكلنا ، ونغرس ويأكلون ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال له : إن النخيل لا تثمر إلا بعد عشر سنين ، وهذا أثمر لي في ساعة واحدة، فأمر له بمثلها،

وقال : إنه رجل حكيم ، فقال له : إن النخل لا يثمر إلا في السنة مرة واحدة ، وهذا أثمر لي في يوم مرتين ، فأمر له بأربعة آلاف ثالثة ، وقال لخازنه: سر بنا لئلا يتم الخزانة علينا.
وذكر رضي اللَّه عنه الأرزاق والزوايا ، ثم قال : كانت الزوايا فيها خبايا من صالحين وعاملين للَّه ، فلما ذهبوا ذهبت الأرزاق ، والدنيا إنما خلقها اللَّه تعالى إعانة لأهل طاعته ، وهي لهم بلاغ ، وللكفار متاع ، وأهل الزمان يُنَفِّرون النعم عنهم مع إقبالها عليهم بقلة الشكر عليها، وإنما بذل اللَّه الرزق لكافة الناس، لكونهم فيهم أهل الطاعة والفقر والمسكنة ، فيكون لغيرهم بسببهم ، ولو لم يكن في الدنيا إلا العصاة ما أعطاهم لقمة .

وقال رضي اللَّه عنه : اجعل الدنيا كالحذاء مطروحة لا ترفعها بل تلبسها إذا أردت موضع قذر أو حاجة ولا تضعها على رأسك ، فمن وضعها على رأسه أو مسح وجهه بها ، فقد أجرم جرما عظيما ، ونحن ما أنكرنا على أهل الزمان في أخذ ما لا بد منه وما يغنيهم عن التكفف للناس ، وإنما أنكرنا عليهم رفعها وتعظيمها والتهالك عليها ، حتى ضيعوا بسببها حقوق اللَّه ، كإخراج الصلوات عن أوقاتها أو عن أوائلها ، أو عن الجماعة ، وكان السلف لا يتركون شيئا من أمور الدنيا يتم في أيديهم ، بل إذا تم من جهة ، بقي ناقصاً من الجهة الأخرى ، لأنها إذا تمت لابد أن تذهب ، فتعظم حسرتها ، وإذا كان من طلبها ليبر بها، ناقصَ عقل ودين ، فكيف يطلبها لنيل الشهوات ، والتمتع باللذات ، وكان يشير بذلك إلى بعض الحاضرين ثم قال له نحن نعلم ما تقولون في مجالسكم وأسواقكم ،أتظنون أنا لا نعلمه ، بل نعلم ما به تجهلون ، قال ذلك ضحى يوم الجمعة في 21 جماد الأولى سنة 1124 .
وقال رضي اللَّه عنه : أمور الدنيا كرجلَي المحواك( ) ، كلما ارتفع واحد منهما هبط الآخر .

وقال رضي اللَّه عنه يوم الاثنين عاشر جماد أول من السنة المذكورة ، وقد بلغه فرطُ ظلم السلطان عيسى بن بدر في شبام ، وجورُه زائداً على العادة ، فتكلم في شأنه كثيراً ثم قال: ما له إلا الكثيب الأحمر ، وهو تربة عينات ، وكان حينئذ بشبام ، ثم سرح منها صبح يوم الثلاثاء منحدراً إلى عينات ، وخرج سيدنا ضحوة يوم الثلاثاء المذكور إلى مسجد إبراهيم بن السقاف الذي شرقي الحاوي ، وبقي فيه يومه ذلك إلى أن صلينا معه فيه صلاة المغرب ليلة الأربعاء. ومما تكلم به في مجلسه في المسجد المذكور ذلك اليوم ، أن قال : إن الناس لا ينظرون من الشخص إلا إلى عمله ، لا إلى ذاته ، ومن مات وهو محسن تأسفوا عليه ، أو غير ذلك فرحوا بموته ، ومن مات وهو حسن العمل بعد قليل من العمر ، فهذا مدة عمره ، ومن مات كذلك وهو سيئه ، فنقصان عمره من شؤم عمله ، ومن طال عمره منهما فالمحسن زاده اللَّه في عمره ببركة عمله الصالح ، والآخر هو عمره المقدر له ، ليزداد من الشر ، فبعد صلاة المغرب والنافلة بعدها سار سيدنا إلى الحاوي وسرنا معه فالتقانا محمد بِلْفَقْيِهْ الصعدي ، الملقب بمحيود ، جاء من بَلَدِه شبام ، وكان خادماً لسيدنا ، ويحفظ ديوانه ، فصافحه وشكا إليه حاله وأحوال الناس وما حصل عليهم من الظلم الفظيع ، وقال : فلان غُرِّم كذا ، وفلان كذا ، وأنا أخذ عليَّ خمسين قرشاً وعادتي خمسة ومثل هذا فقال سيدنا له : إذا ظلمكم حاكمكم ، فماذا تريد أن أفعل ، فقال : أريدكم تقبضون بحلقه فتخنقونه وتقتلونه وتريحونا منه ، أو قال : من شره ، فتبسم سيدنا وضحك وسكت ، فكان من قضاء اللَّه وقدره أن عيسى بن بدر تلك الساعة بعينات في ضيافة له من آل الشيخ أبي بكر بن سالم ، يتعشى فنشبت قطعة لحم في حلقه ، فلا خرجت ولا دخلت فانقطع نَفَسُه ، وخرجت روحه ، ومات في الحال ، وقُبِر هناك في الكثيب الأحمر ، كما ذكر سيدنا قبل موته بيوم ، وأظن أن كلامه المذكور في المسجد ، فيه

إشارة إليه واللَّه أعلم .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا أكثر الإنسان الظلم ولم يزل يظلم كان كالجريدة الخضراء ، كلما لها ينقص ماؤها وخضرتها حتى تيبس ، فعند ذلك تسرع النار في إحراقها.
وقال رضي اللَّه عنه : إن انتفع أهل الزمان بشيء فَبِنِيَّاتهم( ) ، وإلا فجميع أعمالهم مدخولة ، فإن لم يقروا بهذا فعليهم البيان ، ومثال أهل الزمان كمثل من جاء إلى سلطان ، يحمل حطباً( )، فماذا يستحق من السلطان ، ما هو إلا أن يشب في حطبه النار ، قال بعضهم : النار فيك وبالأعمال تحرقها الخ ، ثم قال : من جاء بوعاء يطلب فيه سمناً( ) أعطوه فيه ، وأهل الزمان لا أوعية لهم طاهرة يطرح لهم فيها ، وكان فيمن مضى ، إذا جلس الإنسان إلى أحد من أهل الدين نحو ثلاثة أشهر صار داعياً إلى اللَّه ، وهؤلاء لا يمكن ذلك منهم .
وقال رضي اللَّه عنه لما فرغ القارئ يوماً من قراءته ، في "الدعوة التامة" : ما على الإنسان إلا أن يبين ويوضح لهم ، ولا عليه إن لم يحفظوه ويعملوا به ، وما هو إلا كحديث أبي هريرة ، لما حدث عنه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم حديث( ) : ((لا تؤذ جارك ، بقتار قِدْرِك)) ، ما رأى منهم الإصغاء والإقبال ، فقال : مالي أراكم عنها معرضين ، واللَّه لأرمين بها بين ظهوركم . والناس اليوم تالفين متلفين خاربين ، فينبغي أن يأخذ الإنسان منهم حذره ، فإنهم كالأرض المُرْضِية ، يحذر أن يطرح عليها متاعه ، وإن انتقل إلى الأرض التي لا أَرَضَةَ فيها فهو أصلح وأحسن ، وإن بقي فيها فليحزم بمتاعه لا تأكله .
وذمُّ الناس على مقتضى الأكثر منهم ، وإن كان فيهم بقية خير ، كما يقال لقليل المال : إن ما معه مال ، أي كثير، وإن كان معه قليل ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : لا يكن لك في الدنيا حسيب إلا نفسك ، إن أردت خفة الحساب في الآخرة فحاسبها في الدنيا ، والناس ما يبالون بك ولا يدرون ما تقول.

وقال رضي اللَّه عنه : معنى اجعل القرآن ربيع قلبي ، كما في الدعاء أي بأن يعمل في القلب من الأنوار والعلوم ، كما يعمل الربيع في الأرض .
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي للإنسان في هذا الزمان أن لا يتحمل ، فمن الذي سلم من شواغل الزمان كما ينبغي ، زمان ردي ، زمان هم وغم ، وفي هذا المعنى قيل : المشغول لا يشغل .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا أردت أن تعرف عقل الرجل من حمقه فاسأله عن مسألة فإن أجابك عنها ، ولم يزد عليها ، فهو عاقل ، وإن أتى بها وذكر كلما في نفسه وتكلم به ، فهو أحمق ، والفرق بينهما أن العاقل صحيح القصد والعمل ، والأحمق صحيح القصد دون العمل ، ومرة قال : والمجنون فاسد القصد والعمل ، وإن أردت أن تعرف أنه ثقة أوْ لا ، فاسأله واتقَن جوابه ، ثم امكث مدة ثم اسأله عما سألته أولاً ، فإن تكلم ثانياً مثل كلامه أولاً ، فهو ثقة ، فإن زاد أو نقص أو لم يكن على ترتيب الأول فليس بثقة .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل هذا الزمان ما يسعهم إلا الجائز ، وقليل فيه( ) ونادر من يرتقي رتبة العزيمة ، فلا حكم له ، ومن أتانا من هذا القليل لا نصدقه حتى نختبره ونتحقق صدقه ، فإن من لا فيه دين يردعه ولا عقل يحجزه فلا يبالي بما يخل في دينه ولا مروءته ، فليس بإنسان .
وقال رضي اللَّه عنه : من أتانا يطلب الطريق العامة ، أخذنا بخاطره وآنسناه ، ومن أتانا طالباً للطريق الخاصة ، استخدمناه وابتليناه ، مجابرة للأول باللائق بجنسه ، واختباراً للثاني وكسراً لنفسه ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : ربما نسمع من أفعال أهل البلاد ما لا ينبغي ، فإنه لا يسرنا أن نسمع شيئاً مما يتعاطونه ، مما يفعل داخل البلاد ، إلا كما كذا ، ونحن معهم كامرأة طلقها زوجها وأخذ غيرها ، ومعها له ولد ، فلا بد ما تسأل عنه ويسأل عنها لأجل الولد ، ولو كان كل منهما قد أَيِسَ من صاحبه ، كذلك بيننا وبينهم من التعلق كما بين المرأة المذكورة وزوجها ،

من قرابة وصحبة وجوار وغير ذلك ، فما نسأل عنهم إلا لذلك لا غير.
وقال رضي اللَّه عنه : نحن مع أهل الزمان على حد قوله تعالى :{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ }( ) لتعرف أحوالهم في دينهم .
وقال رضي اللَّه عنه : من لم يُبَلْ بدينه لم يَبُل اللَّه به ، احفظوا هذه القاعدة .

وتكلم رضي اللَّه عنه عشية الاثنين في 21 رجب من سنة 1122 في ذم المعاصي والفضول من الكلام ، فقال : هو( ) ما سوى ذكر أو قراءة أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو نصيحة { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيب }( ) ولو أن أحداً أراد أن يفعل ما يُستَحْيَى منه ، وعنده طفل لخاف أن يعرف ما أراد فعله ويفطن له ، وبقي يلتفت يميناً وشمالاً ، فكيف بمن لا يستحيي من ملائكة كرام ، وهم معه أينما كان ، لا يفارقونه ، يحصون ما يعمل ويقول ، ولا يستحيي من خالقه ، فمن لا يعتقد أنه [أي اللَّه] ثالث الاثنين ، ورابع الثلاثة ، فما معك منه إلا خير( ) ، ولو جلس جماعة في محل بقدر قراءة يس ، لاشتغلوا بفضول الكلام ، ولا يحترمون القرآن ، وسواء المسجد وغيره ، ولو أنهم جعلوا للَّه من أوقاتهم بقدر ما جعل عليهم في أموالهم . وقد حكي أن سليمان بن داءود عليهما السلام أرسل بعض الجن ، أو قال بعض الشياطين إلى موضع ، وأمر آخر بأن يتبعه ، ويسمع كل ما يقول ويُعلمه بذلك ، فمضى معه ولم يسمعه تكلم بشيء، إلى أن مر بسوق ، وفيها كثرة من الناس ملتهين ببيعهم وشرائهم ، فوقف ورفع رأسه وقال : سبحان اللَّه ، ووضعه وقال : سبحان اللَّه ، فأخبر سليمان بذلك ، فسأله عن ذلك فقال : تعجبت من هؤلاء الفوقيين [أي الملائكة] وسرعة ما يكتبون ، ومن هؤلاء التحتيين وسرعة ما يُملون .

وقال بعض الصالحين : لو أنهم [أي الملائكة] أخذوا من الناس بعض المداد والقرطاس( ) الذي يكتبون به أقوالهم ، لأقلوا من الكلام . وكان أبو يزيد إذا دخل الخلا يفرش للملائكة إحرامه عند بابه ، ويقول : اجلسوا ، ملائكةَ ربي ، يعني أنه كان في غاية الحياء من اللَّه أولاً ، ثم منهم [أي الملائكة] ، فإذا فارقوه في هذه اللحظة ، فرش لهم واستراح لعلمه أنهم فارقوه إذ ذاك ، فلو أن أحداً تكلم في الخلاء ، لكلفهم الدخول عليه فيه ، لِكَتْب ما يقول ، ولا لهم [أي أهل الزمان] لذة في ذكر ولا صلاة ولا قراءة ، ومن كان يشق عليه فعل المعصية ، ففعلها مرة ، سهلت عليه بعد ذلك ، كما يحكى أن بعضهم كان يسير في طين ووحل من جانب الطريق رافعاً ثيابه ، يتحفظ عن السقوط وعن البلل والطين لئلا يصل ثيابه ، فاتفق أنه سقط فبعد ذلك أرخى ثيابه ، وسار مرخياً ثيابه في وسط الطين ، وجعل يبكي ، فقيل له في ذلك ، فقال : كنت خائفاً من السقوط ، فسقطت فسهل عليّ ، وهكذا المعاصي .

وقال رضي اللَّه عنه : من يرى عند فعل المأمورات والمطلوبات انبساطاً وانشراحاً ، وعند فعله خلاف ذلك ، يرى اشمئزازاً وحزازةً في قلبه ، فهو الذي يَنتفع بالنصيحة والموعظة ، ثم تمثل بهذا البيت :

إنما تنجع الموعظة في المرء ... إذا كان له من قلبه واعظ

وقال رضي اللَّه عنه : قد جرت عادة أهل العلم إذا ذَكَر أحدُهم عن أحد كلاماً يحكيه عن نفسه مما يكره لا يحكيه عنه بصيغة لفظه عن نفسه ، بأن يكون فيه ضمير المتكلم ، بل يذكره بصيغة الإخبار عن غيره ، ويأتي فيه بضمير الغائب ، كما لو حكى عن أحد الطلاق ، فيقول : قال فلان امرأته طالق ، ولا يقول : قال امرأتي طالق ، وكقال فلان هو يهودي إن فعل كذا ولا يقول قال أنا ، وكل ما يجري هذا المجرى .

وقال رضي اللَّه عنه : إذا لم تعلم ما عَمَلُ الإنسان ، فاعرف جزاءه ، تعرف به عمله ، إذ الجزاء من جنس العمل .

وقال رضي اللَّه عنه : الضلال والهداية من اللَّه تعالى ، لكنه يُضل على أيدي الشياطين ، ويهدي على أيدي الأنبياء ، فإذا كان الإنسان سائراً على السيرة السوية ، فعرض له الشيطان ، وقال له : تعال من هنا، فإن كان له تمييز به ، وأراد تعالى ثباتَه ، قال له : لا أتبعك فإني أعرف الطريق وقد مارستُها، ومن أراد إضلاله امتثل ما أمره به الشيطان.
وقال رضي اللّه عنه : إنه ستكون بعدنا أمور هائلة جداً ، فاستمسكوا بخصلتين : الانقباض والتمسك [أي بالدين] ، فاعملوا عليهما ، واستوصوا بهما ، ولعل أن يكون أحد يجهجه( ) على الدين كما يجهجه على الزرع ، ورأينا الناس اليوم إنما همتهم الدنيا فقط ، وما يريدون من الصالحين إلا من له منهم حال ، أن يزيل عنهم بحاله ما يُنْقِص أموالهم ، مع عدم إنفاقهم لشيء في سبيل اللّه ، ومن تأمل أحوال الأنبياء ومن تبعهم من العلماء والصالحين في الدنيا ، عرف أنه لم يسترح فيها ويطمئن بها إلا أحمق جاهل .
وقال رضي اللَّه عنه : لا تتول إلا إذا كان عليك( )، واحذر أن تتولى إذا كان لك ، فتخرج من الدين وتصير تابعاً للَّهوى والحظ ، بل اسأل عنه العلماء المتقين، دون المتساهلين.
وقال رضي اللّه عنه : قد تعلق الإمام الغزالي آخر عمره بعلم الحديث ، حتى قال بعضهم : لو طال عمره لأرخص تلك البضاعة ، وإنما تعلق به لأن من تمكن في العلم اللدنّي وتبحر فيه ، لا يلائمه ويطابعه ، إلا العلوم اللدنية كعلوم الحديث ، لأنها من عند اللّه على لسان رسوله ، أو كما قال . وسمعت سيدنا يقول : كان أكثر تعلقه( ) من كتب الحديث بجامع الترمذي ، حتى روي عنه أنه قال : من عنده جامع الترمذي ، فكأنما عنده نبي يتكلم( ).

وطلب منه رضي اللَّه عنه بعض السادة كتاب "موجبات الرحمة في اختلاف الأئمة"( ) ليقابل عليه نسخة عنده منه ، فقال له : أما أنت فنعم ، وأما المقابل معك ، فإن كان فلان أو فلان أو من هو مثله

، وإلا فلا ، ثم قال نفع اللَّه به : علمان لا نأمن متفقهة الزمان عليهما: علم الحقائق وعلم الخلاف بين الأئمة ، وعندنا منهما كتب كثيرة ، لكنا ما نظهرها .
وقال رضي اللَّه عنه ما معناه : اطرح نفسك على التراب ، فإن كنت تراباً فلا حرج عليك إذا وضعت التراب على التراب ، وسَلِمْتَ بذلك من الدعوى ، وإن كان معك شئ فلا تظن أن هذا يضعك ، بل يزيدك رفعة ، وما أظن أحداً في هذا الزمان ، يدعي لنفسه شيئاً إلا من عدم العقل ، وأما من ادَّعي له ، فإنما ذلك من كثرة الكلام ، وقد تكون أسباب وأغراض لمن يدعي ذلك لأحد ، تحمله على أن يدعيه له ، فقد قال رجل لرجل آخر لا نعده في درجة أهل الإيمان ، أو قال الكامل ، قال له : أنا أعتقد أنك في منزلة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، ونحن لا نسلم لمن يدعي بما ادعاه ، ولا لمن ادَّعي له بذلك ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان يحبون أن تحصل لهم الكرامات من الصالحين إذا وافقتهم على مقتضى أغراضهم ، وهم لا يعرفونها بل يسمعونها في الكتب ، فإذا رأوها فليفعلوا إن كان فيهم أهليَّة لذلك ، وإذا ذكر لهم : إن فلاناً خَرَج من ماله للَّه ، أو تصدق بكذا كذا ألف ، نفروا من ذلك ، فإنما يحبون منها ما يزيدهم في دنياهم ، وأما ما ينقصهم فيها فلا يريدونه ، ثم قال : وهذه الأشياء( ) نادر وقوعها جداً ، ولا تحصل إلا في أوقات متطاولة لغرض أو فائدة ، وفي حال غَيْبة ، وقد لا تحصل لأحد منهم مدة عمره ، إلا نحو مرة أو مرتين ، ولهذا سُمِّيَت خارقة للعادة ، إذ لو غلب وقوعها لما قيل لها أمر خارق للعادة ، وفي الحقيقة إنما الكرامة خرق عادة النفس ، وقطع ميلها عن حب الدنيا وملاحظة الأهوى ، ومجانبة الكبر والدعوى ، وسائر الأخلاق المذمومة ، وتحليتها بالمحمودة ، أو كما قال بمعناه .
وقال رضي اللَّه عنه : هذا الزمان هو الذي قال اللَّه فيه :{ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ}( ) فعلى الإنسان فيه بخاصة نفسه ، يمنعها من كِبْر وحسد وغل وحقد ، ولا عليه

في ذلك من غيره .
وقال رضي اللَّه عنه : الأوراد لا تؤثر إلا مع الحضور ، ولا تنفع إلا مع الدوام.
وقال رضي اللَّه عنه : أخص ما يكون من معاني القرآن ، التكلم به على لسان الحق( ) ، ثم بعد ذلك الخطاب مع الحق وهو ما فيه ضمير الخطاب كإياك نعبد ثم ما كان فيه نيابة عن الحق كآيات الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وغير ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا جاء في القرآن الخطاب لهذه الأمة ، فهو عام فيها ، ولا يختص بالفاعل ، كقوله تعالى :{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَآصَّةً }( ) ، أي إنها تصيب الظالم وكل من ينسب إليه ومن يجالسه أو يواكله أو يميل إليه بأي وجه ، وإذا جاء الخطاب لغير هذه الأمة ، فيكون لمن فعل مثل فعلهم .

(1/114)

وقال رضي اللَّه عنه : القرآن كلام اللَّه ، سماه عزيزاً لعزة قدره ، لأنه نزل من عزيز على عزيز ، ولا يستلذ قراءته إلا أهل البصيرة ومن في قلبه نور ، ويستثقل منه الشياطين ، فمن يمل من قراءته فذلك في قلبه شياطين ، لولاهم ما كان منه ذلك ، إلا إن كان مع كثرة القراءة ، فإن البشر من طبعه الملل ، وقد قال الفضيل : لو كنت عرفت من القرآن أولاً ما عرفته منه الآن ، ما نقلت حديثاً، يعني لأن جميع العلوم تتفجر من القرآن ، فإذا أعطاه اللَّه الفهم فيه ، فلا يحتاج إلى تحصيلها من غيره ، وقد أجملها فيه ، والعمدة على نور القلب .
وقال رضي اللَّه عنه : من تهاون بطاعة اللَّه الظاهرة ، ووقع في معصيته لابد له من الموت ، عاجلاً وآجلاً ، وأول ما يموت منه قلبه ، وهو الموت العاجل .
وقال رضي اللَّه عنه : من يضيق من الجلوس في المسجد والقراءة ، قل لي ذلك لأي سبب ، ما هو إلا إن في قلوبهم شياطين ، يُضَجرونهم من الجلوس فيه ، ومن تلاوة القرآن ، مع أن التالي مجالسٌ رَبَّه ، فلا تصلح قلوبهم حتى تخرج منها الشياطين .
والملائكة لا تتبع الشياطين ، وهذا صراط اللَّه

المستقيم ، حيث حكى عنه أنه قال :{ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ} إلى قوله :{ شَاكِرِينَ }( ) وهو يجري من ابن آدم مجري الدم ، إن لحق إلى القلب مدخلاً دخل إليه ، وسببه لُقَم الحرام والشُّبَه ، ومن أكل طعاماً حراماً لم يعلم بحرمته فلا لوم عليه من حيث ظاهر الشرع ، لكن يحصل منه تأثير في أمر غير ذلك .

(1/115)

وقال رضي اللَّه عنه : قعد الشيطان لكل أحد على طريقه التي يصل بها إلى اللَّه تعالى ، لأنه عدو ممارس عارف بالطرق ، فجاء لبعضهم في البخل ومحبة الدنيا ، ولآخر في الرياء والكبر وغير ذلك ، وأهل أخلاق السوء كل منهم هو متصف بها ، ويعمل على مقتضاها ، وإن لم يعرف تفصيلها ، ويعبر عنها كالضعيف( ) ، الذي يحب أن يكون أحسن من غيره ، وإذا فعل أمراً أحبَّ أن يُرَى ، فهذه الأشياء ونحوها ، هو الرياء والكبر المجبول عليها ، وأما أضدادها كالإخلاص ، فإنها من ثمرات التوحيد، لا تهتدي العقول إليها، حتى جاءت الأنبياء ، وعرّفوا الناس التوحيد وثمراته ، وقد يدرك بالعقل الخالق للأكوان ، ولكن لم يهتدوا إليه إلا بتعريف الأنبياء فمن نظر السماوات والأرض وغيرهما ولم يعتقد أن لها خالقاً فهو مصاب في عقله ، وما أجهل ممن يفعل صنماً بيده ويعبده ، وبعضهم يجعله من سكر فإذا جاع أكله .
وقال رضي اللَّه عنه : الهداية بعد الآيات ، ما هو ولا بد ، ومن تأمل أحواله صلّى الله عليه و آله وسلّم ، علم أنه قاسى منهم من التعب أمراً عظيماً ، ومن مشركي مكة ومنافقي المدينة خصوصاً ، وابن أبيّ في المنافقين كأبي جهل في المشركين ، والإنسان محجوج بمجرد عقله ، ولو لم يكن كتاب ولا رسول ، وإن كان في أمور الآخرة بُعْدٌ على العقول ، لكنَ يلزم بالتكذيب بذلك التكذيب بمن أخبر به ، وهو اللَّه ورسوله ، وكنا عزمنا على وضع رسالة في الإلهيات والنبويات وأمور الآخرة ، ولكن( ) منعنا منه اشتغال الناس وعدم إصغائهم ، ولكنا إن شاء اللَّه سنجعله في فصل من الفصول العلمية ، أقول : وكلامه هذا

في مجلس الدرس ، بعد العصر في المصلى ، فلما قام ودخل ودخلت معه إلى الضيقة ، قال لي نفع اللّٰه به : الحذر تعلق قلبك بشيء من ذلك ، وإن ورد عليك شئ منه فأعرض عنه ، فقلت : عسى اللّٰه ببركتكم يحفظني من جميع الأسوى ، قال : إن شاء اللّٰه .

(1/116)

وسئل رضي اللَّه عنه عن حديث : ((إن للَّه في كل ليلة من شهر رمضان كذا كذا عتيقاً من النار ، وفي آخر ليلة منه يعتق كما أعتق في الشهر كله)) ، هل هذا يكون شاملاً للأحياء والأموات ، وللإنس والجن ، فقال : هذا للأحياء من الإنس والجن ، وأما الأموات فقد غفر لهم ، وليسوا في دار تكليف ، وإذا جاء حديث يُنظر أولاً في صحته ، فإذا صح نظر فيه العالم وتكلم وفصل فيه ما يحتاج فيه إلى التفصيل ، وإذا لم يصح لم يحكم فيه بشيء إلا إذا هو في الوعد ، فيبقى العبد على حسن الرجاء في اللّٰه تعالى ، وأمور الآخرة يؤمن بها كما جاءت بلا تأويل ، وأمور العقيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الإلهيات ، والنبويات ، وأمور الآخرة ، وللعلماء في كل قسم كلام ، وأضيقها مجالاً الإلهيات ، أو كما قال .
وقال رضي اللّٰه عنه : إنما يُستدل على كمال الشخص ، بتأديته الفرائض على كمالها لأنها عمود الدين ، فمن أقامها بواجباتها وسننها وحضورها من غير وسوسة ، دل ذلك على كماله ، وحسن عناية ربه به ، وإن عكس دل ذلك على عكس ما ذكر .
وقال رضي اللّٰه عنه : إن أهل الكرامات من الأولياء ، قل أن يُظهروا منها في هذا الوقت شيئاً لفساد الزمان وتعلق أهله بالدنيا ، فلو قال ولي لواحد منهم : قم وانظر في المحل الفلاني من بيتك ، تجد فيه ألف درهم ، خذها واعط الفقراء منها خمسين درهماً ، لبَخِلَ ولم يسمح بشيء ، وأراد أن يأخذه كله ، وقال : لو كان هذا ولياً لما أراد مني شيئاً، فانظر أحوالهم هذه ، ما أبعدها من الصلاح والاعتقاد ، وما أقربها من الطمع والفساد أو كما قال .
وقال رضي اللّٰه عنه : إذا تعارض الداعيان في

الإنسان ، فيترجح أحدهما إما بحكم شريعة ، أو بحكم طبيعة ، أو عادة ، إما يرجحه هو بنفسه ، أو يرجحه له غيره ، وكل ما تحدث به نفسك مما لا فائدة فيه ، فاشتغل عنه ، بلا إله إلا اللَّه والذكر والاستغفار .

(1/117)

وقال رضي اللَّه عنه ما معناه : إذا أراد اللَّه من عبد أمراً ، أجراه على خاطره ، وأرسل عليه داعية إلى فعله، وأنساه الأمر الآخر المقابل له ، ليُمضي اللَّه فيه ما أراده منه.
وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه لم يجعل أسراره ، أو قال ولايته إلا في من يصلح لذلك ، فإنه يؤهله له وينظفه ، فإذا صلح فعل ، فما كان إلى اختيار العبد فعلى التدريج ، وما كان إلى اللَّه ففي لحظة ، كما إن أحدكم إذا أراد أن يضع شيئاً عزيزاً في مكان فإنه يخم المكان وينزهه ثم يطرحه ، وربما قال : وإذا أراد للعبد خفف عليه ما هو باختياره ويسره ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : من اصطنع معروفاً إلى من يخاف من لسانه ، نُظر إلى اصطناعه إلى أهل الخير والمستحقين ، فإن كان نحو تسعة أعشاره ، وإلا فهو رياء وكذب .
وقال رضي اللَّه عنه : العلم مع الرعونة( ) لا ينفع ، كوضع المسك على الوسخ ، وكان الأولون لهم حاجة إلى رياضة النفس( ).
وقال رضي اللَّه عنه : إنهم بنوا أمورهم على العلم ، ولكنهم يعلمون الأصول أولاً، وإذا احتاجوا إلى الفروع النادرة يحصل لهم فيها فتوح من اللَّه تعالى .
وقال رضي اللَّه عنه : وفي قول من قال : من عمل بما يعلم أورثه اللَّه علم ما لم يعلم : هو العلم اللدني .
وقال رضي اللَّه عنه : العالم إذا لم يعمل بعلمه ، لا يقال له عندنا عالم ، إلا أن يقال عالم فاجر ، بأن يوصف بالفجور ، والجهل على هذا أسلم له ، وتقريبه مع هذا الوصف فيه هدم للدين أكثر .
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي لمن طلب العلم أن

يتعلم المسائل التي تقع غالباً، فإن حصلت مسألة لا علم عنده فيها ، فيأخذها من الكتب إن أحسن أن يأخذها منها ، وإلا سأل عنها العلماء أهل الدين .
وقال رضي اللَّه عنه : قيل لبعضهم أيٌّ أوسع ، العلم أو الجهل ، فقال : العلم أوسع للمتحري ، والجهل أوسع للمتجري .

وقال رضي اللَّه عنه : جامع التقوى فعل الطاعات وترك المعاصي خشية من اللَّه سبحانه ورجاء ثوابه وامتثال أمره .
وقال رضي اللَّه عنه : كان الصالحون ، تُستر كراماتهم وقت حياتهم ، حتى عن من يطلع عليها قبل موتهم ، بحيث لم يفهموا أن ذلك كرامة إلا بعد موتهم ، وكذا قد تستر ما داموا في الدنيا ، حتى عنهم أهل الكرامات أنفسهم .
أقول : وقد رأينا منه رضي اللَّه عنه كثيراً مما لم يخطر في البال أنه كرامة إلا بعد وفاته ، ولو لم يكن من ذلك إلا معرفته بدخول وقت الصلاة سيما وقت الفجر قبل أن يعرفه الناس حتى إنه نفع اللَّه به يركع سنة الفجر ثم ينزل إلى الضيقة ويجلس إلى أن يتبين للجماعة الفجر ، ويركعوا ، ثم يأتيه الخادم ويؤذنه للصلاة ، فهذه عادته كما هي عادة النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، وربما أشكل على الجماعة الفجر ، سيما مع شدة ضوء القمر وتراكم السحاب ، فيعلمهم هو بالفجر ، وكل أحد يرى ذلك منه ولم يخطر في باله أنه كرامة خارقة للعادة ، لكن ظهر ذلك بعد وفاته رضي اللَّه عنه .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان تغلب عليهم العادة ، سواء صلحت أو فسدت ، لأنهم عدموا من يقتدون به من الأخيار ، فبقوا على آرائهم ، وهذا الزمان قليل الأخيار ، من أخيار الدين وأخيار المروءة .
وقال رضي اللَّه عنه : من لم يزهد في الدنيا كيف يطلب الجنة ، فترى الإنسان يحزن على فوات لقمة أو خرقة ، وعاده يحدث نفسه بحصول الجنة ، فإن مثل هذا لم يكن متأهلاً للجنة .
وقال رضي اللَّه عنه : الحكيم من يدبر الخوف بالحزم

، ويدبر الرجاء بالأمل .
وقال رضي اللَّه عنه : لا بد للقطب من أربع خصال ، حسن السيرة والسريرة والصورة ، هكذا رأيت في الأصل الذي نقلت منه فلا أدري أنسيت الرابعة أو كذا ذكره .
وقال رضي اللَّه عنه : قال سيدنا عليّ عليكم بالنمط الأوسط ، يتبعكم العالي ، ويلحقكم التالي ، ومرة قال : عليك بالوسط من الأمور ، يُتبعك ويُلحقك بالأفراد .

وقال رضي اللَّه عنه : المطلوب من عبد ابتلاه اللَّه ببلية ، أن يصبر ويظهر التجلد ، رجاء الثواب ، وأن يعافى من ذلك ، فإن ابتلي بسبب جور أو مخالفة أمر فليجتنب ذلك ويواسي( ) بين الأمور ، فإن أظهروا المعك( ) والخلاف ، زِيْد عليهم وهذا مشاهد مجرب ، وأهل هذا الزمان يعكسون الأمر ، فالغالب على الأكثرين منهم التورط بهذا السبب ، ومثاله بين الناس أن من أراد أن يضرب عبداً له عشرةَ أسواط مثلاً ، فرأى منه السكون والتسليم ، اكتفى منه بسوط واحد ، وربما تركه رحمة له ، وإن أظهر المعاندة والتفظظ لم يكتف منه بذلك، بل ليس ينحصر ما يحصل عليه منه، وهذا ضابط مجرب .
وقال رضي اللَّه عنه : خذوا هذه الكلمة حكمة ووصية ، إذا اشتبهت عليكم الأمور فاسلكوا الوسط .
وقال رضي اللَّه عنه : الظلم المرتب خير من العدل المسيَّب، فما بالك بعكس الأمر فيهما.
وقال رضي اللَّه عنه : كل أمر متوسط لا يضر ، وكثرة الظلم وكثرة العدل لا يستحقه أهل هذا الزمان ، لأن فيهم من لا يستحق الظلم ، وفيهم من هو جدير به ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : الاحتكار سُحت ، وقد وجدنا كثيراً من الناس فعلوا ذلك قاصدين الربح ، فأصبحوا فقراء لا يجدون كفاية ، إذ لا بركة في اغتنام الناس .

وقال رضي اللَّه عنه : من تأمل أحوال الصحابة رضي اللَّه عنهم ، بعد ما فتح اللَّه عليهم الفتوح الكثيرة ، رآهم مع كثرة الدنيا في أيديهم ، ما شُغلهم إلا باللَّه ، والذي في أيديهم كأنه ليس هو لهم ، ولا بينهم وبين غيرهم فيه مزية ، إلا بكونهم يتصرفون فيها فقط ، فقد كان الزبير رضي اللَّه عنه له ألف عبد ، يؤدون له الخراج ، فإذا جاءوه به في مجلس ، ما يقوم من مجلسه حتى لم يبق له منه درهم ، ويفرقه في الحال ، وما الدنيا المذمومة ، إلا ما أشغل عن اللَّه ، وما لم يشغل عنه فهو زاد الآخرة ، وعلى هذا قد يكون الإنسان خلياً من الدنيا وهو مذموم الحال ، حيث يشتغل باهتمامه بها عن ذكر اللَّه ، وقد يكون معه من الدنيا شئ كثير وليس مشغولاً به محمود الحال أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : لا يُمسك الدنيا إلا الأوعية( ) الدنسة ، لأن في إمساكها شكّاً ، والأوعية الطاهرة لا تمسكها ، ولا يبالي أحدهم إن أصبح بِلاَ عَشَا ولا غدا .

وقال رضي اللَّه عنه : الإفراط في محبة الدنيا يغير العقل والدين، لأن طبعها الإسكار .

وقال رضي اللَّه عنه : علامة اليسر في الأمور ، أو العسر فيها يعرف من أوائلها ، إن رأيته يسراً فالباقي كذلك ، أو بالعكس فالباقي مثله .

وقال رضي اللَّه عنه : محبة الطاعة دليل العناية ، ومحبة الشر دليل الخذلان ، فعناية اللَّه تظهر على الإنسان ، وكذلك خذلانه لأن أفعال اللَّه باطنة ، ولا تعرف إلا بظهورها.

وقال رضي اللَّه عنه : العمدة على اجتماع الأرواح ، وبالأبدان يكون الاجتماع في الدنيا، وبالأرواح يكون الاجتماع في الآخرة ، ولا عبرة باجتماع الأبدان مع مفارقة الأرواح .

كلمات تقال عند الوقاع

وقال رضي اللَّه عنه : سمعنا في بعض الكتب أربع كلمات تقال حال الوقاع استحسناها ولا بأس أن يأتي بها بعد الوارد ، وهي : الحمد للَّه الذي جعله في حلال ولم يجعله في حرام ، وجعله في طاعة ولم

يجعله في معصية، وجعله في ستر ولم يجعله في هتك، وجعله في أخيار ولم يجعله في أشرار .
وقال رضي اللّه عنه : لا يستقيم ويتيسر للإنسان أمر الطاعة إلا بخصلتين : الرغبة والفراغ ، وأحدهما أبلغ من الأخرى( ) . الرغبة أنفع من الفراغ .
ما قيل في حسن الظن في غير محله
وقال رضي اللّه عنه : أهل الزمان يسمعون ما ورد في الحديث من مدح حسن الظن باللّه ، فيفعلون المعاصي ويصرون عليها ، ويغترون ويظنون أن ذلك هو حسن الظن المطلوب ، بل إنما هو سوء ظن باللّه ، وإن كلّمته قال : ما أنا صالح ، وأنا من شق الناس ، وما الذي يمنعه من الصلاح ، ومتابعة نبيه؟، ويتوكلون في ترك الطاعات ولا يتوكلون في ترك الدنيا ، ومن علامة المؤمن من المنافق ، إن المنافق جميع ما تراه منه في أفعاله وجميع أحواله يتتبع الرخص ، والمؤمن يحتاط ، وهذا منافق في العمل دون الدين ، وإن أنكر على من يرد عليه ، فهو منافق في الدين أيضاً ، ولكنك اجتهد أن لا تداينهم ، ولا تطلع على أحوالهم ، وإلا وقعت معهم في محنة ، وإن بليت بأحد منهم فاجتهد في سلامة دينك ونفسك من شره .
وقال رضي اللَّه عنه : حسن الظن في غير محله ضحكة للشيطان ، كإساءة الظن في غير محله ، كمن يرى عاميّاً يصلي ، وقد اطلع على حاله ، وعلم أنه لا يحسن شروط الصلاة ، ويخل في شئ من أركانها ، ثم إنه اقتدى به ، وقال : حسن الظن بالمسلمين واجب وهذا من قبيله ، فليس كذلك ، بل إذا علم منه ما ذكر لم يصح اقتداؤه به ، وهذا غالب في هذا الزمان السيء .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا لم يمكنك أن تقوم بالأمر كله ، فتوسط فيه ، فإذا كانت الغايات لا تدرك ، فالقليل منها لا يترك .

وقال رضي اللَّه عنه : من حصلت له عقوبة مع السيئات( ) حصلت له بعدها( ) مثوبة( ) لأن اللّه لا يعاقب إلا ويثيب .

وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه لم يخرج عبده المؤمن من الدنيا ، حتى يُضجره منها بمرض ونحوه ، ليخرج منها زاهداً فيها.
وقال رضي اللَّه عنه : من لا يعرف قواعد الصوفية ، يظن أنه تفاض عليهم العلوم( ) كذا بلا شئ وهم جلوس ، لا ، بل لا بد من الإقامة بالكتاب والسنة أولاً ، ثم يفتح اللَّه بعدُ عليهم بها ، وهي( ) علوم عين اليقين ، بعدما تنظفت قلوبهم من المذمومات وتحلت بالمحمودات ، وذلك حاصل من الإقتداء بالكتاب والسنة ، وهو معنى المجاهدة التي وُعِد عليها بالهداية ، فمنه( ) تحصل العلوم اللدنية ، ومن جلس ينتظر من غير اتباع لهما ، من أين يحصل له ذلك ، وقد كانوا يحصل لهم من الأنوار والعلوم والمعارف ما لم يعبر عنه ، وأما اليوم فقد تغيرت القلوب من أكل الحرام والشَّبَه .
وسألت سيدنا نفع اللَّه به : ما المراد بالعلوم التي ذكر الإمام الغزالي في الأربعين الأصل : إنه اختلف في سبب تحصيلها النظار والصوفية ، وذكر سبب ذلك عند كل منهما ، فقال رضي اللَّه عنه : تلك حقائق العلوم التي هي غاية كل علم ، فإنّ كل علم له حقيقة وسبب يتوصل به إلى حقيقته ، كمعرفة الملائكة وما ذكر من أمور الآخرة ، فتوصّل الصوفية إلى تحصيلها بالمجاهدة ، حتى بلغوا حق اليقين فيها الذي لا شك فيه فصار قولهم قولاً واحداً ، وأما النظار الذين توصلوا إلى تحصيلها بالقياس والدليل ، وتشبيه الشيء بالشيء فيقاس عليه ، فلم يبلغوا من حقيقة اليقين مثل ما بلغ إليه أولئك ، ولهذا ترى لهم في المسألة عشرة أقوال ، لكون مبلغ علمهم الظن ، فيقولون لكل قول من العشرة ، لعل هذا هو حقيقة اليقين ، والصوفية إنما كان قولهم قولاً واحداً ، لما حصل معهم من تحقق حقيقة اليقين .

وقال رضي اللَّه عنه : لا يفتح على أحد في العلم حتى يطلبه ويعتقد أنه خلي منه ، لأن المظاهر الدنياوية ، قد تنقص من المظاهر الأخراوية .
وقال رضي اللَّه عنه : ما جَرَّ إلى خير ، فعاقبته إلى

خير ، وإن كان في ظاهره شرٌّ ، وما جَرَّ إلى شر فعاقبته إلى شر ، وإن كان في ظاهره خيرٌ ، والعاقبة للخواتيم أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : كأن هذا الوقت مقدمة للحشر( ) أعني غير الحشر المنتظر.
وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه أمر بأداء الواجبات ، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك ، والعبد يفعل ويرجو القبول ، وهو فيها أقرب من غيرها ، لأنها دَين للّه ، واللّه مطالِب بها ، وقليل ما أحد يرد دَينه إذا أوصله المديون إليه ، ولو كان فيه خلل ، وأما النوافل فهي تبرع ، فلا تقبل إلا إن كانت على الوجه الأكمل .
وقال رضي اللَّه عنه ما معناه : لا يكون من الأرض شئ من المنافع والفوائد إلا وله سبب سماوي ، وبالعكس لا يحصل شئ من السماء من العقوبات ، من منع قطر أو عاهة أو أي شئ إلا وله سبب أرضي ، وإذا اعتبرتَ رأيت جميع الخيرات الدينية والدنيوية كلها إنما هي من السماء ، أو سببه من السماء ، فالقرآن نزل من السماء، وهو السبب في الهداية ، والماء نزل من السماء ، وهو السبب في النبات( ).
وقال رضي اللَّه عنه : العافية هي الستر للإنسان ، وعليها المعوّل في طلب الدين والدنيا .

وذكر رضي اللَّه عنه رجلاً ادعى ما لم يكن له أهلاً . فقال نفع اللّه به : أحد من الناس يشمخ بنفسه ، ولم يكن شيئاً ، ثم قال أقل أحوال أهل الحق ، أنهم يتواضعون وينصفون إذا ما رأوا صفاتهم المذمومة ، وأقل ما في حال الداعي إلى اللَّه ، أنه يتكلم على الناس بما يرقق قلوبهم ، وإن تعددوا( ) من قائم ظاهر للناس يدعوهم ، إن كان هو القطب فذاك ، وإلا فهو نائب عنه ، والقطب إن كان من أهل الخمول ، ينصِّب أحداً ظاهراً ويدعو له، فيعيش ذاك في بركته ، ومن افترقت الكلمة بسببه يدعو عليه الباقون .
وقال رضي اللَّه عنه : قيل : كل كلام يخرج وعليه

كسوة القلب الذي خرج منه ، فإن كان القلب منوراً خرج منه الكلام وعليه النور وإن كان الكلام مظلماً ، وإن كان القلب مظلماً خرج منه الكلام وعليه الظلمة وإن كان الكلام منوراً.
وذُكِر: إن الشيخ عبدالقادر رضي اللَّه عنه إذا تكلم على الناس يُسمع لهم الصياح والبكاء ويتوب كثير من الناس مما هم مصرين عليه ، وكان في لسانه لُكْنة لأنه كان أعجمياً ، فسافر بعضُ بنيه وطَلَبَ العلم واللغة( ) والنحو وغير ذلك ، حتى أتقن علوم الآلات ، فجاء واستأذن أباه أن يتكلم على الناس ، فأذن له ، فلما خرج إليهم جعل يتكلم ، ويتفصح في الكلام ، ويجتهد في الإعراب ، فصاح منه الناس ، واستغاثوا بالشيخ والده( ).
وقد قال سيدنا نفع اللَّه به في حِكَمِه : كلام أهل الإخلاص والصدق نور وبركة ، وإن كان غير فصيح ، وكلام أهل الرياء والتكلف ظلمة ووحشة ، وإن كان فصيحاً انتهى.
وقال رضي اللَّه عنه : قال بعضهم عملٌ واحدٌ في ألف شخص ، أبلغ من ألف قول في شخص واحد .

(1/125)

وقال رضي اللَّه عنه : إن فلاناً من السادة من أهل الشحر ، يطلب شيئاً من القصائد فاختر له ، قلت : إنه يريد التوالي ، قال : مليح ، ونحن ما جعلناها قصاراً قريبة اللفظ إلا لهذا القصد ، ليسهل حفظها على من أراده ، فاختر له إن كنت تحسن الاختيار ، قلت : إن اخترتوا له فهو أحسن من اختيار غيركم وأولى ، فتبسم وسكت قليلاً ثم قال : أنت تسمع ولا تعقل ، ودائرة العقل أوسع من دائرة السمع ، وقد ذمَّ اللَّه سبحانه بعدم العقل أبلغ مما ذم بعدم السمع ، فقال اللَّه تعالى : { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ }( ) الآية ، فلو قال : ويعقلون لكان أهون ، فلما نفى عنهم العقل أيضاً ، مع نفي السمع كان ذلك في أقصى غاية من الذم ، أما سمعت في القصيدة قولنا فيها: الجسم المشبه بالبوّ( )، تشوفونا ندخل ونخرج ، ولا أنتم داريين ، فما ترون حال من يخطر في باله أنه يصلي قائماً أو

قاعداً ويتخوف السقوط كل حين ، فخذوا منا القليل ، ولا تطلبوا الكثير ، فإن القليل ممن هذا حاله كثير ، كالرجل المريض ، إذا جاء عنده أحد يستند ، ويتحمل بالقوة ، ولكنه يغلبه ما يجد ، وأهله يريدونه يأكل شيئاً ، ويسقونه الماء ، كل ذلك يريدون عافيته وحياته لنفعهم واحتياجهم إليه ، أو لرغبتهم في حياته ، وهو في ذلك مشغول عنهم بما هو فيه ، فقال له رجل كان حاضراً : ما هذا إلا بخت لأهل الزمان يوم يرونكم كل حين . فقال رضي اللّه عنه : لكن أهل الزمان ما يحسنون يضمون البخت ، ولا يعرفون قدر البخت ، إلا فيما بعد، كالمرأة السوء ما تضم البخت ، كلما مس يدها يريدها( ) ، جَرَّت برجله. قلت : إن الأمر كذلك ، فماذا ترون؟، قال نفع اللّه به : خذ بالرفق لأنك خذها قاعدة : في كل أمر انبهم عليك فلا تدري حقيقته خذ فيه بالرفق ، قلت : الإنسان مع خِسَّة حاله يطلب الكمال ويرجوه ، قال : نعم ، لا ترى الشيء خاصاً بك ، كما إذا كان عندك قوت طيب ، ومعك

ناس ، فإن كان كثيراً يكفيك وإياهم فتضلع منه ، وإن كان قليلاً لا تأخذه عليهم ، وخذ منه قدر حصتك ، وخل لهم الباقي ، قلت : فإن اعتمد الإنسان على المقادير تعطل ، وإن عمل ما أحسن ، ولا عرف كيف العمل. فقال رضي اللّه عنه : أشياء من المقدَّرات مقدرة مع العمل ، فلا المقدَّر يمنعك من العمل ، ولا العمل يمنعك من المقدَّر ، ولا بد لك من كلا الأمرين ، فتعمل بظاهرك ، وتعتمد على اللّه بباطنك ، فلا بد لك أن تزن نفسك بالأمرين جميعاً ، أما سمعت الشيخ علي( ) في الحدائق( ) ، كلما ذكر حديقة قال: وكيفية الموازنة .

ما قال في القضاء والقدر

وصافحه رضي اللّه عنه بعض الفقراء عليل الرِّجل ، فقال نفع اللّه به : الإنسان ضعيف ، ما يريد بطبعه إلا العطا دون المنع ، والعافية دون البلا ، وهذا لا يكون ، ولكن عطاء ومنع ، وعافية وبلاء ، وكذلك في كل شيء ، ولكن إذا نزل بك شيء من ألم تريد

دفعه ، أو نفع ترجو حصوله ، فاسع فيه بما له من الأسباب ، كتداوي ، حتى يجيك ما يغلبك ، حتى لا تبقى لك قدرة على شيء ، فحينئذ تنح عن طريق القضا والقدر ، ولو كان للإنسان عبد ما يريد منه إلا العطاء الدائم وكل ما يحب ، ولا يحتمل من سيده ما يكره ، ضاق منه سيده وباعه في الحال ، وهذا سر الرياضة والانقياد ، كالزئبق لو قُتل حصل بفتله قلب الأعيان ذهباً وفضة ، ونحن وإياكم على ما قال اللَّه تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام: {فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ }( ) أو كما قال.

وقال رضي اللَّه عنه : الأشياء تكون بأوقاتها ، لا بأسبابها ، ألا ترى الأمور تتم أسبابها فلا تقع ، وقد تقع بأدنى من ذلك ، وما على الإنسان إلا أن يطلب الفرج واللطف ، ولا عاد يبالي من أي وجه يجيء ، وقد تكون العقوبات على أشياء سبقت وأشياء نُسِيَت ، لأن العلم إليه سبحانه ، وما يكون من اللَّه سبحانه مَظْهر عذاب إلاّ وترى فيه الرحمة أكثر ، من أجل أن اللَّه سبحانه وتعالى سبقت رحمتُه غضبَه ، كالريح ، فإنه أهلك بها قوماً ، وقد رحم بها على ما ذُكِر في القرآن أقواماً كثيرين .

وسألته رضي اللَّه عنه : ما الفرق بين أمر القضاء والقدر ، وأمر الشرع. فقال نفع اللَّه به : القضاء والقدر هو الشرع ، فمن أمرك بالإيمان به؟ إلا الشرع ، فاعرف الحق واعمل به ، واترك الباطل ولا عليك ، فإن المبتدعة ضَلّلوا أهل السنة بالقضاء والقدر ، قالوا لهم أما رضيتم حتى كذَّبتم ربكم ، والإعراض عن مثل هذا أحسن ، فإن الغلوّ في مثل ذلك ما يحصل منه إلا التضليل ، وفساد الدين ، أو كما قال .

وسألته رضي اللَّه عنه : يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة سنة 1129 عندما خرج لصلاة الظهر ، أن أنقل من كتاب "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر"( )

للإمام الشيخ عبدالوهاب الشعراوي رحمه اللَّه تعالى أبياتاً كتبها يهودي إلى الإمام القَوْنَوي ، يسأله فيها عن حكم من رضي بالقضاء والقدر ، فأجابه بأبيات أخرى ، وقد مر ذلك في قراءة السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي ، في ذلك الكتاب في الدرس ، يوم الاثنين. فقال رضي اللَّه عنه : الحذر تنقلها فهي في غاية الإشكال ، وقد حذَّرناك وقلنا لك لا تنقل شيئاً إلا بعد أن تشاور ، ثم سكت ساعة ، ثم قال : هذه مسألة صعبة جداً ، ولا أحد من العلماء بلغ قعر بحرها ، وقالوا : لا يتضح أمرها إلا في الآخرة ، وأنت تريد أن تدخل لجة البحر من غير سباحة ولا سفينة ، فما لك ولهذا الأمر ، اترك الخوض فيه رأساً ، ولك شغل شاغل في العمل الصالح والأخلاق( ) عن هذه الأمور ، فهل سمعت هذا من قول ابن عربي ، احذروا هذه الطريقة ، فإن أكثر الزنادقة ما خرجوا إلا منها ، ثم قال فإذا كان علم الفقه ، وعلم الحديث ، في كل منهما فضولاً لا حاجة إليه ، فكيف هذا ، ولو أن الشعراني مثلاً استشارنا في تصنيف هذا الكتاب ، كان قلنا له لا تصنفه ، وقد أجملنا في "رسالة المعاونة" ما يتعلق بهذه المسألة بما فيه كفاية ، وذكرنا من الكتب ما فيها تفصيل لها ، وذكرنا إنه لا ينبغي مطالعة تلك الكتب ، وإنّ غَلَطَ من يقول إنه يفهم أكثر من غلط من لا يفهم ، فأعط الكتاب مولاه( )، وإياك أن تتصفحه وقل له : اطرحه في الخزانة في محله الذي كان فيه ، ثم إن السيد أحمد ما عاد قرأ فيه بعد ذلك ، نهاه سيدنا عن ذلك فرضي اللَّه عنه ما أشفقه على كل مسلم في دينه ودنياه .

(1/129)

وقد ذكر الإمام السيوطي رحمه اللَّه تعالى في "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" ، عند قوله تعالى :{ لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ }( ) عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال : لما بعث اللَّه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة، قال : اللّهم إنك رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأُطعت ، ولو شئت أن لا تُعصى ما عُصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت في ذلك تُعصى ، فكيف هذا يارب ، فأوحى اللَّه إليه إني لا أُسأل عما أفعل ،

ثم سأل عُزَيْر مثل ذلك ، فأجابه إني لا أُسأل عما أفعل ، فأبت نفسه حتى سأل أيضاً فأوحى اللَّه إليه إني لا أُسأل عما أفعل ، فأبت نفسه حتى سأل أيضاً ، فقال : أتستطيع أن تصُرَّ صُرَّةً من الشمس ، قال : لا أستطيع ، قال : أفتستطيع أن تجيء بمكيال من الريح ، قال : لا ، قال أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور ، قال : لا ، قال : بقيراط ، قال : لا ، قال فهكذا لا تقدر على الذي سألت عنه ، إني لا أُسأل عما أفعل أما إني لا أجعل عقوبتك ، إلا أن أمحو اسمك من ديوان الأنبياء ، فلا تذكر فيهم ، فمحا اسمَه من الأنبياء ، فلم يذكر فيهم ، وهو نبي ، فلما بعث اللَّه عيسى ، ورأى منزلته من ربه ، وعَلَّمَه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ويبريء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، سأل ربه عن ذلك فقال : اللَّهم إنك رب عظيم ، إلى آخر ما تقدم من سؤال موسى ، فأوحى اللَّه إليه ، إني لا أُسأل عما أفعل ، وأنت عبدي ورسولي ، وكلمتي ألقيتك إلى مريم ، وروح مني ، خلقتك من تراب ، ثم قلت لك كن فكنت ، لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك ، إني لا أُسأل عما أفعل ، فجمع عيسى عليه السلام من تبعه وخطبهم خطبة بليغة، فقال: القدر سر اللَّه فلا تَكَلَّفوه ، وبحر عميق فلا تَلِجُوه ، انتهى.

(1/130)

وقال رضي اللَّه عنه في قوله تعالى :{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}( ) الآية ، لم يقل نبيض وجوهاً ونسود وجوهاً لأنه أحال ذلك إلى أعمالهم ، لأن أعمالهم هي التي بيَّضتها وسوَّدتها ، واللَّه سبحانه بعدما أعلمهم أنه خالق للخير والشر، أحالهم على أعمالهم ، ولو شاء لخلقهم بيضاً وأدخلهم الجنة ، أو خلقهم سوداً وأدخلهم النار ، والإيمان بالقضاء والقدر واجب ، والاحتجاج به بدعة ، وكان بعض أصحاب بعض من المشايخ يتعاطى أموراً مُحَرَّمة فنهاه شيخه عنها مراراً ، وهو يقول مكتوب عليَّ ، فلما رآه مصراً على ذلك ، ويحتج بهذا الكلام ، استعد له يوماً بجملة أو قال بحزمة من جريد النخل ، فلما رآه فعل المنهيَّ أمَر به ، فبُطِحَ ، فأمر بضربه بتلك

الجرائد حتى كُسِّرت على ظهره ، فصاح بالشيخ ، فقال له الشيخ : هذا مكتوب عليك فلا تَصِحْ . ومن رأيته وهو عالم يعمل بخلاف العلم ، فاعلم أن العلم لا يصل إلى قلبه ، وإن رأيته يستدل لذلك ، سيما علماء الوقت ، فإنهم يحتجون للعامة ، ويعلمونهم الحيل ، ويكتبون لهم المناذرات الباطلة ، وليس من شأن علماء الدين ، إنما هم الذين يعلمونهم ، ويهدونهم ويبيِّنون لهم الحق ، ولو كنا والين على هؤلاء أو معنا وال يستمع الكلام ، فعلنا لهم أشياء ما يعرفونها، وإنما يعرفون أنها حق فقط ، فإنهم لا عهد لهم به ، فإذا رأوه ربما ينكرون ما لا يعرفونه .

وذكر رضي اللَّه عنه الأسباب ومسبَّبَاتها ، فقال : إنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، وقوع كل شئ مع سببه ، أن كذا يقع بكذا ، وكذا بكذا ، وعلى هذا ، والعالَم من أوله إلى آخره مدَبَّر على أيدي الملائكة ، لا على أيدي بني آدم ، حتى بنو آدم مدبَّرون بالملائكة ، حتى إن الإمام الغزالي ذكر : إن في باطن الآدمي سبعة ملائكة ، يدبرون غذاه ، هذا يدفع القوت إلى المعدة ، وهذا يستخرج الفضلة منها ، وهذا يدفع الدم إلى الكبد ، وعلى هذا ، هذا في السفلي من العالم ، وفي العلوي هذا يسوق السحاب ، وهذا يحمل الماء ، وإنما تدبير أمر الأرض وأحوال الدنيا بأيدي بني آدم ، لإقامة أمر اللَّه وأحكامه ، وإذا أردت أن اللَّه يجري بك على العادة من لطفه وكرمه ، فأجر أنت على العادة من طاعته وعبادته ، فإن اللَّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد اللَّه أمراً سبب له أسباباً ، وظهر سبحانه في الأسباب ، ولا يظهر بالقدرة في الدنيا إنما يظهر بالقدرة في الآخرة . فالقدرة في الدنيا تابعة للأسباب ، وفي الآخرة الأسباب تابعة لها ، والقدرة في الدنيا خافية في الأسباب ، والأسباب ظاهرة بها ، وفي الآخرة القدرة ظاهرة ، والأسباب خافية فيها ، ويجعل سبحانه لكل أمر سبباً غير سبب الآخر ، ليعلم الناسُ وسيع قدرته تعالى أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : رُبَّ مسخَّر للقضاء والقدر ،

مأجور في الشرع ، ورب مسخر له مأزور في الشرع ، وكل أحد مسخر للقضاء والقدر، ولكنه لا حجة لأحد ، لأنه لا جَبْر ، وكل الأشياء من القضاء والقدر ، لا من الأسباب ، والأسباب مظهر لها ومنه طول العمر بالبر ، والأسباب وما تعلق بها من القضاء والقدر .

(1/132)

وقال رضي اللَّه عنه : الأشياء من القضاء والقدر ، لا من الأسباب ، والأسباب مظهر لها ، ومنه طول العمر بالبر ، وقصره بالفجور، والأسباب وما تعلق بها من القضاء والقدر ، فإذا بر وطال عمره ، أو فجر وقصر عمره ، فهو مَقْضي عليه أن يفعله ، ومقضي عليه أن يحصل له من العُمُرين ما حصل .
وقال رضي اللّه عنه : مسألة القضاء إنما هي اعتقاد في الباطن ، لا مسألة احتجاج بها وإظهار لها ، ومن أظهر ضَلَّ ، فتُعْتَقد ولا تكون في الأعمال ، أليس تحريكك يدك باختيارك ، فهذا هو الكسب والاكتساب ، ولا يُظهرها أو يتكلم بها للعامة إلا من أراد أن يَضِلَّ و يُضِلَّ ، وقد قيل : إنها مسألة غامضة لا تتضح إلا يوم القيامة ، وقالوا : الرضاء بالقضاء أن تفعل ما يرضَى اللّه به ظاهراً ، وترضى بما يقضيه باطناً ، فهذا هو الحق والصواب ، وما كان غير ذلك فهو باطل ، وماذا وقع للعامة من قولهم ، في كل ما فعلوه : هذا مقدَّر علينا ، وإذا جاء ما فيه هواهم وغرضهم ، قالوا ذلك ، وإذا جاء خلاف ذلك ضاقوا به ذرعاً ، وقامت عليهم القيامة ، أو كما قال .
وقال له رضي اللّه عنه رجل من أهل القارة( ) : حصل عندنا في بلدنا ريح شديدة مع مطر ، حتى إنه أصبح تحت النخيل كثير من الطيور ، مات من شدة الريح ، ملأوا منها زنابيل لكثرتها ، فقال نفع اللّه به : ذيبها( ) تحدث في الوقت حوادث ، ثم قال : اللّهم اجعل مرادك فينا خيراً ، لكن ما معنى هذا المراد ، والمراد قد سبق ، إلا إن كان بالصبر والرضاء و يمحو اللّه ما يشاء ويثبت .
وذكر رضي اللّه عنه في بعض مجالسه المشيئةَ والقضاء والقدر، فقال : القضاء والقدر بحر عميق ،

وقد جاء : إن اللَّه تعالى لما عصاه إبليس ، قال له : بِمَ علمت أني قَدّرت الذنب عليك ، قبل فعله أو بعده ، قال : بعده ، فقال تعالى : بها أخذتك .

وقال رضي اللَّه عنه : مذهب القدرية خير من مذهب الجبرية ، وإن كانا باطلين ، لأن الأولين إنما نسبوا لأنفسهم قدرة ، وأما الآخرين فإنهم عطلوا الأحكام الشرعية ، وهذا هو الزندقة بعينها ، ومذهب الجبرية هو الغالب الجاري على ألسن العامة وأفعالهم ، فهم زنادقة إلا أنهم ما علموا بذلك ، لكونهم لا يعرفون العلم ، أليس أحدهم يأكل باختياره ، ويفعل باختياره ، وهو بقضاء اللّه وقدره ، ولكنه في ذلك مختار ، وما جعل اللّه سبحانه وتعالى للإنسان اختياراً ، إلا ليختار ما اختاره اللّه ، والأسباب من اللّه تعالى ، وهو الفاعل في الفعل ، فليفعل من الأمور الشرعية المطلوب ، وينتهي عن المنهيات في كل ما له اختيار فيه ، وإذا ذهب عنه الاختيار حصل له العذر حينئذ ، فما الفرق في رجلين ، أحدهما سقط في بئر مع غفلته عن ذلك ومات ، حتى إنه يُصلّى عليه ويجهز ويُدعى له ، ويقال هو شهيد ، وحاله ممدوح ، ثم إذا سمع آخر بمدح ذلك رمى بنفسه في البئر ، هل يكون مثله في المدح؟، لا ، بل يكون مذموم الحال ، مستوجباً للعقاب . ولو عطل الناس الأحكام واعتلوا بالقضاء والقدر لبقُوا مثل الحمير والبهائم .
وقال رضي اللّه عنه في مجلس آخر : للّه أسرار وَحِكَمٌ في ترتيب الأسباب ، وارتباط منافعها بعضها إلى بعض ، واحتياج البعض منها إلى البعض ، وهذا عالَم الأسباب ، جميع أموره تتوقف على الأسباب وهو موضع قوله :{ كُنْ فَيَكُونُ} قال تعالى:{ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً}( ) إلى قوله تعالى :{ مَّتَاعًا لَكُمْ وَلأنَعَامِكُمْ }( )، وأما عالَم الأمر فهو شئ آخر ، لا حكم فيه للأسباب ، ولا للكاف والنون ، ولا احتياج إليها.

وقال رضي اللَّه عنه : الناس كلهم يخدمون القضاء والقدر ، لأنهم يسعون في تنفيذه ويُعرف تخصيصه بظهوره عليهم ، ولو قلت لشخص سِرْ إلى البلد الفلاني لتموت فيها لأبى ، ولكنه يسيرُ لقصد حاجته ، وقد قُضِي أجلُه فيها ، فيموت بها ، وكلٌّ يسعى في نفع نفسه ، فيصير النفع لغيره بسببه ، وينتفع بعضهم من بعض ، ولا أحد قصد إلا نفع نفسه .

وقال رضي اللَّه عنه : يكفي الإنسان بعد الإيمان باللَّه ورسوله واليوم الآخر ذكرُ الوعد والوعيد عن الخوض في مسألة القضاء والقدر ، لأن فيها إشكالاً لا ينحل إلى يوم القيامة ، وكل من تكلم في حَلها زادها إشكالاً ، فلا تطمع في حَلها.

وقال رضي اللَّه عنه : إذا انبهم عليك أمر ، فسر معه حتى ينقطع طرفه الثاني ، لأن الأول قد عرف ، فإذا عرفت السابقة فلا تنبهم عليك الخاتمة .

وذكر رضي اللَّه عنه رؤية الأشياء من اللَّه تعالى فقال : لو أن رجلاً أتاه سائل فأعطاه شيئاً، لا شك أنه يرجو عليه ثواباً ، ويرى أنه فعل شيئاً ، وينسى أن اللَّه تعالى هو الذي أقدره على الفعل ، وأنه هو الذي يَسَّر له ما تصدق به ، وأنه هو الذي ساق إليه السائل . وفي المعاصي النفس تدعو إليها والشيطان يزينها له وينسيه عاقبتها ليطمئن بها قلبه وينوي العود إليها ويصر عليها.

وقال رضي اللَّه عنه ما معناه : الأشياء كلها صادرة من حضرة الإرادة ، إرادة اللَّه تعالى ، ولكن الطاعة مظهر نور وخير وتَنَزُّل إلى حضرة الملائكة ، إلى حضرة المؤمنين ، والمعصية مظهر نار وظلمة وتَنَزُّل إلى حضرة الشياطين ، إلى حضرة الفاسقين ، ولا عذر مع الاختيار في تجاوز الأحسن إلى ضده أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : الناس مُسَخَّر بعضهم لبعض ، ولِمَا يريده اللَّه منهم ، فترى الإنسان يفعل الأمر مما ينفع غيره ، بقصد وبغير قصد ، ويظن أنه إنما يسعى في حاجة نفسه فقط ، وإنما الحاجة أو معظمها لغيره ، وحاجته من ذلك قليل .

وتكلم رضي اللَّه عنه ليلة في وصف الإنسان فقال:مسكين الإنسان، إذا قُتِّر عليه رزقه جزع وتبرم ، وإذا وُسِّع عليه طغى وغفل،وفي طبعه الدعوي ورؤية نفسه،وإن لم يكن ثم شئ ، وأكثَرَ نَفَعَ اللَّه به في هذا،ثم قال: ولهذا سئل بعضهم عن الإنسان ، فقال:هو أنف في السماء، وإسْت في الماء .
وقال رضي اللَّه عنه : الأمور بالأقدار ، فإذا قامت الأقدار فانظر الشريعة هي أين ، حتى تستقيم الشريعة مع الحقيقة .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا رَفَعَت الملائكة من الأرض إلى السماء أمراً لم يعرفوه( ) ، نزلت من السماء إلى الأرض بأمر لم يعرفوه( ).
وقال رضي اللَّه عنه : ما مع الإنسان إلا جهده ، والأقدار تحكم عليه ، لا يحكم عليها .
وقال رضي اللَّه عنه : الحق سبحانه وتعالى إذا لم يردك لأمر ، قيَّض لك سبباً ، وإلا فما الفاعل إلا هو سبحانه .
وقال رضي اللَّه عنه : ما يحيل على المقادير إلا العاجز ، فأعط الأمور حقها أولاً، فإذا أعجزتك فحينئذ كِلْهَا إلى المقادير ، فلو أعطى الأشياء حقها ، وساعدته بها المقادير ، وقام فيها على الوجه المطلوب ، كان محمود الحال إلى آخر الزمان ، وأسباب الرجاء في اللَّه ، الناس إلا يعرفون طرقها ، ما هو إنهم ما يعرفونها.
وقال رضي اللَّه عنه : إذا حَكَمَت الأقدار ، تيسرت الأسباب أو تعسرت ، وَقَعَت المسبَّبَات ، ولم يعذر مع الاختيار ، وأما إذا لم تسبق الأقدار فلم تقع ، فلا عذر له أيضاً مع الاختيار ، وهذه مسألة قد تخفى ، فيحتج الإنسان بالأقدار مع ثبوته على المعصية ، أو كما قال .
واستأذنه رضي اللَّه عنه رجل في السفر ، فقال : ليس هذا وقته ، فاصبر حتى يأتي وقته ، واحفظوا هذه الكلمة : إذا أردت أن تقطع ، فاقطع على مفصل( ) ، فإن قطعت على مفصل قطعت( )، وإن لم تقطع على مفصل( ) كسرت .

وقال رضي اللَّه عنه : الخلق مكلوفين على ما خلقوا له ، فإن اللَّه تبارك وتعالى أراد بهم ، وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور ، ثم قال لي : احفظ هذه الحكمة ، إن كنت حافظاً.
وقال رضي اللَّه عنه : ما يُحتج بالقضاء والقدر ، إلا بعد ما يقع المقدور ، وأما قبله فلا ، وإلا تعطلت الأشياء .
وقال رضي اللَّه عنه في قوله تعالى :{ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ }( ) ومتى يشاء اللَّه؟ ، إذا كنت قادراً تفعل باختيارك فقد شاء اللَّه ، واللَّه سبحانه ما يسأل الناس إذا جاءوه يوم القيامة إلا عن الأعمال ، لا عن أمثال هذه الأشياء .
كلامه رضي الله عنه في الحسد
وقال رضي اللَّه عنه : الحسد يدخل ـ أو قال يظهر ـ على الإنسان في كلامه وأحواله ، من غير شعور منه ، وهو لا يظن ذلك من نفسه ، بل يرى أنه برئ منه ، وهو من أكبر الذنوب ، وبه هلك إبليس وقابيل ، ولو كان فيكم أهلية لقرأنا عليكم مقاطع القرآن ، فاقرأوا:{ وَوَاعَدْنَا مُوسَى}( ) فماذا تقول لو جاء أحد من الحَسَاء( ) فطلَّعناهم وخليناك ، فماذا ترى يقع عندك ، قلت : إني أَوَدُّ لو جاءوا كلهم يلتمسون منكم وينظرون إليكم ، قال : لا، وهذا هو معنى قولنا لكم ، إن طريقة الإمامة مظلمة لا يُهتدى فيها ، قلت له : فالحاصل أن كل مجلس يفوتني من مجالسكم ، ولا يحصل لي فيه الحضور ، يحصل لي من فواته تعب كثير ، قال : قد علمنا منك ذلك ، وما خاطبناك بهذا إلا لعلمنا بذلك منك ، أرأيت إن كان مجلس يضرك في دينك ، أتحب أن تحضره؟ ، قلت : أنتم أعرف ، قال : ومجالسة الأكابر كثيراً ما ننهى( ) عنها ولذلك أكثر ما يُحرَمهم أهلهم ومخالطوهم .

ولما ابتدأ القارئ من القراء بعد العصر ، وكان عادةُ هذا الابتداءَ كل يوم ، فقال له : لا تعد تبتدئ أنت كل يوم إلا مرة ، ومرة ، لأن هذا يحرك منك داعية الرياء ، ومن غيرك الحسد ، وأنتم ما تعرفون هذا

الأمر ، ولا رُضْتوا أنفسكم ، ونحن أعرف به منكم ، ثم قال : كل كلمة تخرج من الأكابر للتلميذ ، فيسمعها منهم ، تكون على نفسه كالحجارة ، تزيد بها نفوسهم رياضة وخموداً ، ومن لا يكون كذلك ، لا تزيده إلا قوة نفس ، ولا يزداد إلا حسداً ، ويعمل بخلاف ذلك ، أو كما قال ، قال ذلك القارئ : واللَّه ما قط خالجني الرياء بالابتداء ، إلا ذلك اليوم ، فأطلعه اللَّه عليه ، فنهاني نفع اللَّه به ، فلما كان تلك الليلة ، وهي ليلة الخميس تاسع عشر ربيع الثاني من سنة 1129 ، طلب مُسَمِّعاً وفعل سماعاً ، وذلك عادته في أيام متراخية ، ومن عادته أن لا يُحضِر أحداً ولا يتركه يحضر ، كذلك سمعته يقول ، فلما كانت تلك الليلة طلبني للحضور ، ولم يطلبني لذلك قبلها قط ، فلما صافحته ، وجلست كان فيما تكلم به أن قال : ليس من عادتنا أن نطلب أحداً للسماع ، وذلك من عهد قديم ، ولا يحضرنا أحد إلا إن كان من العيال ، أو خادم واحد يُحتاج إليه ، ولكن من استمع من بعيد كما( ) من تحت الباب ، أو حيث يسمع لا نعنِّف عليه ولا نلومه ولا حرج عليه. ومثل ذلك في كل أمر نفعله ، فهذا حالنا إذا كنا في البيت ، وأما لو كُنَّا في خلاء في السبير أو غيره فنُحْضِر جماعة مخصوصين مقتربين ، الذين يحصل بهم الأنس وباجتماعهم ، وهنا عندنا في البلاد عادة : إن الإنسان إذا كان في داره ، فَقَلَد( ) على نفسه ما أحد يجيئه ، وإذا فتح الباب ضاق بالناس المكان حتى لا يسع أحداً كما ترون في عواد( ) وغيره ، ودخل فيهم الشريف والوضيع من رعاع وغيرهم ، ممن لا يعرف الأدب ، ولكن الرعاع من عادتهم إذا حضروا مجالس الأشراف ، فإن رأوهم متأدبين تأدبوا ، وإن رأوهم على خلاف ذلك زادوا عليهم في

إساءة الأدب ، فاحفظوا هذا لا تنسوه ، ثم قرأ الفاتحة ودعا : اللَّهم احفظنا في ديننا وقلوبنا ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ثم أمره يشل ، فلما تم من أول مأخذ ، وسكت المسمع ، قرأ سيدنا:{ وَتَرَى الأَرْضَ

هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }( ) وتركه يسكت ساعة ، وهو يتكلم بما يناسب الحال والمجلس ، ثم أمره يُشل ، فلما فرغ أمر بإحضار القهوة ، فجعلت أصبها وأديرها ، حتى فرغت ، ثم أمره أيضاً فلما فرغ قال نفع اللَّه به لي : هل ظهر لك من هذا شئ لم يكن لك على بال؟، قلت : اللَّه أعلم ، قال : هل سمعت ما لم تكن تسمع؟، قلت : نعم ، ثم التفت إلى ابنه الحَسَن ، وقال : إنه ما يريد إلا مثل كرامات الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع اللَّه به ، تكون منه الكرامات الظاهرة الباهرة على التواتر ، وهذه أشياء لا يجوز إظهارها ، فلا هي نبوة حتى يجب إظهارها وإنما هي بحسب الحاجة والضرورة الداعية إليها ، كما في قصة الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء ، وقد كان من كرامات بعض من شهد الشيخ عبدالقادر ، أنه عرض عليه طبيب مُقْعَداً وصحيحاً في صندوقين ليختبره ، هل يعلم أيهما المقعد والصحيح ، فقال : تريد اختباري بذلك ، هذا هو المقعد وهذا هو الصحيح ، أو كما قال في معنى هذه الحكاية ، ثم قال : وأنت لو كنت في بلادك لكذا( ) ولكن الضوء لا تظهر مع الشمس ، وذلك بالنبي صلّى الله عليه و آله وسلّم لا بنا ، لأنه عليه الصلاة والسلام هو الشمس ، ونحن الظلال ، وقد أمر هو بالتمسك بأهل البيت النبوي ، وبكتاب اللَّه ، وقال : ((لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض))، وقد كان رجل من المتعلقين بنا انقطع فقلنا له : وانقطاعك ماذا يحصّل لك ، أتندفع عنك به حجة ، أو تثبت لك به الحجة ، فبقي يتردد كما يتردد هؤلاء الذين يترددون ، وخليناهم على تردّدهم ، لأنهم كانت لهم

حبال ، والحبال إذا ثبتت لا يجوز قطعها ، ثم أمره أن يشل ، وقال : اختم فلما ختم قرأ الفاتحة ، ودعا ومن جملة دعائه بعد الحمد والصلاة والسلام على رسول اللَّه صلّى الله عليه و آله وسلّم : اللَّهم يسر أمورنا وأمور المسلمين ، وأنزل أمطارهم ، وأرخص أسعارهم ، اللَّهم الطف بنا في قضائك ، وعافنا من

بلائك ، وأوزعنا شكر نعمائك ، وهب لنا ما وهبته لأوليائك ، اللَّهم جَمّل أحوالنا ، وأصلح أعمالنا ، وطهر وحسن أخلاقنا ، ووسّع وطيب أرزاقنا ، واقض بفضلك ديوننا ، وأصلح بكرمك شؤوننا ، واجعل إلى رحمتك ورضاك ومجاورتك في دار كرامتك منقلبنا ورجوعنا ومصيرنا ، فلما انقضى هذا المجلس الميمون المبارك ، ونزلت من عنده ، فلما وصلت إلى المكان الذي أنا فيه نازل ، أعلقت( ) السراج ، وكتبت هذا الذي جاء على خاطري ، وما نسيته أكثر .

وحضرت مرة عنده رضي اللَّه عنه سماعاً في نخل السيد عمر الحداد ، فقال المسمع في سماعه ، من أبيات لبامختار( ) هات محزم وخذ لك ألف محزم ، هذا ما ظهر لي من لفظه ، فرأيت سيدنا عند ذلك رفع رأسه متبسماً ضاحكاً،ثم صوَّبه وخفَّضه، وإذا به يبكي ودموعه تتقاطر.

ذكر ما قاله في الإلباس

وذكر رضي اللَّه عنه الإلباس ، فقال : الإلباس لا يُراد لصورته ، ومن لبس لصورة الإلباس ، ما حصَّل شيئاً ، وإنما هو لمعنى فيه وهي الرابطة ، وقد رأى أبو يزيد رجلاً يماشيه ، فيضع قدمه في موضع قدمه ، فقال له : لِمَ تفعل هكذا ، فقال : لأسير على طريقك ، فقال : لو سلختُ جلدي ، فلبستَه ما نفعك حتى تدحق على طريقي التي سلكتها إلى اللَّه عَزَّ وَجلَّ ، فقلت لسيدنا نفع اللَّه به : أيقتضي هذا أنه لا بد بعد الإلباس وحصول الرابطة أن يقتدي بمن لبس منه ، قال : نعم ، بما أمكنه ، ولو بعض اقتداء ، بحيث لا يصير مخالفاً له ، ويكون منتسباً إليه ، قلت : فهل يشترط في هذا أن يراه؟، قال : لا، بل بحيث يكون على الطريق لا يميل عنها، وإن لم ير السائرين عليها ، فإن المائل عن الطريق لا يصل إلى المقصود ، والسائر عليها وإن بَعُد عن مَن أمامه يصل ، فأين نحن من الشيخ محمد بن علوي( )، ونحن في تريم ، فقلت : رأيت في شئ من الرسائل إنكم قلتم فيها: إن طريقنا الكتاب والسنة ، ولو جاءنا صادق لبَيَّنَّا ذلك له ، ولوددت أنكم ذكرتم من ذلك ما تيسر ، فضحك

متبسماً ، وسكت قليلاً ، وكان ذلك عادته إذا خوطب بكلام يحب أنه لم يذكر له ، ثم قال : هي الطريق ، وإن اختلفت الطرق فهي عليها وهي واحدة ، ولكن ما كل أحد يعلمها ويعمل بها ، فلو صلى رجل مثلاً من غير طمأنينة ، فلا يخلو إما أن يكون عالماً ببطلان صلاته ، فهو مخالف للعلم ، وإلا فهو جاهل ، والزمان اليوم إلى وراء وقد أدركنا جماعة نقصوا عما كانوا عليه كثيراً ، هذا بالنسبة ، وأما الكامل على القدم المحمدي ، فما أدركنا عليه أحداً أو كما قال .

(1/141)

وذكر قصة الذي ذكره اليافعي( ) أنه مر عليه الشيخ مع تلميذ له ، والطبل في عنقه ، وكان في جماعة يسمون السناكم يأكلون الميتات ، ويشربون الخمر ، فأخذه وضربه بحزمة قضبان ، ثم صلى بهم صلاة أظنها العصر ، ثم فرش له سجادته ، ثم أمره يجلس عليها ، فجلس وسار يمشي على الماء ، فيقول السامع متعجباً كما قال تلميذه الذي معه : أنا لي معك كذا كذا سنة ، ما حصل لي ، وهذا حصل له في لحظة ، فالجواب ما قاله الشيخ من أنه ليس الأمر في ذلك إليه ، بل إنما الأمر فيه إلى اللَّه لا غير ، حتى قال : أنا وددت لو كان ذلك لي ، وإنما أنا عبد مأمور ، بل قيل لي فلان من الأبدال توفي ، فأقم فلاناً مكانه ، فامتثلت كما يمتثل الخدام ، ثم قال : وهذا الأمر لا بد فيه من جذبة أو سلوك .

(1/142)

ولما خرج رضي اللَّه عنه لصلاة الظهر يوم السبت ثالث عشر جماد أول سنة 1129 ، ذكر لي الكتب التي في خزانته ، واستخبرني عنها ، ومن جملتها الصحيحان ، فقلت : أود لو حصل معي كتاب جمع بينهما لجعلت جل مطالعتي فيه ، فقال نفع اللَّه به : أنت فيك فضول تحب جمع الكتب ، خَلِّ عنايتك بالعلم والعمل ، دون جمع الكتب ، إفهم كلاماً قليلاً ، يغني عن كلام كثير ، فما ينفع كثرة الكتب كَمَثَلِ الحمار

يحمل أسفاراً ، فخل همك هماً واحداً ، ولا يتشعب قلبك في طلب العلم ، والناس ما صحبوا أهل التصوف ، إلا لهذا المعنى ، ومن تتبع الشُعَب ، لا يبالي اللّه في أي وادي أهلكه ويبقى قلبه يتتبع الشُّعَب ، حتى في صلاته ، فيتتبع الشعب في طلب العلم ، حتى يتتبعها في النساء والثياب ، وما شاكل ذلك ، وفي مثل هذا المعرض ، قال : وكتاب واحد من كتب الإحياء يكفي من جميع الكتب ، والعلم المطلوب منه العمل ، وإلا فما تنفع لفلفة( ) الكتب ، فكم أناس جمعوا كتباً ولفلفوها ، فما نفعهم ذلك ، فلا عاد أحد يخبرنا بالكتب ، فما مر عليك بعضه قد مر علينا كله مرتين أو أكثر ، لأنا من سنة( ) خمسة عشر سنة إلى الآن ونحن في الكتب ثم أنشد:

وتعليمُ زيد بعضَ علم الفرائض ... ومن عجبٍ إهداءُ تمر لخيبر

وكان رضي اللّه عنه طالعاً يوماً من الصالح( ) يريد مكانه الحاوي ، وذلك يوم السبت ثامن عشر جماد الآخر سنة 1125 ، فقال : إن سَلِم الفلاني ، ووصل إلى بلاده ، صار لهم مثل حديث( ) خرافة ، رحت أنا مع فلان إلى مكان كذا ، وجئنا من مكان كذا ، وكان الأمر كما قال نفع اللّه به ، فقلت : إن كان الأمر إلا هكذا فالحجة فسلة . فقال رضي اللّه عنه : كل شئ له حُكْمُه ، للظاهرِ وأمورِ الأجسام حكمُها ، وللباطن وأمور الأرواح حكمُها ، فما معنى قول لا عبرة بالأكل ولا بشيء من الأمور التي تتعلق بالجسم ، وهو لا يسمح بترك أكلَة ، وقول بعض المتصوفة : أنا أعمل لا لحصول الجنة ، ولا لخوف من النار ، ولا للحور والقصور ، وهو متعلق قلبه بنكاح النساء ، وبسائر اللّذات ، فما هو إلا من حيث إن مطلوب الأرواح غير مطلوب الأجسام ، أفهمت هذا القَدْر؟، قلت : قريب منه إن شاء اللّه ، ثم ذكر قصة الذي عزم على أن لا يأكل الطعام مدة أربعين يوماً ، ثم اشتد به الجوع ، فخرج من غير شعور منه بنفسه إلى السوق ، فرأى رجلاً يقول : أشتهي كذا من الحلوى ، وكذا من شهوات أخرى ، فقال ذلك الرجل في نفسه : إن هذا

الثقيل يتمنى هذه الشهوات ، وأنا أشتهي كسرة ما حصلت لي ، ثم بعد ساعة حصل لذلك الرجل المتشهي ما أراد ، فأتى به لذلك الآخر وقال له : من هو الثقيل منا ، الذي قطع عزمه وآذاه الجوع ، أو من يَتَشهَّى الحلال ، فخذ هذا واقطع الأربعين بالتدريج شيئاً فشيئاً ، ما هو بمرة واحدة ، فهذا كله بالنسبة إلى الأرواح والأجسام ، فافهم ذلك واعرفه أو كما قال .

(1/144)

وخرج رضي اللَّه عنه اليوم الذي بعده ، وهو يوم الأحد إلى السبير ، فتكلم في الطريق ، وذكر أحوال الفقراء في الرد والأخذ ، فقال نفع اللَّه به : للرد شروط لا بد منها ، أوَ كل أحد يحسن الرد ، فقلت : أوَ يشترط في الرد كما فعله من فعله أن يستوي عنده المال والحجر سواء؟، قال : نعم . قلت : إن ذلك لشديد وأمر غريب ، فقال رضي اللَّه عنه : كل أمور الصالحين غريبة ، لأن تعلقهم وأمورهم من الآخرة ، فأي شئ من أمورهم ليس بغريب ، واعتمد على ذلك الكلام الذي ذكرناه لك في طريق الصالح ، فإنه( ) يفهمك أموراً لم تكن في بالك ، ويحل لك مشكلات كثيرة ويوضح لك أشياء إن سألت عنها ، أو قال ربما تسأل عنها ، أو كما قال .
وكان رضي اللَّه عنه طالعاً يوماً من الصالح إلى الحاوي ، وذلك بعد الإشراق يوم الجمعة 24 جماد آخر من السنة المذكورة ، فسأل عن غريب قدم منذ يومين ، ظاهر حاله التجرد وتقليل الطعام ، حتى امتنع من الدخول مع الجماعة للعَشاء ، ويصوم ، فقال : هل له قيام بالليل؟، قيل : ما رأيناه ، فقال نفع اللَّه به : قلة الأكل وقلة النوم متلازمان ، قيل : وكثير من الغرباء عند مجيئهم يعملون على هذا ، ولكنهم لا يثبتون عليه ، كما قصة فلان حيث أراد أن يدخل أربعينية( )، واستأذنكم في ذلك ، فقال رضي اللَّه عنه : ليس ذاك الأربعينية المذكورة في طريقة السابقين ، وتريم فيها أربعينية( )؟، وإنما هي أربعينية كذا في طريقة أصحاب اليمين ، وهذه الطريق ليس فيها أربعينية ، بل هي طريقة سهلة ،

تُفضي بالإنسان إذا واظب عليها باللحوق بأهل تلك الطريقة ، فربما حصل له في هذه الطريقة فتوح فالتحق بأهل تلك ، وليس فيها من طريقة السابقين إلا من كل شئ جزء يسير ، وهي طريقة سهلة ولا أربعينية فيها ولا مشقة ولا خطر .

(1/145)

وأما طريقة السابقين فهي مُشِقَّة وفيها أربعينية ، ولكنها مُخطِرة ، يخشى فيها على أمور الدين من تغير العقل والعقيدة ، وكثير من الناس إذا رأوا شيئاً من ذلك خرجوا من الأربعينية ، كيف وقد قال النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم وهو مؤيد بالوحي والعصمة : ((لقد خشيت على نفسي)) ، قلت : قال ذلك لما رأى المَلَك ، قال : وهذا أيضاً ربما رأى المَلَك مَلَك الإلهام ، لا مَلَك الوحي ، وأيضاً النبوة فيها مَلَك وحي ، ولا سبيل للشيطان مع مَلَك الوحي ، وأما مَلَك الإلهام فربما حضر معه الشيطان ، وقريش إنما استنكرت من النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، لما رأوه مخالفاً لهم ، وقالوا : نخشى أن يكون أصابه الشيطان ، وأرادوا ينظروا له طبيباً يداويه ، ولا يليق بأهل هذا الزمان إلا هذه الطريقة السهلة ، دون الأخرى ، وأين الناس اليوم ، وأكثر ما يحصل التغير في الأربعينية لمن يدخلها بغير شيخ ، أو من غير امتثال ، وقد كان جاء إلى عندنا رجل يعمل لنفسه رياضات ، وأدخل نفسه الأربعينية ، ويزن القوت بالجريد الأخضر ، فقلنا له : اترك هذا ، واعمل على تلك الطريق السهلة ، فعل الأوامر الظاهرة ، والاقتصاد في العمل مع المداومة عليه ، فأبى ، فقلنا له : تكذب في عملك ، هذا أنت ما بعد أحكمت طريقة أصحاب اليمين ، فكيف يمكنك سلوك طريق السابقين ، فسَافَرَ من عندنا ، فتعوقت عليه الطريق ، حتى رجع نحو ثلاث مرات ، حتى تيسر له السفر فيما بعد ، ونحن ما نتأسف على فعل الخير ، وإنما نتأسف على كلمة صدرت منا لأحد، وكان يسعنا العفو عنه فيها والتجاوز والإغضاء ، ومنذ ابتدأنا إلى الآن ، ما أشهرنا أنفسنا بطريقة السابقين ، لا سابقاً ولا لاحقاً ، ولا سلكناها بين الناس ، ولا سَلَّكنا فيها

أحداً ، وأين الزمان من الزمان ، والناس من الناس ، طالباً أومطلوباً ، قلت( ) : فإذا جاءكم أحد لا يعرف طريقة السابقين ، ولا طريقة أصحاب اليمين ، فماذا يفعل؟، قال : يعمل على ما نحن عليه ، فما يرانا نفعله يفعله ، كما

ترى ، من إقامة الصلاة ، وقراءة القرآن ، وترتيب الأذكار، وطلب العلوم النافعة مع الدوام على ذلك ، فهل رأيت أحداً دام علي ذلك من علماء الحرمين ، أو غيرهم ، أو سمعت أحداً ينكر هذه الطريقة ، قلت : لا ، قال : هذه طريقة أصحاب اليمين ، وهي اللائقة ، فينبغي أن يُطلق لأهل الزمان طريق العموم ، لتعذر طريق الخصوص ، وإلا فكم واحد يظن بنفسه أنه مثل الشيخ عبدالقادر، وهو ما يكون مثل شوكة في رجله ، قلت : فالطمع طبع ، يطمع في كل شيء أن يكون له منه الحظ الأوفر ، فقال رضي اللّه عنه : الطمع يكون في أمور الدين( )؟،إذا كان الطمع في أمور الدنيا مذموماً، فكيف في أمور الدين .
وتكلم رضي اللّه عنه يوماً كلاماً كثيراً حتى قال : أكثر ما يغار الإنسان إلا من أمثاله ، ولو حضر أربعة متماثلون في جنازة ، لطلب كل منهم أن يكون هو المتقدم في الصلاة ، ولو جلس مثلاً رجل من غير الأشراف للتدريس ، من آل بافضل ، أو غيرهم ، لما استنكف الأشراف من الحضور عنده ، ثم قال ولو قد رحت إلى بلادك ، وجاء واحد ليتقدم عليك كرهت ذلك ، فقلت : نعم ، ولكن إلى متى الإنسان على هذه الحالة ، فقال نفع اللّه به : حتى يخرج عن حكم الطبيعة ، فقلت : وبأي شئ يخرج منه ، فقال : باختيار اللّه ، وليس بكسب الإنسان ، وإنما هو بالبخت والنصيب ، فكل ما أراد اللّه( ) شيئاً لا يحصل له إلا بالبخت والنصيب ، أما سمعت قولهم : وما هو إلا بالبخت والنصيب .
وقال رضي اللّه عنه : إنما قيل في النفس إنها أعدى الأعداء ، لكونها تنكر الشيء من غيرها وتكرهه وفيها مثله ، فلو رأيت إنساناً في أمر كرهت منه أشياء ، فلو قمت أنت في ذلك الأمر ظهرت منك تلك

الأشياء التي كرهتها من غيرك ، فيكرهها منك آخر ، فالطباع سواء ، والنفوس على طبع واحد في ميلها عن الصواب ، ولكن يظهر الشيء ويخفى أو كما قال .

(1/147)

ولما خرج رضي اللَّه عنه لصلاة العصر يوم الثلاثاء 23 من الشهر المذكور ، سأل عن رجل فقير غريب ، سافر في هذا اليوم ، وهو الذي لم يخبر باسمه ، وإذا سئل عنه ، قال : التراب ، وسماه سيدنا أبو الفتوح الشامي ، وكان من أهل حَلَب ، فسأل هل معه زاد ، ثم ذكر أحوال أهل التجريد فقال : كانوا إذا احتاج الرجل منهم ، وعرض له شئ أخذ حاجته فقط ، وَرَدّ الباقي ، وإن لم تكن حاجة رد الكل ، ولا يخطر في قلبه الحالُ ، في الوقت المستقبل ، ثم ذكر قصة ذلك الرجل المتجرد الذي احتاج فجاءه رجل بحاجته ، وقال له : إني رأيت النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم في النوم يقول لي اذهب بكذا وكذا إلى فلان في المكان الفلاني ، فإنه محتاج لذلك ، فأتيتك به ، وقال له : إذا احتجت فتعال إلى عندي ، أقضي حاجتك وأنا في المكان الفلاني ، فقال له : لا آتيك ، فإذا أنا احتجت ، يأتي بك أو بغيرك من أتى بك الآن ، الحكاية بمعناها ، فقلت : إن مثل هذا وقع بصيغة خرق العادة ، من حيث الكرامة ، ولا يكون ذلك إلا نادراً ، فمتى يكون مثل ذلك في كل حين ، والضرورة تتكرر في كل حين. فقال رضي اللّه عنه : نعم إذا خرقت من نفسك العوائد ، انخرقت لك العوائد ، وهو أمر قد ذكر الإمام الغزالي إنه لا يوصل إليه بالهوينا، بل بعد اللّتَيَّا واللتي( )، فقلت : يعني به شدة الصبر على مثل ذلك ، قال : نعم ، إذا صبر عليه لأجل اللّه ، كتقوية اليقين ، لا لأجل هوى ، وإلا ترى( ) رهباناً وفلاسفة ونحوهم يتخلون ويتريضون ما حصلوا شيئاً، أما سمعت قول بعضهم : قف على الباب لا لتفتح لك الأبواب ، تفتح لك الأبواب ، واخضع لا لتخضع لك الرقاب ، تخضع لك الرقاب ، فقلت : إن هذا أمر عسر جداً، وكلٌّ غافلٌ عنه ، ومع ذلك كلٌّ يريده ، فقال نفع اللّه به : هذه الأشياء إنما هي بالبخت

والقِسَم ، ولما استخلف( ) منه ذلك الغريب المذكور ، مسافراً في ذلك اليوم ، قال سيدنا له : مع اللّه نتلاحق إن شاء اللّه تعالى في مكة ، ثم

عَقَّب ذلك بقوله : إما في اليقظة وإما في النوم ، واللّه اللّه في دينك ، واحذر من الرياسة ، لا يكون لك بها تعلق ، وخل الأمور تمر عليك ، ولا تخطر ببالك ، وكن في الإقامة حيث ما يستقيم قلبك ، ودم على لا إله إلا اللّه إما باللفظ أو بالقلب حسب الفراغ ، إلا إذا كان لك في وقت ورد معين لذلك الوقت ، فاشتغل به فيه ، وأمر الدنيا لا يخطر ببالك ، وإن دخل يدك منها شئ فخذ منه حاجتك ، وإن خرج من يدك فلا تخالف ، أو كما قال .وطلبت من سيدنا نفع اللّه به الدعاء، وذلك ليلة الأحد في 29 شهر رمضان سنة 1129 ، بعد ما فرغ من ختم مصلى الحاوي ، لما دخل الضيقة يريد الدخول إلى الدار ، فقلت : ياسيدي اللّه اللّه فِيَّ بالدعاء، ادعو لي في هذه الليلة المباركة ، فقال نفع اللّه به : ادع أنت لنا ولنفسك ، لأن لك حق الغربة ، وحق الطلب ، فإنك غريب وطالب ، ولا تدع لنفسك إلا بأن اللّه يتولاك مع اللطف والعافية ، وإلا فإن الولاية الخاصة فيها ابتلاءات كثيرة ، قلت : دعاكم لي بصلاح القلب بالخصوص ، وغيره بالعموم ، فقال : اللّه يتولاك بولايته ، اللّه يتولى الجميع ، أو كما وقع. وخرج رضي اللّه عنه يوم الثلاثاء في 6 ذي الحجة سنة 1129 بعد الإشراق ، من دار آل فقيه ، إلى دار آل عمر حداد ، فكان فيما تكلم به وهو يسير قابضاً بيدي ، إذا عاش الإنسان زماناً طويلاً ، أنكر ما يراه من الناس ، لأنهم جاءوا بعده فينكر أفعالهم وأحوالهم ، يراهم يطلبون غير ما يطلب ويفعلون غير ما يفعل ، ويهوَون غير ما يهوى ، فهو مباين لهم في كل شئ ، فانظر إذا عشت بين أهلك ، كيف تستنكر أمورهم ، فتكون وأنت بينهم كأنك مفرد عنهم وحدك ، أو كأنك غريب عندهم ، قلت : فما يصنع الإنسان مع هذا في حال نفسه ، وما يتعلق بالناس؟، فقال رضي اللّه عنه : ففي حال نفسه يتبع الحق وما أمر به ، ولا يميل إلى

الباطل فاعتبر بنفسك ، ومعهم تسايرهم بالتي هي أحسن ، وتقيم عليهم حق

اللَّه ، إن كان لا عذر له منهم ، بأن كانوا أهله وقرابته ، وإن كانوا غيرهم ، فمن له منهم بدٌّ فيجانبهم ، ولا يتابع أحداً إلا فيما يجوز، ويتحرى لنفسه الصواب وما فيه الاحتياط ، وهذه الأمور لا يلزم النظر فيها إلا من كان من الخلفاء، إما خلفاء الظاهر أو خلفاء الباطن ، لأن اللَّه سبحانه وتعالى جعل أحداً في الخصوص وأحداً في العموم وأحداً في الخصوص والعموم ، وما خلقهم على حالة واحدة ، ولا دبرهم تدبيراً واحداً ، ولا عيَّن للفعل وجهاً ، فيختلف النظر باختلاف التدابير ، ولا يجوز أن يدبر العالَم تدبيراً واحداً ، ولو كان كذلك ، لحصل من الضرر والفساد والاختلال شئ كثير ، بل دبره سبحانه وتعالى تدبيراً( ) شتى ، ولو عيَّن فعلاً على وجه مخصوص للزم الأخذ به ، ولا جاز لأحدٍ يتعداه أو كما قال بمعناه .

وجلس إليه نفع اللَّه به الوفائي( ) فشكا إليه حاله وما به من الابتلاء والفقر ، فقال له سيدنا رضي اللَّه عنه : من ساعة إلى ساعة فرج ، فتزود فيها من الطاعة ، ومن التقلل من الدنيا، فقال : وأي دنيا عندي ، وما تمنيتها ولا طلبتها، فقال : أحسن ، وما القل من الدنيا إلا قربة ، أوَ ما عليك ذنوب تستغفر منها، قال : بلى ، قال : لكن إذا أعطيت من غير سؤال فخذ، قال : فإن قيل لي أتريد كذا وكذا ، فقال : لا، إنما هذا مشاورة ، ثم التفت إليَّ نفع اللَّه به وقال : وكم عطية بلية ، وكم من بلية عطية ، احفظ هذه ياحساوي .

وسأله رضي اللَّه عنه : عبداللَّه بن فلاح( ) : ما السبب في أن الإنسان في بعض الأوقات يحس في نفسه نشاطاً للطاعة وداعية إليها، وفي بعض

الأوقات خلاف ذلك ، يكسل عنها ، وتميل نفسه منها، فقال رضي اللَّه عنه : إن كان الباعث على فعل الخير من جانب الحق ، بأن شاهد في نفسه أمراً من جانب الحق تعالى ، فذلك إلى اللَّه سبحانه وتعالى لا مدخل للعبد فيه ، وإلا فهو رجل دنياوي ، لا قَدْرَ له ، بأن كان إذا تيسرت له أمور الدنيا وتوتّت له ، نشط للعبادة ، ورغب فيها ، وإذا تعسرت عليه وانقبضت عنه أمور معيشته ، كسل واشمأز من الطاعة ، فإن باعثه ذلك باعث دنياوي ، وهو خسيس الهمة ، لكن النشاط في الطاعة مليح ، وخذ نفسك بالتي ، كالغريم الظالم ، خذ منه كل ما سمح واتفق ، والنفس إلا غريم ظالم .
وكان يوماً رضي اللَّه عنه خارجاً من البلاد إلى الحاوي ، وهو يوم الثلاثاء 18 محرم سنة 1130، فقال رضي اللَّه عنه : النفس تحتاج إلى الترويح والفسحة ، تستجم ويقوى الإنسان وينشط ، ولو كان دائماً كذا ، وذكر كلاماً كثيراً نسيته في الطريق ، معناه دائماً يكد نفسه وذهنه في أمور الجد ، بلا تروح في بعض الأوقات ، لكان يخشى على مزاجه ودماغه ، ولكن التروح في بعض الأوقات ينشطه للأمور الجدية ، كما قال بعض الصحابة لعله ابن مسعود، إني لأستجم نفسي بشيء من اللّهو ، ليكون عوناً لي على الحق ، أو كما قال الصحابي ، وذكر بيت :
ما ينفع النفسَ إذ كانت مُدَبَّرةً ... ... إلا التنقلُ من حال إلى حال

فقلت : لكن النفس فيما يلائمها وتشتهيه تألفه وتعتاده بسرعة ، ولو كان في أمر خير وطاعة لم تألفه وتعتاده إلا بمشقة ، فقال نفع اللَّه به : نعم ، لأنه خلاف طبعها والأصل فيها الهوى وخلاف العمل بالطاعة واتباع الشهوات ، فإذا جاء خلاف ذلك ، كان غير مستقل حتى يعتاد ويثبت ، وإذا غلبت النفس العقل كان الحكم لها، وإذا غلبها العقل كان الحكم له ، والنفس والعقل كالرجل مع المرأة ، فإذا كان الرجل تابعاً للمرأة في كل ما تريده ، كان التدبير

تدبير امرأة ، وبالعكس ، ((ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة))( ). وأخرج اللَّه النفس للإنسان من نفسه عدواً ضاراً ، أو قال قريناً ضاراً ، كما أخرج حواء من آدم ، فصارت هي عليه سبب الشر ، حتى قيل إنها سقته الخمر ، حتى أكل من الشجرة .والإنسان ولو قد خرج من أسر نفسه بالرياضة والتهذيب ، فيحتاج أن يتعهدها، ولا يغفل عنها ، وقد ذكر الإمام الغزالي في رسالته إلى الفتح الدمشقي ، إنه فتش عن حال نفسه ، وتقصى عن حالها ، وكذلك الذي طلبت منه نفسه الجهاد( ) ، أو كما قال بمعناه . وفي ليلة الاثنين في 16 جماد الأول سنة 1132 سادس نجم الصرفة ، أشرف من الغيلة( ) إلى المصلى ، وناداني ، وذلك حين بقى من الليل نحو الربع ، وقال : استغفروا اللَّه من هذه السيول الهائلة ، فإنها بلاء أصابهم بذنوبهم ، واقرأوا يس بنية دفع الضرر .

(1/152)

وقال رضي اللَّه عنه : الطالب الصادق يجئ ، فيأخذ ما يكفيه ، ومن جاء بحسن ظن وصدق ، ومع أدب ، مثل من يحمل من الماء ما يكفيه ، ويشرب حتى يروى ، ومن كان ليس معه أدب كالذي يشرب ويحمل ، ثم يبول في الماء ، ومن يعمل الأعمال الصالحة ليَظْهَرَ فضلُه فهو مذموم ، فقلت : إنما يريد الإنسان الاستقامة على الصراط المستقيم للَّه تعالى ويطيعه كما يجب ، فكيف الوصول إلى ذلك ، فقال نفع اللَّه به : بما أنت عليه من ظاهر الصلاة ، ومن الباطن ما أمكنك [أي من الخشوع] ، وتُعَلِّم متعلم ، واللَّه سبحانه هو المعطي ، فقلت : إنما مددنا منكم ، فقال : إنما المدد من النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ونحن ما مددنا إلا منه ، وذكر هنا قصة الذي يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر العدني ، وكان عَشَّاراً ، فرؤي بعد موته ومَلَك من ملائكة العذاب قابض يده ليدخله النار ، فاعترضه مَلَك آخر ، وقال : خلِّ سبيله ، إنه يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر، فقال : إنه يغلط فيها، فقال : أما يحفظ منها مستقيماً قوله :

قال : بلى ، قال : فخلِّه ، ولو لم يكن فيها إلا هذا البيت أو كما قال في القصة ، فقلت : إذا سمعنا كلامكم في الرجاء لمثل هؤلاء ، لا يكاد يقطع الرجاء من أحد ، وإذا رأينا أفعالهم يكاد الرجاء ينقطع منهم ، فقال نفع اللّه به : أَرْجُ لغيرك ما ترجو لنفسك( ) ، وأرج لنفسك ما ترجو لغيرك( ) ، فقد يكون ما في نفس الأمر خلاف ما في الظن ، كما رأى النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، قُطْفَ عنب في الجنة لأبي جهل ، فأحزنه ذلك فقال : وما لعدو اللّه أبي جهل وللجنة ، حتى ظهر تأويله بإسلام ابنه عكرمة [واستُشْهد] ، لأن الأمور بالخواتيم ، إلا إنك جانِبْ أهل المعاصي ، وعظهم وذكرهم ، من غير أن تتكبر عليهم ، أو ترجو لنفسك خيراً منهم ، ثم سألته حينئذ عن حال رجلين ، أو رجل في إحدى الحالتين ، أيهما أحسن وأحب إليكم ، أحدهما غائب منكم وهو متعلق بكم كثيراً ، وآخر عندكم ولكنه ليس كالأول في التعلق ، فقال رضي اللّه عنه : المتعلق أحسن حالاً من الآخر ، وإن كان حاضراً ، لأن في التعلق منافع كثيرة ، لا تحصل بدونه ، وإن حصل مع الحضور منافع أُخَر ، فقلت : ما يحصل للحاضر من رؤيتكم ، والاجتماع بكم ، والصلاة معكم ، والتعلم منكم ، وغير ذلك ، لا يقابل تعلق الغائب ، فقال : لا ، لأن مع المخالطة لا يكاد يستقيم له شئ يحصل ، بل يفوت بسبب المخامرة ، كالذي يكون مشتاقاً للطعام ، فإذا شبع مَلَّهُ ، وفي البعد تغلب رؤية الخصوصية على البشرية ، وفي الاجتماع تغلب رؤية المماثلة والبشرية على رؤية الخصوصية ، وقد قال الشيخ أبو بكر بن سالم : لو سألت اللّه أو قال شَفَعت في أحد من الكفار ، ولعيالي وأخدامي ، لرجوت الإجابة لأولئك الكفار ، دون الآخرين ، لأن المخامرة إذا قلت هات كذا ، أو افعل كذا ، تذهب الاحترام ، ولهذا كانوا إذا جاء الطالب يمكث شهراً أو أكثر، لا يكلمونه بكلمة

، خوفاً أن يألف الكلام معهم ، ويقل احترامه ، أو كما قال ، كل ذلك بمسجد إبراهيم يوم الثلاثاء

ثاني ربيع ثاني سنة 1126 ، وسألته رضي اللَّه عنه مرة عن حال الرجل ، يكون في البعد متلهفاً إلى الشوق إليكم كثيراً ، وفي الحضور سالياً عن هذا ، وفارغ البال منه ، أيُّ الحالتين خير ، فقال نفع اللَّه به : حالة الحضور خير ، وليس في ذلك من الخصال المحمودة ، إلا التلهف والشوق إلى الاجتماع فقط ، وهذا يزيد عليه ببقية الخصال ، وإن كان خالياً من التلهف الحاصل لذاك ، لأن الإنسان في الطبع ، لا يشتاق إلى الحاضر ، فلهذا لا يكون الشوق في الجنة ، وإنما يكون فيها الاشتياق ، قال ذلك ضحى يوم السبت لعله في 8 صفر سنة 1128 .
وذكر رضي اللّه عنه يوماً من مجاهدات الأكابر الذين سلفوا كالشيخ أبي بكر بن سالم ، فقال : كانوا أيضاً يترصدون لملئ الحيضان في الليل حتى لا يراهم أحد ، ويقيمون الليل بالصلاة والتلاوة ، ومرادهم بهذه الأشياء كلها وَجْهُ اللَّه تعالى ، فيخفونها عن الخلق ، فقيل له : فما هذه الهمة التي كانت لهم ، فقال : بهذا حصل لهم ما حصل ، أوَ أعطاهم اللّه ذلك بلا تعب ، أوَ يجلسون جالسين ويطلبون ذلك ، كان سَوَّى اللّه بين الناس ، ولم يتميز أحد منهم على أحد ، فقلت : إنه قد أعطاهم هذه الهمة العظيمة ، فبها سبقوا غيرهم ، فقال : عرفوا الحق فطلبوه ، من عرف ما يَطلب هان عليه ما يَبذل .
وقال رضي اللّه عنه لي يوماً : طريقة السادة آل باعلوي ، العقيدة التامة ، والتعلق بالشيخ ، والاعتناء من الشيخ ، والتربية بالسر ، وهي طريقة السلف ، كالحسن البصري وغيره ، وليس من شرطها الأربعينية ولا بأس بذلك ، وقد فعله كثير منهم ، ومن لم يجتمع قلبه بَعْدُ على شيخ معين ، فلا يختص بأحد منهم ولا ينتسب إليه ، بل يكثر من لقاء المشايخ ، ويتبرك بهم ما دام كذلك حتى يجتمع قلبه على واحد ، فحينئذ يلزمه ويختص به ، وينطرح تحت نظره .

وقال لي رضي اللَّه عنه عشية الخميس في 11 ربيع الأول سنة 1125 من طلب وأراد شيئاً من أحوال الصالحين ، فيطلب ذلك ويستثمره بالأعمال الصالحة الخالصة ، والأخلاق الحسنة ، ويطلبه من اللّه بذلك ، ولا يطلبه منه بغيرها ، ثم يطلب منه لها الزيادة والترقي ، فإن هذه الأمور تثمر له ذلك ، إن كان له نصيب ، واللّه هو الفاعل ، إذ ما كل حبة تجيء بسبول( ) ، فتراك ترى كثيراً من الناس ، ياصلاة ، ياصيام ،[أي يكثر منهما] ، ولا حصلوا شيئاً لعدم ترقيهم ، فإنهم بقوا جامدين على ذلك ، ولم يطلبوا الزيادة والترقي ، ولكنهم على خير لا يخلون منه ، ولا عاد نوصّي إلا بالإحياء ، كما أوصى بها السلف ، وفي الفقه : المنهاج ، لأنه مُغَرْبَلْ ، وفي كل كتب الحديث خير ، "البخاري" أو "مسلم" أو "رياض الصالحين"ـ ، أو "الأذكار" ، إلا أنه لا يمعن جداً ، أو قال لا يتقعر ، لأن ذلك يزيد قوة في الإدراك والفهم والتحقيق ، وما ندري ماذا يصير الأمر بعدنا ، ولكن احفظوا عنا ما ذكرناه ضحوة وقت القراءة من أمر الدجال ، لأن النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم قال( ): ((إن ظهر وأنا فيكم فأنا حجيجه ، وإلا فكل حجيج نفسه)).

وقد ذكر رضي اللَّه عنه ضحى هذا اليوم في مجلس القراءة المسيح الدجال ، فقال نفع اللَّه به : ما جاء أنه يمسح الأرض لا يلزم من ذلك أنه يعمها كلها ، بل يطلق هذا على الأكثر ، ويحصل به العموم ، لأنه جاء أنه لا يدخل مكة ولا المدينة ، وفي الجبال حصن حصين منه ، فعلى من خافه بها( )، إلا إن كان يرسل لمن بَعُدَ منه ، لكن ما له رسل ولا طلائع يبعثهم ، وإنما هو مفرد برأسه ، وقد مر علينا في آثار ضعيفة جداً ، أنّ مَن كان في الأموات ، ممن لو حضره لأجابه ، يجيبونه من قبورهم ، ولكن لا يصح هذا ، أو كما قال .

وقلت لسيدنا نفع اللَّه به : لو أن رجلاً اجتمع ببعض المشايخ ، ولم يكن معه إذ ذاك همة في العبادة ، فبعد مفارقته للشيخ حصل له باعث العبادة ، هل يكفيه اجتماعه بذلك الشيخ ، عن لقاء شيخ بعد ذلك ، ويكون ذاك شيخه ، وينسب إليه ، فقال رضي اللَّه عنه : نعم يكفيه ذلك ، ويكون شيخه ، وهو تلميذه ، والطريق معروفة ، ولا عليه إلا أن يسلكها ، والفتوح من اللَّه يأتيه ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : اعملوا ولا تستعجلوا ، وجزاء العمل إنما يكون في آخر العمل .
وسألته رضي اللَّه عنه : ما معنى نسبة أمور إلى العبد لا اختيار له فيها ، كأمره بالإخلاص واليقين ، وغير ذلك من الأمور الباطنة ، التي هو يتمناها ولا يقدر عليها ، فقال نفع اللَّه به : هذا لأجل النسبة ، أمر نسبة يعني ينسب ذلك إليه مجازاً .
وسألته رضي اللَّه عنه : عن كلام تكلم به ، في مجلس القراءة ، في الداعين إلى اللَّه ، القطب أو من ينوب عنه ، وكان السؤال يوم الأحد في 13 صفر سنة 1124 في السبير داخل بستان الليمة ، فقال : القطب إذا لم يتأهل للظهور في الدعوة يستنيب من فيه أهلية ، وذكرنا كلام الشعراوي ، وهو إلا في من كان شيخاً ، ومعه تلامذة ، وجاء آخر ومعه تلامذة كذلك ، ودعوتهم مختلفة ، فيدعون عليه لأنه معترض باغ ، ولهذا لا يجوز إمامان في وقت واحد ، وإن كان قصدهم كلهم الدعاء إلى اللَّه ، فيسلِّم أحدهم الأمر للآخر ، ويصير تابعاً له ، حتى إن بعض الداعين إلى اللَّه من مشايخ مصر يقال له الحسن ، أتاه شيخ يقال له يوسف ، وكلاهما على الطريقة ، قال الحسن ليوسف : إما أن تكون تابعاً لي ، وإلا أنا أكون تابعاً لك ، واختار الحسن أن يكون تابعاً ، فبقي كأنه من تلامذته .

وحكي إن موسى عليه السلام ، لما كثرت عليه بنو إسرائيل ، وتدافعوا على بابه ، سأل اللَّه أن ييسر له من يدعو إلى اللَّه معه ، ويعينوه على ذلك ، ويخفِّفوا من تزاحمهم عنده ، فأوحى اللَّه في تلك الليلة إلى

مائة أو مائة وعشرين ، فكان حينئذ هؤلاء أنبياء ، فتفرقوا عنه حتى لم يبق عنده منهم أحد ، واجتمعوا على أولئك الأنبياء ، فلما رأى ذلك غار ، فدعا عليهم ، فماتوا كلهم في ليلة واحدة ، ولما بعث اللَّه إلى موسى عليه السلام ملك الموت لقبضه ، ثقل عليه الموت ، فأوحى اللَّه إلى يوشع بن نون فنُبِّي ، وقال اللَّه تعالى : لا تعلم موسى بأنا أوحينا إليك ، فرأى موسى كأن اللَّه أوحى إلى يوشع ، وأمره أن لا يعلمه ، فلما أتى يوشع إلى موسى ، سأله موسى : بماذا أوحى اللَّه إليك؟، فأبى أن يعلمه ، وقال له : أما كان يوحى إليك قبلي ، فلا تعلمني بما أوحي إليك ، ولم أسألك عنه ، فلِمَ تسألني؟، فقال موسى عليه السلام : أما الآن فلا طيبة لي في الحياة .
ونحن إذا رأينا من يدعو إلى اللَّه على الطريقة العامة ، ويُعَلِّم الناس ، وإن لم يكن صَحِبَنَا ، نفرح بذلك ، وإنما نتكلم على من يدّعي أنه من أهل الطريق الخاصة ، ويرى أنه من أهل الباطن ، ويدعو إلى ذلك ، فننظر إن كان حقاً ما يقول ، فيسلم لمن هو أكمل منه ، وإلا كان مفتناً ، وإن قدرنا على منعه منعناه ، ثم ذكر قصة سيدنا علوي بن الفقيه مع الغريب الذي جاء إلى تريم ، وموَّه على الناس ، وادعى الصلاح ، وأظهر لهم خوارق ، فاعتقدوه واجتمعوا عليه ، إلى أن افتضح على يد سيدنا علوي المذكور، إلى آخر القصة ، ثم قال سيدنا رضي اللَّه عنه : وقد جاء رجل من جماعتنا ، يعني من السادة آل باعلوي من الحرمين ، ومعه إجازات من جملة مشايخ ، وقال : اجتمعت بفلان وفلان ، وجاء إلى تريم يريد يصير صاحب طريقة ، وبقي يتلقّط الذين قد صحبونا، فقلنا له : إن هؤلاء قدهم مربوطين ، فخذ ممن لم يصحبنا ، ولم يجتمعوا

بأحد ، فبقي على ذلك ، فرأيت في النوم كأني خارج من مسجد الهجيرة إلى الطريق ، وهو ضيّق ، وإذا بالشيخ محمد بن علوي صاحب مكة قائم في الطريق ، وذلك الرجل ومن معه قائمون في جانب الطريق ، فقال لي السيد محمد بن علوي : أنا أمر

وأنت مر بعدي ، فمر السيد محمد بن علوي ، ومررت بعده ولم يمر أولئك وبقوا ، وبعد هذه الرؤيا ما استقام لذلك الرجل أمر ، فرجع يُقَرِّي في الفقه ، ونحن ما بيننا وبين الناس شيء ومن يدعو لنا في جميع أقطار الأرض ، ويحبونا أكثر من الذين يبغضونا ، لأنا ما نازعناهم في شيء من أمور الدنيا ، ولا طلبناهم أموالهم ، وتكلم كثيراً ، ثم قال : أمسكوا الحبل بطرفيه ، ليمتسك لكم الأمر ، وإن أخذتوه بطرف واحد انتثر عليكم ، أو كما قال .
ما قاله من المقابلة لتصحيح النقل والتوصية بذلك
وكنت يوماً أسايره خارجاً من البلاد إلى الحاوي ، وذلك يوم الثلاثاء خامس ربيع الثاني سنة 1132 ، وكان قبله بنحو أسبوع وصل اثنان إخوان من بغداد ، وهما من أولاد الشيخ محمد الرَّحبي مفتي بغداد ، وطلبا أن ينقلا شيئاً من القصائد من الديوان ، فقال رضي اللّه عنه حينئذ : لا تخلي أحداً من الأغراب الذين يصلون إلى عندنا ، إذا حصّل شيئاً من الرسائل أو من القصائد يسافر به إلا حتى تقابله بيدك ، واكتب عليه بلغ مقابَلة على يد فلان ، واذكر اسمك واسم المصنف ، أو الناظم ، وأن هذا من نظم فلان أو تصنيف فلان ، لأنك معروف بتحصيل الكتب ، وأي شيء ينفع الكتاب المغلوط ، وربما زاد حرف أو نقص حرف أو زادت نقطة أو نقصت أو غير ذلك ، فقرأه على الخطأ ونسب ذلك إلينا ولم يعرفوه ، فالحذر تخلي أحداً يكتب شيئاً ويسافر به حتى تقابله ، وتكتب اسمك على مقابلته ، واسم المصنف أو الناظم .

وقريء على سيدنا نفع اللَّه به في شيء من مؤلفاته ، فاتفق تقديم بعض الكلام وتأخير بعضه ، فأمر بإصلاحه ، ثم قال رضي اللّه عنه : إنه قد يحصل الابتداع في الدين بزيادة كلمة أو نقص كلمة ، ومثل هذه الأشياء هي التي أوجبت الإنكار والطعن على الأكابر، وقرأ ممن كان يقرأ بحضرته ، قارئٌ كان يقرأ في "رسالة المذاكرة" في فصل : وأما ضعف الإيمان إلى أن قرأ إلى غير ذلك من الأخلاق

المشومة ، فغلط وقال : المسمومة ، فقال سيدنا عند ذلك بعد ما ردَّ عليه غلطته : أكثر ما أنا خايف من أحد ينقل هذه الرسائل ، وفيها الغلط والتحريف فينقله عنا ، ويقول : قرأته على المصنف ، فاشهدوا على ذلك ، وإنما نحن خُدّام الشريعة ، فمن أتانا فنفعه اللَّه بنا أو بكلامنا فلا نكره ، وإلا فلا حاجة لنا بأحد ، فمن سمع منا بكلام غير مستقيم ، أو مخالف للكتاب والسنة ، إما لغلط( ) ، أو اعوجاج في لسانه ، فلا يُصدَّق ، والغَيَار كله من قلة الفهم أو العجلة ، حيث يسمع بعض الكلام ، ويفوته البعض ، فينقله ، فينبغي أن يسمعه كله ويفهمه ، قال ذلك عشية السبت سلخ ربيع الأول سنة 1129هـ .

(1/160)

وقال لي رضي اللَّه عنه يوماً : عاد آل فلان أرسلوا لك ، قلت : نعم ، واعتذرت ، فقال رضي اللَّه عنه : إذا كان لك في شيء هوى ، ماعاد تعرف الصواب من الخطأ ، وأنت امتثل ولا عليك أن تعرف وجهه ، فإن الطريق العامة ، والطريق الخاصة ، كل منهما مظلمة ، لا يهتدي الإنسان بنفسه فيهما إلى الصواب ، فيحتاج أن يجعل يده في يد العالم بذلك ، ولا يتكلم ، كالأعمى أو مَن هو في ظلمة يجعل يده في يد البصير ، أو مَن هو أعرف منه ، ونحن جميع أقوالنا وما نتكلم به مع الناس في هذا الزمان إنما هو في طريق العامة ، ومعنى كونها مظلمة أنك لو قلت للرجل منهم ، في صلاة أو زكاة ونحو ذلك ، من أمر بمعروف أو نهي عن منكر، اشْتَغَلَ مِنْ ذلك ، ولا يحب من يُذَكِّره ويعلمه ، وقد نَجِدُ في نفوسنا على أحد من الناس من هذه الحيثية ، حتى على أغراب وفقراء ، لكنا بحمد اللَّه لا نظهر شيئاً من ذلك ، وأما الطريق الخاصة ، فقد قال بعضهم : إنها قد اندرست منذ زمان بعيد ، ومن لم يسلِّم لذلك ، قال معنى دروسها : إنها كلما تأخر الزمان ، زادت خفاء ، وأنت طالِبْ نفسك بحق اللَّه عليك ، وهو التقوى واليقين ، ولا عليك تكليفها ما وراء ذلك ، ومرادنا نعلِّمك حتى تعرف الصواب ، فتنتفع وتنفع ، فقد مر بعض المشايخ بعبد أسود في عنقه طبل ، يشرب الخمر ،

ومع الشيخ تلميذ له ، وذكر القصة إلى تمامها ، فقلت : هل التقوى من أول الطريق الخاصة؟، فتبسم وسكت ساعة ، وهذه عادته إذا كُلِّمَ بما لم يُرِدْهُ ، أو بما بَعُدَ عن المعنى ، ثم قال : أولها الاعتقاد الصحيح ، ثم قام إلى صلاة العصر، وكان ذلك الكلام في الضيقة .

(1/161)

وقال رضي اللَّه عنه لي يوماً : خذ في كل ما يشكل عليك في حق اللَّه ويوهمك فيه ، شيئاً بالتسليم وتَرْكِهِ على ما هو عليه من التنزيه له سبحانه عن صفات الحدث ، وقد جاء في القرآن والسنة كثير مما يوهم ذلك ، ولكن للسلف فيها طريقان : التسليم والتأويل مع التنزيه ، وأين الرب سبحانه من صفات خلقه ، ففي وصف أحد من الملائكة من الأمور ما تعجز العقول عن إدراكها ، فكيف بالباري سبحانه أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : مَن راعَ رُوعِي ، أنت تريد من اللَّه أن يراعيك ، فراع حقه أنت حتى يراعيك ، ومن لم يكن في وقته الحاضر صاحب خير ويقظة ، لا تَسْهَن( ) له في باقي الوقت يقظة ، واليوم ما معهم مما مع أهل الزمن المتقدم ، حتى غباره ، لكن أردناهم يستيقظون لأنفسهم ، إذا كان الإنسان على قهوة يقرأ ما تيسر من القرآن ولو جزءاً ، ومثل هذا ، ولا يضيعون أوقاتهم بلا شيء ، فإنا نعرف رجلاً( ) كان بعد الفراغ من الدرس ، بعد القراءة قبيل المغرب ، يأتي بألفي تهليلة ، وهؤلاء ضَعُفَت هممهم ، حتى سهل عليهم تضييع أوقاتهم ، مع أنهم يسمعون العلم ، ولا ينهضهم ، فيصير حجة لهم ، إلا إذا كان لهم هوىً فعلوا كما يفعل النساء من الإعطاء ، ولم يفعله أزواجهن ، وهم أولى بذلك ، لكن هذا مليح ينتفع المعْطَى ، وإن لم ينتفع المعطي ، وهو أحسن من لا شيء، ورَغَّبَ رضي اللَّه عنه في الإطعام ، فقال : باللُّقَم تُسْتَدْفَع النقم ، ومرة قال : تُتَّقى النقم ، ولكن مع كثرة التخاليط قل أن ينتفع الإنسان بشيء، إلا إن كان من حيث لا يحتسب ، وإنما حصل للأولين بأعمالهم ما حصل ، لخلوص

نياتهم وزكا أعمالهم ، ومن رأى أفعاله تعالى الرحموتية والجبروتية خافه ، فيعرف أنه يأخذ في ساعة ، ولا جاء في بالي أن مع هذا الهملة ، [أي المطر الخفيف] يجيء هذا السيل الهائل ، وفيه كمال التنبيه ، لأنه سبحانه أول ما يُخَوِّف ويُنْذِر ، ثم يأخذ ، وهذا بسبب المظالم التي هم

(1/162)

مقيمين عليها من قديم إلى الآن ، واختلط الحلال بالحرام ، ولا تناهَوا فيما بينهم ، فقد أهلك اللّه قوماً من بني إسرائيل ، مع انتهائهم عن المحارم ، ونهيهم عنها ، إلا أنهم ما جانبوا أهل المعاصي ، فأخذهم اللّه معهم ، لكن عسى في هذا كفارة للذنوب ومذكر بالآخرة .
أقول : والسيل المذكور، هو المسمى سيل الحوت ، الذي أخذ النخيل ، وكان ضحى يوم الأربعاء في 26 شهر رمضان سنة 1124 ، وقد تكلم سيدنا رضي اللّه عنه في أمر هذا السيل بكلام كثير في مجالس متعددة ، وسيأتي إن شاء اللّه كثير منه مجموعاً في موضع واحد من هذا المجموع ، وقد اتفقت لي رؤيا قبل السيل المذكور بيومين ، وذلك يوم الاثنين بعد صلاة الصبح : كنت في حلقة نقرأ القرآن في مصلى الحاوي ، وسيدنا حاضر جالس في المحراب ، فبعد ماقرأت المقرا غَطّني النوم ، فرأيت قبة في وسطها قبر ، وفيها ثقبان ، قبلي وشرقي ، وكأن عثْم( ) ماء يدخلها من القبلي ويسفح على القبر ثم يخرج من الشرقي وينفذ إلى نخيل وبساتين يسقيها، وكأن القبرَ قبرُ النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فوقفت على القبر متعجباً كيف يُترك الماء يجري على القبر الشريف ، وأقول في نفسي : هذه البقعة التي ضمت أعضاءه الشريفة ، أفضل من العرش والكرسي ومن كل شيء ، ويترك هكذا، وكأني أتمثل بهذا البيت من قصيدة البكري :
لِمَا حَوَتْ والفَلَكُ الأكبَرُ ... قد حَسَدَتْها سدرةُ المنتهى
وطالت بي الرؤيا حتى وصلني المقرأ ، فَنُبِّهْتُ له ، فتعجبت من هذه الرؤيا ، فلما فرغنا من القراءة بعد

طلوع الشمس ، وركع سيدنا الإشراق ، ثم دخل ودخلت معه إلى الضيقة ، فأخبرته بالرؤيا ، فقال : سبحان اللَّه ، هذا بإيقع أمر ما يتحمله إلا هو صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فلما كان ضحى الأربعاء جاء هذا السيل الهايل كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : أشرنا على فلان : رجل سَمَّاه ، بشيء ، فلم يفعل ، وذلك لغباوة فيه لا مخالفة ، والغباوة يفوت بسببها من الإشارات أكثر مما يفوت بالتعمد ، لأن المتعمد مخالف ، وهو كمن يصب الماء( ) ، وأما الغبي الذي لم يفهم ، فله حال آخر ، وهو معذور ، وكلام أهل الحق كله إنما هو بالإشارة ، ولو أشاروا على أحد بشيء فخالف ، ثم قال : باأرجع أفعل بالإشارة ما قال لي فلان ، وفعل ، فما عاد ينفعه.
وقال له رضي اللَّه عنه رجل من السادة : ادع لنا ، فقال نفع اللَّه به : وما مع الإنسان ما يصل به أخاه إلا الدعاء، والدعاء علامة المحبة ، ولم يجعل اللَّه دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مقبولاً ، إلا لما فيه من الإخلاص المقترن بالمحبة ، ولهذا جاء الترغيب في ذلك ، والأشياء إنما تعرف بأصولها لا بالفروع ، فإذا أخذتَ بالفروع ، فترق منها إلى الأصول ، ولا عكس ، فإذا أخذتَ بالأصول لا ترجع إلى الفروع .
ثم قال له يوصيه : خفف على نفسك من العلائق ، ومن اتخاذ الدَّين ، فليس الشأن من العاقل إذا وقع في الأمور أن يتخلص منها متى شاء ، إنما الشأن منه أن لا يقع فيها أصلاً ، ثم قال له : أتعلم سورة الملك كم آياتها ثلاثون ، وتعلم الجُرز كم هي تسع وعشرون ، ولِلَّه في القرآن من حيث الحروف والآيات والسور أسرار وحكم ، وإلا لاستغنوا عن التنزيل ، واكتفوا بسورة واحدة .
ما قال في من يرث الولي إذا مات

وقال رضي اللَّه عنه : لم توضع الأسرار إلا في الأوعية الطاهرة النقية ، لا الملآنة من القذر والتخليط ، ولو كان هو أولى بإرثه من غيره ، فقد يرثه غيره لوجود هذا الشرط في ذلك الغير ، وخلو ذلك القريب منه ، فقد يكون صاحب السر في حضرموت مثلاً ، ويرثه إنسان بمكة ، أو في غيرها من الأماكن البعيدة ، ولا يرثه القريب ، ثم حكى إن الشيخ أحمد بن علوي باجحدب( ) علوي نفع اللَّه به لما مات ، ما عُرِف في البلاد مَن وَرِثَه ، أو قال من أقيم مقامه ، فبقي بعضُ السادة يتقصى عن ذلك ، فلم يظهر له ، فأمر خادمه أن يقف على باب الجامع ، يوم الجمعة ، وينادي من حفظ منكم الضالة ، وبقي كذلك ينادي ساعة ، وفهم له بعض السادة ، وكان هو ، فقال : إنها محفوظة ، فعرفوه حينئذ ، وتوفي بتريم بعض الأعيان من أهل الأحوال ، وقيل له [أي سيدنا] : إن فلاناً لم نعلم له من وارث ، فهل يكون أحداً من الملازمين له والمنسوبين إليه ، فقال رضي اللَّه عنه : قد يكون الموروث هنا والوارث في الصين مثلاً ، وأما المنسوبين إليه فلا ورثه منهم أحد ، لأنهم لم يتربوا ولم يتأهلوا ، وقد كانوا إنما يجيء أحدهم إلا عند فراغه ، فقيل : بأي شيء يُتأهل لذلك ، فقال : بالإقتداء بهم واحترامهم وتأويل ما يشكل عليه مما يصدر منهم مما ينظره إنه يُنكر شرعاً، ولا يقتدي بهم فيه ، ومحبتهم وامتثالِ أوامرهم ومراعاتهم ونحو هذا.

وقال رضي اللَّه عنه لرجل : إخلص العمل ، لتأخذ أجرك من ربك ، وإن لم تخلص قيل لك خذ أجرك ممن عملت له ، ومن كان مُعْتَقَداً( ) يعسر عليه الإخلاص ، وخصوصاً فيما يؤكد الاعتقاد فيه كَشَلِّ الأذكار . والرياسة لها سُكْر ، كسكر الخمر ، ولكن عندنا قلة اعتقاد الصالحين والتعلق بهم ، نفعت العاملين ، وإن تَقَمَّحَ غيرهم ، وويل لمن راح وخسر من عمل الآخرة ، اشترَوا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ، قال الشيخ أبو بكر العدني : رياسة تريم ، منوطة بأوباشها، فأف لرياسة تناط بهم ، أف لرياسة

تناط بهم ، أف لرياسة تناط بهم.
قصة أصحاب السفينة
وقال رضي اللّه عنه : يُراعى حال الأكثر في كل أمر ، فلو كان عشرة يريدون أمراً يضطرون إلى فعله ، سوى واحد منهم يتضرر بفعله فيُراعَون دونه ، وقد كان جماعة عابرين في سفينة وفيها مسلمون وكفار عددهم سواء ، فحصلت عليهم شدة احتاجوا أن يرموا ببعض العابرين ، لسلامة الباقين ، فبقي كل من الصنفين ، يريد أن يرمي بالآخرين ، ويَسلمون هم ، ففعل رجل كان فيهم مسلم عاقل هذا البيت وقال :
ويرزق الضيف حيث كانا ... اللَّه يقضي بكل يسر
... أقول : وفي القصة أنهم لما تشاجروا في أيهم يرمى به ، قالوا : نقترع ، ومن وقعت القرعة عليه ألقيناه ، فقال لهم ذلك الرجل المسلم العاقل : ليس هذا حكماً مرضياً ، وإنما الحكم : أن نعد الجماعة ، فكل من كان تاسعاً ألقيناه ، فارتضوا بذلك ، فصفهم حلقة على ترتيب حروف البيت المذكور ، حروفه المهملة للمسلمين ، والمعجمة للكفار ، فلم يزل يعدهم ويلقي التاسع فالتاسع إلى أن ألقى الكفار أجمعين ، وسلم المسلمون وابتدأ العدد من أول الأربعة المسلمين ، ثم بأول الاثنين منهم ، وهكذا على حسب الترتيب المذكور ، انتهى.
ما قال في طلب المريد الطالب للقراءة

وقدم رجل على سيدنا نفع اللَّه به ، فقال له حين قدم : أريد أن أقرأ ، فقال له : لا تعجل ، ما هكذا يكون الطلب ، فقد كانوا يأتي الطالب ويمكث سنة لا يُعرف به ، لأن أمور الدين عزيزة عند أهلها ، متقبضين عليها، وأما أمور الدنيا، فإن كان عندهم منها شئ ، فهو مبذول ، وهذا هو الفرق بين أهل الدين وأهل الدنيا ، إن الدنيا مبذولة عندهم ، أقل الحال المأكول والمشروب ، ولو كل من أراد القراءة خليناه يقرأ ، لامتلأ منهم المسجد ، ولكنهم قرأوا وما حصلوا وقد كان تكفي أحدهم النظرة ، لكون قلوبهم ملآنة من العقيدة والتعظيم وحسن الظن ، والمدد في المشهد ، ونحن بواطننا سليمة على أهل

الزمان ، وما بيننا وبينهم شيء ، وأتى رجلٌ ذا النون المصري ، يطلب الاسم الأعظم ، فمكث عنده سنة أظن قال لا يكلمه .
وقال عبداللَّه القرشي : كنت آتي شيخي وأجلس تحت سور البلد سنة لا يعرفني أحدٌ ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه لذلك الرجل يوصيه : كن رجلاً مليحاً لربك ، يكن كل شيء لك مليحاً ، فمن كان مليحاً لربه ، كان له كل شيء مليحاً، ومن كان بخلاف ذلك ، كان كل شيء له كذلك ، لأن الأشياء تابعة لخالقها .
ما قال في آداب مطالعة الإحياء
واستأذنه رضي اللَّه عنه رجل في مطالعة الإحياء ، فقال نفع اللَّه به : إذا أحكمت التواضع ، ما ننهاك عن مطالعة الإحياء ، ومن لا يعرف حقيقة التواضع ، تكبر بمطالعة الإحياء ، فإن أردت أن تتواضع فطالع فيه ، وفيكم يا أهل الزمان ، فَشَار( ) من غير حقيقة شيء ، وإذا رأيت كتاب الغرور( ) خلاك قائماً بلا شيء، وصفوة الإحياء ربع المنجيات ، لأن الإمام مخضه حتى انتهى إليها، جعلها خلاصته ، ونحن مع حضورنا في أوقات فاضلة ، واجتماعنا بناس أهل فضل ، لم يخطر ببالنا أن نقرأ على الشيخ فلان المعروف بالخصوص .

ثم تكلم رضي اللَّه عنه كثيراً في أحواله في تلك الأوقات ، وذكر جماعة ممن كان فيها، حتى انتهى إلى ذكر أهل هذا الوقت الحاضر ، فذمهم وذم أحوالهم وأعمالهم ، فقال : إذا جاءك أحدهم فقال أريد أن أقرأ في الكتاب الفلاني ، وقلت له : خل هذا واقرأ في كتاب آخر، حنق( )، فما بُعْدَ هؤلاء، ولكنا ما بالينا بهم ، وما استأنسوا معنا، ولا نبالي بمن حنق ومن لا يحنق ، ولكنا نأخذ البعض منهم بالبعض ، ثم أعطاه كتاب "المنجيات"، فقال له : طالعه واجتهد في العمل به ، والاتصاف بما فيه ، واحذر أن تفوش( ) وتتكبر ، فإن إبليس أول من فاش وتكبر .
وتكلم رضي اللَّه عنه في أهل المناصب ، فقال : من هو في هذا الحال ينبغي مداراته ، للإبقاء عليه ،

ومثلها( ) كمثل النار ، كلما زاد لهيبها ، زاد إحراقها ، فالعاقل هو الذي يأخذ خيرها ويترك شرها، فإن لم يتميز له الأمران تركهما جميعاً أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا قيل فلان أخذ عن فلان ، ليس معناه أنه أخذ عنه في كتاب ، أو قال قرأ عليه في كتاب ، إنما معناه : إنه اقتدى به في سيرته ، بأخلاقه وأفعاله وأقواله ، فإذا فعل ذلك فذاك شيخه ، وهو له مريد.
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي أن يأخذ الإنسان من الأعمال على قدر ضعفه وضُعْف زمانه ، ولا يدَّعي القوة في غير موضعها، لأن أمور الدين كالمسك ، كلما ازددت له شما نقصت رائحته.
وقال رضي اللَّه عنه : من له تعلق وميل إلى أحد من الصالحين ، حصل له المدد من جميع الصالحين ، لأنهم لا مشاحنة بينهم ، ولا مشاحة في شيء أبداً ، بل لو قال هذا المتعلق بأحد منهم لآخر منهم : أريد أن أترك فلاناً وألازمكم ، لم يطعه ولم يوافقه على ما قال ، بل يقول له : كن متعلقاً بشيخك الأول والمدد لك منا يحصل ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : من رأيت له أدنى تعلق بطاعة وإن قلّت ، أو ميل إليها أو بأحد من الصالحين أو ميلاً ما إليه ، فارج فيه الخير ، وذكر قصة الرجل من أعوان الدولة الذي يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر العدني( ).
وقال رضي اللَّه عنه : ما جَرَّ إلى خير فعاقبته إلى خير وإن كان في ظاهره شراً ، وما جر إلى شر فعاقبته إلى شر وإن كان في ظاهره خيراً ، والعاقبة للخواتيم .
وقال رضي اللَّه عنه : سبحان اللَّه ، الرجل من أهل هذا الزمان ، فيه الأخلاق السوء والأعمال السيئة ، ثم مع هذا يظن ذلك في غيره ، ولا يظنه في نفسه ، فينبغي أنه إذا كان فيه هذا النقص ، أن لا يظنه بغيره ، فيكون نقصاً آخر ، ولكن كأن النقائص يتبع بعضها بعضاً ، ومثل لذلك بالرجل يترك الزكاة ، ثم إذا دخل المسجد، ورأى الجابية غير حارة( ) ، فيقول :

يأكلون الوقف ولا يقومون بالمسجد ، وأنه ما قال ذلك إلا لمجرد هواه ، لا إنكاراً للمنكَر .
وذُكِر له رضي اللّه عنه أن أناساً وزعوا أموالهم ، وفرقوها وتعسر( ) الزكاة على هذا. فقال : لعل لا نية لهم في إخراج الزكاة ، فإذا أردت تعرف ذلك فانظر إلى صلاتهم كيف يؤدونها ، فبذلك تعرف قلة رغبتهم في الدين .
وقال رضي اللّه عنه لرجل جاء من الحج : هل حججت قبلها؟، قال : نعم ، إلا إني كنت إذ ذاك ما معي شيء ، وأحب ما يحصل لي بلا شيء. فقال له نفع اللّه به : الرزق والمال كله لربك ، ولا فرق بين أن تعطي غيرك أو يعطيك غيرك ، فكلكم عبيده ، والذي في أيديكم رزقه ، يُعْطي منكم من شاء بالآخر ، ويعطي بعضاً على يد بعض ، فالرزق من حيث الحقيقة واحد ، وكل الناس فيه سواء ، وإنما اختلف وضاق الأمر فيه من حيث الشريعة أو كما قال .

وقال رضي اللّه عنه : صار الناس اليوم غنائم بعضهم لبعض ، هذا يَمُدُّ يده في مال غيره ، والآخر يمنع الحق من ماله ، وما كان هذا عادة الأولين ، إنما كان أحدهم يمنع يده من مال غيره ، ويرى أن أخذه للتمرة منه جمرة نار يأخذها ، والآخر يعطي الحق من ماله ، ويرى أن التمرة يخرجها من ماله جوهرة يحتسبها، وكلاهما يغدو ويروح لما طلب.
وقال رضي اللّه عنه لرجل : كيف أنت؟، أمستريح؟، ثم قال نفع اللّه به : ما المستريح في الدنيا إلا من لا يُعوِّل( ) بأمورها ، ولا يقول أريد ذا كذا ، وذا كذا ، وكان الجنيد لا يهتم بها ، فقيل له في ذلك فقال : إنها بنيت على التعب ، فلا أستنكر شيئاً ، ونعلم أن كل راحتها تعب ، وتعبها راحة .
وذكر رضي اللّه عنه الحياء فقال : إن لسيدنا علي فيه كلاماً ، ومنه : إن الحياء المفرط باب الحرمان ، وهو مانع من الخير ، والطالب لا ينبغي أن يستحي وإن استحيا المطلوب منه .
وقال رضي اللّه عنه : ينبغي لمن يريد التوبة ، أن ينظر ما خلفه وأمامه أولاً ، وأن لا يُخاف عليه أن

ينكث التوبة ، قال ذلك لرجل بعد أن قال له سيدنا : تبت عن الحَظِي( ) ، ثم نكثت وعدت إليه ، فتُزَيِّن به الدنيا للناس ، فيرغبوا فيها ويحبوها، وقد شكا إليه حينئذ تعطل حرفته منذ مدة ، وما بقي ينتفع منها ، فقال له : خذ مخزن( ) فإن فيه بركة ، والقليل منه كثير .
وقال رضي اللَّه عنه : لابد إذا فعل الإنسان شيئاً ، أن يجازى به في الدنيا قبل الآخرة من خير أو شر ، كما ذُكِر إن بعضهم كان على حمار ، فجعل يضربه ، فقال له الحمار: ضرْبكَ على رأسِك( ) ، أكثِرْ منه أو أقلل .
وذكر إن رافضياً كان والياً في بعض البلدان ، وكان ظالماً، وهناك يهودي ، فمات الرافضي ولم يصبه شيء في الدنيا ، فمضى ذلك اليهودي إلى بعض الصالحين ، وأسلم على يديه ، وقال : ظننت أنه لا يموت حتى يقطّع ، ولكن هذا ببركة الإسلام ، ويكون نفعه في الآخرة أكثر( ) .

وقال رضي اللَّه عنه لرجل يخاطبه بهذا : ما كان بينك وبين أهلك فهو صالح على أي حال وإن كان على غير ذلك ، ولكن اجعل ما بينك وبين الناس يكون صالحاً .
وذكر رضي اللَّه عنه المرا والجدال ، فقال نفع اللَّه به : هو الذي نسميه المعاشاة ، وهو أن تقول أنت : الأمر كذا ، ويقول الآخر: لا إنما هو كذا ، وكل منكما يحتج بقوله ، يريد ظهوره سواء كان حقاً أو باطلاً ، فإن كان صاحبك محقاً فاتبعه ، وإن كان مبطلاً فاتركه ، حتى يتبين له الحق في وقت آخر ، وإنما يبنى للمحقِّ بيت في أعلا الجنة ، لكون السكوت من المُحِقِّ شديدٌ ، وأما سؤال المريد شيخه ، فعلى ما قررنا في رسالة المريد ، لكن بشرط إن قال له اترك السؤال ، أو عادك تسأل في وقت آخر ، أو أنه سيأتي في الكتاب ، أن يمتثل ، وهذه الآداب عند أهل الباطن دون غيرهم ، كما استدل فيها بقصة موسى والخضر ، وقصتهما أيضاً إنما هي لبعض أهل الباطن ، لا كلهم ، وأيضاً بعضهم إنما رأيه موافقة أهل الظاهر لأجل سلامة نفسه منهم ، ولسلامتهم

أيضاً من الإنكار ، والوقوع في الإشكال ، وقد شرط على موسى أن لا يسأله ، فلما لم يوافق ذلك العلم الذي هو عليه ، لم يمكنه السكوت أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : كل علم له أصول ، إذا ضبطها تكاد تنضبط له الفروع ، ومن أراد أن يتبحر في فن فليأخذ بأصوله لتتبعها الفروع .

(1/171)

وقال رضي اللَّه عنه : من يقرأ القرآن لا يمكنه أن يقول بالجهة ، فيفرق بين معراج النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، وكلامه تعالى لموسى من الشجرة ، لأن الأمور الإلهية لا يدركها أحد ، وما أوهم إشكالاً من كلام المحققين ، فلا ينبغي أن يسارع إلى الإنكار عليهم ، بل يَدَعُهُم ، ويسعهم الكتاب ، ويجعلها من قبيل المتشابهات الواردات في الكتاب والسنة ، ولِمَ جاءت هكذا حتى احتاج الناس فيها إمّا إلى التسليم وإمّا إلى التأويل ، والصوفي لا ينبغي له أن ينكر على أحد بل يترك الإنكار يصدر من غيره ، وإنما هو يوجه ويؤوِّل ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : إنما الإيمان في الأمور الغيبيّة ، فلو كان إلا في الأمور الحسية ، لما احتاج إلى التنبيه عليه ، وفي هذا تفاوت بعيد ، ثم قال : ولا تستبعده وإن كان منك قريباً لأنه أمر غيبي ، فانظر إلى حال النائم بجنبك كيف يرى الرؤيا ، وإنه كذا وكذا ، وأنت لا تعلم به وربما صاح فتظهر لك .
وذكر رضي اللَّه عنه رجلاً مات وأوصى بوصايا باطلة وحِيَل فاسدة ، حتى جعل ماله : بِنُذْر لأولاده الذكور دون الإناث ، فقال نفع اللَّه به : هذه الأموال جاءت من وجوه حرام ، فراحت في وجوه حرام ، وهذه قاعدة : إذا أشكل عليك مال أحد هل هو حلال أم حرام ، فليُنظَر فيماذا يصرف ، فإن صرف في حرام فهو كذلك ، أو حلال فهو كذلك ، وكل ما خالف الشرع لا تحسب أن فيه بركة ، وعاد هؤلاء إن طال بك زمان ، إلى نحو عشر سنين تراهم يبيعون ما معهم ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : العلم بتقرير المسائل ، وأن يذكر مع كل مسألة ما يناسبها لا بمجرد مرور

الكتاب ، ولو أن أهل الزمان ما معك منهم شيء ، إلا أنه ما عاد منا شيء للتطويل ، وشيء من الكتب قد قرئت علينا ، ونسينا حتى اسمها ، وأمّا الإحياء فقد مَرَّ علينا تامّاً ثماني مرات ، غير الأبعاض( ) .

(1/172)

وذكر رضي اللَّه عنه الإخلاص والرياء ، فقال : على الإنسان أن يعمل ويلوم نفسه ولا يغالطها ، وإن حصل التقصي بطل العمل حتى هنا في الدنيا ، فضلاً عن حالة الوقوف بين يدي اللّه تعالى .
واستأذنه رضي اللَّه عنه رجل في الحج ، فقال له : اعزم على ذلك ، ولا تعلق نفسك بأخذ الأجرة فيه ، وأمر الخير إنوه ، فإن كان قد قدر لك وقع ، وإلا فالنية ما هي قليل ، وكذا إنو كل فعل خير بَعُدَ وقته أو عَسُرَ عليك فعله . وذكر الحديث( ) : ((ليس له من صيامه وقيامه)) الحديث .
وذكر رضي اللَّه عنه وادي دوعن فقال : فيها آثار من الصالحين ، وآثار علماء ، ولهذا لا ترى أحداً يروح إليها ولو لقضاء حاجة إلا بنية الزيارة ، فظاهر أمره الزيارة ، بخلاف وادي عمد ، فلا يروح إليه أحد للزيارة ، بل لغير ذلك ، وسبب ذلك ما ذكرناه من آثار الصالحين فيه ، لأن بهم تحيا كل أرض ينزلون بها سواء كانوا أحياء أو أمواتا ، لأن في الأحياء مع الخصوصية البشريةَ ، وفي الأموات مجرد الخصوصية .
وذكر رضي اللَّه عنه القراءة على القبور ، فقال : من أوصى بهوى وغرض لا ينفعه ، فمن لا نفعه عمله لا ينفعه عمل غيره ، فلا أحد يحدث نفسه بذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : ما كل علم ينتفع به كل أحد ، ولا كل علم يَحْسُن من كل أحد ، ولا عذر للجاهل أن يَسْكُتَ العالمُ بجهله ، أو يسكت عنه لذلك ، ولو قال كم يموت كل يوم ، فماذا تقول ، ما معك إلا ما شاء اللّه ، وذلك موكول إلى علم اللّه ، حتى الملائكة لم يكن ذلك من شأنهم ، لأنهم مخلوقون لأمور جعلت عليهم ، منهم في الأرض ، ومنهم في السماء ، حتى الحفظة على الإنسان ، ما دام حيّاً ، هم على عملهم في الأرض ، فإذا مات رجعوا إلى ملائكة السماء،

حتى يبعث ، فإذا هم قيام عليه بعمله ، فمن كان سائلاً فليسأل عما يحتاج إليه ويعنيه.
وقال رضي اللَّه عنه : الدين بصائر ، ومن قال ما سيبك( ) مني ، ما عليك له كلام ، إلا إن كان معك قهر تقهره .

(1/173)

وقال رضي اللَّه عنه لرجل : استمد واستعد للإقامة في القبور أطول من الإقامة في الدور .
وقال رضي اللَّه عنه : الرجل قبل التزوج قنديل ، وبعده زنبيل .
وقال رضي اللَّه عنه : الرجاء أوسع من الخوف ، لأن النفس مغرورة ، ومن لا معه معرفة بقدر خوفه ، يخشى عليه الانقطاع ، إن وضع على عبده عَدْلَه ما نفعه عمل ، وإن عامله بفضله يرجى له السلامة بأدنى شيء ، أو نحو هذا أو معناه ، والخوف أهم من الرجاء ، لأن فقده مضر ويسوق إلي المعاصي ، والنفس كالمرأة السوء ، كن شديداً عليها في الظاهر ، مع التحنن عليها في الباطن ، وهي( ) قط لا تدعو إلا إلى الشر ، ومِنْ لازِم الرجاءِ الخوفُ ، وَوُسْعُ المعرفة ، وأما هؤلاء فيرجون بلا خوف ولا معرفة ، وقد قيل : الخوف كله للراجين ، والرجاء كله للخائفين .
وقال رضي اللَّه عنه : طبيعة النفس طبيعة أجنبية ، ما هي من طبايع الدين ، بل هي طبيعة جاءته من جهة الطين ، وأحوجَ الإنسان إلى قدر الضرورة من الدنيا ، ولو اكتفوا عنها مثل الملائكة لاستراحوا ، وأولئك( ) ، قد كانوا ضعفوها( ) بكثرة الأعمال الصالحة وأعمال الدين ، وأنت اليوم كلما لك تجدد على نفسك ما يشغلك ويؤذيك ، وما زاد على الضرورة فهو عندك بمنزلة الأمانة وعاد متعلق به شواغل وأمور أخرى ، ولكن لم يتم لك شيء، فإن الإنسان خلق محتاجاً، وخلق مبلي ، ومثل ذلك قد أسسها لهم آدم ، إذ أخرجه الشيطان من الجنة ، ولكن عليك بتذكر ما يُسليك ، فإذا لم يُعَزِّك( ) أحد فعز نفسك .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا نصحتَ شخصاً فذَكَر لك

عيبك أو تعلل ، فدع منابذته ، كما إذا لم تره يصلي ، فأمرته بالصلاة ، فقال : وأنت لِمَ لا تفعل كذا أو أطعمني أو أكسني ، وأصلي ، فمثل هذا لم( ) تمكن محاجته ، فاتركه ، ومثل ذلك في كل أمر بمعروف أو نهي عن منكر .

(1/174)

وقال رضي اللَّه عنه ما معناه عن بعضهم أنه قال : استحسان المصافحة بعد صلاة الصبح ، وصلاة العصر، رجاء أن توافق المصافحة ، نزول الملائكة الحفظة الموكلين بحفظ بني آدم ، فقد ورد( ) : إنهم ينزلون عليهم في صلاة الصبح وصلاة العصر، ويقولون : أتيناهم يصلون وتركناهم يصلون ، فليس تخصيصها( ) بهذين الوقتين من السنة إلا أن يؤخذ ذلك من العموم .
وشكا إليه نفع اللَّه به رجل ضعف بصره ، فقال له : نور اللَّه بصيرتك ، فإنه إذا استنارت البصيرة ، لا يحتاج من البصر إلا إلى قليل منه ، ونور البصيرة هو العمدة .

(1/175)

وقال رضي اللَّه عنه : الزمان زمان جهل ، وإذا رجع الإنسان ما رجع إلا إلى جهل ، وكان في الناس أهل علم وتقوى ، إذا رجع الجهال إليهم أرشدوهم إلى الحق والصواب ، واليوم لا يَهْدُونهم إلا إلى الحيل والمخادعات ، كما فعل بنو إسرائيل في حيلهم ومخادعاتهم في قصة الاصطياد وغيرها ، ولو قَدّرنا أن أهل البلاد أرادوا أن يتوبوا ويتحاللوا ، ما عاد لهم إلا الإسلام واليد ، فمن يده على شئ ، ولم يُعلم له فيه شريك ، فاليَدُ له ، ولو أن والياً على يتيم له عنده عشر نخلات في جملة ماله ، ما يميزها له ، ولا عاد ينفع في ذلك منهم إلا السيف ورد الأموال المجهولة إلى الفقراء والمساكين والأمور العامة ، وما مع الإنسان إلا الدعاء بالخلاص لنفسه ولهم ، كما قال بعضهم : اللَّهم سلم ، ثم قال آخر بعده بزمان :

اللَّهم خلص ، لأنه إنما يطلب السلامة من لم يقع ، وأما من وقع فإنما يطلب الخلاص . وقال له نفع اللَّه به رجل أتى بأهله للزيارة وقد عَرَّضَ بالاستشارة في الإقامة بهم أو المسير ، فقال له رضي اللّه عنه : كلا الأمرين من حيث الدين سواء، ولكن انظر ماذا يرجح منهما طبعك ، لأنه إذا اتفق الدين مع الطبع في طلب أمر مستحسن ، فمن كان يغلب طبعه ينبغي أن يراعي من حيث الدين ويراعي أيضاً من غلبه طبعه ، لأن غلبة الطبع تدعو إلى أمور فضول لا فائدة فيها ، وان استوى أمران في الدين فليراع الطبع .
وقال رضي اللّه عنه : إن الإنسان خُلِق متحركاً ، وطُلِبَ منه السكون ، فعسر ذلك عليه، فكل ما قيل لك إنه( ) زال فصدق ، وإن قيل لك إن الطبع يزول فلا تصدق.
وقال بعضهم : إن الإنسان خلق كالكرة على الصفا لم يزل يتحرك ويتدحرج إلى أن يمسكه شئ .

وقال رضي اللَّه عنه : ما دام الإنسان معه خبر عن نفسه ، فما هو شيء أصلاً ، ولأن يكون معه خبر عن الخلق خير له من أن يكون معه خبر عن نفسه ، والخبر عنهم أن يسمعهم يروون عنه ، ويعرف ذلك عنهم من خارج ، والخبر عن نفسه على هذا الوجه ، أن يرى أن له منزلة أو أنه خير من غيره ، أو يذكر فضائله أو كما قال .
وقلت له نفع اللّه به : هل ظاهر كلام الشيخ ابن عِرَاق ، حيث يذم المتعاطين للسماع ، إنه ينكره فلا يقول به أصلاً ، أو ينكره من أحد دون أحد. فقال رضي اللّه عنه : إنما ينكره إذا صدر من غير أهله ، على غير الوجه المطلوب منه ، ومع المداومة عليه واتخاذه عملاً ، وعلى هذا الوجه ، حتى من يقرأ القرآن ، ويَذكُر( ) على غير وجهه ، مذموم حاله ، فكيف بالأشعار ونحوها ، والشيء المنهي عنه ، قد يكون لذاته ، وقد يكون لعارض ، فإذا فُعِل الشيء على وجهه ، عُرِف الحكم منه ، من كونه مباحاً أو منهياً عنه أو مندوباً إليه ، أو كما قال .
وقال رضي اللّه عنه في علامات المنافق الثلاث( ) :

ما هو أنه لا يَصدق أبداً ، فقد يصدق ويوفي ولا يخون ، ولكنه لأدنى غرض يكذب ، ولأدنى داعية يخون ، ولأدنى عذر يخلف ، وذلك لعدم التقوى فيه .
ذكر العقيدة
وقيل له رضي اللَّه عنه : لفلان فيكم عقيدة .فقال نفع اللَّه به : عقيدة هؤلاء في ألسنتهم ، فإذا أردت تعرف اعتقاد أحد ، فانظر إلى فعله ، واعتقادهم تبع لأهويتهم ، ومن له عقيدة في بعض الصالحين ، ثم زالت ، فلا عاد يسأله الدعاء، إذ لا ينفعه الدعاء حينئذ ، لعدم الواسطة ، كالمطر يرجى حصوله من غير سحاب؟( )، وسحاب الصالحين تعلق القلوب .
وأوصى رضي اللَّه عنه إلى بعض الظلمة من ولاة الجهة ، بأنه إن سألك عنا فقل : إنه ما يسلم عليك ، ولا هو راض عليك ، ويقول لك : الواسطة التي بينك وبينه قد انقطعت عنك من العام ، ثم قال : ومن له عقيدة إلى آخر ما قال آنفاً .

وذُكِر له رضي اللَّه عنه رجل اشتهر بالعلم ، فقال : هل رأيت أحداً مثل المذكورين في "مجمع الأحباب" ، وكل من رأيته مشغولاً بنفسه فلا تعده شيئاً ، إلا أنه لا يخلو من خير ، لأن الخير له أطراف وحواشي ، كالجند الذين يمضون إلى الجهاد ، ودرجاتهم شتى ، بعضهم أعلى درجة من بعض ، وليسوا في درجة واحدة ، فكذلك الخير بعضه أعلى من بعض .
وذكر رضي اللّه عنه ضعف الناس في طلب العلم ، فقال : ما يربي الناس في أمر دينهم ودنياهم إلا الملوك ، تربيهم بسيرهم وأحوالهم ، وكذلك تفسدهم ، فإذا رأيت فساداً فابحث عنه ، تجد سببه من الملوك الظلمة .
وقال رضي اللّه عنه : من أراد الهلاك فليظلم ، ولا عليه ، لأن الظلم كالمغناطيس في جذب الشر ، والعدل كالمغناطيس في جلب الخير ، ألا ترى كيف يرد اللّه المراكب في البحر إلى ظفار وغيرها ، لظلم فلان وقد سماه .
وقال رضي اللّه عنه : ومن كلام الحكماء : إذا لم يكن في البلد أربعة ، تسارع إليها الهلاك : طبيب ،

وسلطان ، ونهر ، ومفتي .
وذكر رضي اللّه عنه أقواماً من أهل الجهة ، في حالة تعب شديد ، فقال : كأن البلا إلاّ يدوّر لأهل حضرموت من أين كانوا ، فترى الإنسان يؤذَى ويُشغل ، ثم يؤخذ ماله ، وولاة الجهة خاربة ، وإذا أردت خراب بلد فدلهم عليها ، فيغيرون حتى قبالها ، وتصير كما في قصة عمر بهم( ) المساجد الداثرة ، والذي ينبغي للولاة ، أن يسعوا في إصلاح البلدان ، ولكن هؤلاء زبانية الدنيا .

(1/178)

وأمر رضي اللَّه عنه يوماً بنخلة مثمرة أن تسقى ، وأخرى لا ثمرة لها أن لا تسقى ، وقال : إذا راعيتها ولم تثمر فاقطعها( )، وافعل ذلك( ) في المثمرة ، كالصاحب الذي لا يراعي من يحسن إليه ، إذا أساء إليك مع إحسانك إليه ، فاقطعه( )، ويكون الإحسان في شاكر أحسن منه في غيره ، إلا أن تخاف شره ، أو كان ذا رحم ، فلا تقطعه لإساءته ، والأشجار والدواب في أوائل درجة الآدمي ، فيُعاملن بما يعامل به الآدمي ، وقد قال سفيان الثوري : أخسر الناس من يفعل المعروف مع غير أهله ، أو كما قال .
وألبس رضي اللَّه عنه يوماً أناساً الخرقة ، فقال : لبسناها من الشيخ عمر العطاس( )، لكن بالشدة( ) ما طاع يُلبسنا إلا بمعالجة ، وأرادنا نحن نُلبسه ، لأنه كان متواضعاً جداً ، والتواضع وإن كان حسناً من كل أحد ، لكنه من أهل الفضل أفضل وأحسن ، فالمنظور بين الناس ليس تواضعه كتواضع واحد من أطراف الناس ، أقول : سمعته رضي اللَّه عنه يقول : ما ألبسني كوفيته حتى ألبسته كوفيتي ، وكل منا ترك كوفيته للآخر ، ولهذا كل منهما يَعُدُّ الآخر شيخه .
وذكر رضي اللَّه عنه يوماً كرامات الأولياء وغاراتهم ، ثم قال : قد قيل إن كرامات الأولياء وغاراتهم قد طويت ، حتى إنه روي أن بعضهم جاء بحزمة سيوف إلى آخَر منهم ، وقال : هذه أحوال الصالحين ، قد طويت .
ثم قال نفع اللَّه به : ما الإنسان يريد الصلاح ولا

الصالحين لأجل هذه الأمور ، إنما يريد ذلك لطاعة اللّه والدار الآخر .

(1/179)

وقال رضي اللَّه عنه : الصالحون خاملون في حياتهم وموتهم ، وإنما أشهَرَهم ملوكُ الناس ، إذا أشهروا أحداً اشتهر عند الناس ، مثل ابن عربي فما أشهره إلا آل عثمان ، لأنهم بلغهم عنه الإخبار( ) بأن بعض أجدادهم سيملك فبنوا عليه قبة ، وشهروه ، وكانوا إذا ظهرت منهم الكرامات يوصون من علم بها أن يكتمها ، ولكن عدمت في هذا الزمان الكرامات ، وإنما مُنِعوا الأسرار ، لعدم كتمهم الأسرار ، لو رأى أحدهم رؤيا راح يحول( ) بها ، فلما لم يكن إسرار ، كذبوا بادعاء الأسرار ، أو كما قال .
وذكر رضي اللَّه عنه ليلة الاثنين حادي عشر شوال سنة 1125 هـ كرامات الأولياء ، فقال : أهل الزمان ما هم بشيء ، فلا تظهر لهم كرامات الأولياء ، وهم لا يريدون منها إلا ما يزيد في دنياهم ، ولو كان أحد من المكاشفين ، فرح بكل ما يحصل لهم من نقص في دنياهم ، والكرامات لا تظهر إلا لأسباب ، وإذنٍ من الحق تعالى ، إما لتحصيل التشمير لمن يراها ، مثل من ظهرت له ، أو ليعترف من نفسه ، ويتحقق أن ما معه شيء .
وذكر بعضهم : أنه ذكر الكرامة لأحد من السادة المتقدمين فقال : فيها مضرتان أحدهما: أن يغتر من هو من ذريته ويتكبَّر بكرامة جده ، والثانية : أن يقول من لا عقيدة له : انظر كيف لما كان جدك صالحاً ظهرت له الكرامات ، وأنت لما فَسَدْتَ لم تظهر لك ، وأهل الزمان مثل قوم وقعوا في نهر وغرقوا فيه ، ولكن استنقذ اللّه قليلاً منهم ، وقليل ما هم ، وما دام الروح في الجسد فلا ييأس من رَوْح اللّه ، وهو سبحانه وتعالى قادر على أن ينقذه.
وقال رضي اللّه عنه : إنما فائدة بلوغ الإنسان حد التكليف ، الترقي ، فإن لم يترق فموته قبل ذلك أحسن ، لأنه لم يبلغ الحِنْث ، ويكون حينئذ على الفطرة .
معنى الطُرُق إلى الله

وقال رضي اللَّه عنه في معنى قولهم : (الطرق إلى اللَّه بعدد أنفاس الخلائق): هي أعمالهم التي يتقربون بها إلى اللَّه تعالى ، فكلُّ أعماله طرائقه ، بل لو سبح مائة تسبيحة مثلاً وقُبِلَت ، يقال : هذه مائة طريقة ، وعلى هذا .
وقال رضي اللَّه عنه : ما عليك إلا أن تَسْلَم من شواغل الخلق ، وشواغل خواطرك ونفسك ، ويتنزل لك الأمر إن كان فيك بأنه على قدر حالك ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : إياك أن تضع الدنيا التي هي عدوة اللَّه في قلبك ، بل ضعها في رجلك كالحذاء ، فإذا فُقِدت تكون حذاء بدل حذاء ، وأهل الزمان تعلقوا بالدنيا جداً ، فتفاخروا بها وتحاسدوا عليها، فصارت لهم محبوباً ، ومن كانت هذه حالته ، يوشك أن تكون هي معبوده من دون اللَّه وقد كان السابقون عرفوا الدنيا باللَّه ، وهؤلاء عرفوه بالدنيا .
وقال رضي اللَّه عنه : أصول المعاصي ثلاثة : الكبر ، وهو أصل معصية إبليس حيث تكبر على آدم ، فقال : أنا خير منه ، والحرص وهو أصل معصية آدم ، حيث حَرِصَ على الأكل من الشجرة ، والحسد وهو أصل معصية قابيل ، حيث حسد أخاه فقتله .
وقال رضي اللَّه عنه : خذ من دينك بيمينك ، لأنها للأمور الحَسَنَة ، وكذلك الآخرة ، وخذ من دنياك بشمالك ، لأنها للأمور القذرة ، وكذلك الدنيا.
وقال رضي اللَّه عنه : تراحموا تُرحموا ، وارحموا فقراءكم ، فلو أتاك فقير وغني ، كل منهما يطلب حاجة ، فالأولى تقديم الفقير ، وقد دخل الهوى على الناس حتى في طاعاتهم ، ولكن إن سبق الدين ولحق( ) الهوى أبطله ، أو بالعكس فزلزلت قواعده .
ما قال في التأني والعجلة
وقال رضي اللَّه عنه : تأنَّ في كل أمر تحاوله ، فإن الشرع أطلق المدح في التأني ، والذم في العجلة ، فإن كان من طبعك العجلة ، فريِّض( ) نفسك وكلفها التأني ، فإن لم تنفع فيك الرياضة في ذلك ، فاترك كل أمر تضر فيه العجلة لا تفعله ، وليفعله غيرك .

وقال رضي اللَّه عنه بعدما فرغ القارئ من القراءة في كتاب الزهد من الإحياء : ما عاد في الناس أحد ظاهر في مقام الزهد على هذا الوجه ، إلا إن كان أحد في البراري والقفار ، لأن هذه الأمة أمة مرحومة ، وإنما هم إلا بين راغب وأرغب ، ومَن أنشَبَ مخاليبه في الدنيا ، أمره مخطر ، والمنهمك فيها كالنائم الذي يخط( )، ودونه الذي يتحرك ، ودونه الذي يمسح وجهه من النوم ، ومثل هذا ، وكلهم يشملهم النوم ، والصالح من أهل الزمان لا تراه حتى متزهداً ، بل إنْ حَسُن حاله يكون ليس منهمكاً وغارقاً فيما غرق فيه أهل الدنيا ، ونحن لا نحب من يذكر الرجاء حتى يفرط والخوف حتى يفرط ، إنما نحب الوسط فيهما.

ما قال في الهمة

واستودع منه رضي اللَّه عنه رجل ضعيفٌ حاله يريد الحج فقال له : اللّه اللّه في الهمة ، جد الهمة ، واعزم ولا تتردد فتقول ليتني ما هممت ، أو ليتني ما خرجت ، فإن التردد في الهمة يُضْعف أمر الثواب ، إن تطلبه أو تصبر عليه ، إلا أن يضرك في دينك ، وما دامت الهمة قوية يأتيه المدد من اللّه تعالى، فإذا ضَعُفَت الهمة، دخل الشيطان يغويه.

وقال رضي اللَّه عنه : معاملة اللّه كلها ينبغي أن تخرج فيها بكليتك من حج وجهاد فتخلص له حتى يزلفك ، وإلا فهو غني عنك وعن عملك ، { وَمَآ أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }( ) الآية ، والتردد فيها كالارتداد ، بخلاف أمور الدنيا ، فإن التردد فيها يكون كفارة لها ، كأن كان خادم دولة ، فقال : ليتني ما خدمتهم .

ومد له رضي اللَّه عنه فتىً يديه يمسح عليهما ، وبهما ألم ، فقال له : لعل ذلك من عين ، فإنها حق ، وفي الحديث( ): ((إن العين تُدخِل الرَّجُلَ القبرَ ، والجمل القِدْرَ)) وأكثر ما تكون من فرط التعجب ، إما من محب كالأب والأم والأخت والخالة ونحوهن ، أو حاسد ، إلا أن المحب مستكثر مع مَحَبَّة ، والحاسد والمبغض مستكثر مع بغض .

وقال رضي اللَّه عنه لرجل مستخلف مسافر : لا تخل الزيارة إن أمكنك ، وإلا فلا تعجز عن الكتاب ، واللَّه اللَّه في طلب العلم النافع ، ومطالبة النفس بالعمل به ، فإنها قد تطلب العلم ويسهل عليها ، ولكن العمل به عليها شاق .
وقال نفع اللَّه به لآخر محترف صوَّاغاً : اللَّه اللَّه في النصيحة في حرفتك ، على قدر جهدك ، واحذر فيها من الغش ، ففي الحديث( ): ((أشرار أمتي الصواغون)) .
وقال رضي اللَّه عنه لآخر: استعد للنوائب ، سورة يس ، وإذا ظُلِمتَ فلا تنتصر لنفسك ، وسلم الأمر لربك لينتصر لك ، فإن من انتصر لنفسه لا يكون له من اللَّه نصير.
وذكر رضي اللَّه عنه أخذَ الأجرة على الحج ، فقال : اجعل الحج والمسير إلى الحرمين للدين لا للدنيا، إلا ما كان ضرورة للدَّين ، ولا تجعل أمور الدين وسيلة إلى أمور الدنيا ، وأمور الدنيا إنما هي سُلَّمٌ لا يحسن المقام فيه ، وإنما هو وسيلة إلى الطلوع إلى المكان المقصود ، وكل من زاد على المحتاج إليه في ذلك فهو ناقص ، ولولا ذلك لما رَغَّب اللَّه تعالى في الآخرة ، وزَهَّد في الدنيا ، ولكَان رَغَّب في الدنيا ، أليس كلهما ملكه .
وقال رضي اللَّه عنه : أمور الدنيا كالبيوت ، لا يثبت بناء القصر إلا بعد إحكام الأساس ، كذلك الدين أساسه كلمة التوحيد ، والتصديق ، ثم الأحكام الواجبة ، ثم قراءة القرآن ، ثم ما يُندب بعد ذلك ، قال تعالى :{ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ }( ) إلى آخر الآية ، فالتأسيس بإثبات العقائد والنيات والصدق ، ثم البناء يتم لك بعد ذلك ، وخذ أصل العلم الذي لا بد لك منه في نفسك ، ولا تفتن الناس بطلب العلم بلا عمل .
ما قال في طلب العلم

وحض يوماً رضي اللَّه عنه ورغب في تعلم العلم وتعليمه ، ثم قال : كنا سابقا نسأل عن العالم العامل بعلمه ، فإن لم يكن به عاملاً لم نعبأ به ، وأما الآن فنحن نسأل عن العالم ، وإن لم يعمل ، لما رأينا من غلبة الجهل والغفلة عن التعلم وعدم الهمة في طلب العلم والرضاء بالجهل والعمل على مقتضاه ، وإن عمل به فهو الغاية ، وإن لم يعمل فيعلّم الناس ويهديهم إلى الصواب ، فينتفع به غيره ، وإن لم ينتفع هو في نفسه .
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي أن يعرف الإنسان العلم وقواعده ، وبعد ذلك إن أراد اللَّه له توفيقاً عمل بذلك وعلّم ، وإن لم يرد له ذلك وأراد له الخذلان والعياذ باللَّه ، كان على الضد فلا يعمل ، ولا يعلِّم ، بل ولا يتحقق في معرفة العلم ، وربما اجتنب بعضُ الجهال أهلَ العلم ومجالس العلماء ، خوفاً من أن يعرف ما يلزمه العمل به ، يظن أن في ذلك عذراً له ، وهيهات إنما ذلك يزيده تشديداً ومطالبة ، لأنه أعرض عن أحكام اللَّه علماً وعملاً ، فهو أشد ، وغاية العذر في أشياء تكون لمن رُبي في البادية ، وفي بُعْدٍ عن أهل الإسلام ، ومن هو مسلم وآباؤه مسلمون ونشأ بين المسلمين أنَّى له العذر.
ما قال في الاغترار بالكرامات
وذكر رضي اللَّه عنه شيئاً من مناقب الصالحين ، ثم قال : طلب المناقب شأن الصغار ، وفراكات المغازل ، والكامل إذا سمعها أحسن الظن ، واعترف له بالفضل ، واحتقر في جنبه نفسه ، وفيها خصلتان تغرّ العامة ، وتجرّي السفهاء ، فيقول من له أب صالح هو يكفيني ، ولو كفاه لكفى الناسَ جميعَهم النبيُّ صلّى الله عليه و آله وسلّم ، لأنه أبو الكل ، ويقول المتجري : إن كان فيك شئ إفعل مثل آبائك ، وأين تروح من الأعراب ، أولاد نباشة القبور( )، وإذا بلغك عن أحد منقبة ، فابحث أولاً، إن كان قد قدم شيئاً( ) لأن الأشياء لا تجيء إلا بالتعب ، ولو أنك غرست نخلة لا بد لك فيها من تعب ومقاساة ، فكيف هذا الأمر .

وإنما المناقب : التقوى ، والزهد، والحلم ، والصبر ، والتواضع ، والخمول ، وما عدا ذلك ففتنة ، وأنت أدفن نفسك في الخمول ، فإن كان فيك شئ فهو ينبت ، وإن لم يكن أعطيت أمراً حسناً، وإن كنت متسبباً في شئ فتسبب في الخمول، فإن أُظهرت من غير اختيار منك فلا عليك.
ما قال في الخمول والشهرة
وقد شكينا الشهرة لما حصلت علينا للشيخ عمر العطاس ، فقال : إن بعضهم اعتقده الناس وازدحموا على تقبيل يديه ورجليه ، حتى إذا لم يتمكنوا من ذلك قَبَّلوا حافر بغلته ، فقيل له في ذلك فقال : إنهم ما عظموني ، إنما عظموا اللَّه فلا أمنع أحداً من تعظيم اللّه ، ثم قال : إنهم عظموه للّه لا لشيء آخر ، ثم قال : وفي هذا إشارة إلى أن تعظيمهم له ، إنما هو للّه.

ثم ذكر سيدنا حكايةً : إن رجلاً من أهل الخمول ، من السادة من آل باعبود في تريم ، إذا أراد الجامع يمر في السوق ، فلا يقوم يصافحه رجل واحد ، وله صاحب من آل بافضل ، معه مخزن يبيع فيه ، ويعتاد هذا السيد التردد إليه ويجلس عنده في مخزنه ، فقال له صاحب المخزن : أنا متعجب من حرمان أهل البلاد ، كيف تمر في السوق ويرونك ولا يقوم لك رجل واحد، ولا يصافحك أحد، فقال : وما تريد بمصافحتهم وقيامهم ، فأما إذا قلت هذا، فانظر ، فإذا الناس قد ازدحموا عليه في المخزن في الحال ، حتى لم يسعهم ، وضاق بهم المكان ، فلم يتمكن من الوزن والبيع ، وبقي صاحب المخزن يدفعهم وتأذّى بهم ، وقال : يا حبيب ، إن كان إلا هكذا فاخرج من المخزن فقد ضيقتوا علينا، فقال : هذا كله منك ، لتعرف أن المنع منا لا منهم . وبلغ السيد محمد بن علوي ما شكونا للسيد عمر، فأرسل إلينا رسولاً ، وقال : قل له يقول لك فلان : عليك بالخمول جداً ، فإنا قاسينا من الشهرة مشقة شديدة ، وكان هذا حال السيد محمد المذكور من هذا المقام أي الخمول ، فقال له الرسول : إنه يُقلّد بابه ، ويصل الناس إليه

ويرجعون ولا يفتح لهم ، فقال : ولو كان ، عادك قل له : يقول لك : الحَذَر .
وقال رضي اللَّه عنه : لو ترك أحد الدنيا واشتغل بما لا بد منه ، أتاه منها ما يحتاج إليه ، وهذا مجرب .
وقال رضي اللَّه عنه في قوله تعالى :{ أُولئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنيَا بِالآخِرَةِ }( ): هذا يتحقق في حق الكافر، وأما المؤمن فلا يخلو عن شيء منه ، إما نفاق أو شيء من المعاصي الظاهرة ، أو الباطنة كرياء وعجب وغير ذلك .

(1/186)

وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي أن يسير( ) مع اليسر والإحسان( ) في كل الأمور، من أمور الدين والدنيا، وإلا فما معنى يتنفل ويترك الفريضة ، حتى لا يحصل له ثواب بكل فرض ولا نفل ، فإن من ضيع الفرض واشتغل بالنافلة ، لا يقبلها اللَّه منه ، وما ينفع الكلام فيهم ، والشيطان قائم لهم في المرصاد ، فمن حيث شق عليه الدخول عليهم من جانب دخل من جانب أسهل منه ، حتى إن له كما ذكر الإمام الغزالي سبعة مداخل التي يدخل منها على الإنسان ، ذكر منها العجلة في الشيء، حتى لا يحسنه ، وليس للشيطان مراد إلا أن يضل الإنسان بأي وجه كان ، إذا لم يتبعه من هذا الجانب دخل من الآخر ، بخلاف النفس ، فإنها تطلب منه مطلباً واحداً لا تتعداه وتصمم عليه .

(1/187)

وسئل منه رضي اللَّه عنه الدعاء بالرحمة ، وألح عليه في ذلك ، فقال : ادعوا ربكم فإنه سبحانه يحب كثرة القرقعة( ) على بابه ، ولعل المانع من ذلك ذنوب الناس ، ولكن يرجى منه سبحانه أن يرحم المذنبين لأجل البهائم والصغار، فإن كان أولئك ليس فيهم خير ، فهؤلاء ليس فيهم خير( )، وأيضاً ليس كل المكلفين أهل معاصي ، بل فيهم أهل الخير، وقد بلغنا إن البهائم كل يوم تشكو إلى ربها من بني

آدم ، وتقول : إنما مُنِعْنَا الرحمة بذنوبهم . فإذا أردتم الرحمة فأطيعوا ربكم ، فإن الرب ما يرحم إلا أهل الطاعة ، والطاعة ما تكون إلا فيما يخالف هوى النفس ، وما ينفع القلب والدين من الأعمال إلا ما لم يكن للنفس فيه هوى ، وخزائنه سبحانه كلها مملوءة ، ولا بد من مطر في الدنيا كل ليلة من ليالي السنة ، إلا إن كانوا مطيعين ، جعل اللّه الغيث حيث ينفعهم ، وإن كانوا عاصين قال تعالى : أخروه في الخزائن ، وما بالناس إلا المداينات( )، ومظالمهم بعضهم لبعض ، وقد ورد : ((إن البهائم إذا قحطت تدعو على بني آدم ، وتقول : إن اللّه واخذنا بذنوبهم)) ، إذ ليس لهن ذنوب ولم يمنعهم سبحانه إلا ليؤدبهم ، فإن العبيد إذا لم يكونوا مستحقين فالسيد الكريم يؤدبهم ، وذلك لأنفسهم لا لنفسه ، ليؤدبوا بذلك غيرهم ، فإن الآدمي محتاج إلى الرزق ، وإلا لجعلهم كالملائكة غير محتاجين للأكل ، وعدم الاحتياج إلى الشيء إما لكون بُنيته لا تقبله ، كالملائكة لا غذاء لهم في الطعام ، أو لكون اللَّه تعالى لم يجعل له فيه غذاء ، وجعله في غيره كالبُرِّ قُوتُ الآدمي ، والقَضْب قوت الدواب ، وإنما قوت الملائكة الذي يتلذذون به القُرْب ، وهذا شأن الأرواح ، كما إن الأكل شأن الأجسام ، ولذة الأرواح في غير ما تلتذ به الأشباح ، ولا يلتذ الروح بما يلتذ به الجسم ، إلا من حيث المجاورة ، وكل ما يذكر من معاني القرب واللقاء ، وكونه لا يشتاق إلى جنة ، ولا يخاف من نار ، ونحو ذلك مما قد

يجري في كلام القوم ، فكل ذلك من صفات الروح لأنه لا يأكل ، وإلا لاحتاج إلى أكل في القبور، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : من فيه خيرية وكان ذا دين ، لم يزل يستفيد من خَيِّر وشرِّير ، لأنه يرى فائدته فيأخذها ، ولا ينظر إلى من سمعه منه .

وقال رضي اللَّه عنه : نحن ما نمشي إلا على الطريق الأكبر المستقيم ، التي لا يكون فيها اعتراض لأحد، وهو المهيع الواسع . قال اللَّه تعالى :{وَأَنَّ هَذَا

صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}( )، والسبل هي الأمور الخفية ، يكاد من يسلكها أن يقع في البدع ، ومن وقع فيها فاعترض عليه أحد، فلا لوم عليه( ) ، إلا إن كان له حظ ، فمن اعترض على ذي صلاح ، واعتراضه بشرع ممتزج بحظ ، كأن أراد تنقيصه أو حط مرتبته بين الناس ، فهذا يهلك ، إلا إن كان اعتراضه لمجرد الشرع ، ويكون ظاهره وباطنه واحداً سَلِمَ من المعترض عليه ، وإلا هلك ، فقد ذُكِر إن ابن المقري( )، ما سلم من إبراهيم( ) الجبرتي إلا لكونه ليس له حظ في اعتراضه بل لمجرد الشريعة( ) .

وقال رضي اللَّه عنه : علوم المكاشفات غير مخالفة لعلوم المعاملة ، لأن معانيها صحيحة ، إلا إنها تختلف باختلاف المجاهدات ، ومن أمكنه مطالعة علم يَنْتَفِع به في دينه ومعاشه ، وهي كتب الإمام الغزالي ، خير من التعرض للشتم ، وقد طَوَى علومَ المكاشفة ، وقال : إنها لا تسطر في الكتب ، وقد حوت كتبه ما في كتب غيره .

وسألته رضي اللَّه عنه هل الاعتقاد الحق منحصر في عقيدة الأشعري ، وما خرج عنها فهو باطل ، فقال نفع اللَّه به : عقيدته هي الحق ، وما خرج عنها فيه حق وباطل ، وإنما فاق غيره لكونه قال آمنت باللَّه ، وبما جاء عن اللَّه ، على مراد اللَّه ، وفوض الأمر إلى اللَّه .

وذكر رضي اللَّه عنه الأولياء يوماً، وهو يوم الأحد 15 صفر سنة 1125هـ وذلك في طريقه سائراً إلى السبير ، فقال : الأولياء يقلون ويكثرون في كل زمان ومكان ، ولا يبلغون عدد الأنبياء، إلا إن كان الولاية العامة ، من كل مؤمن ، فيبلغون أكثر ، وأما الولاية الخاصة ، من كونه مؤدياً للواجبات ، تاركاً للمنهيات أو قليلها( ) فلا ، وقد كثروا في وقت الشيخ عبدالقادر ، وما بلغ قدرهم إلا إثني عشر ألفاً( )، وأهل الزمان إنما يطلبون الكرامات لأهواء نفوسهم ، فيريدون أن يتمكنوا من قلب الأعيان ذهباً وفضة ، ليستكثروا من الدنيا، ومن هو على هذا

الوصف ، فسَتْر الكرامات عنه رحمة به ، ومن مُكِّنَ منها وفعل نحو هذا سُلِبَ ، فلا بد من فَعَل ما لا ينبغي له ، أن يُقَيَّضَ له أحد من الصالحين فيسلبه ، وكل من سُلِب منه حاله منهم ، إنما هو لسوء أدبه فيه ، والكرامة ما كانت ثابتة ، وإنما الكرامة الاستقامة ، قلت له : إنما يطلب الإنسان قوة اليقين ، والخروج من غوائل النفس ، فقال نفع اللّه به : اليقين إنما هو من السماء ، فاطلبه من اللّه تعالى ، ولا تُعْرَف غوائل النفس إلا عند التجربة .

وسألته رضي اللّه عنه عن رجل صحب بعض المشايخ ، قبل تحصل له الهمة في طريق القوم ، ثم حصلت له بعد فراق الشيخ ، هل يحتاج حينئذ إلى شيخ ، أو تكفيه صحبة الأول ، فقال نفع اللّه به : تكفيه إذا قد رباه بظاهر العلم ، ولكن إذا أمكنه صحبة من ينتفع به أيضاً وتحصل له منه فائدة فحسن ، فقد كان فلان وذكره ، وهو أكبر تلامذة أبي مدين ، قال له : إمض إلى الشيخ عبدالقادر واصحبه ، فلما صحبه قال له الشيخ عبدالقادر يوماً وزوى له الأرض : ماذا ترى من هنا؟، قال : أرى الكعبة ، قال له : ومن هنا، قال أرى شيخي أبا مدين ، فقال : تريد أن تصل إليه ، قال : نعم ، قال : تريد ذلك في لحظة أو كما جئت ، قال : كما جئتُ فودعه فسار .

وصحب ابن عربي جملة مشايخ ، والشعراوي نحو مائتي شيخ ، وإذا صحبت إنساناً وثبتت لك معه الصحبة ، فلا بأس أن تتردد إلى من ترجو منه البركة ، ولكن بعد أن تتمسك.

ما قال في انتفاع السادة بعضهم من بعض

وقال رضي اللّه عنه لبعض السادة : وإذا اندفنتَ ، فلا يظهرك إلا منكم ، أي السادة بعضهم من بعض ، وقد ذُكِر إن عبداللّه بن أحمد بلفقيه ، لما صحب الشيخ أحمد القشاشي( )، وعلم به السيد محمد بن علوي ، حنق عليه كثيراً ، كيف يروح إليه يصحبه ، وهو موجود فلا يصحبه أولاً مع اعترافه له بالفضل ، فقلت لسيدنا: لا يكون انتفاع السادة إلا من بعضهم بعض ، فقال : نعم ، لأنهم مرتبطون بسبب النسب ،

من حيث إن هذا أبو هذا ، أو أخوه ، أو عمه أو قرابته ، ونحو ذلك ، وعقيدة البعض منهم متعلقة بالبعض ، وقد يأخذ الرجل منهم عن أبيه ، أو قريبه ، ثم يروح يأخذ من آخر، إذ كان في الأصل ، ما أخذ الناس إلا عن الناس ، قلت : وهل يكون ذلك منهم لغيرهم أيضاً ، قال : نعم ، يكون ذلك منهم لغيرهم ، فقد قال الشيخ عبداللَّه العيدروس رضي اللَّه عنه : أُذِنَ لي في تحكيم ربع أهل الدنيا ، وقال جده الشيخ عبدالرحمن السقاف( ) رضي اللَّه عنه : من لا له شيخ فأنا شيخه . قلت : ولا يمنعهم تغير الزمان من ذلك ، قال : لا، ويكون ذلك على قدر الحال ، والنخلة في ابتداء أمرها لا تكون كما في آخره ، وما على الإنسان إلا الأهلية ، فإذا تأهل حصل له مقصوده في أي زمان كان ، قلت : وما الأهلية ، وبأي شيء تكون ، فقال : بفضل اللَّه ، قلت : لا حيلة لنا في ذلك ، قال : الحيلة منه وإليه ولا بلوغ إلى شيء من المقاصد إلا بتوفيقه ، وإصلاح النفوس في هذا الزمان المعكوس يعسر. قلت : كيف الحيلة في تذليلها ، قال : لا يمكن إلا بإعانة وتوفيق ، واذكر قوله تعالى :{ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}( ) الآية ، كلما استعصت عليك ، وقوله تعالى :{لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ

اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ}( )، ولا أحسن للإنسان في هذا الزمان عند ورود عُجُب أو كبر أو نحو ذلك من الاستغفار كلما ورد عليه ، ويكون ذلك عند وروده في الحال .

ثم قال رضي اللَّه عنه : ما مقصد الصالحين بعد رياضاتهم ومجاهداتهم إلا مُلْكُ نفوسهم وقتلُها ، فإذا حصل لهم ذلك منها ، وقعوا على الإكسير الأعظم ، لأنها في هذا الباب أعظم الأجزاء ، ولا يتم الأمر إلا بقتلها، وهي فيه كالزئبق في الكيمياء ، ولا يحصل المقصود منه إلا بقتله ، ويعسر قتل كل منهما ، ولا يحصل المقصود من كل واحد منهما في بابه إلا بقتله ، فقلت له : إنما نتشفع إلى اللَّه بعد رسوله في حصول أمر مّا في وقتنا بكم ، كما إن من

أراد من اللَّه شيئاً في زمنه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم جاء إليه يدعو اللَّه له به ، فقال : تلك خصوصيات له عليه السلام ، قلت وتلك الخصوصيات أيضاً يكون منها في ورثته ، فقال : عهدة ذلك عليك ، ونتوقف فيه حتى نرى عليه دليلاً . وتكلم إذ ذاك كثيراً ، فقال بعض الحاضرين من الغرباء المقيمين : إني لا أرى أثر النبت ظاهراً علي ، فقال : إن هذا أحسن خوفاً من الإعجاب ، وقد نَبَتَّ وبَقِلْتَ وغصت أيضاً زيادة ، ولكن قاعدة : إنه لا يظهر على الإنسان ما دام في حضرة من تعلم منه ، ولكن إذا سار إلى بلده ونشر ما علم ، حصل له الفتوح في أرضه ، وإذا أردت أن تسير نجعل لك إن شاء اللَّه وصية ، تكون لك قائدة كالحبل في عنق الدابة كلما بَعُدت عن مربطها جرها حتى تعود إليه. انتهى ما حصل في هذا المجلس المبارك ، وذلك عشية الأربعاء 24 صفر سنة 1124 وكان مجلس فسحة وتبسط( ).

(1/192)

وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان قَلَّ ما تتم الشروط فيهم ، إلا إن حصلت كلها فُقِدَ واحد، فتعطل جميعها لذلك ، فلم يحصل بسبب ذلك المطلوبُ ، كما في علم الكيميا إذا أتى بشروطها، وبقي شرط تعطل عليه عمله ، والكيميا أحد خصلتين : إما أن يؤتيه اللَّه زهداً فيستوي عنده الذهب والتراب ، وإما أن يؤتيه اللَّه الكفاف ويشغله بطاعته .

ونحن نقول : الكيميا قل هو اللَّه( ) ، والعمدة على صفاء القلب ، واجتماع الأرواح ، وإلا فكثافات الخلق لا حاجة إليها، خذ ما صفا لك ودع أمر الخلق يكون وراء .

وقال رضي اللَّه عنه : فلان إذا أراد أن يسير إلى بلاده ، نأذن له أن يُحَكِّم لنا لا لنفسه ، ويُلبس الخرقة ، ونحن ما أذنَّا لأحد أن يلبس مطلقاً، بل يُلبسوا من أرادوا من أهلهم وأولادهم أو كما قال .

ما قال في معنى حديث : إن الله جميل

وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ): ((إن اللَّه جميل يحب الجمال))، معناه : أي ينبغي للعبد أن يتجمل ،

لكن بحيث لا يحب التزين ويَتَشهَّى كل ما يرى ، ولا يحب أن يُرى متجملاً ولا يفاخر في ذلك ولا( ) من هو كذلك ، بل المؤمن لا يحب إلا ما يحبه اللَّه ، فإذا كان كذلك فليفعل ما يليق ويَحْسُن ويأخذ الأمر بأوله وآخره ، ولا يتبع هواه في أمثال هذه الأشياء ويستدل بهذا الحديث ، لأن فيه إتلاف النفس ، وإتلافها عسر .

وقال رضي اللَّه عنه : المزاحمة في الدين مطلوبة ، زاحموهم بالرُّكَب ، وبعض الناس غلبت عليه العوائد، أي المزاحمة في أمور الدنيا، من جاه ومال ونحوهما وحتى يثقل عليه أن يقال له حال الزحام ، تأخر قليلاً ، ويضيق حاله من ذلك .

وأمرني رضي اللّه عنه يوما أن أقرأ عليه مقصورة( ) ابن دريد، وبعد تمامها قال : إنها تصلح للمهمومين ، أو قال المغمومين من الحكماء .

وقال رضي اللَّه عنه : إذا حصل عليك أمر تكرهه ، لك فيه خِيرة فلا تحزن ، ولو كان سارق سرق عليك شيئاً. وأنت من أهل الحق في أمان ، ولا تأمن أهل الباطل .

وقال رضي اللَّه عنه : كلام الأكابر يحتاج إلى تأمل ، ولا يزال يردده ويتأمله ، حتى يظهر له .

وذكر رضي اللّه عنه ابن الفارض يوماً عندما قرئ عليه شئ من قصائده ، فقال : هو كلام قلب حي في جسم ميت .

وقال نفع اللَّه به : لا يتم النشيد إلا بثلاثة أمور: حسن الصوت ، والنظم ، والإعراب ، قال : ورابع ولعله طيب الوقت .

وأنشد بين يديه رضي اللّه عنه بشيء من نظم ابن الفارض فيه غزل فقال : كل هذا مليح ، ويُنَزَّل على الروح وعلى الجنة ، لا على الحقيقة الإلهية ، خالق الكل .

ومرة قال : وإذا تكلم المخلوق ، بوصف المخلوق فاللائق به أن يكون في المخلوق .

ثم ذكر نفع اللَّه به ابن عربي فقال : فَنُّهما واحد ، إلا إن ابن عربي الغالب عليه الصحو ، والغالب على

ابن الفارض الاستغراق . وذُكِر لابن عربي( ) كلام ابن الفارض ، فقال : كلامنا واحد ، وإنما كلامه ميدان لكلامي .
وذكر رضي اللَّه عنه ابن الفارض فقال : إنما عمره 55 سنة ، لأن أهل الأحوال الغالب إنهم ما تطول أعمارهم ، بل تأخذهم الأحوال ، كالشيخ أبي بكر السكران ، وابنه الشيخ عبداللَّه عمره نحو 55 سنة وغيرهما. والأحوال المقلقة : شوق ، أو خوف ، ونحو ذلك ، هذه هي الأحوال ، ومن لا معرفة له يحسب أن الأحوال غير هذا .
وأمرني سيدنا أن أنشد وكان ذلك ضحى يوم الجمعة ثاني ربيع الأول سنة 1124، فكان مما أنشدت به قصيدته : محب ليس يدري من يحب الخ( ).
... فقال رضي اللَّه عنه : هذه الأبيات التي أولها، إذا هبت ، وإن سجعت ، وإن مرت ، وإن عرضت ، هي معنى ما ذكرناه في التائية .
يذكرها العهدَ القديمَ سماعها لترجيع تالٍ للمثاني الكريمة( )
أي الروح إلى آخر الأبيات .

ثم قال نفع اللَّه به : إن الإنسان مازال محجوباً بكثافات نفسه ، وعوارض جسمه ، فحُجُبه كثيرة ، أو قال كثيفة ، ولا يمكنه أن يلتذ بما يسمعه من الأصوات الموزونة ، والنغمات الطيبة ، ومعرفتها من علم الموسيقى ، ومتى خرج من ذلك بالمجاهدة ، والرياضة ، لم يزل يترقى في معرفة الأشياء ، حتى يطَّلع ويعرف ما لم يكن يعرفه أولاً ، وحينئذ ربما سمع دوران الأفلاك ، ويحصل له فيها من اللذة ما يستغرقه ويذهله عن شهوة الأكل ، لأن لذلك لذة يجدها الروح ، حُجِب الإنسان عنها بشهواته الحسية ، ولأي شيء يسكر الإنسان عند سماع شيء من تلك الأصوات ، لأن فيها بعض لذة له حينئذ ، ولا يُشَبَّه بينها وبين لذة الفلَك ، وإن حصل له شيء من الأمور الإلهية ، فيحصل له فيها من اللذة والاستغراق شيء عظيم ، لا يقاس بلذة الأفلاك ، وفي هذه الأشياء ترقٍّ وتَنَزُّل ، ولهذا لما أراد اللَّه تعالى أن يبلِّغ النبيَّ

صلَّى الله عليه و آله وسلَّم غايةَ الكمال ، لم يزل يرقيه ويُطْلِعه على الموجودات شيئاً فشيئاً حتى بلَّغه إلى درجة التكلم معه ، وأهَّله لسماع كلامه مشافهة مع قرب ، وتَنَزَّل لموسى عليه السلام حتى أسمعه كلامه من الشجرة ، فانظر الفرق بين الأمرين الإلهيين ولا تنظر ما بين النبيين ، وإن كان كل منهما في مرتبة عالية ، وعلى هذا التنزل والترقي ، ما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام من رؤية الكوكب ، ثم القمر ، ثم الشمس ، ثم التوجه إلى الحضرة الإلهية ، حضرة الذي { فَطَرَ السَمَاواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ }( ) هذا ما حفظته مما تكلم به في المجلس المذكور.
وأمرني رضي اللّه عنه أن أنشد، وذلك بعد صلاة عصر يوم الثلاثاء في 28 ربيع أول المذكور، من السنة المذكورة ، في مسجده الأوابين ، فأنشدت بقصيدته التي أولها( ):
يا هل لخيرتنا من جملة الناس ... يا هل لأحبابنا يا هل لجيرتنا

فقال نفع اللَّه به : إن في خاطري أن أسأل عن هذه القصيدة ، وكنا نظمناها منذ أيام ، ولا بقي معنا خبر عنها ، فاتفق أن أنشدتَ بها ، وهذا منك ما هو مكاشفة إنما هو نور التوفيق . وكان السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي حاضراً ، فقال له : أكتب ما ظهر لك وفهمته من معنى هذه القصيدة ، وأرناه لنرى كنه فهمك ، فتناول النسخة من يدي حينئذ، وكتب تحتها ما فهمه ، وأسمعه سيدنا فاستحسنه .
ما تكلم به السيد أحمد بن زين على قصيدة سيدنا

وهذا صورة ما كتب ، وهو قوله : قل (لأحبابنا) من نحبه ويحبنا ، (والجيرة) المجاورون في الأمور، والأحوال ، والديار، (والخيرة) من يختار وينتخب ، (والوسائل) جمع وسيلة وهي الواسطة ، و(المقاصد)

جمع مقصد، ومقصود ، و(المدخر) ، لغير الملائم
المعد للبؤس والبأس ، يسمى ذخيرة جمع ذخائر ، ثم
طلب من اللّه المنفرد بالعطا والكرم ، أن لا يوحش
منهم لكونهم أنسه ثم طلب المن بالإيناس ممن
ذِكْرُه ينير السرائر التي هي محل السر، ويميط الهم
والوسوسة عن الصدر الذي هو صدر البدن ورئيسه ،
بانشراحه بنور السريرة ، فلا يبقى فيه غير الحق
الجلي ، فتنزعج النفس عن غفلتها، بتجافيها عن دار
الغرور، ورجوعها إلى ربها بالرضى ، فحينئذ يبطل
كيد الشيطان لضعفه في نفسه ، وإنما قَوَّاه في
المؤمن إلا غفلة النفس ، فلا يبقى لوسواسه شر،
ولا استتباع للقلب ، لانزعاجه ورجوعه إلى ربه ، وإذا
ذهبت الشياطين ، جاءت الملائكة بخواطر الخير
ولوامعه وطوالعه للمجانسة حينئذ لطهارة القلب
للملائكة بالأصل ، و(الميمون) هو المبارك ، و(المَلَك)
هو المرسل بالخير ، الذي لا يُقبِل إلا بالخير من الخير
، و(المرؤوس) التابع كالرأس المتبوع ، و(صعود
الروح) ترقي القلب بخلوصه عن القيود الجسمية ،
والصفات البشرية ، والصور الهيكلية ، في رَوْح
التَّروحن ، ونَفَس الانطلاق ، فإذا صعد الروح وترقى
إلى معهده الأصلي الأمري ورجعت النفس إلى حالها
الأصلي ، الذي قبل نزولها إلى تدبير الجسم
والانقهار والانفعال لمطالبه الطالبة بحالها لتدبيره ،
وحفظها إياه وفعلها به ، فإذا رجعت الروح إلى ربها،
لَقِيَته وتبوأتْ حضرة عنديته ، وسعدت بواردات
حضرته القدسية ، وذلك لا يستقيم إلا للمستقيم
المتوجه إلى الحضرة الربانية بإقامة العبادة
الخالصة ، وتحقيق التقوى ، واجتناب الشبهات ،
ومِلاكُ ذلك هَوانُ الحظوظ العاجلة والأمور الفانية
على القلب وصلّى اللّه على من هدانا به ، محمد وآله
وعترته

(1/197)

وعلينا معهم وسلَّم . اهـ.
وقال رضي اللّه عنه : كل ما يكون من كلام الغَزَل ،
فيحمل على مخاطبة النفس للروح ، ولا يُحْمَل على
الأمور الإلهية ، لأن أمرها عسر غامض لا يكاد يفهمه

إلا الأكابر الصديقون ، ولا تطيقه القوى البشرية ، فقد حكي : إن رجلاً جاء إلى نبي من الأنبياء ، وسأله أن يدعو اللَّه له أن يرزقه ذرة من محبته ، فدعا اللَّه له بذلك فأخر إجابته إلى وقت آخر، وأَعْلَم النبيَّ بالوقت ، فلما جاء وقت الإجابة ، حصل على الرجل غَيبَة وأُخِذَ عن حسه ، ولم يبق يهتدي لشيء ، فرجع يستغيث بالنبي ، فسأل النبيُّ ربَّه عن ذلك ، فأوحى اللَّه إليه ، إن مائة ألف رجل سألوني ما سألتَ له ، وأخرت إجابتهم إلى هذا الوقت ، فلما جاء قسمت بين الجميع ذرة من محبتي ، فهذا سهمه . ومعاني المحبة تَلْطُف وتجل جداً عن إمكان التحدث بها ، لأن العبارة لا تأتي على معانيها، ولا يمكن التعبير بالمعاني بحال لأنها لا تدركها العبارة ، ولهذا ترى أهل المحبة لما أدركوا من معانيها ما يجل وصفه ، ولا يمكن كشفه ، واحتاجوا بسبب ذلك إلى التنفس والتروح ، إنما يعبرون عنها بقوالبها التي هي صورها ، والمعاني أرواح قائمة بها، فلما عجزوا عن التعبير بالمعنى ، عبروا بالقوالب والصور، وذلك كتغزلهم بليلى وسعدى ، ولُبنى ، وهند، ودعد، وغير ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا شكا المحب الجورَ من محبوبه ، فالجور إنما هو منه ، لا من المحبوب ، لأنه يطلب منه هوى نفسه ، وهو ما يعطيه كل ما يهواه ، احفظوا ذلك .
وتكلم رضي اللَّه عنه : ليلة في ضُعْف الهمم عن فعل الخير ، فقال : من كان له هوى في الشيء ، لو نهيتَه عنه ما انتهى ، وإذا لم يكن هوى فكأنك تجره في شخر( )، ثم أنشد للمتنبي( ):
إذا صادفت هوى في الفؤاد ... إنما تنجع المقالة في القلب( )

وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان أفرط بهم حب الدنيا، وقد ذم اللَّه تعالى من سَوّى بين محبة اللَّه ومحبة غيره ، وأثبت لهم محبة اللَّه بقوله :{ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ }( ) وخرج بهم حب الدنيا من البر إلى البحر ، لأنهم الآن في بحر، والبحر قد أكل دوابه بعضها بعضاً ، وليس شيء من الحيتان يقتات من البر

.
وقال رضي اللَّه عنه : من رُبِّي على الإحسان خرج منه الإحسان ، ومن رُبِّي على العدل خرج منه العدل ، ومن رُبِّي على الجور جرى منه الجور.
وقال رضي اللَّه عنه : القربات لا تغني عن الشهوات ، فإذا اشتغل قلب الإنسان مثلاً من الجوع ، فالطاعة فاسدة ، إنما تُسَلِّي عليه ، والسماء غير الأرض ، إشارة إلى إن المعارف من الأمور العلوية ، والشهوات حسية ، وهي تراب ، غير إن الأرضين سبع ، فتكون مثلاً العليا كالمباحات .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا أقيم الولي في مقام الرحمة العامة ، فيكون إذا علم برحمة قوم فرح لهم فيرحمون برحمته لهم ، وإذا عَلِمَ بالتشديد على آخرين ، رَق عليهم وساءه ذلك ، فيرحمون على حسب ما يَطلبه ، وحينئذ تبقى شائبة الطبع فيه ضعيفة ، والرب سبحانه عليه قول (كن) ، والملائكة عليهم المباشرة ، ولكنهم لا يتصرفون في شيء إلا بأمره ، ومع ضعف داعية طبعه لا تذهب ، ولا يمكن ذهابه بالكلية ، وإنما يكون ضعيفاً، وأفهم كلام الإمام الغزالي : أنه لو فقد ، وجب تحصيله ، وكُلٌّ فيه هوى ، وليس الشأن أن يذهب الهوى ، إذ لا يتصور ذلك ، بل الشأن أن يعمل على خلاف ما يقتضيه مع وجوده ، وهذا يضعفه ، وكلما ازداد من العمل على ذلك ازداد ضعفاً، حتى ربما يتوهم عدمه ، وليس بمعدوم ، بل ضعيف جداً، والعمل على موافقته يقويه ، وكلما ازداد من ذلك ازداد قوة ورسوخاً ، وكلما كملت خصوصية الشخص ، قلّت دواعي نفسه ، وكلما قلت الخصوصية كثرت دواعي النفس .

ومن خط ابنه علي زين العابدين ، قال : تكلم الوالد يوماً مع الحاضرين فقال : إن العقول قلت ، والنفوس كبرت ، والحق خفي ، والباطل ظهر ، اللّهم إنا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال ، ومن فضول الكلام وسوء الانتقام ، ونعوذ بك من زوال النعم وحلول النقم وضعف الهمم ، اهـ.
ما قاله في النفس

وسألته رضي اللَّه عنه يوماً وكان في بستان الليمة بالسبير : ما الشاهد الذي يعلم به الإنسان صدق نفسه فيما تدعي من فعل أمور طاعة ، أنها أرادت بذلك وجه اللّه والتقرب إليه به . فقال رضي اللّه عنه : ليس لها صدق أبداً ، بل هي كالمرأة السوء، والعبد السوء، والطفل ، لا يُؤمَنُون ، وإنما يستجلبها ويتهمها دائماً ، أما سمعت قصة الذي دعته نفسه إلى الجهاد ، فأبى أن يسير إليه. فلم يزل يتهمها حتى ظهر له أنها أرادت أن يُقْتَل ، ويُعرَف أنه قُتِل في الجهاد ، وطلبت حصول الريا بعد الموت ، وقال صاحب القصة : إنها قالت له نفسه ، إنك كل يوم تقتلني بمخالفة هواي مرات متعددة ، وفي الجهاد تحصل لي قتلة واحدة أتخلص منك بها، ويحصل لي الاشتهار بالشهادة ، والنفس عدو محبوب ، وسارق في الدار ، فإذا كان سارقك في دارك ومن أهلك ، فأمره مُشْكل ، ولا يقدر عليه إلا بأمر من اللّه .

وقال نفع اللّه به مرة : إنما قيل في النفس إنها أعدى الأعداء لكونها تنكر الشيء من غيرها وتكرهه وفيها مثله ، فلو رأيت إنساناً في أمر كرهت منه أشياء ، فلو قمت أنت في ذلك الأمر ظهرت منك تلك الأشياء التي كرهتها من غيرك ، فيكرهها منك آخر ، فالطباع سواء ، والنفوس على طبع واحد في ميلها عن الصواب ، ولكن يظهر الشيء ويخفى .

ومرة قال نفع اللّه به:نفسك عدو لك من أهلك، فإذا كان العدو من أهل بيتك فأمره مشكل.

وقال رضي اللَّه عنه : قد يكون العبد العاقل ، والخادم والولد ، إذا أمرته بأمر وعلم أن الصواب خلافه يجيبُك على قدر مرادك الذي أردته ، ويخبر عنك خلافه ، ثم بعد إذا ظهر لك وتبين أن الصواب هو ما عمله ، خلاف ما أردته منه ، فتحمده حينئذ ، وإذا وجدت من العبيد والخدام مَن هذه صفته ، فأمسك عليه .

وقال رضي اللَّه عنه : يداري الإنسان نفسه ، فإذا أحس منها بعض رغبة في خير ، وإن قل( ) ، ويستجلب منها الزيادة ، ومن تدعوه نفسه إلى

معصية وهو يمنعها ، فهو مجاهد ، وأما الصالح فلا تدعوه نفسه إلى معصية ، ولا تخطر بباله أبداً .
وقال رضي اللَّه عنه : القلوب الدنسة المشغولة بالنظر إلى الخلق ، والتزين لهم ، وبمرائاتهم ، ومحبة المنزلة عندهم ، متى تطهر؟، لو جئت بوعاء وسخ لرجل تريد منه سمناً أو عسلاً أو نحو ذلك ، قال لك : رح اغسله أولاً ، هذا في أمور الدنيا، فكيف توضع الأسرار في القلوب الوسخة ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : تعلق القلوب بمهماتها إذا صلحت ، رجعت دينية .
وقال رضي اللَّه عنه : الأمور الإلهية كلها ترفعك ، وعليك بقراءة القرآن ، وإن عجزت عنه لا تعجز عن الذكر ، فهو يوصلك إلى حيث أردت من أمور الدين ، والصعود إلى العالم العُلوي عَسِر ، كما يطلع الإنسان( ) البئر ، إلا أنه فرق بين من يطلعه بحبل يُشلونه به( ) ، وبين من يطلعها بلا حبل( ) ، وهذا هو الفرق بين السالك والمجذوب .
وقال رضي اللَّه عنه : إنما لم تظهر كرامات الأولياء في هذا الزمان ، لأنهم ما هم شيء ، فلا يستاهلون ظهورها ، ولهذا أنكروها، كيف وقد قال رجل في حضرة السقاف ، وقد قريء عنده "روض الرياحين" ، واتريماه ما فيها من هؤلاء واحد ، وأهل الروض قد خالفوا نفوسهم من قبل ، حتى ارتاضت ، فلما كان بَعْدُ لم يحتاجوا إلى رياضتها، لأن رياضتها ومخالفتها عَسِرة جداً ، لو احتاجوا إليها حينئذ لقطعتهم عن أمرهم .

وقال رضي اللَّه عنه : وظيفتنا الذكر ، ونحن به مشغولون عن غيره ، أو قال مستغرقين به عن غيره ، وإنما نقرأ مع الجماعة لنيل فضيلة القرآن ، وهذا هو الأمر الحقيقي الذي ينبغي ، فإن من تجرد لشيء اشتغل به عن غيره ، وهو الذي دعا أهل "الروض"( ) إلى التجرد عن أهلهم وأولادهم ، لما تجردوا للَّه اشتغلوا به عن من سواه ، وينبغي لكل أحد أن يأخذ وظيفة في الخير يستغرق بها وقته ، ثم يأخذ من كل وظيفةٍ غيرِها طرفاً أو كما قال .

مفاضلة الأولياء
وسألت سيدنا رضي اللَّه عنه عن أولياء كل زمان ، هل يفضل أحد منهم أحداً بسبب تقدم زمانه،قال: نعم يكون الزمن المتقدم متوفرة فيه الخيرات ودواعيها، فينال فيها أكثر من المتأخر.
وقلت له نفع اللّه به : هل الأقطاب كذلك ، يفضل المتقدم المتأخر ، فقال : المرتبة معروفة ، مرتبة القطبية ، فكل من هو فيها فهو قطب ، وإنما يتفاضلون بسبب فضيلة أخرى ، تكون في الفاضل ، ولا تكون في المفضول ، فَضَلَه بسببها، كمن يكون عالماً بالظاهر والباطن ، وانتفع الناس به ، أو يتعدى منه نفع إلى الناس ، ولم يكن ذلك في الآخَر، فيفضل بهذه المزايا الأخَرِ ، لأن النفع المتعدي أفضل من اللازم( ) هذا في القطب الواحد، الذي هو الغوث ، ولا يكون إلا واحداً ، وأما في غيره فكل من فاق غيره في فنه ، فهو قطب ذلك الفن ، كما يقال : الإمامُ الغزالي قطب العلوم ، والشيخ سهل بن عبداللّه قطب الأحوال ، ونحو ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : كل من الصالحين إنما يستعظم ما وهبه اللَّه ، ولا يرى ما وُهِبَ لغيره ، وإن كان الكل حقاً ، ولهذا قال بعض الصالحين في ابن الفارض وأمثاله : إنهم ملأوا الدنيا زعاريط بلا شيء ، لأن لكل من الروح والنفس تَيَهان ، إلا أن تيهان الروح بحق ، وتيهان النفس بباطل ، كما فعل فرعون .

أقول : كل تائية ابن الفارض الكبرى مشحونة بأحوال الحقيقة التي يصعب إدراك معناها ، وكان سيدنا نفع اللَّه به ، لا يقرؤها في الملاء مع كثرة ما يقرأ عليه الديوان كله من أوله إلى آخره ، كلما فرغ منه أمر بإعادته ، وذلك عشية كل يوم ثلاثاء ، ويأمر القارئ بتجاوز التائية الكبرى .
ما قال فيمن ينتسب لابن علوان والرفاعي
وذكر رضي اللَّه عنه أقواماً يدّعون أنهم فقراء للشيخ أحمد بن علوان ، وآخرين أنهم فقراء للشيخ أحمد الرفاعي ، يقال لهم الرفاعية ، يتعاطَون أموراً( )،

فقال : إنهم دَفّاعية، لا رفاعية ، والشيخ أحمد الرفاعي مناقبه عندنا، ليس فيها هذه الأفعال ، وإنما هي بدعة ، وإذا رأيت بدعة فتَقَرَّب إلى اللّٰه بمخالفتها، وكان( ) غاية ونهاية في التواضع ، وما سمعنا عن أحد في التواضع ما سمعنا عنه ، والتواضع هو التقلل من كل شئ من ملبس ومسكن ومركب وكلام ونوم ، وجميع ما يحتاج إليه يقتصر منه على الحاجة إلى القلة .

ما قال في التواضع

وقال رضي اللّٰه عنه : الانطراح مع التواضع يحمد ، إذا خلى من الذلة والطمع ، وأما معهما فقد يفعل أشد من ذلك ولا يُحمد للمؤمن ، ومن تكبر ترى الناس يشمتون به ، ويبغضونه ويفرحون بمصيبته ، ويقولون يستاهل لذلك ، وما وقع عليه إلا بشؤم كبره ، والمتواضع يرحمونه ويرثون له ، وإذا نزل به مكروه توجعوا عليه ودعوا له ، فكم فرق بينهما.

قصة صاحب الشجرة

وقال رضي اللّٰه عنه : من تعلقت همته باللّٰه ، حصل له مطلوبه ، ووقع في بحر ما له طرف ، وإن علت همته ، وضعف بدنه حصل له بها ما لا يقدر عليه بدنه ، وتعجز عنه قوته ، وذكر عند ذلك قصة صاحب الشجرة الذي أرسله ملك العرب إلى ملك الصين ، ليسأله ما سبب طول بقائكم في الدنيا وتمتعكم بالملك وأنتم كفار، ونحن مسلمون لا يحصل لنا ذلك ، فجاء به إلى شجرة قوية راسخة ، وقال : لا أجيبك حتى تسقط هذه الشجرة ، فاستبطأ الجواب ، وأراد الرجوع بسرعة ، وتعلقت همته بسقوط الشجرة ، لما توقف جوابه على سقوطها، فبقي أياماً يتردد إليها ويتمنى سقوطها، حتى إنها سقطت ، فقال له : هي جوابكم ، فسار إلى مرسله فأخبره بأمر الشجرة فأطرق مفكراً، ثم قال : قاتله اللّٰه ، ما أحذقه ، فقال له رسوله : ما معنى ذلك ، قال : معناه يقول إنك رجل واحد، تعلقت همتك بسقوط هذه الشجرة القوية ، حتى سقطت ، وأنتم تتعلق بكم همم الناس كثير( )، تظلمونهم ، كيف

يطول بكم البقاء والتمتع بالملك ، هذا لا يكون ، أو كما قال.
ما قال في العقيدة
وقال رضي اللَّه عنه : إذا كنت ماسك الحبل بيدك فَسَيَّبْت فاللوم عليك لا على الحبل ، فمن سَيَّب سُيِّب ، فإن الأولياء والصالحين يعتنون بك ، بقدر اعتنائك بهم ، حتى إن رجلاً قال لأبي عيسى المرسي( ) : خاطرك معي ، فقال له : خاطرك أنت معي ، لأن أهل مراتب الولاية لهم نواب ، يقومون في مراتبهم عنهم من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون ، ولا ينتفع إلا صاحب القلب القوي( ) المنور ، وذو القلب الضعيف( ) والقلب المظلم( )، لا ينتفع .
ثم ذكر نفع اللَّه به قصصاً من كرامات الأولياء ، ثم قال : من قال لك إن عاد في هذا الزمان شئ من الكرامات ، إلا إن كان من نور النبوة ، فقد وَهِم أو كما قال .

(1/204)

وذكر لي رجل من أهل الشحر عن جماعة من أهل الحَسَاء ، جاءوا من البصرة ، أنهم أصابهم في غبة فارس طوفان عظيم ، كاد البحر أن يبتلعهم بمراكبهم ، وهي ثلاثة مراكب ، وأنهم استغاثوا بسيدنا عبداللَّه نفع اللَّه به ، ففي الحال طَفَرت( ) سمكة من عند سكان( ) المركب الذين استغاثوا ومرت كأنها سهم في وسط المركب ، بين الحبال من جَانب الدَّقل( )، حتى وقعت في البحر من عند صدر المركب ، فعند ذلك في الحال انقطع عنهم الطوفان ، وسلموا بفضل اللَّه ، فأخبرت سيدنا بهذه القصة. فقال رضي اللَّه عنه : المراتب لها خدام، ولم يزد على هذه الكلمة.
وقال رضي اللَّه عنه : الأمور الخارقة للعادة ، ما هي بعيدة في كرم اللَّه وقدرته لمن أكرمه ، ولا هي بعيدة من أفعال الشياطين ، والعمدة على الاستقامة ، وإن ذُكِر عن أحد الطيرانُ في الهواء ، فإن الشيطان يطير من المشرق إلى المغرب في لحظة ، ولا يفعلها من صح له قدم في الولاية إلا لضرورة ،

كتقوية مريد، كيف يفعلون ما فيه هوى النفوس ، وهم يجتهدون في قطع هوى نفوسهم .
ما قال فيمن له في العمل وجهان
وقال رضي اللَّه عنه : إذا رأيت إنساناً يعمل عملاً له وجهان ، وجه يدل على الخير( ) ، ووجه يدل على الشر( ) ، فسلم الأمر، وأحسن الظن ، وإن كان إنما له وجه واحد يدل على الشر ، فما لحسن الظن وجه إلا أن تظن أنه لا يصر عليه ، بل يتوب عنه ويستغفر منه ، وَأْمُرْ ، وَأْنْهَ على حسب ما بلغك ، ولا تَتَقَصَّ عن بواطن أحوال الناس ، وإذا تبين لك بطلانه فانْهَ ، وتَرْكُه للحياء أو إنهم حبايبنا ما نقول فيهم إلا خيراً ، ليس هذا بِدِين ، وهو معنى لا تأخذه في اللَّه لومة لائم ، وخذ من الطاعات ما هو ظاهر من غير خلاف ، وأنه طاعة ، واجتنب من المناهي ما هو ظاهر ، مع الاحتياط بما تقدر عليه في الأمرين ، فبذلك تدرك درجة أصحاب اليمين ، إن لم تقدر أن تكون من السابقين .

ثم أَكْثَرَ نفع اللَّه به من ذكر اختلاف الأزمان ، واختلاف الآمرين والناهين فيها، فذكر: إن رجلاً دخل على سفيان الثوري ، فرآه يبكي والدم يخرج من حلقه ، فقال له في ذلك ، فقال : انفتحت في الدنيا( ) قناة ، فأردت أن أسدها، فانفتحت منه أبحر ، هذا وهو في القرن الثاني ، وهو( ) قريب العهد برسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم والصحابة .
ما ذكره عن السيد عبدالرحمن بن محمد الجفري صاحب (تريس)
وذكر رضي اللَّه عنه مَنْ أَمَرَ ونهى في القرون الماضية ، حتى وصل إلى ذكر القرن العاشر ، فذكر عن الشيخ عبدالرحمن بن محمد الجفري ، صاحب تريس( )، فقال : إنه كان قد طلب العلم ، وعمل وسَلَّك ، ولقي المشايخ ، وكان إذا أمر ونهى لا يبالي بمن يأمره أو ينهاه كائناً من كان ، وإنه رأى رجلاً في المسجد يقرأ القرآن ، وهو لا يحسن القراءة ، فبعد الصلاة سأل عنه ، فقال له رجل من أصحاب الدولة :

إنه ألثغ وهذا مقدوره ، فقال له : وأنت يوم تصلي ولا تطمئن ، يا فاعل ، يا تارك ، وبقي يصيح عليه ، حتى انهزموا من المسجد ، وكان يكتب لبعض سلاطين الجهة : إلى فُلَيِّن مردم جهنم ، وأما زماننا هذا فما بقي للدين فيه ذكر ، ولا معول ، ولا نسبة بينه وبين ما قبله من الزمان ، أو كما قال مما ذكره في مجلس القراءة عشية يوم الاثنين حادي عشر شعبان سنة 1124 .

ما قال فيما هو في وقت السلف

وقال رضي اللَّه عنه : ما مضى عليه السلف ، من قبل الشيخ عبداللَّه العيدروس ، إلى وقته ، ما يسعنا إلا تقليدهم والإتباع لما مضوا عليه ، وما كان من زمنه إلى وقتنا هذا فلا نتبع إلا ما مَرُّوا عليه ، ومن ابتدع شيئاً فعلى مبتدعه .

وقد استأذنه رضي اللَّه عنه المعلم باغريب( ) بأن يجعل في الغَبْرة جابية كبيرة ، تجمع ماءها ليكون قلتين فأكثر فأبى عليه ، وقال : شيء مضى عليه السلف الصالحون لا نغيره ، فاتبعوهم فلستم بأعرف ولا أورع ولا أتقى منهم .

وسمعته نفع اللَّه به مرة يقول : قال لنا السيد أبو بكر بافقيه : إن هذه التكابير لا تنبغي ، لأن فيها هتكاً للمروءة ، فقلنا له : لا تخوضوا لنا في الأمور التي مرت على السلف والأكابر ، والذي لا يحسن النظر في الجليات ، لا ينبغي له أن يخوض في الخفيات ، ثم ذكر قصة الذي قال للنبي صلّى الله عليه و آله وسلّم : علمني من دقائق العلوم ، الخ والسِّماية قد مرّت على أكابر أيضاً( ) ، يقولون : إن السِّماية تهتك المروءة ، فلا فرق بينهما( ) .

وقال رضي اللَّه عنه : وقد قالت بنت أخي السيد عمر بن أحمد المنفر : يا عم ترى شيابة يرقصون ، وسمى [أي سيدنا] أحداً منهم ، فقال لها: عمكِ ما عاد يقدر ، وإلا كان قام معهم ، ومثل هذا هو اللَّهو واللعب الذي كانوا يتنفسون به عند الملل والضجر .

وذكر رضي اللَّه عنه زيارة النبي هود على نبينا وعليه السلام ، فقال : كل من روَّح( ) ما له زيارة ، لأنه

خالف ترتيب السادة وما درجوا عليه ، فكأنه مراغم لهم ، وما جَعَل الشيخ أبو بكر بن سالم الحضرة إلا ليجتمع الناس ساعة ، ويذكرون اللّه ، ويدعونه ، ويقرأون مولداً لحصول البركة بالاجتماع ، ومن سَرَح بعدما حضر الحضرة( ) فله نصف زيارة ، ومن نفر( ) فله زيارة تامة ، فربما شيء من الأمور الإلهية ، مرتب على ما رتبه السادة .

وذكر رضي اللّه عنه شيئاً من فتوح العارفين ، فقال : ومن دخل الأربعينية ، قد يرى لدوران الأفلاك وحركاتها لذة عظيمة ، فربما رأى شيئاً يفزعه ، ومثل هذه الأشياء لا ينبغي تطلبها ، لأن في طلب تحصيلها خطراً ، بل الأحسن أن يتركها ، وهي تأتي من حيث هي تكون ، وقد أدركنا الناس متعلقين بهذه الأشياء ، فيقولون : فلان دخل الأربعينية ، وفلان خرج منها ، وفلان حصل له كذا ، وأما اليوم فصار الناس في عالَم آخر ، إنما يقولون : فلان سافر إلى كذا ، وفلان جاء من المكان الفلاني .

وذكر رضي اللّه عنه ذات ليلة الناس وقلة حصول الغيث لهم ، مع كثرة دعائهم بذلك ، فقال : إنما منعوا الإجابة لكثرة ذنوبهم ، والأمر لا يتم إلا بالأمور الخَلْقية( ) ، والأمور الحقية( ) جميعاً ، وإذا حصلت التي من الخلق ، حصلت التي من الحق ، وأمور الخلق أجسام ، وأمور الحق أرواح ، فهل تستقيم أجساد بلا أرواح ، ولما كان ذلك كذلك احتاج الخلق إلى الأكل والشرب ، ولم تحتج إلى ذلك الملائكة ، ثم قال نفع اللّه به : ومن عظيم لطف اللّه أن جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، وجعل كاتب الحسنات وكيلاً على الذين يكتبون السيئات ، وهذا من سر كون رحمته تعالى سبقت غضبه .

وذكر : إن سليمان عليه السلام أرسل بعض الشياطين إلى موضع ، وأمر آخر بأن يتبعه ويُعْلمه بما يقول ، فمضى معه ولم يسمعه يتكلم ، إلى أن مر بسوق ، وفيها كثرة من الناس ، ملتهين ببيعهم وشرائهم ، فوقف ورفع رأسه ، وقال : سبحان اللّه ، ووضعه وقال : سبحان اللّه ، فأخبر سليمان بذلك

فسأله عن ذلك ، فقال تعجبت من هؤلاء الفوقيين ، وسرعة ما يكتبون ، ومن هؤلاء التحتيين ، وسرعة ما يُملون ، وقد مرت هذه الحكاية في أول المجموع ، فانظر حال سليمان عليه السلام ، وما أعطي من الوحي والنبوة ، ما علم الحال من هذا ، حتى سأله عنه ، ليُعْلَم أن علم الغيب مختص باللّه تعالى ، ومن ادعى أنه يعلم الغيب ، يكذبه اللّه تعالى لأنه ادعى شيئاً لم يَدَّعِه الأنبياء ، وكذلك موسى عليه السلام ، عندما يكلمه اللّه ، إنما يمضي إلى طور سيناء فيغشّيه عند ذلك بالسكينة ، فيعلم خطاب اللّه ، إلا أن كلام اللّه له على قدره ، وليس خطاب الكليم ، كخطاب الحبيب عليه الصلاة والسلام ، فإن اللّه كلم موسى عليه السلام في الأرض من الشجرة ، وكلم نبينا محمداً صلّى الله عليه و آله وسلّم في السماء بين قاب قوسين أو أدنى، فانظر الفرق بينهما.

وقال رضي اللّه عنه : صاحب العادة لابد فيه شيء من الحقيقة ، إلا إنه ضعيف ، والعادة فيه أقوى ، وصاحب الحقيقة لا بد أن تكون فيه عادة ، إلا إنها ضعيفة ، والحقيقة فيه أقوى ، وكلما قويت الحقيقة ضعفت العادة ، حتى ربما يُتوهم فقدها ، ولا يمكن أن تفقد بالكلية ، وإنما تضعف ، فكلما قويت إحداهما ضعفت الأخرى ، والإضافة إلى أحدهما بحسب الأغلب والأقوى ، لأن من أكثر من شيء عرف به ، ومن عُرِف بشيء نسب إليه .
وحضر بين يديه رضي اللّه عنه ذات ليلة رجل ، فبكى وكأنه متشمم لشيء ، فقال له : البكا إنما هو للنساء، والرجال إنما تبكي قلوبهم ، والأحوال لا تحصل بالبكاء، إنما تحصل بالمجاهدة.
ثم قال نفع اللّه به مخاطباً لجملة الحاضرين : لابد للأولياء من أحد خصلتين ، فمنهم من يحفر على كنز ، ومنهم من يتعلق روحه بالعرش ، لابد من أحد هذين ، ومن الأولياء من لا يحمل حاله إلا أربعون رجلاً ، ومنهم من يقسم حاله على ستين ، ثم قال لذلك الرجل : ابق على حالك ، وهو يأتيك نصيبك من الكتاب .

وقال رضي اللّه عنه : الشيخ أبو يُعَزَّى المغربي ، والشيخ أحمد البدوي في المقام الموسوي ، عليهما هيبة وجلالة ، حتى إن الشيخ أبا مدين لما أتى إلى أبي يعزى ليأخذ منه الطريق بمجرد رؤيته له غشي بصره ، وهذا معنى كون الولي في مقام النبي ، فيكون مشابهاً له في الدرجة الأولى ، وإلا فلا يقام الأولياء في مقام الأنبياء ، وأكملهم من يقام في المقام المحمدي ، ويكون كرامة كل ولي مثل معجزة ذلك النبي ، وأعظم معجزة لنبينا صلّى الله عليه و آله وسلّم القرآن فمن كان في مقامه ، فيكون قائماً على حكم الكتاب أو كما قال .

(1/209)

وقد ذكر الشيخ عبدالقادر( ) باعشن ، لسيدنا نفع اللّه به رؤيا رآها وهي : إنه رأى أنه زار بعض الفضلاء ، فرآه متغشياً بغشاء ، وإنه كلمه أولاً ثم رفع غشاه ، فَغَشَاه عند ذلك نور عظيم ، حتى لا يكاد يطيق فتح عينيه ، فانتبه وفي قلبه حلاوة لقائه ، فقال سيدنا في جوابه : والرجل هذا يكون في المقام الموسوي ، لأن النور الظاهر كان يغلب على موسى عليه الصلاة والسلام ، حتى إنه بعد رجوعه من المناجاة يتبرقع من شدة نوره ، وقد أقيم في هذا المقام السيد الشريف ، أحمد البدوي شيخ مصر( ).
وقال رضي اللّه عنه : ما تُعرف الرجال إلا بالرجال ، حتى قال باهارون( ) : لو سمعت كرامات الأولياء ما صدقت بها ، حتى رأيت كرامات خالي ، دحيِّم باهارون( ) فعرفت كراماته فصدقت بها من سائر الأولياء وكان الشيخ أحمد باجحدب يقول : إن دحيم باهارون في مقام الجنيد .
وقال رضي اللّه عنه : الناس( ) يجعلون الصالحين حجة لهم على أنفسهم ، وأهل الزمان يجعلون الصالحين حجة لأنفسهم للذب عن دنياهم فيطلبوا منهم أن يذبوا لهم عنها.
وقال له رضي اللّه عنه بعض السادة : إن كل ما نقل عنكم من مصنف أو كلام ، نقل على وجهه ، من غير اختلاف في ذلك ، فقال : لأن صاحب الزمان ينطقه اللّه بما يوافق أهل زمانه ، ويباشرونه ويرونه ،

ويأخذون عنه مشافهة ، لا كمن يُنْقَل عنه ويُرْوَى ، وقد مضى أقوام من المشايخ أكبر وأقدم منا ، ما انتفع بهم إلا القليل ، ومن أقاربهم أيضاً فضلاً عن غيرهم ، حتى إن الشيخ عبداللّه العيدروس مع مناداته على نفسه ، ما اشتهر( ) ممن أخذ عنه إلا السيد عمر صاحب الحمرا( ) وكذلك الشيخ أبو بكر بن سالم ، مع أنه متأخر.
ما قال في كثرة من انتفع به

وسمعت سيدنا نفع اللّه به غير مرة يقول : الذين انتفعوا بنا أكثر من الذين انتفعوا بالشيخ عبداللّه العيدروس ، فقيل : ولا أولادهم؟، فقال : ما عليك ، أما في الأولاد ، فيتبعون لا عذر لهم ، ولو في غير الحق ، لأجل القرابة ، ألا ترى إلى بني هاشم وبني المطلب ، كيف حبسوا أنفسهم مع النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم في الشعب ، ولو حارب أحداً قاموا معه ، وهم مع ذلك على الكفر كل ذلك بسبب القرابة ، فاتباع الأولاد ونحوهم ما يستكثر ، فما الذي منع أن لا يكونوا نحو العشرين من آل باعلوي أخذوا عن الشيخ عبداللّه أقل الحال .
ومرة ذكر مثل هذا ثم قال : ولو جلس مثلاً رجل من غير الأشراف للتدريس من آل بافضل أوغيرهم ، لما استنكف الأشراف من الحضور عنده( ) .
ما قال في باجابر
قلت : فَلِمَ كثر اللابسون والآخذون من باجابر لما دخل تريم ، في مدة ثلاثة أيام ، فأخذوا عنه ما لم يأخذوا من الأشراف. فقال نفع اللّه به : لأنه دخل بإشارة شيخ البلاد ، وبالضمانة ، يعني الشيخ أحمد بن علوي باجحدب ، وقوله بالضمانة : إنه ضمن له اثنان من السادة ، أحدهما من أهل الظاهر، السيد محمد بن حسن بن الشيخ علي بن أبي بكر ، والآخر من أهل الباطن ، السيد أحمد بن الحسين بن الشيخ عبداللّه بن أبي بكر العيدروس ، وإنه لا يمكث أكثر من ثلاثة أيام ، لا يزيد عليها ، وأمره أن يبقى في مسجد بروم المدة المشروطة ، ثم عند تمامها خرج مسرعاً إلى بلده عَنْدل .

(1/211)

وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان إنما هم على التشبه والرسوم ، ومن تشبه ولا معه شيء من الدعاوي الكاذبة فهو على خير ، وإلا الأشياء التي تذكر عن الأولين قد طويت ، إلا إن كان في الزمان خبايا ، وللّه تعالى أخلاف ، ما زال الدين قائماً والبيت قائماً لا بد منهم ، ولو أنهم حتى في القفار، ما ترى هنا، القرآن يرفع ، والدين يرفع ، فهذه مع البقايا وإن اختفوا، وما المؤمنون إلا سابق ومسبوق ، والمؤمنون على خير ، مَن لقيَ اللّه مؤمناً دخل الجنة ، أو عليه شيء من الذنوب أدخله اللَّه النار بقدر ذنوبه ليطهره ، والناس بالنسبة إلى اللَّه أهل تقصير كثير ، وإن فعلوا ما فعلوا ، فإذا كان النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم يعترف فكيف بغيره ، وأنت أعبد اللّه بقدر ما عندك من العلم والنور ، واترك الاغترار والتعلق بصالحين قد مضوا كما يفعله كثيرون ، فالذين اعتمدوا عليهم ، لأي شيء لم يتركوا العمل ، وفي مجلس آخر قال : كأنهم يظنون بأنفسهم أنهم خير منهم ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بالعمل ، وهؤلاء يريدون أن يبلغوا بلا عمل .

وقال رضي اللّه عنه يخاطب رجلاً من الحاضرين : والإنسان يَنْهى ولا ينأى ، بل إذا نَهَيْتَ وهناك خيرٌ إلزمه إلا من يَرُدُّ الدين أو يعترض على أهل الدين فلا تخض فيه بل اتركه ، فإنه كالذي يريد أن يرمح ، ومن الناس من لا يمكنك أن تجذبه إلى الخير إلا بترغيب في الرياسة ، بأن تقول له : أنت فلان ، ومن رآك تفعل هذا سقطت من عينه ، أو إن لم تفعل كذا استحقرك الناس ، قال ذلك الرجل : لا تروا علينا ، فإن السكوت عن هذا أقرب إلى الأدب ، قال : لا بأس بذلك فإنك تحيي المذاكرة وأنت كالصائد ، ونحن ما نحابي ، إذا كان المجلس وقت فسحة ويحسن ذلك تكلمنا ، وإلا قلنا له : اترك الكلام إلى وقت آخر.

(1/212)

وقال رضي اللَّه عنه : الزمان زمان نكد وتشويش ، لا تكاد تسمع إلا ما يسوء ، وقد كانوا( ) إذا أخبروا بشيء تتقدمه أشياء ومقدمات تسهل ذلك ، وأما اليوم فيجيك الأمر( ) ، وكان الصالحون في أحوالهم كلامُهم إلا في الآخرة ، تشوفهم يتعاطون أموراً ما تدخل تحت طاقة البشر ، وانطووا في معرفة القضاء والقدر ، وهؤلاء لا يعرفون القضا والقدر ، ولكنهم لا يصبرون كصبرِهم ، طبعُ البشرية .
وقال رضي اللَّه عنه : ما الإنسان إلا ضايق من الدنيا ، فإنه لا يرى ولا يسمع إلا ما يكره ، ولو كنت في صفا وطاعة ، شوشوها عليك ، وهذا زمان صبر ، القوي فيه ضعيف ، ولا مساعد هناك .
ما قال في الصغار وتربيتهم
وذكر رضي اللَّه عنه الصغار يوماً فقال : اللَّه الحافظ ، ولكنك مؤاخذ بالاستطاعة ، وعندنا( ) يقولون : الصغير إلى سبع سنين هو في رقبة أمه ، وقد سقط صغار من سطوح عالية ، ولا يضرهم شيء بلطف اللَّه ، والفصل في هذا أن تكلف ما كُلِّفْتَ على قدر وسع الدائرة، وما دخل تحت الأقدار فذاك بحر واسع لا تدخله ، فلا مدخل لك فيه .
وقد قال سيدنا علي : القَدَر بحر واسع فلا تلجه .
وقد سأل رجل بعضهم عن القَدَر ، فقال للسائل : هل خلقك لِمَا أراد أو لما أردت ؟، فقال : لِمَا أراد ، قال : فيستعملك أيضاً فيما أراد ، لا فيما أردت ، ولا يحصل للداخل فيه إلا الاحتجاج للنفس على الرب .
وأُخبِر رضي اللَّه عنه بصبي صغير أنه يريد الحج في تلك السنة ، فقال له نفع اللَّه به : لا تحج هذا العام ، وصحح أولاً أركان دينك التي هي عليك أَلْزَمُ من الحج ، فصحح صلاتك وزكاتك وصومك ، فإذا صححت هذه كما ينبغي ، فأتمها بالحج ، لأن الحج إنما هو تكميل للأركان ، قال اللَّه تعالى للنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم وأصحابه ، بعد ما تمت حجتهم :{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم }( ) فمن لا يصحح الأركان الأَوَل ، ولم يأت بها على الوجه الأكمل ، فما يصنع بإتمامها قبل إحكامها .

وقال رضي اللَّه عنه لرجل شكا إليه : لا تَدْعُ على من ظلمك ، فإنك إذا دعوت عليه انتصرت لنفسك ، وإلا عاد دعاؤك عليك ، ولكنك ادع له بالصلاح والهداية للصواب ، وأن يؤمنهم في أوطانهم ، ليعود دعاؤك لك .
وذكر رضي اللَّه عنه أحوال أهل الزمان في وضوئهم وصلاتهم ، فقال : لو أمسكت برأس الرجل في صلاته حتى يطمئن في الركوع والسجود القَدْر الذي لا بد له منه ، ما صلى الصلاة الثانية إلا باطلة ، فيأتي بها باطلة عمداً ، وسبب ذلك عدم الرغبة ، وإذا لم تكن رغبة ولا لذة ، كيف يأتي بها كما ينبغي ، فينبغي ويحتاج أن يُعَلَّم فضيلة الصلاة والوضوء ، ليرغب في ذلك ، فيحصل له في فعل ذلك رغبة ، وكانوا يأتون( ) بذلك ، وقلوبهم مفتوحة راغبة في الخير ، ويربون صغارهم على ذلك ، يعلمونهم إياه ، وأما هؤلاء( ) ، فلا يعلمون صغارهم إلا الرغبة في الدنيا ومحبتها ، والصغير إذا فسد باطنه ، بأن تأمل أحوال الدنيا أو النساء أو نحو ذلك ، فلا( ) ، كالدمل إنما ينتظر افتقاشه( ) فلا ينبغي أن يكون في المجالس التي لا تنبغي من أسواق ، أو مجالسة المبطلين ، ويعود ثمر هذا شوكاً، وإنما ينبغي أن يكون ملازماً لمجالس الخير كالمساجد وأماكن القراءات ومجالس الصالحين .
وقال رضي اللَّه عنه لرجل : اللَّه للَّه في الهمة والصبر ، فإذا لم تج الدنيا إلا بالصبر ، فالآخرة أولى .
وقال لآخر : عليك بالصدق ، واتباع الشريعة ، والشريعة كالبحر من طبعها الإغراق كالبحر ، فينبغي للإنسان أن يتطرف وإلا خُشِيَ عليه الغرق .
ما قال في الخمول

وقال رضي اللَّه عنه : كانوا يحبون الخمول والخفا ، مع وجود الشيء ، وهؤلاء يحبون الظهور والشهرة بلا شيء ، لكن بماذا يظهر( ) ، أبحب الدنيا والتنافس عليها ، وكان سادتنا آل أبي علوي ما طريقهم إلا الخمول ، حتى إن الفقيه المقدم كان يحمل السمك من السوق ، فيمر به على المجالس ، فإذا تعدَّى

عليهم أعطاه أول من يلقاه من الفقراء ، وأول من سمي منهم شيخاً الشيخ عبداللّه بن علوي ، وكان يغضب إذا قيل له يا شيخ ، ويقول للقايل الشيخ أبوك ، وكان شيخاً في الحقيقة ، شيخاً في العلم والنسب والسن .
وقال رضي اللّه عنه : كل الأشياء بَغَت ميزان، ولهذا كثر ذكر الميزان في القرآن.
وذكر رضي اللّه عنه أقواماً سافروا ، فقال : فرحتهم عند سفرهم كفرحتهم عند مجيئهم ، لأن أمور الدنيا كلها موزونة ، ولهذا كثر ذكر الميزان في القرآن ، وهو معرفة مقادير الأشياء ، بأن تقابل الخير بالشر ، أو بالخير ، لتعرف قدره .

(1/215)

وتكلم رضي اللَّه عنه ليلة الخميس في 11 ربيع أول سنة 1125 ، فذكر أقواماً دخلوا في الطريق ، منهم من هو من أول عمره ، وحصل له التجرد التام فنفذ ، ومنهم من هو في آخر عمره ، ولم يحصل له هذا التجرد ، فلم يحصل له منها كالذي قبله ، وقد قال الإمام الغزالي بعد كمال جده واجتهاده وبعد ما ساح : لم يحصل لي منها مثل ما حصل لمن لم يتعلق بالعلوم الظاهرة ، لأن شرطه أن ينساها ، ويتجرد القلب عنها ، ولهذا إن الإمام الرازي لما كان ممعناً فيها لم يبلغ الأقصى من هذا الأمر ، ولعدم التجرد الكلي من الدنيا لأنه كان صاحب ثروة . ثم قال نفع اللّه به: لا أحسن للإنسان في هذا الزمان إذا أراد سلوكها من تصحيح أصول التوحيد ، وفعل الواجبات وترك المحرمات ، والإتيان من السنن على مقتضى الكتاب والسنة ، من غير أن يتعداهما ، فإذا أثمرت له هذه الأشياء حصل له خير كثير ، وأما أمور المكاشفات فلا تنبغي في هذا الوقت ، ولو ظهرت فيه على أحد تأسف عليها ، وتمنى أنها لم تكن ظهرت له ، لأنك لو كشف لك عن أحد مثلاً ، أنه يبغضك ويشتمك ، كيف تفعل معه هل تقوم تضربه ، لا، بل الستر أحسن ، فقد كان بعض الصالحين ، ارتاض كثيراً فرأى جماعة واردين على ماء ، فرأى بعضهم على صورة كلب ، وبعضهم على صورة خنزير

، وغير ذلك ، فأظهرهم اللَّه له على صورهم المعنوية ، فسأل اللّه أن يستر ذلك عنه ، ومن لا يمكنه إذا أشرت إليه بكلمة سر أن يكتمها بل يضيق صدره منها ويفشيها ، لا تظهر عليه هذه الأشياء ، لأن سَتْرها واجب ، وشرط من أُهِّل لها أن يسترها .
قلت : فإن كان في نحو طعام ، إنه حرام أو شبهة ليتركه كان في هذا فائدة ، فقال : لستَ بمكلف بما لا تعلم ، فإذا كان كله حرام ، هل تجلس بلا أكل ، وفي هذا توسعة من اللَّه تعالى .

وقال رضي اللَّه عنه : مثل الإنسان في الدنيا ، كمثل رجل في بيت يُحْذَف( ) بالحجارة فيُخاف عليه كل حين أن يُرضخ رأسه ، فسبحان اللَّه كيف يقر الإنسان وهو كل حين يشيع ميتاً ، وكل الناس مجمعون على أن الدنيا فانية ، وكل الملل مجمعة على ذمها ، وكل الأمم التي بعثت إليها الملل مجمعون على محبتها ، ولعل ثلث القرآن جاء في ذمها ، وأبلغ آية في التزهيد فيها ، قوله تعالى : { وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } إلى قوله : { لِلمُتَّقِينَ}( ).
حكاية الطبيب

ثم ذكر حكاية : إن رجلاً من أهل المشرق أصابته علة شديدة ، فطلب طبيباً ماهراً ، فدُلَّ على طبيب نصراني في جهة المغرب ، وإنه لا يمكنه أن يداويه إلا هو ، فمضى إليه ، وإذا به يعني الطبيب علة شديدة ، ولم يداو نفسه منها ، فقال : لو هذا طبيب لداوى نفسه ، وأراد أن يرجع ، ثم قال : لما إني عنيت له أنظُر ماذا عنده ، فذكر له علته ، فقال : لا أداويك إلا بنصف مالك ، وكان ذا مال كثير سار به معه ، فأبى أولاً ثم رضي لما لم يجد بداً من ذلك ، ولم يسأله الطبيب حينئذ عن اسمه ، فداواه وصح لكن بقي أثر من تحشيف ، فقال : هات المال ،

فقال : هذا ما طاب فقال : ليس هذا علي إنما داويتك بقدر ما أعطيتني ، فإن أردت أن أداوي هذا ، فأعطني نصف ما بقي من مالك ، وهو الربع فأعطاه وداواه ، وصح ، وأراد الانصراف فسأله الطبيب حينئذ عن اسمه ، ومن هو وما دينه فأعلمه ، وقال : ديني الإسلام ، فقال : من أعلمكم به ، فقال : بعث اللَّه إلينا نبياً صفته كذا ، وعلمنا الدين والإسلام ، فقال : ما أخبركم نبيكم إنك ستموت ، فقال : بلى أخبرنا إن كلاًّ ميتٌ ، وإن الدنيا فانية ، وإن الآخرة باقية ، وهي خير وأبقى ، وكان هذا الطبيب عاقلاً ، فقال له : أنت مع إيمانك وتصديقك بما أخبركم به نبيكم ، تحب الدنيا وتحب طول البقاء فيها ، وتحب المال ، حتى أتيتني من مسافة بعيدة تطلب صحة بدنك ، وبذلت فيها مالك ، وأراك حريصاً، وهو( ) مع كفره لما جربت الدنيا ، وعرفت أنها زائلة زهدت فيها ، فهذا بدني عليل ماداويته ، وهذا مالك الذي أعطيتني خذه مني ، فلا أريده ، وسر عافاك اللَّه ، إنما أردت أن أختبرك .
ثم قال سيدنا نفع اللَّه به : والدنيا فانية بكل حال ، إمَّا وَلَّت عنك ، وإمَّا وَلَّيتَ عنها ، وكثيراً ما سمعته نفع اللَّه به يقول : من عرف الدنيا زهد فيها ، ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب .

(1/218)

وقال رضي اللَّه عنه : محبة الدنيا كلها سوء إن كان ذلك من مسلم أو من كافر ، وإن اختلفت المزية ، فالكل مذموم ، وهم سواء في الذم ، لأنهم اشتركوا في محبة العاجل وهو مذموم في جميع الشرائع .
وقال رضي اللَّه عنه لرجل من أهل بلدة شبام حين استودع منه : الحذر تغبط أهل الدنيا ، وتُوَدِّي أن تكون مثلهم ، فتحاسب في الآخرة حساب الأغنياء وأنت ما معك شيء ، وأُنشِدَ في لسان حال المولود في صياحه حين يوضع :
لما تؤذن الدنيا به من همومها يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأهون مما كان فيه وأوسع
ما قال في الذي يضيق من القراءة

وقال رضي اللَّه عنه : إن أهل الزمان في قلوبهم شياطين ، ولهذا يضيقون من قراءة القرآن ، والجلوس في المساجد ، ولولا ذلك ما ضاقوا ، ألا ترى إلى المصروع الذي دخله الشيطان ، أو قال الذي فيه الجني ، إذا قرأت عليه القرآن كيف يصيح .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان ليس في أجسامهم قلوب ولا أرواح ، إنما فيها نفوس شيطانية ، ويعرف هذا بحركاتهم الظاهرة ، لأن الأمور الغيبية لا تعرف إلا بالحركات الحسية ، على مقتضى ما تدعو إليه ، وعلى لسانها، كما يتكلم المدخول من الجان على لسان الجني الذي فيه .
ما قال في العدل بعد المائتين
وقال رضي اللَّه عنه : سُئِلَ بعض السلف عن شيء من العدل يكون بعد المائتين؟ فغضب وقال : كيف يكون ذلك ، وقد قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((من استطاع منكم بعد المائتين أن يموت فليمت)).
ثم قال سيدنا : رأينا في حديث مشهور ، أنه تخرج شياطين بعد المائتين كان حبسهم سليمان عليه السلام ، فيطلقون حينئذ، ويحدثون الناس بما لا يعرفون ، فيأخذون بما يقولون لهم .
ما قال في النفس

وقال رضي اللَّه عنه : لا تأمن نفسك وتطيعها ، وقدك مَعَها على شفا ، فتَهْلِك أنت معها ، ولا يدّعي القوة عليها إلا مغرور . وما معنى قولهم ظلم نفسه مع أن نفسه هي التي ظلمته ، لكنه حيث يفعل الأسباب التي تقوده بها وتهيئها له .
ومرة قال : لا تأمن نفسك في الأمور التي بينك و بين الخلق حتى تتحقق صدقها في الأمور التي بينك وبين اللَّه ، فإنها إذا لم تصلح وتصدق فيما بينها وبين اللَّه ، فلا شك في عدم صدقها فيما بينها وبين الناس .
وقال رضي اللَّه عنه في وصف الرجل من أهل هذا الزمان : إنه لا صدق فيه ولا تقوى ، فلا يصدِّق بوجود أحد فيه صدق وتقوى لعدم ذلك فيه ، وإقدامهم على

الحرام يضاهي إعراض الأولين عن الحلال ، لأن الأولين أعرضوا عن الحلال احتياطاً للسلامة ولا بالوا ، وهؤلاء وقعوا بالقصد في الحرام ولا بالوا ، ومثلهم كالهِرار في بعض الأماكن إذا شمت ريح اللحم هاجت ولم تمتسك ما لم تأكل منه ، حتى يدهنوا فمها بقليل من السمن، فتسكن عند ذلك قليلاً.
وقال رضي اللَّه عنه: الإفراط في محبة الدنيا يغير العقل والدين ، لأن طبعها الإسكار.

(1/220)

وقال رضي اللَّه عنه : لو مَكَّنَنَا الناس من أموالهم ، أخرجنا منها ثلثها برضاهم ، لأنه لا يمكن دفع ما هم فيه عنهم من الشدائد والمصائب إلا بذلك ، لأنها لم تحصل عليهم إلا بسبب الأموال ، يتحاسدون عليها ويتنافسون فيها ، ونضعها في أرحامهم وأقاربهم ، إذ الإنسان منهم يبات قريبه جائعاً وهو يقدر أن يشبعه فلا يفعل ، وإذا تأملت أفعال الفقراء ، رأيتها أحسن من أفعالهم ، وقد كان أهل الجاهلية إذا وقعوا في شدة ، جمعوا أموالاً ، وقالوا دعونا نرضي ربنا ، فإنه سَخِط علينا ، حيث أوقع بنا ما وقع ، ثم يفرقونها على المحتاجين منهم والأقربين ، هذا وهم كفار ، وأما هؤلاء أهل الزمان ، إذا وقعوا في شيء تكالبوا على الدنيا وبخلوا ، وجعلوا يقبحون الأولياء والصالحين ، الأحياء منهم إن كان أحد ، والأموات ، وقالوا أصابنا ذلك فلم يحمونا منه .
وقال رضي اللَّه عنه : سبحان اللَّه العظيم ، في صلة الأرحام خاصية في نما الأعداد ، وفي نما الأموال ، ولو كان ذلك من كافر .
وقال نفع اللَّه به : هذا آخر الزمان ، والناس في دهليز القيامة ، إلا أنه سبحانه ، تفرد بعلمها ، والناس اليوم في علاماتها .
وقال رضي اللَّه عنه : مِن الناس مَن أعطاه اللَّه كمال الروح ، وهو الذي عليه العمل ، ومنهم من أعطاه اللَّه كمال الجسم فقط ، وهذا ناقص ، ومنهم من جمع اللَّه له كمال الروح والجسم ، وهو النهاية والغاية . وذلك لأن اللَّه أراد أن يعمر بهم مراتب

الوجود ، وكثّر أهل الأجسام لعمارة الدنيا بهم ، ولا يتم الكمالان إلا لمن أهله اللَّه للإرشاد ، وجعله داعياً إليه ولذلك لا يحصل إلا للآحاد من الناس .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل الحق لا يزالون يتوارثون ، أو قال يتواترون ويستترون ، إلى أن يخرج المهدي ، ولهم سير باطن إلى اللَّه ، حتى منهم من يُرى كصفة المجانين وغيرهم بخلاف الجهال والعامة( ) .
ما قال في الأمانة

(1/221)

وقال رضي اللَّه عنه : من الخيانة في الأمانة ، أن يحدث بها وصاحبها لا يرضى بذلك ، ومازالت خيانة خفية فهو منافق ، فإذا ظهرت كان فاجراً ، فالخفاء نفاق ، والظهور فجور ، وعند عدم العدالة والأمانة تسقط الثقة به، وبكذبه تسقط الثقة بقوله.
وقال رضي اللَّه عنه : كثير من المنكرات العادية ، والمنكرات الدينية ، لو قدرنا على إزالته لأزلناه ، وما بقي من السُّنَّة مع ما حصل من الحوادث إلا كقدر الملح في الطعام .
وقال رضي اللَّه عنه : ذكر الإمام الغزالي : إن العلم الذي هو نتيجة العمل ، وميراث التقوى أفضل من هذا العلم ، لأن ذاك هو الأصل ، وهذا وسيلة للعمل الذي ينتجه ، والعالم بهذا العلم ربما جرَّى العامة على ارتكاب النهي، إذا رأوه يعمل على خلاف علمه.
وقال رضي اللَّه عنه : ذكر الإمام الغزالي رحمه اللَّه : أنه لا فضل للعلوم العملية على العمل ، إلا من حيث التعدي ، فإن لم يتعد ، فالعمل أفضل منها ، وإنما يكون الفضل لمجرد العلم فقط ، إنما هو في العلم باللَّه ، الذي يفيده العمل الصالح ، أي الذي يحصل بسببه .
وقال رضي اللَّه عنه : أصلح الصالحين ، من لا يرى أنه من الصالحين( ) .
وذكر رضي اللَّه عنه أهل الغفلة ، فقال : من كان منهمكاً في محبة الدنيا ، إذا وضع في قبره ، ومكث نحو ساعتين تَنَبَّه ، وقال : هل أنا مت؟، من شدة غفلته .
وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ) : ((الرجل يطيل

السفر أشعث أغبر يمد يديه)) ، الخ : إن هذه المذكورة في الحديث كلها مما يقتضي إجابة الدعاء ، إذ ورد : ((أن دعاء المسافر مستجاب)) ، و : ((كم من أشعث أغبر ذي طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على اللَّه لأبر قسمه)) ، ولكن مع أكل الحرام لم تنفعه تلك الأشياء في حصول الإجابة ، وإذا لم يُستجب دعاؤه لذلك فكذلك صلاته .

وقال له رضي اللَّه عنه رجل من السادة : ادعوا لنا ، فقال نفع اللَّه به : أنتم ادعوا لنا فإنكم عادكم خفاف ، وأما صاحب القافلة المحملة والسفينة المشحونة ، فإنما يسأل الدعاء من غيره ، وقد كان المشايخ المتقدمون ، إذا بدت لأحدهم حاجة ، سأل الدعاء فيها أحداً من المريدين .

وذكر رضي اللَّه عنه : صحيح البخاري ، فقال : إنه لم يعرف إلا من غيره ، فإن بعض العلوم يعرف من نفسه ، وبعضها إنما يعرف بمعرفة غيره ، كالإحياء حيث قال مصنفه ، إنما وضعته لسماسرة العلماء ، من السمسرة ، التي تجمع الأمتعة ، وسمي الدلال سمساراً لما يجتمع عنده من الأمتعة .

المرأة لا تكون بدلاً

وقال رضي اللَّه عنه : الصالحات من النساء تكون في مرتبة الأبدال ولا تكون بدلاً ، وقال مرة : لا تكون المرأة قطباً ولا بدلاً ، وإنما امتنعت سلطانة الزبيدية من الزواج بعدما خطبها أناس من السادة ، لأن الصالحين مايحبون أن يدخلون( ) في حكم المَلَكة والقهر، لأن في التزوج حقوقٌ( ) كثيرة تصيرها كالمملوكة، فلعل هذا هو المانع لها من ذلك.

ما قال في القرآن

وتكلم رضي اللَّه عنه يوماً في الفهم في الكتاب العزيز ، فقال : إنه غبن فاحش أن يموت الإنسان وما عرف شيئاً من أسراره وعجائبه ، وهذه الأشياء إنما تحصل لأقوام قد أعطاهم اللَّه في أصل الفطرة قريحة وقَّادة ، وعقلاً صافياً ، ثم إنهم أزالوا كدورات العقل باختيارهم( ).

وقال رضي اللَّه عنه : إن اتسع لك النظر بنفسك فانظر أنت ، وكل أمر يشكل عليك فهو في القرآن ، وإذا لم يظهر لك شيء ، فابِق على الطريق المسلوكة لمن قبلك ، ولا تَتَّبع الطرق فتضل ، وهي السبل التي قال اللَّه :{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ }( ) الآية ، فكل طريق ماتعرفها لا تجئها ، إلا إذا تغلقت عليك الطرق ، فإذا كان كذلك بقي في الحيرة ، ومثل ذلك يظهر للإنسان في القبور ، فإذا قيل له : كيف ماعلمت أحكام الصلاة ونحوها ، قال ما أحد علمني ، فيقال له كيف والقرآن عندك ، وقد فصّل النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم الدين ، ولكن وسَّعه العلماء بتطويل الكلام فيه ، والإنسان مُتَّجرٌ لنفسه ، وكل الأمور مشروحات في القرآن ، ولكنه يحتاج إلى البيان .
وقال رضي اللَّه عنه وذكر العمل بالعلم : إن لم يمكنك تعمل به فتفعل الطاعات ، وتترك المنهيات ، فافعل من الطاعات ما تيسر مع العزم على فعل الباقي ، واترك العمل ببعض المعاصي مع العزم على ترك الباقي ، فانو ذلك فقد يحصل بالنية ما لا يحصل بالأعمال ، حتى يقل تحسره في الآخرة إذا رأى درجات العاملين ، إذ لو ترك جميع ذلك لطالت حسرته . ومعلوم أن من ترك العمل وجلس عاطلاً باطلاً طال في الآخرة حزنه ، ولا يكون فيه خير ولا بركة ، ولو أنكر على أحد في صلاة أو زكاة أو غير ذلك ، وهو متلبس بما أنكره ، فماذا ينفعه علمه ، فتكثر حسرته ، سيما إن انتفع بعلمه غيره ، فهذه قاعدة : إن كل ما جاء به الشرع ، إذا لم يعمل به كله تكثر حسرته ، أو بعضه فأقل من ذلك ، ويجري مثله في أمور الدنيا ، فلو رأى من معه مال كثير فاستثقل أن يتسبب ، مثل ما تسبب ، أو كان معه مال فضيعه أو أعطاه من لا يحمده ، فإنه يرجع يسأل أو يتعطل بلا شيء ، فيتأسف على ما صنع ، فما المراد أنه لا يُدْبِر بالكلية ، فإن الزمان زمان سوء ، وهذا( ) وصف المدبرين ، ولكن يكون مرة كذا ومرة كذا .

وقال رضي اللَّه عنه : إنما الدينُ بعد كتاب اللَّه الحديثُ ، إلا إنه قَلَّ من يحفظه اليوم إلا في جهات بعيدة ، وأحد يطلبه لذلك الأمر .
ثم ذكر قول عمر رضي اللّه عنه ، حيث تمنى أنه سأل النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم عن ثلاثة أشياء منها أبواب الربا والكلالة ، فقال نفع اللّه به : نعم ، لأن الميراث يصل إلى أقوام مع وجود أقرب منهم ، كما يرث ابن الابن مع وجود العمة ، وليس لها من الميراث شيء ، والأمور الإلهية ما هي على قياس عقول الناس ، ولهذا أوقعت أناساً قياساتُ عقولهم ، حتى وقعوا في الربا باستحسانهم بيع القهاول( ) من الطعام بقهاولين .
وقال رضي اللّه عنه لرجل : عادك في زمن التحصيل ، وللإنسان مرتبتان ، إحداهما أعلا من الأولى ، إذا وصلها كان يُنتفع به ، ومادام في الأولى ، فهو طالب الانتفاع ، ويمكنه أن يطلب ذلك في كل واحدة منهما.
... وأمر رضي اللَّه عنه بعض الزائرين بالتحول من مكان إلى مكان آخر ثم قال : كانوا يكونون في الدار الواحدة خمس محالٍّ وأكثر ، وكانت عيونهم مغضوضة عن النظر، وآذانهم ممنوعة من الاستماع ، حتى إن الرجل لا يعرف زوجة أخيه وعمه ، فأعضاؤهم ملجمة عن المعاصي ، وأما هؤلاء فيطلقون جوارحهم في المعاصي ، ثم يجحدون المعاصي ، ويجحدون الشهوات ، تجعلهم( ) من كبار الصالحين .
... وقال رضي اللّه عنه : الشر كالنار ، أو كالبحر يجر بعضه بعضاً ، فمن لم يتورع عن النظر مثلاً ، فلا يملك قلبَه وفرجَه ، وإن قال إنه يملكهما ولم يملك عينه يكذب ، فمن عجز عن القليل يعجز عن الكثير لا محالة ومن لم يتورع عن الدرهم الواحد، فلا يتورع عن العشرة فأكثر.

و ... ذكر رضي اللَّه عنه يوماً أهل الدنيا فقال : في هذا الزمان قد ذهبت الدنيا عن أيدي الأخيار وصارت في أيدي الفجار ، أو قال الأشرار ، والفقراء كالمتاع

في البيت ، هو الذي يحتاج أن يحفظ ، والأغنياء كالحجارة ، ولو أقبل الناس كلهم على الدنيا ، ما استاهلوا أن يحفظوا ، وإنما يحفظ اللّه خلقه بفقراء وصغار وشيبان ، قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((إنما ترحمون بضعفائكم ، وأبغوني فيكم الضعفاء))( )، وفي أحد الوجهين في قوله تعالى : { وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ }( ) الآية ، ولولا الضعفاء رحم اللّه بهم الكافة لأصابهم العذاب .

ما قال في الحِظابة

... وكلمه رضي اللَّه عنه إنسان حظَّا( )، فقال له : أتعلِّم الناس الحظيّة ، وتحسِّنون الدنيا ، والذي يحسِّن الدنيا أسفل وأخس عند اللّه من الذين يعمرون الدنيا ، لأن العمران لها قد تدعو إليه الحاجة كالخياطة ، وإذا قد ورد ذمُّ عمران الدنيا فكيف بتحسينها .

... وقال رضي اللَّه عنه : يقال إذا أردت أن تعرف حال أحد ، فاسأل عنه أهل بيته وأهل خاصته ، لأنه ما يستحيي منهم ، ويعاملهم بما يفعله في خلوته ، والولي ما يكون مستوراً إلا عند العامة والمحجوبين ، وإلا فهو ظاهر عند أمثاله ، وعند نفسه ، والولي ما همه ومطلوبه إلا الخفا ، وإن أحب الظهور سُلِبَ ، ولا تتتبع إلا إن رجوت خيراً ، ودع الناس تحت ستر اللّه ، والأولياء لا يحبون الاجتماع عليهم ، ومن أحب ذلك فعنده شبهة رياء ، حتى إن من أحب كثرة الجمع في جنازته ، فهو مُرائي طالب شهرته بعد الموت .

... وقال رضي اللَّه عنه : لا تعُدَّ شيئاً من يعدُّ نفسه شيئاً ، وإنما الشيء من لا يَعُدُّ نفسه شيئاً ، ومن قال : أنا أهل وإن كان كذلك ، قيل له : لست بأهل ، ومن قال : لست أهلاً وهو كما قال ، قيل له : أنت أهل ، والطرايق الباطنة غير الطرايق الظاهرة ، هذه شيء وهذه شيء آخر ، كالذي قال : إن الشيخ عبدالقادر ما رأيت له في الملكوت شيئاً من الأمور ، ورُوْحوا قولوا له ، فكوشف به الشيخ ، فقال له : أنت تدخل من الدركات السفلى ، وأنا في الدرجات العليا ، فلم

ترني ، وإنك ما وقع لك الأمر الفلاني إلا بشفاعتي ، فصدقه حينئذ ، وهذه أمور ينكرها الظاهر ، ولا هي منكرة .

... وقال رضي اللَّه عنه : قِلَّة العناية بالشيء أمره مشكل جداً ، ولا يحصّله ، وإن كان متأهلاً له ، وإنما يدركه بالعناية ، إنْ ما أدركه في الزمن القليل ، أدركه في الزمن الطويل .

... وقال رضي اللَّه عنه : لولا فتنة تكون قبل خروج المهدي ، لأحببنا أن ندركه ، ولكنا نكره حضور الفتن .

... ومرة قال : المتردد في الفتنة ، كالذي يتردد ماشياً في الرمضاء ، وسط النهار .

... وذكر رضي اللَّه عنه رجلاً كان بينه وبين آخَرَ شيءٌ ، فقال : إنه سليم يصدّق بكل ما سمع ، والأحسن للإنسان اليوم الاحتياط ، خصوصاً في هذا الزمان ، فلا يُصَدِّق من يمدح ، ولا من يَذم ، فإنهم مفتونون ، يصلحون الفاسد ، ويفسدون الصالح( ) .

... وقال رضي اللَّه عنه : لا يقال في النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : إنه انتقل من حالة نقص إلى كمال ، بل هو في الكمال في جميع أحواله ، ومسيره كله في الكمال ، حتى إنه عند ولادته ولد رافعاً بصرَه إلى السماء ، وحتى مات في الكمال .

ما قال في الأمراء

... وذكر رضي اللَّه عنه الأمراء وأحوالهم ، فقال : معاد يقوم الأمر إلا بالسيف ، ولا السيف إلا بالعُدد والمعاونين ، ولكن الحمد للّه جعل اللّه في الأمر سعة ، فتُدْرَأ الحدود بالشبهات ، وإلا لو كان الحكم أن من عمل ما يوجب الحدَّ ، فإذا علمت بفعله ذلك ، اسع في تحصيله وهاته كائناً ما كان ، وإلا فأنت مثله( ) . ولا عاد تفتش ، فكان إذا فتشت لحقت جواهر ، واليوم إذا فتشت لحقت بعراً ، وهؤلاء البدو الذين يقتلون بالقتيل رجلاً من قبيلة القاتل ، فما هم في طيب عيش ولا حياة ، ولو قتلوه بنفسه حصل الأمان ، ووافق الحق .

ما قال في عدم قبول الملوك والأغنياء الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر بخلاف الفقراء
... وقال نفع اللَّه به : اسمع ، لا عاد في أهل الملك ولا في أهل المال بركة ، إلا إن كان قليل ، فلا يُستثنى إلا فيهم ، وأما الفقراء والمساكين فلو قلت لأحدهم تعال صَلِّ وأعَشِّيك ، جاك ولا خالف ، إن لم يج للصلاة جاء للعَشَا .
... وقال رضي اللَّه عنه : العلم مشتمل على أصول وفروع ، فالفروع ترجع إلى الأصول ، ولا عكس ، وأنت اعمل على ساقيتك واترك العمل على دَجلة ، فإنك لا تصل في ذلك ، وإذا عملت على ساقيتك تيسَّر لك ، وإذا كان معها عشرون ساقية ، فلا تصل فيها كلها ، لأن فيها الكَدِرة والمالحة ، ولكن العمدة على الورع بالوسط من غير إفراط ولا تفريط ، إذ لا تحصّل مع أحدهما ، والأمور تشعبت وتوسعت ، فأين من وقتك إلى عهد رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم فلا يمكنك أن تطلع إلى طالع الغيلة من هابط( ) مرة واحدة ، حتى تقرقع مرتين ثلاثاً، ثم يفتحوا لك ، ثم تدخل الضيقة وتجلس ، ثم تطلع شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الغيلة .
... وقال رضي اللَّه عنه : ومن العلم العمل والاتصاف ، والاتصاف أشرف من العمل ، فإذا كنت مثلاً تعلم أحكام الصبر وتفاصيله ، ثم إنك إذا وقعت بك مصيبة قامت عليك القيامة وجزعت فما نفعك ذلك ، وكأنك لم تعلم .

... وقال رضي اللَّه عنه لرجل يوصيه : لا تُقْدم على أمر حتى تتفكر فيه ، وآت الأمر الذي تطلبه من وجهه الذي يُطلب منه ، فإن من دخل داره أو داراً فيها متاعه من غير بابه أنكر عليه في ذلك ، لا لكونه دخل داره أو أخذ متاعه ، بل لكونه دخل من غير الباب ، وقد تكون أمور مرتبة يقدم بعضها على بعض .
... وقال رضي اللَّه عنه : ما عاد للناس هوى في الطاعة ، ولو أنك علَّمت أحداً مقصراً في صلاته ، أو قراءته ، أو شيء من دينه ، ترك المكان الذي أنت فيه ، وإن علَّمته في مسجد ترك ذلك المسجد ، فما

عاد معك إلا تقيس فعله ذلك بتركه ، أيهما أحسن وأولى ، فتطلب ذلك وتراعيه منه ، ولم يزل الناس يتناقصون ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ولو بقوا على حال واحدة ، لما قامت الساعة .
... وقال رضي اللَّه عنه : أمر الخير لا تخليه يضجر بك ، خذ منه ما استطعت ، فإن النفس تمل حتى في أمور الدنيا إذا أكثرت منها فكيف بأمور الدين ، ومن كلام سيدنا علي : إن القلوب إذا أُكْرِهَتْ عميت ، وعماها عدم رغبتها في الخير .
... وقال نفع اللَّه به : الزهد في الدنيا والخلقِ عنوانُ الولاية .
... وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي أن يُتوسط بين الخوف والرجا ، لأنه إذا اشتد خوفه انقطع ، ألا ترى لما ذكر النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم بعث النار كيف جزع الصحابة ، حتى ذكر لهم ياجوج وماجوج ، ومن قد دعاه اللَّه إلى الدين فهو على خير ، إذ لو لم يُرد له ذلك ، لما دعاه إليه ، ولكن لا يغتر ولا ينهمك في شهوات الدنيا ، فإن أقل الحال يشتد عليه الموت بسبب ذلك .
ما قال في كلام ابن الفارض وابن عربي

(1/229)

... وسئل رضي اللَّه عنه عن كلام ابن الفارض ، هل كان السادة متعلقين به ، فقال : نعم لأنه نظم ، والنظم سهل ولا عسر فيه ، وأين الحقائق الإلهية من يقين الموقنين ، فضلاً عن وهم الموهمين ، وهذه الأشياء المشكلة تُنَزَّل على الروح والنفس الزكية ، أو ما أراده القائل ، وكم حد المخلوق ، ولا بُعد فيها، فإن الإنسان قد يذهل في أمور الدنيا فيشطح ، فكيف بأمور الآخرة ، وأكثر ما يطلقون في تغزلهم على الروح المحمدية أو المقامات العلية ، لأنه عليه السلام مخلوق ، والخطر في المخلوق سهل ، وإن عظمت منزلته عليه السلام ، مع الغاية في تعظيمه واحترامه ، ومن اعترض عليهم فإنما الشيطان لقي له مجالاً في قلوبهم ، فلبَّس عليهم( )، وألقى عليهم ما هو سبب في الاعتراض ، كما ألقى في قلوب الكفار لما رأى منهم آذاناً

مفتوحة لقوله ، حين تلا النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم سورة النجم ، فتمثل لهم بذلك القول ، حتى سمعوا من قراءته عليه السلام ، بلا شعور من النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم لذلك ولا علم فاعترض لهم ما بين لسانه عليه السلام ، وآذانهم ، وقلوبُهم التي أذعنوا بها لعبادة الأصنام أضلُّ من قلوبهم التي كذبوا بها الأنبياء ، وكلام ابن الفارض أسلم خطراً من كلام ابن عربي ، لأن هذا نظم فيه تسامح وسلاسة تغطي ما فيه ، وذاك أكثره نثر وكلامٌ غير منظوم ، والنظم فيه نادر بالنسبة إلى النثر .

(1/230)

... وذكر رضي اللَّه عنه ابن عربي فقال : شرط العارف ، أن يمضغ بكل أضراسه ورحاه وشقيه ، كابن عربي يتكلم في الحقائق مع مبالغته في تعظيم الشريعة ، ومعرفتِه في كل علم ، فإن من كان مثلاً يعرف الحِرَف كلها، فهو حيك( ) وصبَّان( ) وحرَّاث وغير ذلك ، جامعاً للجميع ، فيجيئه واحد ، ما معه منهن إلا واحدة ، فينكر عليه فكيف ينكر على من هو أعرف منه في فنه فضلاً عن غيره ومن أين يعلم المنكِر أنه في ذلك غير مغلوب ، ألا حملوا قوله على قول القائل ، حيث قال لما وجد الراحلة : اللَّهم أنت الخ ، حيث أخطأ من شدة الفرح ، كما في الحديث( ) ، وهذا أيضاً في القول إن صح عنه ، وإلا ففي باطن الإنسان خواطر هي كفر صريح ، والرجل مستقيم في فعله غير مستقيم في قوله ، لأنه إذا سيَّب سُيِّب كالمدفع .
ذموه بالحق وبالباطلِ ... ومن دعا الناس إلى ذمه
... وعقيدته وفعله على غاية الاستقامة دون كلامه ، وكلامه أقرب إلى السلامة من كلام ابن الفارض ، لأنه ما يذكر حقيقة إلا ويذكر لها عشر كلمات في الاستقامة ، والحاصل : أن الضعيف لا ينبغي له أن يتعرض للبحور لئلا يغرق فيها .
... وأمرني سيدي رضي اللَّه عنه بقراءة "رسالة القدس في مناصحة النفس"( ) عليه نفع اللَّه به لابن عربي ، فلما أتممتها قال لي : لا تَعُد تُمِرُّ نظرك فيها ، لأن كلامه مظنة الفتنة ، وإن كان في نفسه في

غاية الاستقامة .
... وقد سئل بعضهم عن من ينكر على ابن عربي ، فقال : هو جدير بالإنكار عليه لكن ممن هو فوقه ، لا ممن هو في السناديس ، ولكن النفس تميل إلى كلامه ، وتنفر من الكلام الذي فيه دواؤها ، وبه يحصل لها شفاؤها ، وهو كلام الإمام الغزالي ، لأن من طبع النفس أنها تنفر عما ينفعها، وتميل إلى ما يضرها ، كما تنفر من قول الطبيب الحاذق الناصح إذا وصف لها الدواء.

(1/231)

... أقول : هذا مع ما كان نفع اللَّه به يمدح هذه الرسالة ، ويأمر بمطالعتها ، ويقول : ما في كتبه أوضح منها ، ولا أسلم من الشبه ، ولا أبين للصواب مثلها ، ومع ذلك قال فيها ما قال شفقة منه رضي اللّه عنه .
ما قال في تنزيل الغَزَل
وقال رضي اللّه عنه : لا تتعد في تنزيل ما تسمعه من الغزل نفسك ، بل تنزله على روحك أو على الكعبة ، لأنه لا خطر في ذلك ، ولا تتجاوزه إلى النبوة ، فضلاً عن الملائكة ، فضلاً عن الأمور الإلهية ، فإن حد ما ينتهي إليه علم الملائكة سدرة المنتهى ، فيجدون أمر اللّه عندها، ولا يتجاوزونها . وقد ورد : إن على جوانب العرش مِأتَيْ شمس ، أو قال : مِأتيْ قمر، ينطمس في كل واحد منها نور الشمس والقمر، لا يستطيع أكابر الملائكة كجبريل ، أن ينظر إليه ، وهو صورة العرش ، فما ظنك بغير ذلك ، وهذه الملائكة فكيف بالآدمي مع ضعفه .
وقد قالت سيدتنا عائشة رضي اللّه عنها للنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : كيف رأيت ربك ليلة المعراج يارسول اللّه فقال : نورٌ أنّى أُراه( ).
وذكر رضي اللّه عنه أناساً صحبوه أول العمر، وقرأوا عليه ، منهم من قرأ الإحيا، ومنهم غيرَه ، ثم تنفس الصُّعَداء وقال سبحان اللّه ، ما أطول الدنيا وما أقصرها .
وقال نفع اللَّه به : ما عمدة الإنسان إلا اليقين والصبر ، فإذا حصلا له تحمل من الشدائد ما لا يتوهم

أنه يحمله .
وقال رضي اللَّه عنه : أمر الباطن إنما هو في لحظة .
ما قال في علماء الزمان

(1/232)

وتكلم رضي اللَّه عنه في علماء الزمان ، فقال : علماء الزمان ضحضاح ، وضحضاح من نار أيضاً، وعلماء الزمان كحُجاج الزمان ، إذ يحجون للصلاح للأجرة ، فربما حجته للإسلام على هذه النية لا تصح ، ولم يتعلم العلماءُ العلمَ إلا للدنيا . قال بعضهم في علماء السوء : يوم يذمون الدنيا ويُرَغِّبون في تركها، ويَرْغبون فيها، كأنهم يقولون للناس ، اتركوا الدنيا لنا، نأخذها نحن وحدنا، ومن تعلم علماً لا يحتاج إليه ولا ينتفع به هو ولا غيره ، فكأن العلم مات في صدره ، فينبغي أن ينظر من أول أمره العلمَ الذي ينتفع به ، وينتفع به غيره ، فيحصّله ، ويَدَع ما سواه ، ولا أقل في العلم الظاهر من العمل به ، وما مرادنا ممن يقرأ علينا إلا الاستعمال ، والانتفاع ، والدعاء ، ونحن ندعو لهم بالاستعمال والانتفاع ، فإن من توضأ غير مرتب ما انتفع بالعلم ، وإن عرف ذلك .
أخذ العلم من المتأهل
وقال رضي اللَّه عنه : يحتاج أن لا يأخذ الإنسان العلم إلا من المتأهل للتعليم ، ومن أخذ من غير متأهل ، له أن يعمل به في نفسه ، ولا يعلمه الناس ، لأنه يحتاج في تعليمه إلى قواعد، ولا يمكن إيرادها إلا بالتأهل ، ولا يتأهل له من لم يكن شيخه متأهلاً ، وإن تأهل لبعض العلم دون بعضٍ عَلّمه( ).
ولما مر وقت الدرس في قراءة الإحياء ذِكْرُ أركان المجاهدة والرياضة الأربعة التي بها صار الأبدال أبدالاً، قال نفع اللّه به عند ذلك : إن الصوفية أمعنوا فيها، وأخذوا بالحظ الأوفر منها، بحيث لا يكاد من يسمع ما نُقِل عنهم فيه أن يصدق به ، ومن دخل طريقتهم فليأخذ منها بحظ على قدره ، بحسب قوته واستطاعته ، فمن مقل من ذلك ومن مكثر، وإلا

فليكن إلى وصفهم أقرب من غيره .
انظر طلبه أيام بدايته

وقال رضي اللَّه عنه : قد أدركنا في جهة حضرموت من أهل الفضل الأخيار، أناساً كثيراً أدركناهم ، وتبركنا بهم وزرناهم ، من أشراف وغيرهم ، وأدركنا منهم في كل قرية من قرى حضرموت جماعة ، كشبام والغرفة وسيؤون ، حتى المسفلة وعينات واللِّسك والواسطة ، وكنا نتردد لزيارة أهل الفضل ، الأحياء والأموات ، وكان يتبعنا ناس كثير ، فإذا جئنا إلى بلدة طلبونا أي للضيافة ومن لَحِقَنَا، فيلزم من هذا التثقيلُ على الناس ، حتى وصلنا مرة إلى الهجرين ، ومعنا نحو ستين رجلاً ، لكنَّا بعدُ قلنا : إن كان أُذِن لنا في التردد للزيارة ، مثل الشيخ عمر العطاس ، لأنه كان كثير التردد لها، تخلينا من جميع من يلحقنا، وبقيت أنا وواحد الذي يمسك الدابة فقط ، لأجل التخفيف ، ولو تركونا ولم يتعرض لنا أحد بالدعوة( ) لما فعلت ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : ارفع رأسك إلى ربك ، وعامله ولا تقصر إذا قصر عنك الخلق ، فتكون إنما أنت معامل لهم ، واصفح عن تقصيرهم ، وإن كان يجوز لك مقابلتهم بذلك ، فقد سماه تعالى سيئة بقوله : { وَجَزاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : قَوِّ همتك وارفعها، واجعلها للَّه تعالى ، وأخلص نيتك ، وأصلح عملك ، واقصر نيتك على أمرين ، لا تتعداهما : الأول أن تكون جميع أفعالك وحركاتك وسكناتك وأحوالك ظاهراً وباطناً للَّه تعالى ، أو فيما هو وسيلة إلى ذلك ، والثاني : اجعل ميزانك في الآخرة ، يرجح بما هو للَّه تعالى على ما هو لنفسك ، لتكون ممن ثقلت موازينه ، فأولئك هم المفلحون ، ومن ثقلت أمور نفسه على ما هو للَّه ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم .
ما قال في طبع النفس

والنفس طبعها طبع الماء ، إذا سيبت إنما تسير إلى أسفل ، لا إلى أعلى ، لكن يمضي عمر الواحد، ما قهر نفسه للّه ، ولا قام بحقه كما ينبغي منهم ، بل تَرَكوا حقّه وراحوا إلى أمور لا فائدة فيها، لأن الشيطان قعد لهم على الصراط المستقيم ، فلا يصلون إلى اللّه إلا منه ، ولكن منعهم منه الشيطان ، فإذا كان لا يدخل الجنة داخلها، ولا يدخل النار داخلها ، إلا بالصكاك لهم في ذلك ، أفيحسبون الأمور سائبة؟، ومعرفة اللّه خصوصٌ لخصوص . والشيطان لما لعب بنفسه ، وعلم أنه ليس له توبة ، رجع يلعب ببني آدم حتى إنه لم يسأل اللّه إلا أن يُنْظِرَه لذلك يلعبُ بهم ، حتى يحرمهم الخير ، ويُلقيَهم في الشر، فلما لعب بأبيهم آدم حتى أخرجه من الجنة جعل يلعبُ كذلك ببنيه ، وإبليس يتنقل في سخط اللّه ، فيخرج من سخط إلى سخط ، من كبر إلى حسد ، إلى غير ذلك ، حتى إنه سأل من اللّه الإنظار ، ليعمل في ذلك ، فأجابه اللّه لذلك زيادة في نكاله ، واستكثاراً من غضبه ، فإنه قد آيسه من رحمته ، فلا مطمع له فيها، فلما علم أنه كذلك جدّ فيما يقربه إلى غضب اللّه ، ويدعو من اتبعه إلى ذلك ، وأما آدم فإنه لا يزال يتنقل من رضى إلى رضى ، من بكاء على خطيئته ، ثم إلى إخبات ثم إلى تواضع .

وقال رضي اللّه عنه : غلبت الغفلة على أهل الزمان ، حتى عمت في أمر دينهم ودنياهم وصلواتهم ، وسائر أفعالهم ، مع أنهم يسمعون الكتب ، ويقرأونها، لكن إذا فتح أحدهم كتاباً كحِجَاب ، يريد أن يرفعه .

ما قال في حديث النفس في رمضان والسجود

وذكر رضي اللّه عنه معنى حديث( ): ((إن مردة الشياطين ، تُغَلُّ في شهر رمضان))، فقال : ولكن هذه الخواطر التي تَعرِض ، قد كانت معجونة في الإنسان من الشيطان قبل دخول رمضان ، وذكر ابن عربي : إنها من النفس ، وذكر : إن خواطر السجود في كل وقت من النفس وإن الشيطان إذا سجد ابن آدم يشتغل بنفسه ويعتزل يبكي .

ما قال في سهر كل الليل في رمضان

وقال رضي اللَّه عنه : سهر كل الليل في رمضان بدعة لم يفعله السلف الصالح.

ودعاني رضي اللَّه عنه يوماً في رمضان بعد صلاة الظهر ، لكتابة ورقة ، وكنت نائماً فقمت وتوضأت وأتيته وصافحته ، فقال : توضأتَ؟ قلت : نعم ، قال : نمتَ بعد الظهر؟، قلت : نعم ، قال : ونمتَ أيضاً قبل صلاة الظهر؟، قلت : نعم ، فقال : إن اللَّه يمقت على نومتين في اليوم ، إلا إن كان من شدة سهر ، ولم يحصل له قرار نوم في الأولى من تشويش .

وكان الأمر كذلك .

وقال رضي اللَّه عنه : لا يطالب العبد في العبادات بإقامتها في الباطن ، حتى يقيم الصورة الظاهرة ، فإذا أقامها وأحسنها فخض معه في الباطن ، ولا يمكن إقامتها باطناً إلا بمقدمات ، ورياضات ، وترك الخوض في شيء( ) قبل فعلها ، ولولا فضل الجماعة ما صلينا صلاتنا هذه( ) ، لَكُنَّا نصلي في الخلوة( ).

وكان رضي اللَّه عنه يبالغ جداً في النهي عن الكلام حال انتظار الصلاة ، وينكر أشد الإنكار على من يفعله ، حتى إني سلمت عليه يوماً وهو خارج للصلاة ، من رجل أوصاني له بالسلام ، فنهاني عن ذلك بعد الصلاة ، فقال : لاَ قَطُّ تسلم علي من أحد حال خروجي للصلاة ، فإنا نخرج للصلاة باجتماع وحضور ، وقطع الهم عما سواها .

مسئلة فقهية

وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي أن يقرأ المأموم الفاتحة بعد ما يؤمن على قراءة الإمام الفاتحةَ في الحال من غير تخلف ، فإن أتى بها تامة في سكتة الإمام فهو الأحسن ، وإن بقي منها قليل ، يتمها بعد ما يشرع( ) في السورة ، ثم يستمع قراءة الإمام ، ولا يمطِّطها حتى يبطئ ولا يمكنه سماع قراءته السورة ، فمن فعل ذلك فهو عاميٌّ مخالف ، وقد كنا أردنا أن نفعل نبذة في الصلاة للمصلين ، لكن رأيناهم معرضين عن الصلاة فتركنا( ) .

أقول : وكثيراً ما ينهى نفع اللَّه به ، عن الجهر بالقراءة خلف الإمام ، ويذم من يفعله ، وعن الجهر البالغ في تكبيرة الإحرام ، وعن التطويل والبطء بالنية ، سيما عندما يدرك الإمام راكعاً، وعن الكلام وقت الجلوس للحِزْبِ( )، أو بين الأذانين ، لانتظار الجماعة ، وعن التلهي حال الحزب بذكر أو غيره ، حتى لا يشعر بالغلط ليرده ، ويقول إنه لا يمكنه الاجتماع في واحد منهما، لا ذِكْره ، ولا الحزب ، فاشتغاله إذ ذاك ضائع .

ما كان يقرأ في السكتة

وأسمعه رضي اللَّه عنه دائماً يقرأ في السكتة بين الفاتحة والسورة ، في الصلاة الجهرية ، في الركعة الأولى :{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ } إلى : {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}( )، وفي الثانية :{رَبِّ أَوْزِعْنِي} إلى : { وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِين}( ) ، كما سيأتي في الخاتمة من ذكر السور والآيات التي كان يواظب عليها في الصلوات .

ما قال في المواساة

وقال رضي اللَّه عنه : لبعض السادة( ) وكان صاحب ثروة : لا تشذ واتبع طريقة أهلك ، فمن شذّ عمّا هم عليه شذ إلى النار، وتريم كانت مؤسسة على السنة ، وإنما تغيرت الأمور بسبب الحوادث القريبة ، فلا تشك في ذلك ، وسر على الطريقة ، ودع السبل وهي تتبع الرخص ، وما يسهل ، أهو يصح أن يأكل اللحم ثلاث ليال وصاحبه أو جاره لم يذقه ، سيروا مثل سيرة عبداللَّه( ) باعلوي ، هذا هو العيش ، لا غير ذلك ، وكان يلتمس( ) بطون المساكين ، يتحسس إن كان بهم جوع فيواسيهم ، وكان جيرانه من شدة حيائهم منه ، لكثرة عطائه لهم ، يوقدون التنور وهم طاوين ، يوهمونه أن عندهم عشاء ، وكان إذا علم بهم كذلك يغضب كثيراً، ويقول : تريدون أن يخسف اللَّه بنا، اللَّه يحللكم( ) يوم تباتون بلا عشاء ولا تخبرونا وهؤلاء( ) يُخَبون ما معهم ويجيئونك يطلبون.

وذكر رضي اللَّه عنه أحوال الناس في طلب الدنيا وكثرة سعيهم لتحصيلها، فقال : أحسن أحوالهم بعد الصدقة الراحة من متاعب الدنيا ، فإنه ليس لهم منها إلا فائدتان ، إحداهما التصدق في سبيل اللّه تعالى ، خالصين في ذلك للّه ، والثانية الراحة فيها ، وأهل الزمان خالفوا اللَّه ورسوله ، ولا عدلوا في أنفسهم وأهلهم وجيرانهم ، وهم على هذا ، ويطلبون والياً عادلاً فمن أين لهم ذلك ، لو طلبوه( ) في النار ما وجدوه ، لكن سلط اللّه ، عليهم ظالماً بلا كيل ، لأن والي الأمر لا بد له من نظر ، إن لم يكن نظر دين كان نظر دنيا .

وقال رضي اللّه عنه : من العجائب أن يتمنى الإنسان أهل الخير ، وهو ليس فيه خير ، وقد مضى جميع الناس إلا يتأسفون عليهم ، ومن تأمل الكلام وأشعار العرب ، عرف ذلك ، وإذا رأيت الإنسان قائماً بنفسه لك فلا تطالبه بحقك .

وقال رضي اللّه عنه : تُجَيْبَزْ ، ولا تخلي الأمور الباطنة تظهر عليك ، وإذا وقعت في مصيبة ، فاذكر النعمة تسهل عليك ، والأمور الباطنة هي كالغضب ، والحقد ، والحسد ، والعجب ، وغيرها .

وقال رضي اللّه عنه : الدنيا ما هي إلا كاس بكاس ، والدنيا منذ خرجتَ من بطن أمك وهي وراءك وأنت مدبر عنها ، والآخرة أمامك وأنت مقبل عليها ، ولا أحسن للإنسان في هذا الزمان من سلاسة الطبع( ) والمَيْلة( ) فينبغي له أن يأخذ بذلك.

وقال رضي اللّه عنه : بلغنا أن بعض الناس قال : ما في تريم إلا الفقيه المقدم في التربة ، والسيد عبداللّه الحداد في الأحياء ، فنعم الفقيه المقدم ، إنما هو قبر ، والذي هنا( ) هو الباب ، وليس الباب كالقبر ، ولا يعرفون الباب حتى يفارقهم ويصير قبراً ، وبعدما تنفتح عليهم الأمور( ) ، فإذا رأوه قالوا : هذا هو الباب الذي كانت تنفتح علينا الأمور( ) منه .

أقول : مراده بالأمور المذكورة أولاً التي تضرهم وتكربهم ، والمذكورة ثانياً هي التي تنفعهم وتفرج لهم من الأولى ، ولكن لا يعرفون الباب الذي هو باب

الفرج ، حتى يصير قبراً ، فلا عاد يبقى متلق للأمور النازلة عليهم ، وكان الأمر بعده كما قال نفع اللّٰه به .

ما أشار به إلى وفاته

وقد أشار رضي اللّٰه عنه في مجالس كثيرة إلى وفاته ، قبلها بأربع سنين ، وتَغَيُّر الحال بعده ونسينا ما أشار إليه ، وما ذكرنا إلا لما رأينا المعاينة كالخبر ، وذلك سنة 1128 كقوله لي في ربيع الأول منها ، في كلام كثير : لو قد سافرنا إلى مكان ، وقلنا لك اجلس أنت في تريم ، لا تسافر أتجلس؟، قلت : لا بد لي من امتثال أمركم ، فأجلس بمشقة وتكلف ، قال : فإن قلنا لك سافر أنت؟، قلت : أسافر أيضاً بمشقة وكلفة ، قال : فلو سافرت تكاتبنا؟، قلت : نعم ، ولكني لا أحب أن أسافر إلا إن عشتُ بعدكم ، لأني لو مكثت غائباً عنكم نحو سنة أو ستة أشهر ، اشتغل خاطري بألم الفراق ، قال : نعم ، لكن ليس الصادر كالوارد ، فسفر الآخرة مثل سفر الدنيا فلو قد متنا تسافر؟، قلت : نعم ، ولا أجلس يوماً واحداً إلا لعجز ، قال : فإن قلنا لك ابق ولا تسافر؟، قلت : امتثلت ولا بد ، قال : فإن عَيَّنا لك مدة؟، قلت : لا عذر منها، قال : نعم ، لا نأذن لك في السفر حتى يستقل من معك ، فلا نأذن لك في السفر حتى يستقل أحد من العيال، ثم بعد ذلك نأذن لك، وقد استقلوا حينئذ بحمد اللّٰه وخاب سعيُ من ناواهم .

وكذلك في شعبان منها قال لي في المدرس ، عشية يوم 27 منه : أتحفظ أبياتاً لأبي تمام ، ذكرها الشَّرَجي في "طبقات الخواص" في ترجمة شيخه ، فلم أحفظها، فسأل عنها الحاضرين في المدرس ، فما منهم من يحفظها، فقال نفع اللّٰه به : احفظوا وعوا، وإلا فما ينفع رفع كتاب ، وحط كتاب ، وتسويد الأوراق ، فترى الأوراق مملوءة سواداً كثيراً ، فقد جاء في الخبر : إنهم( ) كانوا يتعلمون القرآن على أربع آيات ، يُلَقَّنُها الرجل ، ولا يُلَقَّن غيرها حتى يتقنها حفظاً وعلماً وعملاً ، فَفَتَحْتُ الخزانة ، وأخذت طبقات الخواص ، واستخرجت ترجمة شيخه أبي بكر

بن محمد العُسْلقي( ) ، قال وكانت أيامه كلها خضرة ، وأوقاته كلها نضرة ، فاللّه المستعان على تلك الأيام كما قال أبو تمام( ) :
كانت لنا أعوام وصل بالحمى فكأنها من طيبها أيام( )
ثم أعقبت أيام صد بعدها فكأنها من طولها أعوام( )
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام
فانظر إلى هذه الإشارة القاطعة ، الجاعلة الشك يقيناً، والخبر عياناً، وغير ذلك كثيراً ، حتى إني لما رأيت ما دهم بعد وفاته من الهموم ، لم أطق الجلوس في مكان أَلِفْتُه معه في حياته ، فأزعجني ذلك للسفر إزعاجاً لم أطق أخالفه ، وأرجو من حبايبنا العذر والدعاء لي بصلاح الحال والمآل .
ومن تلك الإشارات ، أنه رضي اللّه عنه قال يوماً في مجلس القراءة عشية : من منكم يحفظ الأبيات التي سمعت في عمر بن الخطاب ، ويقال إن منشدها كان من الجن ، فلم يستحضرها أحد من الحاضرين ، فقرأتها يوماً عليه من كتاب "حياة الحيوان"( ) وذلك عندما خرج لصلاة العصر يوم الثلاثاء في 26 ذي القعدة من سنة 1128 في الضيقة ، قال في ذلك الكتاب : أنشدها منشد من الجن ، في أيام منى فما لبث بعدما رجع إلى المدينة أن ضربه العِلْج وهي :
عليك سلام من أمير وباركت( ) يد اللّه في ذاك الأديم الممزق

فمن يسعَ أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدَّمْتَ بالأمس يُسبقِ
قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها سوابق في أكمامها لم تُفَتَّقِ
فلما قرأتها عليه من الكتاب قال نفع اللّه به : ما مرادنا إلا نعلمك الاستحضار عند المذاكرة ، وأما أنك تجيبها في الكتاب فذاك سهل ، وكل يعرفه ، فقال السيد عبدالرحمن بن حُمُدِّه عيديد، وكان حاضراً : ما أحسن فلاناً ، لو كان حاضراً لَفَهِم ، يعني به سالم بافضل بلحاج ، فقال سيدنا نفع اللّه به : ما عليك لكن من ربيناه يفوق غيره ، إلا أنه لا يظهر أثره مع

من رباه ، كالسراج في النهار ، لأنا نربيه تربية لا يعلم بها ، وإن كانوا أحسن منه بديهة ، فهو أحسن منهم بذلك( ) ، وإن كانوا خيراً منه في الكلام ، فهو خير منهم بالأوراد ، والكلام فيه إظهار للنفس ، ثم إن التعلم ممكن ، ولكن إنما العلم بالعمل ، فإذا علمت شيئاً فأجهد نفسك في العمل به ، لتعرف النفس أن العلم بلا عمل لا ينفع ، وأن ذلك هو المقصود منه ، انظر إلى ابن علوان كيف لما اجتهد في تعلم العلم والأدب ، حتى أحكمه ليكون في منزلة أبيه عند السلطان ، وما نفعه إلا لما حصلت له من اللّه العناية ، رجع إلى العمل بعلمه ، فانتُفِعَ به ، فقال السيد عبدالرحمن : نعم هكذا مليح ، إذا حصل بالغَرْف من غير كد ، فقال سيدنا : نعم ، ولكن أصلِح وِعاك من أسفله ، وغَطِّهْ من فوقه ، لئلا يسقط ما فيه أو يتَطيَّر( ) ، فيسلم لك ما فيه ويحتفظ حتى إن احتجت إليه نفعك ، وإلا بقي لك عُدة كالخزانة ، ثم قام نفع اللّه به إلى الصلاة ، وهكذا كلامه على عادته ، إذا جلس في الضيقة خارجاً للصلاة ، فإذا نهض منها داخلاً إلى الصلاة ، فلا عاد يقبل الكلام ، ولا يُحب إن أحداً يكلمه حتى يرد السلام ، اهـ ما أردنا ذكره من تلك الإشارات الحاصلة منه نفع اللّه به بالتعريض في هذه السنة ، وإلا فهي كثيرة فيها ، وفي غيرها لكن أكثرها فيها ، حتى إنه رضي اللّه عنه قال لي في شعبان

منها : إذا حججت فلا تجاور ، وسر إلى بلادك بَرّاً ، فكتبت ذلك في وريقة كالأصبع خوف النسيان ، ومن حين كتبتها لم أدر أين وضعتها، وضاعت علي فلما كنت عشية يوم بالمدينة المنورة ، والحاج العُقَيلي يريد المسير بعد صلاة الصبح ، وفي عزمي الإقامة بالمدينة أربعين يوماً ، وكنت ناسياً أمره لي بالسفر براً، فبيننا( ) إذ ذاك أقلب أوراقاً ، والشمس قد اصفرت ، وإذا بتلك الوريقة واقعة في يدي من غير قصد مني لها ، فلما رأيت فيها ذلك ، ولا يمكن إلا مع الحاج العقيلي المذكور ، عزمت على المسير معه .

وقد مرض سيدنا نفع اللَّه به سنة 1130 وابتدأ به المرض في 27 شهر رمضان ، وبقي يتزايد عليه إلى ليلة ثامن ذي القعدة منها ثم جعل يخف قليلاً قليلاً إلى ليلة عيد النحر، فخرج رضي اللَّه عنه ليلة العيد إلى المصلى وصلى فيه وحضر حلقة قراءة القرآن ، وقرأ معنا من أول الأعراف إلى وما تكون في شأن من سورة يونس ، ثم دخل ، وبقي مدة السنتين متعافياً فلما كان يوم 27 من رمضان من سنة 1132 ابتدأ به المرض وبقي يتزايد وتختلف عليه أنواع من المرض ، كما سيأتي تفصيله عند ذكر وفاته نفع اللّه به ، إلى ليلة ثامن ذي القعدة منها ، فانتقل إلى رحمة اللَّه ورضوانه وقُربه ، فقال لي ابنه السيد الحسين : لعل هذه السنتين هما اللتان ، أعطاهما لحسين بافضل( )، لما استوهب له من أعمارهم ، فكل من أصحابه أعطاه شيئاً ، وإن سيدنا أعطاه هاتين السنتين ، فعاش حسين المدة التي وُهبها ، وإن مرض سيدنا الأول هو مرض الموت ، ثم رد اللَّه تعالى عليه تلك السنتين كرماً منه ورحمة للعباد ، فعاشهما سيدنا والحمد للّه ، ويشهد لِمَا قال السيد حسين : كون المرض في المرتين بسابع وعشرين رمضان ، وأنه يتزايد إلى ثامن ذي القعدة ، ثم جعل يخف المرض في الأول قليلاً قليلاً ، إلى أن بريء منه ، وفي الثاني جعل يتزايد كذلك إلى ليلة ثامن ذي القعدة ، ثم انتقل فيها ، واللّه أعلم بحقيقة ذلك .

وطلبه رضي اللّه عنه صهر له أن يَمُرَّ عليه ، فقال نفع اللَّه به : لا ، ما عاد نقدر على ذلك ، فتعالوا أنتم إلى عندنا لأنكم أخف منا ، فأنا اليوم في فَيء العَشْوة ، فاسأل فلاناً كيف كُنَّا أولاً في مراحنا ومجيئنا ، وهذه الأمور قد مضى حِلّها( )، وقد شبعنا من كل شيء إلا من أمور الدين ، وأما أمور الدنيا فلا رغبة لنا فيها ، ولكنا أيضاً قد شبعنا منها ، وما نحب اليوم من يتردد إلينا إلا لأجل أن يسمع كلمة ينتفع بها في دينه ، أو كلمة عِظَة أو عبرةً تنفعه .

وقال رضي اللَّه عنه : بلغنا أن رجلاً قال للسيد أحمد الهندوان( ) : إن فلاناً [أي سيدنا] سَلَبَكَ( ) ، فقال : إذا لم يسلبني إلا فلانٌ فبركة ، حيث لم يكن غيره ، وإذا كان إلا هو ، الحمد للَّه ، فحقنا عنده محفوظ ، ونحن [أي سيدنا] ما معنا إلا ما قاله اليافعي في قصيدة يصف نفسه : (فقير ضعيف يافعي مخلّط) وكل أهل اللّه يرون أنفسهم كذلك ، ومعنا محبة النبي صلَّى الله عليه و آله وسلّم وأصحابه وأهل البيت والأولياء الصالحين ، وليس معنا ما نُسْلِب به ، إذ لا يَسلُب صاحبَ السيف( ) إلا من معه سيف أقوى منه.

وسألته رضي اللَّه عنه عن سبب تكرير الشيخ علي في البرقة( ) إلباسَ الخرقة لعياله وأهله ، ومن ذكر معهم ، فقال نفع اللَّه به : لا بد في كل موضع من معنى ، لكن البليد لا يتنبه للمعاني ، فقد ذكر الإمام الغزالي ، إن البليد إذا أَكَدَّ نفسه فقد يدرك القليل في الزمن الطويل مع التعب الكثير .

ما قال في محمل كلمة الصالحين

وإذا سمعت كلام أهل الخير ، فما دمت تجد له محملاً في الخير ، لا تخرجه منه ، حتى إلى المباح ، ونحن لو جاءنا رجل من أهل النفوس ، وصَافَحَنا وكَلَّمَنا كلمناه ، ومررنا على حالنا ، ولكن لا بد ما يخطر في باله شيء فيقول ما درا بي ، أو ما بالى بي ، وربما يعزم على عدم الاجتماع بعد ذلك ، فلا بد ما يخطر في بال الرائي شيء من هذا ، وكل ينفق مما عنده ، مثل الأسواق والمخازن ، منها ما يباع فيه المسك ، ومنها ما يباع فيه غيره ، فلا يستوي العطار والبيطار ، والكلام يتفاوت بتفاوت الناس ، وتفاوت الحال ، وتفاوت المجلس ، وتفاوت حال المخاطب ، وتفاوت الزمان .

ما قال في طبع الصغر

وقال رضي اللَّه عنه : من وقت صغر الإنسان يظهر عليه خلقه المطبوع عليه ، وطبع الإنسان الذي ينسب إليه هو ما غلب عليه .

ثم ذكر قصة الشيخ أبي بكر بن سالم ، ودَفْعه القروش إلى أولاده ، يختبرهم ، وأن ولده الحسين من دون إخوانه ، ربط ما أعطاه إياه في ثوبه ، والبقية لعبوا بها حتى راحت عليهم ، وفي اليوم الثاني سألهم عن ذلك فأخبروه والحسين قال : هاهو مربوط في الثوب ، فقال له : تضم الدنيا ، ستقع عليك الدنيا من السقف ، ثم بعدما كبر وقام في مجلس أبيه ، فبينما هو جالس مع أصحابه ، إذ وقع في المجلس وِجْبُ( ) تمر من أوجاب مصفوفة في الدار ، فقال الحسين : اليوم تَمَّ علينا ما وَعَدَنا به الوالد ، إنه ستقع عليك الدنيا من السقف .

وقال رضي اللَّه عنه : لا تَعُدَّ علماً إلا ما كان محفوظاً ، وما لم تحفظه فهو علم غيرك ، لأنك تنقله عنه ، وإنما يربي الناسَ علماؤهم ، وتربيهم ملوكهم ، وتربيهم شيابتهم ، واليوم ما شيء من هذا ، وأكثر العلوم ما تلقيناها إلا من الأولين على ألسنتهم ، كحضور المجالس ، وإتيان الصلوات ، وإجابة الدعوات ، ونحو ذلك ، والتأدب مع الجلساء، ومعرفة منازل الناس ، ومراعاة حقوقهم ومعرفتها ، وتنزيل كل إنسان منزلته .

وذكر رضي اللَّه عنه حضور المساجد ، مع أكل ذي الريح الكريه ، فذمه جدًّا وأنكره ، وأنكر وذم من يتسبب في ظهور رائحة كريهة في الجابية ، وذمّ أيضاً من يَجهر خلف الإمام ، ثم قال : هذه العلوم التي على الألسنة ، وإن كان في طاعة فيحصل بسوء أدبه ما لا تقابله طاعته ، والأدب ما هو إلا ما تربى عليه الإنسان من صغره ، وأخذه قليلاً قليلاً حتى يتربى عليه ويتقنه ، ثم يقيس عليه ما في معناه .

والحاصل : إن التغافل والتجاهل في هذا الزمان ما أمكن( ) هو الذي ينبغي ويحسن ، لئلا يتربوا ويخرجوا إلى الباطل .

وقال رضي اللَّه عنه : الأدب أن لا تؤذي أحداً ، وإن أوذيت صبرت ، وحسن الصحبة والمجالسة بما أمكن( ) ، ثم أنشد هذا البيت :

صيّرت ذاك المجلس صفَّ النِّعال ... إذا جلست مجلساً بلا أدب

ما قال في إنكار بعض العوائد

وقال رضي اللَّه عنه : علوم الأولين كلها سهلة ، إنما هي حديث وأثر وكلام السابقين ، فهذه كانت علومهم ، والعلم يزكو إذا كان من الطرفين ، وهو أن يأخذ ذو العلم القليل ، من صاحب العلم الكثير ، وهو أيضاً يعلّمه ولا يمتنع من تعليمه ، وما عاد اليوم إلا عد النخيل والنخاش والتقصيف يسمى تقصيف الأظافير ، وهو إخراج الثمرة من النحر ، ولو بقيَتْ أكلها طير فكانت من رزقه ، ولو وُلِّيتُ أمرَ البلاد أو أطاعني الوالي لَطَرَّبت( ) على أشياء من العبادات ، وأشياء من العادات ، أن لا تُفعل إلا في بعض الأوقات ، كالسرعة بتخبير( ) النخل ، وأن يكونوا فيه كعادة السلف ، فإن المال مال اللّه مُسْتخلف عندهم ، ويريدون يمنعونه الفقراء والمساكين ، بل حتى الطيور ، ويجمع الإنسان ما يكفي جماعة ، ويجعله عند امرأة ، وتحت نظرها ، وما عاد الدين إلا لازق ، كالطينة تلزقها في الحائط ، فعسى حسن الخاتمة ، وأنا مؤمل مثل هذا يحصل من بعض من يلي أن يساعدنا عليه ، والناس اليوم إنما هم عبيد العصا ، وما معهم سيوف ورماح يقاتلون بها، فيحصل منهم الرجوع إلى الصواب قهراً ، كما أطاعوا في أخذ أموالهم قهراً ، وكنا مؤملين مثل هذا لكن هذا الرجل( ) ما لزق ، فإذا كان الولاة بأنفسهم يتعاطون الربا ، ويفتيهم في ذلك علماء السوء ، كيف الحال؟، وهؤلاء إنما هم أعداء الدين لا ممن ينصر الدين ، فالولاة طلبوا الولاية ليَظلموا ، والعلماء تعلموا العلم ليتولّوا على الأوقاف وأموال اليتامى ، فيأكلوها ، ويفتوهم بِحِيَل يَسْتَحلّون بها الربا ونحوَه مما حرم اللّه عليهم .

وقال رضي اللّه عنه : إن أهل الزمان نسوا اللَّه بترك حقوقه ، فسلط اللّه عليهم ما يشغلهم ، حتى لو دعَوا لم يستجب لهم ، وتُنْكِرُ أصواتَهم الملائكة ، لأنهم لم يألفوها بسماع ذكر أو غيره من أمور الطاعة ، كما ورد في حديث : ((فأنى يستجاب لذلك)).

ما قال في المضطرب في المحنة

وقال رضي اللَّه عنه : قيل إن المضطرب في المحنة كالمضطرب في الحبل ، كلما تحرك ازداد شنق رقبته ، وأنشد هذا البيت :
مُتْعِبَةٍ خيرٌ من الصبر ... ليس لذي محنة مؤذيةٍ
ما قال في الماء المسخن على النار
وقال رضي اللَّه عنه : إنه لم يبلغنا عن رسول اللَّه صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فيما بلغنا أنه توضأ بماء سخن على النار .
وقال رضي اللَّه عنه : لا ينبغي أن يُترك دخول السوق تكبراً ، لأن اللَّه تعالى ذكر الأنبياء بدخول الأسواق ، وذكر الكفار بإنكارهم ذلك عليهم ، فيدخله لقضاء حاجته ، أو كان طريقه عليه ، وإنما تركوه تجنباً وتنزهاً من أماكن الشياطين واللغو .
وقد كان السلف يدخلونه يأخذون حوائجهم منه، واشترى سيدنا علي منه قميصاً وسروالاً.
وقال رضي اللَّه عنه : متى فرحت بشيء من أمور الدنيا ، واطمأننت به ، فأنت ناقص عقل ودين ، وزيادة أحدهما أو نقصه يستلزم مثله في الآخر ، ولا أحسنَ أهلُ الزمان تدبيرَ دينهم ولا دنياهم ، بل هم في دنياهم كالعين العوراء ضعيفة النظر ، وفي دينهم كالعين العمياء ليس تُبصر أبداً ، فكلما دار الزمان قليلاً تغير أهله ، فترى الإنسان يَقْصُر عن مماثلة أبيه ، ويعجز في دينه ودنياه ، حتى في القوة والهمة ، ويعرف الإنسان مرض قلبه ، ونقص دينه وعقله ، وهو أعرف به من غيره ، ثم لا يهمه ذلك أن يقصد طبيباً من أطباء القلوب يداويه ، ويُسَلِّم الأمر إليه ، ولو وقع له أدنى مرض في بدنه لاهتم له ، وطلب المداوي ، ويقال : إن المريض أعرف بالعلة من الطبيب ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : لا ينبغي للطالب أن يقول مروني بكذا أو أعطوني كذا ، فان هذا طالب لمطلوب نفسه ، بل يكون كالميت بين يدي الغاسل ، إن أقاموه في شيء ابتداءً منهم فليمتثل ، وإلا فليقف ، فإنه لا يدري بما يصلح له ، وهم أعرف بذلك

منه ، فإن الناس مختلفون ، أحد لا يصلح له إلا خدمة الشيخ ، وأحد لا يصلح له إلا خدمة الفقراء ، وأحد يصلح له غير ذلك ، على حسب اختلاف غرائزهم وفِطَرِهم . فقلت له : فإن أقام الطالب عند الشيخ ، وطالت المدة ولم يُقمه في شيء ، فقال : في الطاعة بركة ، ولكن يمتثل فإنه مادام يطلب شيئاً بنفسه ، لم يحصل له ، فإن الأشياء موزعة لكُلٍّ ما يصلح له ، ثم ذكر قصة الإمام الغزالي حين مضى يطلب( ) ، فجاء إلى بعض المشايخ فقال: أريد عندكم خدمة، فقال : ما عندنا لك إلا حجر الاستنجاء تغسله كل يوم.

وقال رضي اللّٰه عنه : أكابر الأولياء كالشمس ، وقابس النار ، إذا أتاهم الطالب ، فإن كان متأهلاً للشيء ، أقدحوه في لحظة ، وإلا أقاموه حتى يتأهل ، ثم إنهم مختلفوا الأحوال ، فمنهم من هو كالقبس الصالح العامل يُوري من أول مرة ، ويؤثر معه ذلك ، ولكنه لا يظهر عليه له أثر في حياتهم ، كما إنه لا أثر للسراج مع طلوع الشمس ، ومنهم من لا يُوري إلا بعد مرار متعددة ، ومنهم من لا يوري بحال كالعُطُب الدويل الذي ما فيه رائحة الدوى ، ثم بعد الإيراء ، منهم من يثبت فيه ذلك كما تقدم ، ومنهم من ينطفي في الحال ، ومنهم من يقيم معه ثم ينطفي على حسب الصلاحية لذلك وعدمها، وقد سمعت سيدنا الحبيب نفع اللّه به يوماً بعدما فرغ القارئ من قراءته في رسالة المريد ، يقول : إنا لم نُسَمِّ من ألّفْناها بسببه ، لأنه رجع بعد ذلك عن الإرادة .

وقال لي الأخ العزيز عوض بن صباح( ) : سمعت سيدنا الحبيب نفع اللَّه به يقول : من جاءنا ومعه السراج والعشمة( ) ، ما علينا إلا نَعْلق له لا غير .

وقال لي رضي اللَّه عنه يوماً : أوصيك بهذه الوصية ، وأوص بها أنت : إذا دخلت في أمر ديني أو دنيوي فاجتمع عليه .

وقال لي يوماً أيضاً نفع اللَّه به : الرجل الصالح لا يكلف أحداً إلا بما وافق عنده ، ما لم يكن إثماً ، أما

سمعت قول شعيب لموسى عليهما السلام : {وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ }( )، إذ لم يُعيِّن على موسى ما شق عليه بل ما هان وخف ، ولو قال من الصابرين ، لدل على أنه ما يراعي في الأمر أحداً .
ما قال في شدة الشوق مع البعد بخلافه مع القرب
ثم ما قال في العراق
وقلت له رضي اللّه عنه يوماً ، وذلك يوم المولد الشريف ، بعد الظهر سنة 1125 وكان مجلس أنس وبسط : ما لنا في البعد عنكم نحس للقلب إليكم ميلاً كثيراً ، فإذا كنا عندكم لم يبق لذلك أثر ، فقال نفع اللّه به : إن الصالحين يحبون قلة تعلق الناس فيهم ، أو قال بهم ، ويريدون منهم أن يجتمعوا للّه ورسوله ، لأن اللّه تعالى يغار إذا رأى عبده متعلقاً بغيره ، وكذلك الرسول صلّى الله عليه و آله وسلّم ، وقد ذكر أهل الاعتقاد : إن المتعلّق مع المتعلَّق به كالشمس ، يُتَمكن من النظر إليها مع البعد أكثر منه في القرب ، ثم ذكر أبياتاً من قصيدة ابن بنت الميلق :
والمرء إن يعتقد شيئاً وليس كما يظنه لم يخب واللّه يعطيه
وليس ينفع قطبُ الوقت ذا خلل في الاعتقاد ولا من لا يواليه

فقلت : فعسى إن بُعْدنا عنكم يحصّل الاجتماع بعد ذلك ، فقال نفع اللّه به : إن الجسد قبرُ الروح ، والقَبْرَ قبرُ الروح والجسد ، الجسد ماكث فيه ، والروح يتعهد ، فإن رأيتنا في القبر الأول ، وإلا ففي القبر الثاني ، والسادة آل أبي علوي يحبون تلك الجهات ، لأنها كانت أصل موطنهم ومهاجرهم ، وهم هنا أغراب ، حتى إن الشيخ عبداللّه بن أبي بكر العيدروس ، في أوقات غيباته حالة السماع ، يذكرها يقول : حَضَرت في المكان الفلاني منها ، واسألوا فلاناً اجتمعت به في المحل الفلاني ، وَبَدَنٌ عندكم ، وقلبٌ عندهم في العراقات والشامات ، وفي أهل تلك الجهة من أصحاب سيدنا علي رضي اللّه عنه ،

وهم الذين صبروا معه ، ونحن نطرح الأمور على النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، وهو يجعلها إلي اللّه، قلت : ونحن نجعلها عليكم ، قال : إن شاء اللّه.
وقال رضي اللّه عنه : نود أن ننفع جيراننا وأصحابنا ونحوهم بما أمكن ، ولكن خَالَفت الظنون اليوم ، ومن نعرفه لا نسمح به للنار والعار ، والزمان زمان حيرة ، فينبغي أن يسمى : مخيّب الظنون ، وهذا بسبب أهله ، وأما الزمان فهو ليل ونهار ، والميزان موجود بلا شوكة ، وكل يطرح من الكفة هذه ، ومن الكفة هذه( ) ، ولو تركوه من غير طَرْح عُرِف الوزن ، فعسى اللّه أن يلطف ، واللّه من ورائهم محيط .
وقيل له نفع اللّه به : إن الناس اليوم لا يسمعون كلام الأخيار ، فقال : لأنهم ما هم أخيار ، وهل الحمار يساير الخيل . وقال : طرق التصوف وإن تعددت ، فهي طريقة واحدة وهي مجاهدة النفس ، والخروج من كل ما تدعو إليه ، وهذا أمر عسر ، ولكن ربما تكلم بعضهم في مسألة وأكثر فيها الكلام ، فنسبت إليه .

ومر في القراءة في "قوت القلوب"( ) وقت الدرس ذِكْرُ التوكل ، وأحوال المتوكلين ، فقال : مثل هذا يتيسر للمتجردين( ) عن العلائق كلها. وما ذلك ببعيد في حقه ، ويمكنه أن يكون بحيث لو مر على وادي ذهب لم يأخذ منه إلا قدر حاجته ، وأما من ورط نفسه في العلائق ، فلا يمكنه ذلك ، وإن حدث نفسه به كان مطالباً بأشياء دونها نَزْع الروح ، فَلْيَرض بدرجة أصحاب اليمين ، والغالب إن الرجل المصلح اليوم في أول درجة أصحاب اليمين ، إلا إن كان أحد خامل مضمر للصبر واليقين وحسن الافتقار .
وقال رضي اللّه عنه : في قولهم في المتوكل : أن يكون بين يدي اللّه كالميت بين يدي الغاسل ، قال : أي يكون كذلك في الباطن لا في الظاهر .
وقال رضي اللّه عنه : أمور الدين وأمور الدنيا كلها إذا رَخُصت هانت ، وقد ضعفت كلها ، ولا عاد بقي منها إلا رسوم كالزرع الذي ضُرِب( ) وبقي أصوله .
وقال رضي اللّه عنه : الهَلَع مع الفقر عيب ، كالبطر

مع الغني ، وينبغي لفقير هذا الزمان ، أن يكون أخف من العُطُب( ) على الناس ، وإلا أثم فيهم وأثموا فيه ، وعلامة الزاهد في الدنيا إنه إذا دخل عليه شيء منها فوق حاجته يستوحش منه ، فيرد الزائد أو يخرجه في الحال بلا مهلة ، وهذا أقل الزهد ، وعلامة الراغب فيها أن يستأنس بما يحصل له منها ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب ، وقد أجمعت جميع الملل على ذمها وأجمعت جميع الأمم التي جاءت إليها الملل على حبها ، ومعظم آيات القرآن في ذم الدنيا، ومرة قال : نحو ثلث القرآن في ذم الدنيا والتزهيد فيها ، وأبلغ آية في ذمها قوله تعالى : {وَلَولاَ أَنْ يَّكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا } إلى قوله : { لِلْمُتَّقِينَ } ( ) .
انظر ما أخبر عن حاله

ونحن بحمد اللَّه لا نبالي بما يفوت منها مما في أيدينا، إلا إن كان في غير محله ، غارة عمريَّة ، وما هي عندنا إلا كحيثة جِربَة ، سَهْلٌ علينا إخراجها، ولم نخش إلا من عدم الإخلاص .
ومرة قال : لو كان للدنيا عندنا قَدْر ما ولَّيناها فلاناً( ) ، يعني خادماً له كان كثير النسيان فربما أعطاه قروشاً يشتري بها حاجة فيضعها في طاقة فينساها فتفوت .
وقال رضي اللَّه عنه : الدنيا ، وما هي الدنيا؟، قال بعضهم : إذا أردت أن تعرف الدنيا فاسأل عنها أحداً في سكرات الموت .
ما قال في التروح والتنقل
وقال رضي اللَّه عنه : كانوا إذا دخل آذار( ) ، يحبون التفرج والخروج من الديار ، إلى الخلا والقفار ، تنزيهاً للخواطر ، وتروُّحاً للقلوب ، لأن الروح في الجسم محصور ، فإن انحصر الجسم أيضاً اجتمع حصران ، فيتولد من ذلك ضعف المزاج ، وهذا طبعنا نحن ، والذي نحبه ونفعله ، إلا إن حصل مانع منه ، وينبغي للإنسان أن لا يستقر به مكان ، بل يسير في أرض اللَّه ، لعله أن يرى أكمل منه فيقتدي به إن قدر

على ذلك ، وساعده الحال والوقت ، أو يرى معتَبَراً فيعتبر ، أو يفيد أو يستفيد ، ثم أشار إلى أبيات( ) :
تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرّجُ هم واكتسابُ معيشة وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجد
فإن قيل في الأسفار ذل ومحنة وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته يعيش بها ما بين واش وحاسد
وأهل الزمان لو تعب أحدهم في شيء من أمور الدنيا غاية التعب ، وعَرِق فيه عشرين عرقة ما عَدَّ هذا تَعَباً ، ولا يبالي بذلك ، ولو كان شيء من أمور الدين ، رأى السهلَ عسيراً ، والقليل كثيراً ، وقال : من يقدر على هذا.

وذكر رضي اللَّه عنه : بعض الأشياء من علم الفلك واختلاف الزمان على الإنسان ، واختلاف الأحوال عليه بسبب ذلك ، ومعرفة شهور الروم ، وما تدخل به من نجوم الشبامي ، وما يناسب في كل شهر منها من مأكول وغيره ، ثم قال : أردنا فلاناً يحفظ هذه الأشياء ، فما أمكنه ، والإنسان إذا حفظ في صغره ، يرجع ينتفع بمحفوظه في كبره ، سيما إذا صار له مظهر، وقد جعل اللَّه للإنسان بداية ونهاية ووسطاً، فيحفظ الإنسان المهم ويذاكر بغيره .
وقال رضي اللَّه عنه : الأشياء لها عسر ويسر ، فخذ باليسر في الأمور التي تعرفها ، حتى يساعدك الناس، لأن الطريق معك فساير أهلك وأصحابك بما يمكنك ، وفيما لا لوم عليك فيه( ).
ما قال في السادة آل باعلوي
والسادة إلا طاهرين فلا تنجس نفسك( ) ، وهم خاملون ما يظهر أحد منهم إلا بالدين والزهد وأصل الإقبال والتوجه ، وبيتهم معمور ، وليس المعمور كالخارب ، وقد قال السقاف : أولادنا كمن يحفر في طينة طيبة قريبة الماء ، وغيرهم كمن يحفر في أصل جبل ، أو قال سبخة ، أو نحو هذا .
فتن آخر الزمان

وقال رضي اللَّه عنه : إن فتن آخر الزمان مثل النار تحت الرماد ، فليفرح الإنسان مادامت مندفنة تحته ، ولا يحركها فتظهر ، وقد قال النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم( ) : ((الفتنة نائمة ، لعن اللَّه من أيقظها)) ، والفتن موعود بها في آخر الزمان ، وآخر ما تأتيه جزيرة العرب .
وقال رضي اللَّه عنه : إنما يُستدل على كمال الشخص بتأديته الفرائض على كمالها ، لأنها عمود الدين ، فمن أقامها بواجباتها وسننها ، وحضورها من غير وسوسة ، دل ذلك على كماله ، وحسن عناية ربه به ، وإن عكس دل ذلك على عكس ما ذكر .

(1/253)

وقال رضي اللَّه عنه : ثلاث مقامات الدين مُترتِّبة ، لا يحصل للإنسان الثاني حتى يُحكِم الأول ، مقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان ، ولا تكلمْ أهل الزمان حتى في التوكل والزهد ، إلا إن كان مر ذلك في كتاب ، ومن لا يحسن الإسلام ولا قام بواجب صلاة ولا زكاة ، كيف يمكن معه ذلك ، ومن لم يكن معه لبن ، من أين يستخرج الزُّبُد والسمن ، وتراهم يقصرون في إخراج الزكاة ، أحد يعطيها للأشراف ، وأحد يجعلها ضيافات ، يتجمل بها ، ويحسبها من الزكاة ، ولا تحرك من رأيته في هذا الزمان يسيّب( ) ، أو ساكتاً فقد كانوا إذا حُركوا يخرج من تحريكهم قطعة الذهب والجواهر ، وأما هؤلاء إذا حُركوا لم يخرج إلا العظام ، أو جهمومة الشاة .
وقال رضي اللَّه عنه : لا يَهاب أو لا يَجبن مِن أُمُوّ( ) الآخرة والكرم إلا خسيسُ الأصل ، والبخيل هو الذي لا يتصدق مما في يده ويقول : لو جاءني كذا وكذا من المال لتصدقت ، فإنه كاذب ، لو جاءه ما أراده مَنَعَهُ منه ما مَنَعَهُ مما عنده الآن من وساوس النفس ، وتقدير الحاجة إلى كذا ، وإلى كذا ، ويعزم على أمور لم يعزم عليها قبل ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : لم يتأسف الإنسان إلا على عمره إذا ضاع بلا فائدة دينية ، وأما أمور الدنيا فكلما أقل منها كان أحسن ، وأنشد هذا البيت :

ضَيّعت صفوك في أيامك الأُوَلِ ... يا وارداً سور عيش كلّه كدر
وإذا رأيت الشمس على الجبل عادك تقول : أسير إلى الوادي ، لا ، إنما تقول : غدوة ، والموت ما له غُدْوة ، وما غدوته إلا القيامة وليلة البرزخ .

(1/254)

ودخل عليه رضي اللَّه عنه بعض السادة فسأله : كيف حالك وقوَّتك ، ثم قال : نعم أيام القوة والراحة ما هي مثل أيام الشدة والضعف ، فتراك إذا حصل لك قبض في باطنك ، تحس أعضاءك ضعيفة ، وما فائدة العمر إلا الطاعة ، والشريف أدنى شيء يؤثر فيه ، فينبغي أن يبقى على طهارته ، ولا يتدنس بشيء من الأمور ، وكانت الأوقات مضبوطة، وكلٌّ لازمٌ طَوره ولا يتعداه ، واليوم كلٌّ متعدٍّ ، وكلٌّ غيرُ مضبوط .
ثم ذكر نفع اللَّه به البرد، وإنه حصل به بعض منفعة لزرع البُر ، فقال : إن اللَّه سبحانه لم يدبر شيئاً إلا وفيه صلاح ، يدبر الأمر ، يدبر الأمر( ) ، فإذا دبر الأشياء هو سبحانه ، فما لك أنت والتدبير .
ما قال في الأدب مع المرموقين بالخير

(1/255)

وقيل له رضي اللَّه عنه : قد جاء إلى هنا السيد فلان . وقيل( ) له : إجلس إلى الظهر ، فضحك ، وسكت قليلاً ، كذا عادته إذا لم يستحسن كلام المتكلم ، ثم قال : لا عاد تمصّع النصاب المبلولة ، وإلا قيل لك : إفتلها ، وكل من كان عنده أحد من المرموقين في الدين أو في الدنيا يحتاج إلى أدب ، وإلا ما حصّل شيئاً ، ونحن نعرف أهل الزمان ، وأنهم مثل الدابة ، إذا وردت الماء ظمآنة ما تلبث إذا رويت أن تبول فيه ، وأنت إيش لك في الفضول ، تقول للناس : إجلسوا ، وماذا عليك منهم ، اتركهم وما أرادوا ، ومن جاء عند أحد من أهل التصوف مستفيداً أو قال زائراً ، فجلس إليه يحادثه بطلت فائدته ، قال ذلك الفقير : فأعلمونا أنتم بالأدب ، وإلا فعقولنا ما

تهتدي إليه ، فقال نفع اللَّه به : اترك كل ما لا يعنيك ، ولا تسأل عما لا يتعلق بك ، فإن جاء أحد من جهة أحد تعرفه ، فاسأله عنه ، والزيادة على ذلك فضول ، قال : فإذا جاء أحد نحب له الاجتماع بكم ، ما نقول له؟، قال : قل له تعال العصر ، وقد جعلنا لهم مجالس ، اللّه يبارك لنا ولهم فيها ، ونحن نيتنا فيهم رجاء أن ينفعنا اللّه بهم ، خير من نيتهم فينا ، ومجالسنا مع الناس يلزمنا فيها أمور ليست تلزمكم ، أقل الحال نسأله هل تزوج ، وهل جاءه أولاد ، وكيف هم ، ومثل ذلك تضييع وقت ، وقد قال لنا بعض مشايخنا الذين أخذنا عنهم : إذا صافحكم أحد ، فلا تسألوا عنه ، فقلنا : إذا جاء إنسان من بُعْد يحتاج إلى السؤال عنه ، وكل أحد يريد منا كلاماً ، والشيخ عبداللّه العيدروس ، مع أنه ما عاش في الناس إلا خمساً وخمسين سنة ، ما مات حتى ترك زيارة التربة بسبب الناس ، وكثرة شاغلهم ، حتى إنه يصل إلى طرف التربة ، ويقرأ الفاتحة ثم يرجع ، فهل سمعتم عمن بلغ سننا هذا كان يجالس الناس كثيراً ، ويخالطهم مثلنا ، فقيل له : هذا أمر قد اختاره اللَّه لكم ، قال : فاللّه يبارك لنا فيما اختاره لنا ، قال ذلك وهو جالس في

(1/256)

الضيقة ، خارجاً لصلاة الظهر ، يوم الخميس حادي عشرين ذي القعدة سنة 1128 ، وسنه إذ ذاك نفع اللّه به 85 سنة ، تنقص شهرين وستة أيام .
ونُوولَ يوماً رضي اللّه عنه ماء ، وكان الوقت شتاء ، فقال : سبحان اللّه ، أين تلك الحلاوة التي كانت في الماء أيام الصيف ، الجنة ليس فيها برد ولا حر ، البرد والحر في النار ، الحر في مدنها ، والبرد في أوديتها ، ولا تلك الحلاوة فيه إلا إذا كان بارداً ، ويمثّل به في شدة الحلاوة ، فيقال : أحلى من الماء البارد للظمآن ، ثم لا يقيد بكون ذلك في الصيف ، لكون المطلق في كلام العرب ، يحمل على المقيد عرفاً وعادة مفهوماً عندهم في لغتهم في كثير من الإطلاقات .
ما قال في الصبْر

وقال له نفع اللَّه به رجل من السادة : أخي يسلم عليكم ، وادعوا له ، وكان ضعيف الحال ، وابتلي في ماله من بعض ظلمة الجهة ، فقال سيدنا في حقه : ما عاد ينفعه إلا الصبر ، وهو عماد المؤمن ، ويقدّر ما وقع عليه ، أنه وقع بعد موته ، فإنه لا علم له منه ، ولا شغل ولا تعب ، ولو كان له تريم بأطرافها ، لا يبالي بذلك ، فلما أن حصل له ذلك وهو في الحياة ، فإنما ذلك ليثاب عليه ، لأن حصول الثواب إنما يكون في الحياة ، ولو كان ذلك بعد موته لم يحصل له الثواب ، ويقدر كل شيء نزل به أنه ما نزل ، كما قيل لحاتم طي ، وكان مشهوراً بالسماحة والكرم : ما الذي يسهل عليك الكرم ، فقال : أقدّر الشيء أنه ما كان ، وبلغ من كرمه ، أنه أصابتهم سنة مقحطة ، أذهبت الخف والظلف ، ولم يبق معه إلا فرسه ، فورد عليه ضيف فلم يجد له ما ينحر له ، فذبح له الفرس ، فقالت له زوجته في ذلك فقال : وما نكرم به ضيفنا ، فلم يألُ بذبح الفرس لإكرام الضيف ، مع أنه ليس معه غيرها ، وكان يضرب به المثل في الكرم ، ثم انجر الكلام إلى ذكر علو الهمة ، فقال نفع اللَّه به : مع علو الهمة تصغر في عين الإنسان جميع الأشياء الدنِيَّة ، ولا يهمه إلا المقصود الأعظم ، وذلك كالشجاعة فإن الشاجع لا يبالي بما يَعرِض له ، ويُحتاج كثيراً إلى سعة الصدر ، فمع ضيق الصدر قلَّ ما يحصل على شيء ، وكان الشيخ عبداللَّه العيدروس كثيراً ما ينشد هذين البيتين( ) :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال رضي اللَّه عنه : الفرق بين التأني والتواني : أن التأني التوقف حتى يتبين الأمر ، والتواني مع تبينه يقف عنه ، ويتساهل فيه ويتركه ، والتأني في الخير محمود ، والتواني فيه مذموم ، وقد يتبين لك الأمر ولكنك غير مستعد له عدته ، فلا ينبغي لك الإقدام عليه .

ما قال في القاضي

ودخل عليه رضي اللَّه عنه قاضي البلد ، فبعد السلام
والتحية كلمه بكلام يؤنسه ، فقال له : لابد للإنسان
من أمرين : الصبر والتقوى ، لأنه ما يجيء عند
القاضي إلا متخاصمون ، ولو تبين لهم الحق( ) ، لأنه
لو كان فيهم تقوى ما احتاجوا إلى الترافع للقاضي ،
فلا يرفع إليه إلا من بينهم مشاقة وخصومة ،
فالعمدة لك إنما هو الإصلاح ، فاعتمد ذلك وتجنب
الحكم ما استطعت ، لأن الحكم عسر ، فأصلح بين
المتخاصمَين ، واصرفهما عنك متراضيَين ، وقد كان
القاضي باهارون في وقته ، جميع أحكامه إلا إصلاح
بين الناس ، وقد قال من تتبع قضاياه سنة كاملة : ما
رأيت فيها حكماً واحداً ، وإنما كلها إصلاح ، وأين أنت
اليوم وحكم الشرع ، وقد قال الشيخ علي بن أبي
بكر في وقته : لا يغرك قول من قال امش بنا إلى
الشرع ، فإنهم أخرجوا من الشرع عينَه ، فبقي شَرٌ
بلا عَيْن ، فإذا أَرَيتَ اللَّه تعالى من نفسك الصبرَ ،
والورعَ ، والتقوى ، يرجى لك السلامة وتحرَّ ما
استطعت . وذكر قصة : إن رجلاً كان يمشي في طين
ووحل على طرف نهر ، وهو متحفظ على ثيابه ،
ورافعها خوفاً عليها من النجاسة ، فزلقت رجله
فسقط ، ووقع طرف ثيابه على الماء ، فسيبها
كلها ، وجعل يجرها في الماء والطين ، وهو يبكي ،
وقال : هكذا الإنسان ما يزال يتحفظ في دينه ، حتى
يقع في أمر ثم يغرق فيه بكله ، فينبغي أن يكون
القاضي من حين يجلس على نية صالحة ، من
إكشاف الحق وتبيينه ، وإصلاح بين المسلمين ، وما
لم يظهر لك تتركه على غيرك ، كما كان بعض قضاة
تريم يخلي واحداً يقوم عنه بسيوون .
ما قال في ذم تمني البلاء

وقال رضي اللَّه عنه : لا تقل وأنت في عافية : لو
ابتليتُ صبرتُ ، فإن الغالب إن من يدعي الصبر مع
اللَّه يُبتلَى ، ولكن اسأل اللَّه تعالى العافية ، فإذا

ابتليتَ فاصبر ، ولا تغتر في نفسك بأحوال أقوام بلغ بهم البلاء كل مبلغ ، فصبروا ، فلعلك لو ابتليتَ لم تصبر ، فكم من قائل : لو ابتلاني اللّه لصبرتُ ، فلما حل به البلاء لم يصبر ، فتراه إذا تحرك له ضرس ، أو ضَرَب عليه عرق ، بات سهراناً ، وأما أولئك الذين صبروا ، فإنهم انكشفت لهم الآخرة فشاهدوها ، فلم يبالوا بالبلاء ، ودانوا أنفسهم فلم يعبأوا بالرفاهية واستوت هي والشدة عندهم .

واعتذر إليه رضي اللّه عنه بعض الفقراء ، ظن أنه رأى عليه في شيء ، فقال نفع اللّه به : لا عاد يقع في خواطركم إن في خواطرنا عليكم شيئاً ، لأنا أصبر منكم ، وأوسع أخلاقاً منكم ، وقد جربنا الزمان ، وجربنا الناس ، فمن فيه عشرة أخلاق وفيه خُلُقان تُعْجُبِنا منه عفونا عنه الباقي ، قيل له : فإن لم يكن في الإنسان شيء يُحمد ، قال : نرضى منه بقضاء حاجة ، أو فتح كتاب ، ونحو ذلك ، ولو علم الناس بصبرنا على فلان ، في قضاء الحوائج ، لكان تعجبوا منا، فالحذر تظنون أنه يقع في خواطرنا على أحد شيء .

ما قال في كلمة لا إله إلا الله

(1/260)

وقيل له رضي اللّه عنه : خاطركم بالدعاء لفلان بالثبات وهو شخص كبير السن ، فقال : إذا أراد الثبات فليعَضَّ على قول لا إله إلا اللّه ، ويلازمها ، فإن الطريق قريب جدًّا ، وإن كان فيه مشقة ، كطريق العقبة ، تشق مع قُرْبِهِ ، وإنما البعد على من دار عن الطريق ، ولا ترى أحداً يَفتِن أحداً في دينه ، إنما يَفتن من فَتَن أحداً في دنياه ، فلا يكاد أحد من الرافضة ، ونحوهم من المبتدعة ، أن تسمعه يتعرض لأحد ليمنعه عن دينه ليدخله في مذهبه ، وهذه الكلمة [أي لا إله إلا اللّه] سهلة قريبة ، فإذا رضي اللّه ورسوله بقولها مرة واحدة ، بعد كفر كذا كذا سنة ، فأحرى أن يقبلها ممن لازمها مدة عمره ، وإن كان عليه شيء من الكبائر ، فمن لقي اللّه بها يُرجَى منه تعالى له المغفرةُ ببركتها ، وهي التي يشاغب الشيطان عليها ، ويحرص أن يقطع الإنسانَ منها ،

وقد طلب النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم من عمه أبي طالب أن يقولها مرة واحدة يشهد له( ) بها ، وكذلك الدجال لعنه اللّٰه ، إذا جاء يدعي الربوبية ، مع كثرة ما يجيء به من الفتن ، إنما يرضى ممن تبعه أن يقول له بكلمة واحدة ، بأن يقر له بالربوبية ، فكذلك جميع الفتن وإن كثرت ، ففي كلمة التوحيد للإنسان مخلص كاف من جميع الفتن .
وسمعته رضي اللّٰه عنه يوصي بعض السادة فقال : إن أردت تنوير قلبك فعليك بلا إله إلا اللّٰه في جميع أوقاتك ، واجعلها شغلك ، ولا تخرج منها إلا إلى قراءة القرآن ، أو قول : اللّٰه اللّٰه .
ما قال في المهدي

وأمرني رضي اللّٰه عنه أنشد ، فأنشدت بقصيدته على ريم وادي الرقمتين سلامي( ) ، وفيها ذكر المهدي ، وذلك في مسجده الأوابين ، يوم الثلاثاء 21 صفر سنة 1128 ، فقال نفع اللّٰه به : هذه الأخبار التي وردت في المهدي ، وتقريب وقوعها ، بمعنى إنها واقعة لا محالة ، وإن بَعُدَت ، ولما ذكر النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم من أمر الدجال وقَرَّب فيه وبالغ في قرب خروجه ، ظن مَنْ سَمِعَه أنه خارج في وقتهم ، بسبب تقريبه لهم ، وكذلك ما أخبر اللّٰه تعالى من قرب الساعة ، وتفصيل ذلك وتقريبه ، وإخبارُ اللّٰه تعالى على قدره لا على قدر الخلق .

وأنشدت بها أيضاً بأمره بين يديه ، يوم الثلاثاء في دار آل فقيه في 24 محرم سنة 1129 فقال نفع اللّٰه به لأحد الحاضرين : أسمعت ما فيها من البشارة بالمهدي ، وقد بُشِّر به من قديم ، ولكن أمر اللّٰه تعالى على قدره ، والزمان قد كثر فيه الظلم وتَفَاحَشَ ، وسنة كَثُرَ الخريف( ) قلنا لولا أن في الخبر تتقدمه فتن كثيرة ، لقلنا إنها من سنين المهدي ، ولكنه خارج ولا بد ، وإذا ظهرت الشمس

ذهب الظِّلال أو قال الظلام ، وناس يتمنونه ، ويَدْعُون بخروجه ، كل ذلك لأجل الدنيا ، ولو كان يعطي الناسَ حقَّ الناس ، ما كان عادلاً ، وكان جائراً ، وإنما هو يقسم بيت المال بين الناس بالسوية ، ولا يعطي أحداً حق أحد ، ولا أحسن من سؤال العافية ، مع ملازمة أمور التوحيد ، الخاص للخصوص ، والعام للعموم ، والمهدي جامع بين القطبية والخلافة كما سيدنا علي على مقتضى الظاهر والباطن ، وهو مجدد لهذا الدين ، ومعنى التجديد تقرير أمور من الدين بين أيدي الناس ، طال بها العهد فيهم حتى اختَلَف فيها اجتهادهم ، فيقررها على الحق ، لا أنه يخترع من الكتاب والسنة أمراً لم يكن. قيل فيحتاج إلى إلهامٍ من الحق ، يعرف به الحق من الباطل ، أو تقرير الصواب ، قال : لكن كشف الأولياء لا يعمل به في الشرع ، قيل : فالمهدي. قال : أما المهدي فيلزم العملُ بقوله ، لأنه مقرر من الشارع ، وعلومه كلها وهبية ، يفتح اللَّه عليه معاني الكتاب والسنة ، فيقرر الأحكام الشرعية على أكمل وجوهها ، وعلى الوجه المحبوب عند اللّه ورسوله ، وهذا هو علم أهل البيت النبوي ، كما قيل لسيدنا علي رضي اللّه عنه : هل خصكم رسول اللّه صلّى الله عليه و آله وسلَّم بعلم دون غيركم ، قال : لا ، إلا فهم في كتاب اللّه .

وحضر عنده رضي اللَّه عنه جماعة جاءوا من الحج ، فقال : الناس مشتاقون إلى النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم أكثر من شوقهم إلى البيت ، ولكن يمنع من ذلك الضعف ، وقلة الطاقة ، وذكروا من رخص أسعار الحرمين ، فقال : إذا صلحت أمور الحرمين ، صلحت جميع الجهات ، لأن جميع الناس إنما هم على اللّه ورسوله .
وذكر رضي اللَّه عنه أشياء من أمور الأولين ، خلفاء وغيرهم ، فقال نفع اللّه به : أمور التواريخ لا يحتملها ذو العقل الضعيف ، لأنه يحصل له من ذلك عِبَرٌ ومذكِّرات ، فلا يبلغه عن أحد فاضل ولا مفضول ، إلا وله حساد ، وعليه نمّامين ، وناس يريدون الغدر به ، مع أن الزمان صالح ، والناس أهل

دين ، والخير ظاهر أظهر من الشر ، فكيف في زماننا هذا .

أقول : فلهذا كان سيدنا نفع اللَّه به ، لا يثق بأحد من أهل الزمان ، حتى يأخذ حذره منه ، وقد قال رضي اللّه عنه : حصل لي مرة بعض مرض في الدماغ والرأس ، فجاءني فلان بدهن الورد ، فلم أقبله منه ، وهو لنا صديق ، غير كرهته لِمَا نعلم من ضعف عقله ، فلم نثق به ، ونحن لا نقبل من أحد دواء إلا أن يكون فيه خصلتان : العقل والنصيحة ، فلا ينبغي أن يأمن كُلَّ أحد ، لأن الطبائع تختلف ، والجهات تختلف ، والأدوية تختلف ، والمقاصد تختلف ، وقد حصل بيننا كلام وبين رجل ركب معنا في البحر ، عندما سرنا إلى الحج بسبب الماء ، لما رآنا نأخذ منه ، ويعطونا أكثر مما يعطونه ، فقال للنوخذا( ) له : هذا ماء حملوه معهم ، وقد حملنا معنا مَلاَء جحلة( )، أو قال أكثر ، فقال : أريد النزول ، ولا صبر لي على هذا ، فنزل ليلاً ، فلما كان الصبح جاءنا رجل في المركب ، بقدح فيه ماء مذاب فيه سكر أبيض ، وكان الوقت صيفاً ، وقال : هذا لكم هدية من بعض المحبين ، يبرد عليكم ، فقلنا : لعله أن يكون من ذلك الرجل ، فأخذت منه قليلاً ، ثم ناولته لآخر لعدم ثقتي به ، لما وقع بيننا وبينه فسألت عنه. فقيل : قد نزل من الليل ، وكان ذلك من غيره ، وكذلك الملوك لا يأكلون طعاماً ، ولا يشربون ماء ، حتى يأخذ منه الذي أتى به خوفاً من وقوع شيء ، وهذا في مقابلة ما يأخذونه من نعيم الدنيا، فإنها منغصة، وأيضاً فَالْوَهْمُ قد يعمل مع الإنسان في شيء ما منه شيء.

تحري النية في الأمور المباحة

وقال رضي اللَّه عنه : الأمور المباحة ينبغي أن يتحرى لها الإنسان نية ، فإن لم يجدها من نفسه ، فليسأل عنها أهل العلم المأمونين ، وأَخْبِرْهُ بأمرك

الذي تريد فعله ، من بناء دار أو خلع( ) نخل ، وغير ذلك ، وكانوا يتحرون النية ، ويتعلمونها كما يتعلم الصغار القرآن ، وقد أدركنا منهم جماعة ، بنوا غرفاً بقَدْر حاجتهم إليها ، يبنون قدر ما يحتاج إليه في الحال الحاضر ، فإذا تزوج أحد من العيال ، واحتاج إلى منزل وحده ، بنى ذلك ، فإذا تزوج آخر فكذلك ، وعلى هذا تصير الدار كبيرة ، بتكرر الاحتياج .
ما قاساه من أهل تريم ، وقصة آل باكثير

(1/266)

وذم رضي اللَّه عنه ما يتعاطاه بعض الناس ، من التهاون بالصلاة والزكاة ، ثم قال : قد قاسينا من أهل تريم من شرارهم مقاساة شديدة ، لأنا جلسنا لهم مجالس لم يعرفوها ولو رأينا منهم قابلية ، بانتفاع في دينهم ، كنا جئناهم إلى بيوتهم ، وما معنا ومعهم شيء إلا إن كان بالعناية ، نحن وإياهم ، وإلا فقراءة الكتب ومطالعتها ، قد فعلنا من ذلك( ) ما شاء اللّه ، وما جئنا بشيء( )، وما عاد مثلنا ومثلهم إلا مثل حكاية عن أحد من آل باكثير ، ناموا في بيتهم ليلاً وتركوا الباب مفتوحاً ، فدخل سارق يدوّر( ) في البيت شيئاً يسرقه ، فلم يجد شيئاً ، فأحس به بعضهم ، فقال له : ماذا تريد ، نحن أعرف ببيتنا منك ، وقد دورنا فيه نحن قبلك في النهار ، فما وجدنا شيئاً ، فلا عاد تتعب نفسك بلاش ، فقال السارق : أسحقكم اللّه فلأي شيء جلوسكم في هذه الخرابة ، فهذا مثلنا نحن وهم ، وما رأيناهم إلا مخلِّين بصلواتهم ، وزكواتهم ، ومن أخل بذلك فهو ظالم ، ورأيناهم مرائين ، ومن لا ينتفع بما يسمع من العلم فلا عاد يروح يدور عالماً ينتفع به ، ويوم تِنَبّون عليهم حتى يأخذوا منهم زكاة عشرة أرطال ، فمن أي شيء هذا إلا من ظلمهم ، فإن اللّه سبحانه لم يطرح حجره على بعرة( ) ، وستر اللّه جميل، ولكن من لا عرف نفسه ما يعرفه أحد، أو كما قال.

(1/267)

ودخل عليه رضي اللَّه عنه بعض السادة ثامن نجم النطح ، فقال سيدنا نفع اللّه به : في الوقت يٌريد ، وفيه فائدة ، ولو لم يكن من فائدته إلا أنه يذكّرك نعماً تحصل لك ، وقد كنتَ فيها ، والفكر أفضل الأعمال ، ولا محل الفكر إلا الدنيا ، وأما الآخرة فلا محل له ، وإن وجد فيها فما هو إلا حسرات ، كما حكى اللَّه عنهم : {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}( ) ، لأنهم ضيعوا الفكر في وقته ، والقرآن فيه كل شيء ، إلا إنه ما يعقله إلا العالمون ، وعهدة بيانه إلى النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم على الإجمال ، وتفصيله( ) إلى العلماء وهو الاستنباط ، وشيء بيَّنه للناس هذا البيان ، لأن الاستنباط ليس كالوحي ، والإنسان مأمور بالتفرغ للدينيات ، ويصطفي منها ما هو الأحسن ، لأن أمور الدين مختلطة ، تستخلص بالفكر ، والأمور ما تبغا إلا همة وفكر وفراغ .

ما قال في قوله تعالى : سنفرغ لكم ، الآية

وما قال تعالى : { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ }( ) ، إلا أنه سبحانه أمرهم بأشياء ، وطلب منهم أن يتفرغوا لها، فلما لم يتفرغوا كافأهم اللّه بما يناسب حالهم ، أو قال مثل عملهم.

ما قال في عقائد أهل حضرموت

وذكر رضي اللَّه عنه ما يُتعارف بين الناس في لغاتهم وعوائدهم ، مما لا مخالفة فيه للشرع ، فقال : اعمل على الأمر المعتاد بين الناس ، ولا تشذ عنهم حتى يتبين لك بطلانه ، فحينئذ إتبع الحق ولا تشذ ، فإن من شذ شذ إلى النار ، لأنك ما عندك علم تُعوِّل عليه ، ومثل هذا يحتاج إلى علم ، وأهل الجهة قدهم مؤدبين في عقائدهم فقد كان فيها علماء ، والعلم فيهم ظاهر ، ألا ترى العامي يقول لخصمه : حسيبك اللّه ، واللّه مُطّلع عليك ، والنصيف اللّه منك ، ونحو ذلك ، فهذا هو الاعتقاد فيُكتفي منهم بما اكْتَفَى به النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم من العامة وأجلاف العرب ، فلا تذكر لهم البرهان( ) ، وكلام أهل الكلام ، فإن ذلك يشككهم ، وأين الناس اليوم ، فإنهم

موتى ، لو جَرَّيت برجْل أحدهم ما علم ، فلا تخض مع الناس في أمور الاعتقاد وأمور الآخرة ، إلا فيما يوجب الخوف وتأكيد الاعتقاد .
وقال رضي اللَّه عنه : اليوم ما يذوق بالفضائل إلا من هو من أهلها ، أو قريب من أهلها ، أعني الفضائل الظاهرة ، خَل الباطنة فما فيها خوض ، والأشياء إلا بالحظوظ ، حتى إن رجلاً من أهل الكشف ، ذكره الشعراوي اسمه الفرغل ، وهو عامي لم يقرأ ، فسمع قارئاً يقرأ ، فبعد ساعة قال له : غلطت ، قال : وما علمك؟، قال : كان يخرج من فيك نور ، ثم بعدُ لم أره يخرج ، فنظر فإذا هو قد انتقل من مقرأ إلى مقرأ ، وهذه أمور السماع ، ما يذوق بها إلا من يَعْرِف ، إنْ ما ذاق بالصوت ، ذاق بالمعنى .
ما قال في بامخرمة

وذكر رضي اللَّه عنه بامخرمة ، وقال : في كلامه حِكَم ، ولو هو على هيئة كلام العامة ، فإنه عالم صوفي ، صاحب رياضة ، ما هو صوفي جاهل ، قلت : هل كان في عسكر فلان( ) الكثيري لما دخل تريم؟، قال : نعم ، وقد قيل له في ذلك ، فقال : ما تبعته ، إنما تبعت السَّعد وهو معه ، كما إن الشيخ عبدالرحمن( ) كان من حيث الغيب في عسكر فلان الكثيري ، لما دخل شبام ، حتى قال الشيخ معروف باعباد ، لبعض جماعته : انظر من معه من الصالحين ، فنظر فقال : معه الشيخ عبدالرحمن ، فأهل الباطن لهم أحوال ، تعرف من قصة الخضر فاستمد منها .
ما قال في طلب العلم
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي للإنسان أن يتبحر في فن من العلوم ، حتى يُنسب إليه ويُعرف به ، قال سيدنا علي كرم اللَّه وجهه : مَن أكثَرَ من شيء عُرِف به ، ويتطرف في البقية من كل فن ، ويأخذ مجامعها وجملتها ، حتى إذا سئل عن شيء ، فإذا هو معه فيه معرفة ، ولا يكون جاهلاً ، ولهذا صنف الإمام السيوطي النقاية( ) وشرحها ، وإذا حفظ علماً حفظ جميع العلوم المتعلقة به ، بحيث إذا اقتصدتَ واقتصرتَ فيه كنت فيها كذلك مقتصداً ومقتصراً .

وقاعدة : من كان عارفاً بعلم ومتحققاً فيه ، إذا سمع من يتكلم في ذلك العلم الذي يحسنه ينبغي له أن يسكت ولا يتكلم ، فيظهر نفسه ، فإذا تكلم فإن ذلك يُعَدُّ منه سخافة ، وكثير ممن معه باب أو عشر مسائل يتكلم مع كل من سمعه يتكلم في شيء من المذاكرة ، وخير لك أن تحسن عشر مسائل وتتقنها من أن تقرأ كتاباً تامًّا لا تتقنه ، وقد جاءنا رجل وكان يغلب عليه السكوت ، لا يكاد يتكلم ، مع أنه يسمع المذاكرات فلا عُرِفَ ، فإذا هو يدِّرس في المذاهب الأربعة .

وقال رضي اللَّه عنه لرجل من السادة يريد السفر : آل باعلوي ما هم إلا بالمسابح والأوراد ، وما هذا ، يعني الأسباب( ) إلا حق الضرورة ، الذي لا بد منه ، ومن خَرَج عن طريقة أهله ، صار مثل الغراب ، أعجبه مشي القطاة ، فأراد أن يمشي مثلها فلم يحسن ، ثم رجع إلى مشيته ، فلم يعرفها ونسيها ، وما يحسن بالإنسان إلا طريق أهله ، فقال ذلك السيد : قد بَعُدنا منها، قال سيدنا : مازلت قريباً منها ، فأنت عليها ، ومن تركها بالكلية ، فهو الخارج منها و اللَّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وما على الإنسان أن يحفظ إلا دينه وطريقته ، والطريقة ما هي إلا القراءة والتسبيح والصلاة الجائزة ، ما هو إذا نزل المنزل غفل ولَهَا ، وجعل يهذي ، ويصلي صلاة غير جائزة ، أو أخرجها عن وقتها ، وأَعِدَّ (يس) لكل مهم ، وفيها سر عظيم ، وعليها مدار كبير ، حتى على ألسنة الناس ، والسادة آل باعلوي ما يحسنون يربون الجاه ، لأن أصلهم الفقر والمسكنة ، وأهل الجهة لا يعرفون أمور الجاه ، وإن حصل شيء منه أتلفوه ، والجاه ما يكون إلا على جماعة مقتربة ، فإن قَوِيَ عنها ، كان على بلدان ، فما هو إلا ولاية ، ما يقوم بها إلا ولاة الأمور ، والأمور اليوم تفلّتت عن قواعدها المعتادة ، فالجاه يبغى عرف ، والمال يبغى عرف ، فإن فات العرف فاتت الأمور ، وقاعدة : أوائل الأمور تكون سهلة ثم يكون الإشكال في أوساطها ، كالبحر أول ما تدخله يصل إلى الكعب ، ثم

إلى الركبة ، ثم إلى الوسط ، ثم تحتاج بعد ذلك إلى السنبوق ، ثم إلى المركب الكبير ، إذا توسّطت فيه( ) الغبة ، والغريق لا ينجي الغريق ، فإن طلب منه أن ينجيه راح هو وإياه ، قيل : فعسى ببركاتكم تتيسر الأمور ، فقال : بركات الفقيه خير ، وذاك مع انتظام الأمور ، وأما حكاية من يقول أنا أمير ، وأنت أمير ، فمن يرعى الحمير ، والاستعجال ما يحسن ، ومن في نفسه شيء ينبغي أن يطويه ، ومن كذب في شيء لغير غرض فأحرى

(1/271)

أن يكذب إذا كان له غرض ، وإن اللّه لينتقم بالظالم من الظالم ، ثم يرجع ينتقم منهما ، كما قال الشيخ عمر بن أحمد : هي تقع إلا ما بين عاجل وآجل ، فقد كان آل باغوث خيراً من هؤلاء ، ولا فعلوا عشر فعلهم ، فجعلهم اللّه عبرة ، حتى صاروا سُوَّالاً ، يطلبون على الأبواب ، ولا أحد يرثى لهم ، والعقوبة ما شرطها أن تقع على يد من تسلط بسببه ، ولكن يكون ذلك لا محالة ، على يده أو على يد غيره ، ونحن ما بيننا وبين آل فلان وحشة ، حتى في كلمة واحدة ، وما نسير معهم إلا على ما يريدون ونخلّيهم وما أرادوا ، ولكن طريقهم إلى النار ، حتى إذا كتبنا لهم نكتب فلان الفاعل التارك( )؟، وليس طريقنا الهتك والعنف ، وإنما طريقنا الرفق واللطف ، وما سلكنا مع أهل الزمان إلا بالرفق واللطف ، لا بالشدة والعنف ، وإلا لكنا خرجنا من بيوتنا ، بسبب ضيقنا منهم ، لا بسببهم .

ما قال في الفئة الطاغية في الجهة

ثم قال نفع اللّه به : وحكاية هؤلاء( ) في الجهة مثل حكاية بخت نَصَّر في بيت المقدس مع بني إسرائيل ، إلا كل شيء على قدره ، من حيث الزمان والمكان والناس ، وإن كان الأمور لا بد فيها من التقدير ، فلما حصلت منهم تقصيرات وذنوب ، حصلت لهم العقوبات ، وإن كان أولئك كفاراً ، وفي تلك الأرض أولاد الأنبياء ، فهؤلاء يقولون : لا إله إلا اللّه بألسنتهم ، وقلوبُهم خلية منها ، وبين أظهرهم الأشراف ، وأولئك قد جاسوا خلال الديار ، فكذلك

هؤلاء بل نزلوا في الديار ، فزادوا عليهم بهذه ، ثم أنشد هذا البيت :
فأين اللّه والقَدَرُ ... ولا تيأس أن ترى فرجاً
والدنيا كلها إلى نقص ، ولكن قد ينقص في بعض الزمان الدين والدنيا ، فانظر كيف صار أهل البدعة من الزيدية وأهل عمان في هذا الوقت خيراً من أهل السنة ، لما في أرضهم من الأمان ، وشفقتِهم على الرعية .
كثرة الظلم في حضرموت

(1/272)

فَأَجِلْ ذهنك ، هل ترى اليوم أظلم ولا أجور ، ولا أزعل من حضرموت ، ولا عاد تقول إلا خيراً ، فإن هذه الأخبار قد سارت بها الركبان ، وانتشرت في كل البلاد ، فلا عاد تصيح إلا إلى ربك ، فقم له في آخر الليل لا تنام ، ولا عاد تنفع الشكوى من ظالم إلى ظالم ، فتراك إذا اشتكيت إليه ، جعل يستهزئ بك ، ولا يبالي بك ، وهذه أمور لو رآها الإنسان في النوم استبعدها جدًّا ولو فَعَلَ مَن قَبْلَ هؤلاء بعضَها لانقلبت عليهم البلاد ، فكيف ناس من ضُعْفهم لا يعرفون الدراهم ، يُدَفِّعونهم قروشاً ، لكن عسى رحمة من اللّه ، لا تيأس من اللّه ، ما هو إلا إذا جاءك ما يسخطك من الخلق ، فافعل ما يرضي اللّه ، وابقوا على فقركم وهِجْرتكم حتى إن راح قليل من الدنيا ، بقي الدين سالماً أو كما قال .
وذكر رضي اللّه عنه امتداد مدة الظلمة في الجهة ، ولم يصبهم شيء ، فقال : هم مع ظلمهم ، وهؤلاء مظلومون يدعون عليهم وإنما زادهم الدعاء عليهم جراءة ، ولو أن دعاء المظلوم مستجاب ، لكن اللّه سبحانه حليم لا يعجل ، فإذا أخذ أخذ بمرة واحدة ، فعسى يحصل للناس فرج من السماء ، وقد أفرط بهم( ) الطمع ، حتى غيروا على أنفسهم وانجرَّ الغَيارُ على الناس ، وما هذه صفة من له عقل ، لأن العاقل يجر لنفسه ما ينفعها، وهؤلاء نفروا الناس وأضعفوهم ، وما عاد أهل الزمان إلا كحيتان البحر ، يأكل الكبير منها الصغير ، والوعد القيامة قال اللّه تعالى : { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لأَتٍ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ}( ) ،

وما عاد لهم وعد إلا القيامة ، ولم يبلغنا فيما سمعنا إن حضرموت صارت إلى هذه الأمور في وقت من الأوقات ، وكثرة الحركات وشدتها على الضعفاء والمساكين ، وهي حركة الفعل أفعال الخلق ، لا حركة الباطن حركة المقادير.
وقال رضي اللَّه عنه : حصلت في نحو خمس سنين ، أو ست سنين مصائب ، ولم نرها إلا مختصة بأهل البيت ، وإن تَمَّتْ هذه فهي آخرهن( ) .

وذُكِر له رضي اللَّه عنه وهو خارج من البلاد إلى الحاوي : أنَّ عمر بن جعفر أتى بمحطة من القبلة على يافع ، فخرج يافع إليهم ، فالتقوا معهم ، أو مع بعضهم بطرف حذية( ) ، فانكسر أهل القبلة ، فقال لي : أتحفظ هذا البيت :
وَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِب الغَلاَّب ... زعمت سخينةُ أن ستغلبُ رَبَّها
قال : وسخينة لقب لقريش .
وقيل له : إن فلاناً تولى وتفاسل( ) معهم ، فقال : فَلِمَ يدخل العار وقد جرّب ، والعار هو نار الدنيا، ولم يحسن ، ودخول الأمور من غير أبوابها عسر تريد تدبيراً أولاً .
وقال رضي اللَّه عنه : لا تحسب أن الزمان كان صافياً فتكدر ، بل كان متكدراً من قديم ، وإنما زاد كَدَرُه الآن .
وقال رضي اللَّه عنه : هكذا الدنيا يستولي إدبارُها على إقبالها ، وأحسن ما ينبغي في هذا الزمان قطع العلائق ، لأن الزمان مظلم ، وخرجت فيه ظلمات الساعة .
وقال رضي اللَّه عنه : الزمان هكذا كلما ابتنى فيه الأمر من جانب ، انهدم من جانب ، حتى إن بعض ملوك الجهة سَأَلَنَا ، وقال : ما أراكم قمتم بنا على سيرة الخلفاء الراشدين ، فقلنا : إن هذا بسبب الزمان ، لا لتقصير حصل ، فإذا كان عمر بن عبدالعزيز رحمه اللَّه لم يمكنه أن يسير بسيرتهم من كل الوجوه ، بل قرب من سيرتهم جدًّا ، فكيف يمكن في هذا الزمان .

وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان فيهم تَشبّح ، ومن لم يتشبح تشبحوا له ، وعَادَ ضررُ ذلك عليه .
ما قال في من قال من أهل الشطح

وقال رضي اللَّه عنه : اعمل للَّه خالصاً ، لا لشيء آخر ، ثم إن أعطاك بعد ذلك شيئاً ، فهو من باب الفضل والمنة ، ولا يسع أمور الآخرة إلا هذا ، ومن خالفه ممن قال من أهل الشطح : بنقصِ مَن عَمِل رَجَاء الجنة أو خوف النار ، ونقله الناس عنهم ، وسموهم لذلك زنادقة ، لأن هذا مذهب الزنادقة( ) ، وكلما كثر الشطح كثر الاعتراض ، والإخلاص ما يتبين إلا بالامتحان ، ولو هو يسمع الكتب وما يُذكر فيها ، فإن الهوى لا يذهب ، إنما هو مختفي كاللص ، ولا يموت ، وإن اختفى قليلاً فما تحس به إلا وقد ظهر عند مقتضاه ، انظر قصة الذي دعته نفسه إلى الجهاد ، فخالفها حتى تبين له أن موجب داعيتها ، أن يموت قتلاً في الجهاد ، فيتحدث الناس أنه استشهد . ما هو إلا كن لربك على نفسك ، حتى يكون لك ، ولا تكن لنفسك فلا يكون لك ، وقد دخل الرياء وغلب الهوى على الناس حتى في العبادات ، أو كما قال .
ومر في القراءة في شرح الحِكَم ، في قراءة السيد زين العابدين ، كلام يتعلق بمحبة المدح وكراهة الذم ، فقال نفع اللّه به : المقصود من ذم النفس الذي يذكرونه ، أن يكون الإنسان أجنبيًّا من نفسه ، حتى لا يتبعها في باطل ، كالعدو لا يؤمن ، وإلا فلا حاجة إلى أن يذم نفسه ، أو يذمه غيره ، بل إن كان ذا علم وصلاح ، فمدحه قربة ، ولا عبرة بذمه لنفسه ، بل الشأن إذا جاءه الذم من غيره بديهة( ) ، وإلا فكم إنسان يذم نفسه إظهاراً( ) ، ثم لو ذممتَه بما ذم به نفسه ، قامت عليه القيامة ، ثم قال : التواضع والخمول نعمتان ، ما يُغْبط عليهما أحد .

وذُكِر عنده رضي اللَّه عنه بعض الناس بأدب ، فقال : أكثر هذه الآداب تكون عند الملوك ومن يتصل بهم ، وإنما يكون الشيء عند ظهور مقتضاه ، فقد يغلب الطبع الأدب عند ظهور مقتضاه ، فإذا ظهر ما يقتضي أحدهما( )، ظهر كما في قصة هِرٍّ بعض الملوك ، لما أدبه فتأدب ، حتى صار يطرح الشمعة على رأسه ، فلما رأى في بعض الأيام لحماً مطروحاً ، أو فاراً مر به طفر( ) له ، ورمى بالشمعة ، فقيل لصاحبه في ذلك ، فقال : غلب طبعُه أدبَه .

ترك الأدب في محله

ودخل عليه رضي اللَّه عنه بعض طلبة العلم من السادة ، وكان صغير السن ، وعنده رجل من السادة شيبة ، فجعله بينه وبين ذلك الشيبة ، فقال له : اجلس ، وفلان ما نحاذره ، قال هو : لكن تقديم الكبير في المجلس من الأدب ، وإن كنت أريد القرب من مجلسكم ، فقال سيدنا نفع اللّه به : الأدب يعفى عنه في بعض الأوقات ، وفي بعض المجالس ، إذا عَرَف عند ذلك من أهل الأدب أنهم يؤثرون منه ترك الأدب ، فتركُ الأدب مع المحبة من حسن الأدب ، فقد قال ابن عربي : جلست مرة مع جماعة ، وبقوا متأدبين ، حتى ضِقْت من تأدبهم معي ، وكنت أريد منهم الانبساط ، فلم يفعلوا ، فصنفت كتاباً سميته كتاب "الإرشاد في خرق الأدب المعتاد" . فذكرته يوماً لجماعة كانوا جالسين معي في بعض الأيام ، فقالوا : أرناه ، قلت : ما هو حاضر الآن ، ولكني أحفظ منه الآن باباً، قالوا : أرْوِه لنا ، قال : فناولت رجلي أكبرهم ، وقلت له : فصها( )، ولذلك شاهد من السنة وهو إن النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، لما كان جالساً في بعض الأيام ، في بعض الأماكن ، وكان كاشفاً عن فخذه ، فدخل عليه أبو بكر ، ثم عمر ، وهو كذلك حتى دخل عليه عثمان ، فغطى فخذه ، وكان لأبي بكر وعمر منه من الانبساط إلى هذا الحد ، ولعثمان من الحياء كذلك ، وفي ذلك شاهد ، ثم لما دخل سيدنا علي والمكان غاص ، فلم يجد له

مجلاً ، فقام له أبو بكر وأجلسه بينه وبين رسول اللَّه صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فشكر صلّى الله عليه و آله وسلّم لأبي بكر رضي اللَّه عنه ذلك ، وقال : يا أبابكر أنت من أهل الفضل ، فإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهلُ الفضل ، وإنما نزلت آية :{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا}( ) في أهل بدر ، يتفسح لهم من ليس من أهل بدر ، لأنه كان عليه السلام ، إذا جلس يَسبِقُ إلى مجلسه من يحضره من غيرهم ، فإذا أتوا إذ المجلس ملآن من غيرهم ، فأُمِروا بالتفسح لهم ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : كانوا ينظرون لمن يتولى شيئاً من الأمور، من قضاء أو صدقة مسجد وغير ذلك، ويعينونه ، فصاروا اليوم ينظرون ويتتبعون له الزلات ، فغلبت العمومية .

ذم من يدخل وسط الجابية

ثم ذمَّ نفع اللَّه به من يدخل وسط الجابية يغتسل ، وقال : إذا رؤي الماء بعد الدخول متغيراً تغييراً فاحشاً حكم بنجاسته ، كمسئلة الظبية ، مع أن الإنسان لا يخلو في بدنه وعورته من نجاسة في الغالب ، خصوصاً في العوام ، والمحترفين كالضَّعْفاء( ) ونحوهم ، ولكن إذا ضاق الأمر إتّسع ، قيل : وأيضاً فيه إسراف ، فقال : نعم ، واللَّه لا يحب المسرفين ، وإذا قال اللَّه في شيء إنه لا يحبه ، فابحث عنه ما هُوَ لتَعْرفه .

معرفة موازين القرآن

وقد ضاعت من أيديهم الموازين ، حتى يقرأ الإنسان القرآن من أوله إلى آخره ، ما يعرف لآية معنى ولا يهمه أن يعرفه ، وأعجب من ذلك إن رجالاً لا يقرأون القرآن ، يَمَلُّون من سماعه ويضيقون منه ، وكان ينبغي لمثل هؤلاء أن يشتاقوا لسماعه ، لعدم ممارستهم ، إذ من يقرأه فربما به ملل ، وأما هؤلاء فما عذرهم ، ثم قال : وما هو الميزان المذكور في القرآن ، أهو( ) القَفّان أو موازين البيع( )؟ . إنما هو تقدير الأمور ومقايستها ، ونسبة الشيء إلى مثله ومقابلته بضده ، وأول ما حصل الغَيار من مجيء

الزيدية ، وبقيت كالنار تزيد ، ولا يدرون ، وكان حصوله باختيار أهل الجهة واختيار الزيدية( ) ، وكان في الجهة عسف والزيدية مظهرين الدين ، وما كانوا أهل دهاء ، وأرادوا أن يولوا أحداً منهم ، فغلبوا عليهم لئلا يصير في الجهة ظلمان ، أو قال ظالمان ، وأما اليوم فما هو إلا شعق( )، تَلِفَ الشيء بالكلية ، وما مَثَلُه إلا مثل الرضة( ) ، أو مثل الفار ، فما عاد إلا لا تيأس من اللّه أن يأتي منه فرج كما قيل : إن أبا عمرو القاري( ) خرج من بلاده فارًّا من الحَجاج ، فخرج إلى مكة ، فبينما هو يطوف أو يسعى سمع رجلاً ينشد( ):

إن في الصبر حيلة المحتال
ـــــر له فَرْجَةٌ كحل العقال
رب أمرٍ أتى بغير احتيال ... صبِّر النفس عند كل ملم
ربما تحرج النفوس من الأمـ
لا تضق( ) في أمورك ذرعاً

وذكر رضي اللّه عنه : الاقتداء عندما مر في القراءة ، الأسرار الثلاثة في الأربعين( ) ، فقال : الاقتداء على درجات وكل درجة فيها أعلا وأدنى ، وعموم وخصوص ، حتى ينتهي إلى أن يصير كالميت بين يدي الغاسل ، ودون ذلك درجات كثيرة ، ولو أن يشاور في أمر أراد فعله . ومن بقي يفعل كلما أراد من غير توقف على رأي أحد غيره ما يمنعه إلا العجز وعدم التمكن فهذا قلبه خارب .

ما قال في الذهن

وقال رضي اللّه عنه : ذهن الإنسان كالماء ، إنْ كَثُرَ صُرِفَ في أماكن كثيرة ، وإن قل لا يحتمل إلا دون ذلكَ .

وذكر رضي اللّه عنه بعض المصنفين ، لما ذُكِر كتابُه ، فقال : إنه لم يتم له مقصوده في كتابه لأنه تبجح به ، والعُجُبُ ما يحصل معه شيء ، سواء كان من عالِم أو من عامي ، فينبغي لمن أعجب بنفسه ، أو بشيء مما يخصه ولو ثوبه ، أن يخفض من نفسه .

وقرئ عليه أول الورد الذي فيه يا باسط عشراً ، فقال : هذا ، يعني المكرر ثلاثاً وعشراً ، إنه من

أذكارنا السرية ، التي لم نُظهرها ، وإنما استرقه منا بعض الناس ، فلان أو غيره ، ولكن من أخذ شيئاً من الأمور السرية ، لا يبارك له فيها ، حتى يأخذه من صاحبه ، وأما قوله أبسط علينا الخير إلى آخره ، فهو من أذكارنا( ).

(1/279)

وقال رضي اللَّه عنه : استكثر من أعمال الخير ما استطعت ، وخذ منها ما تطيق المداومة عليه ، ولا تحقر منها شيئاً. فقد رؤي الإمام الغزالي في النوم بعد موته ، فقيل له : ما فعل اللَّه بك؟، فقال : غفر لي ، فقيل : بم ذلك؟، قال : بذباب بَرَّح( ) على القلم وأنا أكتب فتركته حتى رَوِي ، فإن الخير كله في أمور الخير السهلة ، التي لا تراها النفس ولا تعدها شيئاً ، وأما التي تراها وتعتد بها فإنها يتطرق إليها البطلان ، إما من جهة الفاعل أو المفعول معه ، أو الحاضر بينهما .
تعزية وتسلية
وذُكِر عنده رضي اللَّه عنه رجل مات له ابن ، فتعب عليه كثيراً ، فقال نفع اللَّه به : لا بد للإنسان من الصبر ، وإن لم يصبر رجع إلى التسلية ، فإن الإنسان يتسلى كما تتسلى البهائم ، فقد مات آباء الإنسان والأعِزة عليه ، والناس مع الموت إلا مثل القافلة ، هذا قد حط ، وهذا يسير ، وهذا يُحَمِّل ، ومن مات ما عاد عُرِف له خبر ، وغفل الناس عنه ، كأن لم يكن ، فإن الناس في دعوة الملائكة ، فإنه ورد : ((إذا وضع الميت في قبره قالت الملائكة لمن حضر : إرجعوا إلى دنياكم ، أنساكم اللَّه موتاكم)) ، والمصائب أول ما تبدو عظيمة ، ثم لم تزل تضمحل ، حتى تفنى كلها، وهذه الدنيا كثيرة البلايا والمصائب ، ولهذا زهد الصالحون فيها.
وكلم رضي اللَّه عنه رجلاً ذهب بصره ، رأى عليه أثر الجزع ، فصبّره وذكر له قصة عروة بن الزبير ، ثم قال : إن اللَّه يعطي عبده الكثير ، وقد يأخذ منه القليل ، ليدخره له عنده ، وتفكرْ في نعم اللَّه الماضية عندك والموجودة ، وذُكِر أن ابن عباس لما ذهب بصره أنشد :

ففي لساني وقلبي للَّهدى نور ... إن يُذْهِبِ اللَّه من عينيّ نورهما
وفي فمي صارم كالسيف مأثور ... عقل زكي وقول غير ذي خطل

وقال رضي اللَّه عنه : من طبع النفس إنها إذا ألفت الراحة ثم حصلت لها مصيبة ، أنها تجزع ، وهذا الطبع موجود حتى في الأكابر ، إلا إنه فيهم ضعيف ، وفي غيرهم قوي ، وأصل الإيمان موجود في الكل ، إلا إنه عند ذلك يبقى في الأكابر قويًّا ، وفي غيرهم ضعيفاً .

ما قال في حديث أن لا تغضب

وقال رضي اللّه عنه في حديث( ): ((أن لا تغضب)) : أنه عليه السلام قال ذلك لرجل كان كثير الغضب ، وكانوا( ) يغضبون غضباً شديداً ، حتى يفعل أحدهم أموراً ، ويقول أقوالاً مذمومة من غير ضبط ، وفي الحديث( ): ((إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)) ، أي لا يملكها إذ ذاك إلا قوي ، أعني قوي الإيمان والعقل ، فلا يقول ولا يفعل إلا ما ينبغي له .

ما قال في معنى حديث : ((ما جلس قوم .. الخ))

وفي حديث( ) : ((ما جلس قوم مجلساً ـ ـ الخ)) ، يعني : أن المجلس لا يخلو أن يكون معموراً بحرام أو فضول في الغالب ، فإذا لم يحصل ذكر يكفر ذلك كان عليهم تِرَه وحسرة على فعلهم .

بركة لا إله إلا الله . وذكر العمود

وأوصى رضي اللّه عنه رجلاً ، فقال له : اللَّه اللَّه في الهمة ، وفي الذكر بلا إله إلا اللّه ، فإذا خرجت هذه الكلمة من الصادق مع الهمة ، يكون لها عمود ، حتى تبلغ إلى عند العرش ، قال اللّه تعالى : { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ }( )، وهو لا إله إلا اللّه :{وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ } وهي الهمة ترفعها إلى أن تبلغ بها إلى عند الحق تعالى .

أقول : ومما هو شاهد لكلام سيدنا نفع اللَّه به ، ما رأيته في تاريخ بغداد( ) للخطيب أحمد بن علي بن ثابت بن عساكر ، من رواية أحمد بن محمد السمرقندي ، بإسناده إلى ابن عباس ، في قوله تعالى : { هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ }( ) ، قال : إن للّه عموداً أحمر ، رأسه مَلْويّ على قائمة من قوائم العرش ، وأسفله تحت الأرض السابعة على ظهر الحوت ، فإذا قال العبد : لا إله إلا اللّه ، تحرك الحوت ، تحرك العمود ، تحرك العرش ، فيقول اللّه تعالى للعرش: اسكن ، فيقول : لا وعزتك لا أسكن حتى تغفر لقائلها ما أصاب قبلها من ذنب ، فيغفر اللّه له .

وقال رضي اللَّه عنه في معنى : ((ووسعني قلب عبدي المؤمن))( ) : أي وُسع معرفة ، وحمل الأمانة .

ما قال في حديث الأئمة من قريش

وفي حديث( ): ((الأئمة من قريش)) ، قال : الأئمة في الدين والعلم ، ومن كان منهم ضَعيف الدين جاهلاً ، بأي وجه يستحق التقديم ، بل يتعين عليه يجتهد أن يصير عالماً تقياً ، ليصير أهلاً للتقدم .

وقد قال الشيخ علي بن أبي بكر رضي اللَّه عنه : تفخسس( ) تسلم ، لا تكن عقرباً تقتل ، كن ذَنَباً في الخير ، ولا تكن رأساً في الشر ، فإن الرأس أول ما يقطع .

وقال رضي اللَّه عنه : أهل الزمان عَدِموا الصبر والإحسان ، فإن عدموا اليقين والعياذ باللّه فقدت ثلاث أثافي( ) الدين ، فانكفأت بُرْمَتُه( ).

وقال رضي اللَّه عنه : طريقتنا إذا أردنا شيئاً فغالَبَنا فيه أحد ، تركناه له .

وقال رضي اللّه عنه : الأولاد في هذا الزمان ، بَغَوْا( ) منك صبراً ، وإلا حرمتهم وأشغلتهم ، والولد في هذا الزمان ، لا يؤمن على الأهل ، فكيف بالأجانب ، لأن الدين ضعف جدًّا ، ومن لا دين فيه كيف يصح منه الورع ، والورع إنما هو خوف من اللَّه ، ومن يفرق بين التمرة والجوهرة( ) ، فلا تأمنه على الورع .

وعتب رضي اللَّه عنه على رجل في تركه أهله من غير مراعاة لهم في أمر المعيشة وغيرها. فقال نفع اللَّه به : فلان صالح( ) يتزوج ويترك أهله ، ويقول : اللَّه الرزاق . وكل عارف بهذا ، حتى البهائم لو تَكَلَّمتْ أخبرت به ، واللَّه سبحانه ما يعامل الناس بمقتضى الحقيقة ، ولو عاملهم بمقتضاها ، ما كان حَرَّاث يَحْرث ، أو تاجر يتجر ، ثم إنه لو عاملهم بذلك ، إنما يريدهم يتفرّغون لعبادته ، أيرزقهم ويتركهم يأكلون ويشربون وهم جلوس؟ ، ما يتركهم كذلك .

وقال رضي اللَّه عنه : كل من أعمال الطاعة ، إذا كان فيه شيء من الهَوَى ، يخفّ على النفس ، ويسهل عليها ، إن قل الهوى قَلّت رَغْبتها ، أو كثر كثرت حتى يتجرد للحق فقط دون هوى ، فحينئذ يثقل عليها وتشمئز منه .

وقال رضي اللَّه عنه : ليس مع اللَّه ومع أوليائه غربة، إنما الغربة مع النفس والهوى.

وقال رضي اللَّه عنه : إنما تَمّ النعيم لأهل الجنة ، لتمكّن الأرواح منهم ، كما تَمَكَّنت الأجسام في الدنيا ، لأن النعيم والراحة مع تمكن الأرواح ، والتعب والشدة مع تمكن الأجسام ، ولهذا كانت الدنيا سجن المؤمن .

وقال رضي اللَّه عنه : الزمان زمان ظُلْمة وحِجَاب ، الطالب والمطلوب ، لأن الطالب محجوب بالظلمة ، ظلمة النفس والهوى ، والمطلوب محجوب بالنور ، العبادة والأذكار ، وليس الأول كالثاني .

أقول : وفي معنى هذا شَرْحٌ لأبيات من قصيدة من نظمه الشريف ، وهو قوله فيها( ):

فاقطع الحجْب الكثيفة بالسير عنها غير مقتصر
واقطع الحجب اللطيفة بالسير فيها غير مغترر( )
فإذا جاوزت مرتقياً سدرة الأسرار والقدر
فتوقف وانتظر علماً من علوم الأمر وادَّكر
معنى الحرفان المهملان

وقد سألته رضي اللَّه عنه عن بيت في هذه القصيدة مراراً ، وهو يشير لي بالسكوت ، وهو قوله :

وانخفاضاً فارم بالبصر ... أين أين المهملان عُلاً

قلت : ما هما المهملان؟، فقال في جوابه بعد الثالثة أو الرابعة : المهملان حرفان مهملان من النقط ، حاء مهملة أول حرف من اسم الحوت ، الذي هو البهموت ، الذي عليه الأرض ، وعين مهملة أول حرف من اسم العرش ، وهو إشارة إلى أن هذا : الغاية في السفل ، والآخر : الغاية في العلو . وقد أشار رضي اللَّه عنه إلى ذلك في مواضع من الديوان كقوله( ) : شاهدتَ من عرش إلى بهموت ، وفي أخرى( ) :

تطالع أحوال الذرا والمراكز ... وسرت( )وقلبي فيه أيّ عزيمة

ولعل أمثال هذه المعاني من الديوان هي الأسرار التي قال نفع اللَّه به : إنا أودعنا فيه من الأسرار ما لم نودعه في غيره من المؤلفات .

ذم الدعوى

وقال رضي اللَّه عنه : كل مُدّع مخذول ، ولا بُدّ أن يقيِّض اللَّه له من يُعْجزه فيَنْخَذل عند ذلك ، ولو كان كثير العلم ، وما نرى أحسن للإنسان من الاعتراف ، وطرح نفسه في الأرض ، فإن كان عنده فضل فما يَزيده ذلك إلا رفعة ، وإن كان غير ذلك فقد خُلِقَ من التراب فلا لوم عليه إذا صار فيما خُلق منه ، وقد ذكر الشعراوي : إن رجلاً من العلماء قال : لا أعلم في هذه الأمة بعد أبي بكر الصديق أعلم مني ، فقال له آخر : صدق الأستاذ ، فكم في لحيتك من شَعْرة ، فلم يجد جواباً ، إختذل بسبب دَعْواه ، وكذا وقع لابن عربي في قصته مع دابة البحر ، ثم قال سيدنا نفع اللَّه به : من طَبْع ابن آدم الطغيان إن وجد له مَحَلاً ، سواء كان مُحِقاً أو مبطلاً ، إلا إن قُرِع بالخوف ، فإذا كان النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم مع كماله المطلق ، استعاذ وقال : ((أعوذ باللَّه من مال يطغيني)) الحديث ، فما ظنك بغيره : { كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّءآهُ اسْتَغْنَى }( ) .

وقال رضي اللَّه عنه : الدَّعوى على حَالَيْن ، مُدّع متكلِّم بأن يقول : أنا كذا وكذا، ومدَّع ساكت ، ولم يَذْكر نفسه بشيء، ولكنه إذا قيل له : إنك جاهل ، أو لم تَعْرف شيئاً أو وُصِف بأي شيء فيه نقص يغضب ،

فهذا مدَّع أيضاً ، ولو لم يكن مثل الأول .
ثم قال نفع اللَّه به : إذا حمد الإنسان نفسه ، وأثنى عليها، بقوله : نحن ، وأنا ، وكان أبي ، سقط من العين ، ولم يكن لنا فيه نظر واعتقاد ، لأن إبليس مَقَته اللَّه وأخرجه من الجنة ، بكلمة واحدة بقوله : أنا خير منه ، فإن هذا ليس بعبودية ، بل تكبُّر وتَجبّر، فليت شعري لو مر على هذا القائل أخص محبيه من قرابته وغيرهم ، وهو موضوع على شفير القبر ميتاً ، ورأى قبره إلا قدر ذراع فقط ، فما يقول؟، ألا يقول : غَوِّطوا( ) قبره، فأين كِبْره ونفسه وافتخاره ، والمُشْفِقون عليه.

المتخفي بكِبره

وقال رضي اللَّه عنه : صاحب النفس المُسْتَتِرة أخس وأشنع من صاحب النفس الظاهرة ، لأن هذا ظاهر للناس يحترزون منه ويخشونه ، والأول يظنونه على ظاهره ، فينشبون( ) به . ومثاله كالذي يقول لِذي فضيلة : إن لي فيك اعتقاداً ، وإني أتيتك قاصداً ، ونحو ذلك في الظاهر ، وهو على خلاف ذلك ، ومثال الآخر كالذي يُظْهر العداوة وعَدَم المحبة والاعتقاد ، فيفهم حاله ، ويُعَامَلُ بمقتضاه .

ما قال في معنى حديث : الناس معادن .. الخ

وقال رضي اللَّه عنه في قوله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((الناس معادن الخ))( ) ، فقال : إذا كان هذا يجري في العموم ، ففي الخصوص أولى ، فمن عَمِل في صغره شيئاً من مكارم الأخلاق المحمودة شرعاً قبل أن يعلم كونه محموداً ، ولم يصدر منه عن قصد ، فهذا دليل على طِيْب معدنه ، فإذا كبر كان من ذلك في زيادة وغاية ، ومن عَمِل في صغره خلاف ذلك على الوجه المذكور( )، دَلّ ذلك على خُبْث معدنه ، فكان في كِبَره في زيادة من الخُبْث ، وغاية من الشر ، فمثال الأول من ظَهَرَ من أول نشأته يحب الإحسان وصلة الأرحام ، وغير ذلك ، فكلما كبر كَثُر منه ذلك ، وازداد معه تمكّناً ، ومثال الثاني من هو من أول بُدؤه ، متعلق بحب الدنيا ومنهوم بجمعها مع تكالبه عليها ، ولم يسمح بإخراج شئ منها ، فهذا

كلما كبُر ازداد شحًّا وقساوة ونحو ذلك .
وقال رضي اللّه عنه : كلما ازداد الإنسان خسّة ودناءة ، ازداد تكبّراً وافتخاراً ، ووجود أحد هذين ، يدُلّ على اتصاف الشخص بما ذُكِر .
وقال رضي اللّه عنه : الدين كالطريق ، فمن رأى طريقاً متسعاً سَلَكه أحد من الأخيار فيسلكه ، أو ضَيِّقة فذاك مشكل ، وفي الحديث : اضطروهم ، أي اليهود والمنافقين ، إلى أضيق الطرق( ) .
قوله : نصلي خلف كل بر وفاجر
وقال رضي اللّه عنه : نصلي خلف كل بر وفاجر، كما في الحديث( ) ، ولا نعيد ، لأن هذا تعنت وغلو في الدين ، وقد صلى الأئمة خلف الدّول الظالمين والمبتدعين ، كدول بني العباس وغيرهم ، وإذا صلينا جمعة لا نعيد ظهراً .
وقال رضي اللّه عنه : اجتماعات الخير يحضرها ناس على مقتضيات نياتهم ، بخلاف اجتماعات الشر ، فلا يحضرها من حضر تلك .
تأويل تبجح الأكابر

(1/286)

وقال رضي اللّه عنه : كل ما( ) ذكر عن الأكابر من الكلام ، الذي ظاهره التبجح ، كقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي : منذ أربعين سنة ما حُجِبْتُ عن اللّه ، وقول أبي العباس : لو حُجِبَتْ عني جنة عدن لحظة ما عددت نفسي من المؤمنين ، كل هذا مؤول وليس على ظاهره .
ما قال في الإحسان
وقال رضي اللّه عنه : إحسانك إلى من أساء إليك أكمل منه إلى من أحسن إليك ، وتقديمك الإحسان إلى المحسن أولى وآكد .
وقال : لو شرحنا بعضِ الرسائل ، لبلغ ذلك كراريس ، لأن أكثرها حقائق وحِكَم وأسرار، وقد قيل : إن أسرار أهل هذا الشأن في مراسلاتهم ، وقد فَنِيَ المتحققون بذلك من زمان بعيد، ولم يَبْق إلا العلم بها لبعض الناس ، وهو النادر، وأحوال المجتهدين مختلفة ، يشير بذلك إلى من ذكر .
وقال رضي اللّه عنه : الأكابر في آخر أعمارهم

يَخْلُون بأنفسهم ، لأن أمور الحق ما يسعها الخلق ، ويتروّحون من ذلك بالمباحات إذا أحسوا غلبة ، وفي المباح لهم راحة ، ثم ذكر قصة موسى عليه السلام ، بعد المناجاة وضيقه من الخلق،وإذا كان صاحب تمكين لا بد له من تلوين مع الناس.
وقال رضي اللَّه عنه : مدة ما كنا في المدينة ، عزمنا على ثلاثة أشياء أن لا نستعملها : سماع الملاهي ، واستعمال الطيب الأحمر ، وأكل الكُرَّاث ، ولما خرجنا إلى الحرمين تجنبنا ذكر الأوطان ، وأن لا تخطر لنا ببال ، ولا نسمع القصائد التي تُذَكِّرُنَاهَا ، ولكن الخواطر التي يُخْطِرُها اللَّه على القلب فما عاد ذلك إلينا ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : أول كتاب كتبه إلينا الشيخ أحمد القشاشي( ) كان أول خطبته : بسم اللَّه مجراها ومرساها ، من اللَّه مبتداها، وإلى اللَّه منتهاها، قال : وأجازنا في أشياء مخصوصة ، ونجيز فيها أناساً مخصوصين ، وسمعته رضي اللَّه عنه يقول : مما أخذنا عنه من الأوراد، أستغفر اللَّه للمؤمنين والمؤمنات سبعاً وعشرين مرة بعد كل صلاة من الخمس.

قال : وأما الشيخ محمد بن علوي( )، فهو في كل كتاب يكتبه إلينا يقول في أوله : من الداعي بطول البقاء ، وعُلُوّ الارتقاء ، محمد بن علوي ، إلى السيد الفاضل فلان ، قال : وأجازنا إجازة عامة ، في الخرقة وغيرها ، ونجيز فيها عموماً، وأرسل إلينا يأمرنا بالخمول ، وعدم الشهرة ، وذكر إنه حصل عليه من ذلك تعب كثير( ) .
ذكر حجه نفع الله به
وقال رضي اللَّه عنه : مرادنا عام حَجَجنا، أن نجتمع برجلين ، أحدهما متبحّر في العلوم الظاهرة ، والآخر متبحر في علوم الحقائق ، فنسألهما عن أشياء إختلجت في الصدر، ولم نجد من يجيبنا عنها ، وكل من وَصَفَ لنا من هو معروف بعلم الحديث ، وسألناه ، قال : نحن نستمد منكم ونطلب الإفادة من لدنكم ، فلم نر من يَشفي الغليل ، وكلما رأينا أحداً

ممن يُنْسب إلى العلوم الظاهرة ، وسألناه ، قال : أنا مستمد ، وطلب القراءة علينا ، فنتركه يقرأ على نيته ، ومن رأيناه ممن ينسب إلى العلوم الباطنة ، وسألناه عن شيء ، انخفض وقال : أنا أريد أن تعطوني الطريق وتُلبسوني ، حتى إن رجلاً كان من أهل الخطوة ، اجتمعنا به في عرفة ، وطلبنا منه الاجتماع في خلوة فقال : إن طلعتم الليلة إلى مكة حصل ذلك ، وإلا الوعد في المدينة ، فلم يتفق لنا الطلوع إلى مكة تلك الليلة ، وهي ليلة العيد ، فلم نتفق به إلا في المدينة ، فاستضافنا وطلب منا الإلباس ، فألبسناه ، وإذا له بيت وحاشية ، وكنا ظنناه متجرداً .
ومرة قال : وكل من سألْنا عن من هذا وصفه قال : ما يكون هذا إلا أنتم .
وقال رضي اللّه عنه : عام حججنا وهي سنة شلهام سنة قحط ، كثيرة الجوع ، فقلنا : إن كان الوقت إلى أشر منه الآن من الزمان والقحط ، فقد الآن أسهل مما بعده ، وإن رجع إلى خير منه من الرخص والخصب ، فأحسن ما ينهض الإنسان لأمر اللّه ، حيث يشق على النفس .

وقال رضي اللّه عنه في مجلس آخر : ولَمّا حَجَجْنا ، كان نيتنا بالمسير إلى مكة بعد نية أداء فريضة اللّه من الحج وإقامة مناسكه ، لطلب بحرين : بحر في العلم الظاهر ، عالم بالكتاب والسنة على الإطلاق ، وبحر في العلم الباطن متبحر فيه ، لأن في باطننا إذ ذاك سؤالات كثيرة في هذين العلمين ، فلم نر في الحرمين أحداً منهما ، ولم نعلم أهما اختفيا في تلك السنة أم فُقِدا؟ ، لكنا رأينا آثاراً يسيرة ، كالشيخ أحمد القشاشي ، والشيخ عبدالخالق المغربي ، وكان يقال إنه من أهل الخطوة ، وقلت له : أنت من رجال السر الذين سألت اللّه أن يرينيهم ، فأراني ثلاثة أنت منهم ، قال : أجل ، وكان جاء إلى حضرموت ولنا به بسبب ذلك معرفة . وقال : إنه حج بالخطوة ، وقضى مناسكه ، وأصبح سائراً من يومه إلى المدينة ، فلم نتفق به إلا بالمدينة ، وكنا ظنناه متجرداً ، وإذا به له

بيت وحاشية ، وطلب منا الإلباس ، فألبسناه ، وكان من أهل البيوتات ، وقال لي : إيش مذهبكم؟، وكنت أعتقد وأرى إنما مذهبي الكتاب والسنة ، وأردت أن أقول له ذلك ، فخشيت من الإنكار، فقلت : مذهبي شافعي ، فقال : لا ، إنما مذهبك الكتاب والسنة ، فقلت : أسلافنا كلهم على مذهب الإمام الشافعي ، فقال لي : ولِمَ تقول إنك شافعي ، وإنما مذهبك الكتاب والسنة ، ولم يكاشفنا أحد إلا هذا ، وآخر في الهجرين من أهلها من آل بن نعمان ، أضمرت بحضرته هل لنا عَوْدة إلى الحرمين غير الأولى التي حججنا فيها الفرض ، فكاشفني ، وقال : يكون ذلك بعد مدة طويلة ، وكثيراً ما يقول سيدنا : نحن موعودون بعودة إلى الحرمين ، يشير إلى هذا .
قال : وكاشفه رجل في تعز عام سار إلى الحج ، قال : وذلك إنه كان معنا رجل يدّعي الشرف ، وفي نفسي من دعواه الشرف شيء ، فاتفق إنا كنا عند هذا الرجل ، وكان يُذْكر بالكشف ، فقال : ليس الرجل بشريف ، قال نفع اللّه به : ولم يكاشفنا أحد إلا هؤلاء الثلاثة .

(1/289)

أقول : إن من مسائله الباطنة ثلاث ، وإنه سأل عنها كثيراً من أهل الباطن ، وكانوا كثيراً متوافرين في قرى حضرموت ، فلم يشفوا له غليلاً ، حتى رأى الحكم باقشير( ) ، فسأله عنها ، فأجابه عن اثنتين جواباً شافياً ، وقال له : أما الثالثة فلا يجيبك عنها إلا السقاف ، فخطر بباله إذ ذاك أن المراد من هو من أهل تسليك المريدين في هذا الوقت من آل السقاف ، فسأل عمن هو كذلك اليوم من آل السقاف ، فذكر له السيد محمد بن علوي ، فكتب إليه يسأله عن المسألة ، ويطلب منه الإلباس ، فكتب إلى سيدنا يعتذر ، ويقول : لا يمكنني ذلك حتى يأمرني النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، ثم بعدما أرسل الاعتذار بأيام ، حصلت له( ) الهمة على الزيارة ، فسار إلى المدينة ، فلما وقف في المواجهة تِلْقاء النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، حصل عليه حال عظيم وغيبة ، وجعل العرق يصب من جسده ، ورمى ثيابه

كلها، وما بقي عليه إلا سروال ، حتى رأسه مكشوف ، ثم سُرّى عنه فلبس ثيابه ، ثم قال للسيد أحمد بن هاشم الحبشي ، وكان حاضراً ذلك : هات دواة وقرطاساً نكتب للسيد عبداللّه كتاباً غير ذاك . فذكر في هذا الكتاب : إنك كتبت تطلب إلباس الخرقة ، وإنَّا اعتذرنا عن ذلك إلى أن يأذن لنا النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، وإن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم قد أمرنا بذلك ، وها هي واصلة إليك ، وأرسلها وأظن قال : معها جواب المسألة ، فاتفق وصولها إليه يوم وفاة السيد محمد المذكور ، وفيه إشارة إلى أنه خليفته ، كما قال سيدنا في مرثاته للسيد محمد المذكور :

بقية قوم قد مضوا وخلفتهم وهم خَلّفوني في الحمى عندما ساروا

وهذا الكلام ، حفظت بعضه عن سيدنا نفع اللَّه به ، وبعضه عن السيد أحمد بن هاشم بنفسه ، وذكر إنه حَصَلت معه بعض غَيرة ، لما أمره السيد محمد بن علوي بكتابة الورقة مع الخرقة .

وسمعت سيدنا مرة قال : رأيت في النوم : كأني قابض بتلابيب السيد أحمد بن هاشم ، وأقول له : امش بنا نتحاكم أو قال أحاكمك إلى النبي صلَّى الله عليه و آله وسلّم .

أقول : لعل ذلك بسبب الغَيرة التي حصلت له ، ولم يجتمع سيدنا بالسيد محمد ، فإنه توفي قبل مسير سيدنا إلى مكة بنحو ثمان سنين ، لأنه توفي في 14 ربيع ثاني سنة 1071، وسيدنا حج سنة 1079.

قال سيدنا رضي اللّه عنه : يقال إن السيد محمد بن علوي لما جاء طالباً إلى السيد عبداللّه بن علي صاحب الوهط( ) ، قال له السيد عبداللّه : متى ولدت؟، قال : سنة 1002 ، قال : لو عادك أدركت من القرن العاشر لحظة لحصل لك مطلوبك وأنت قائم في لحظة ، لكنه تركه عنده مدة طويلة ، يروّح عليه إذا نام ، ويملأ الحوض ، وفي ثياب خَلِقَة ، ونحو ذلك حتى حصلت له الرياضة ، ثم بعد ذلك كان من أمره ما كان .

ومن جملة مسائله التي أراد أن يسأل عنها في الحرمين من هو متبحر في علم الحديث ، كما سمعته من لفظه : عن كيفية صلاته صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في مرضه؟، قال : وكانت 17 صلاة ، وعن من صلى وخطب بهم الجمعة التي مَرّت عليهم في مرضه؟، وكيف صلوا تلك الجمعة؟، لأنه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم صلَّى بهم صلاة المغرب من ليلتها لما ابتدأ به المرض ، وقرأ فيها بالمرسلات ، ولم يصل بهم صلاة بعدها ، فكيف صلوها؟، ومن صلاها بهم؟، أبوبكر أو غيره؟، أو صلوها ظهراً؟، ولم يذكر أحد من أهل الحديث ذلك .

وكان سيدنا يتعجب من كونه قرأ في المغرب بالمرسلات ، وهو في مرضه الذي مات منه ، فيدل على أنهم كانوا يطيلون القراءة في الصلاة .

وقد رأيت في ورقة من جملة أوراق دفعهن رضي اللَّه عنه إليّ وقال : خلهن عندك ، وإذا فيها من مسائله التي أراد أن يسأل عنها من العلم الظاهر ، ما صورته : الحمد للَّه وحده.

مسألة : هل نقل أحد من الحفاظ للحديث وحَمَلَةِ الأخبار ، كيف كانت صلاة رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في الأيام التي لم يخرج فيها للناس في آخر مرضه الذي توفي فيه عليه الصلاة والسلام ، والجمعة التي مرت عليهم في مرضه ، كيف صلوها ، هل صلاها بهم أبوبكر أو غيره ، أوصلوها ظهراً .

مسألة : لما قبض رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في بيت عائشة رضي اللَّه عنها، ودفن فيه ، هل بقيت ساكنة في البيت ، على مثل حالها في حياته ، أم انتقلت منه إلى غيره .

مسألة : الحديث الذي في صحيح البخاري من رواية عمرو بن العاص ، إن رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم قال : ((آل أبي فلان ليسوا بأوليائي)) الحديث ، هل بَيَّنَ أحد من الشراح ، آل فلان من هم ، وهل رَوَى هذا الحديث أحد من الصحابة غير عمرو بن العاص ، وهل إسناد الحديث في غاية القوة والثبوت ، أم هو دون ذلك انتهى . وهذا قليل من

كثير مما أراد أن يسأل عنه .
أقول : ذكر الإمام القسطلاني في شرحه على البخاري على شرحه لهذا الحديث ، قال : وجزم الدمياطي في حواشيه أن المراد آل أبي العاص بن أمية ، وفي سراج المريدين لابن العربي أن المراد آل أبي طالب ، وأيده في الفتح بأنه في مستخرج أبي نعيم ، وسياق الحديث يشعر بأنهم من قبيلته صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، وهي قريش قال السفساقي : من لم يسلم منهم فهو من إطلاق الكل وإرادة البعض ، وحمله الخطابي على ولاية القرب والاختصاص ، لا ولاية الدين .
قال في شرح المشكاة : المعنى لا أوالي أحداً بالقرابة ، إنما أحب اللَّه لما له من الحق الواجب على العباد ، وأحب صالحي المؤمنين لوجه اللَّه ، وأوالي من أوالي بالإيمان والصلاح ، سواء كان من ذوي رحمي ، أو لا. ولكن أراعي لذوي الرحم حقهم بصلة الرحم ، انتهى ملخصاً لكاتبه ، ومتن الحديث : عن عمرو بن العاص : قال رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم :((آل أبي فلان ليسوا بأوليائي ، إن وليي اللَّه وصالح المؤمنين ، ولكن لهم رحم أَبُلُّها بِبِلاَلِها)) ، انتهى . وفي بعض الروايات : آل أبي فلان ، ولم يروه غير عمرو ، وهو صحيح رواه البخاري( ) .

وقال رضي اللَّه عنه : وعام حججنا ، رأينا في مكة المدد والفتوح كثيراً في أيام الموسم ، وبعد رجوعنا من المدينة إليها ، رأيناها أفرغ ، فالحضور والخشوع في أيام الموسم أكثر ، وبعده أفرغ ، وينبغي أن يطلب ذلك آخر الليل ، عند بقاء ثلث أو ربع من الليل ، حيث ما في المطاف إلا واحد أو اثنان ، فعند ذلك يكون الحضور والخشوع ، لأنه إذا حصل التجلي الإلهي ، يَتَقَسَّم على من حضر ، فإن كان الناس قليلاً كثر لهم النصيب ، وإن كثروا قل ، كمن يقسم مالاً على الناس، فيقل إن كثروا ويكثر إن قلوا .
وسألته رضي اللَّه عنه : أيما أفضل المدينة أو مكة؟، فقال : أما مكة ، فإن كان بالنسبة إلى اللَّه ، فهي أفضل ، وإن كان بالنسبة إلى إبراهيم ، والمدينة إلى

النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فالمدينة أفضل .
قال رضي اللَّه عنه : ولما طلب منا المجاورة ، يعني أهل الحرمين ، قلنا : إن مكة لا تصلح إلا لأحد رجلين ، إما خامل لا يُعرف أبداً كالتراب ، فَلَوْ دُحِق لا يبالي ، أو سايح في الجبال ، كابن الفارض ، أو بحر لا يتكدّر ولا يضيق من كثرة الناس وإقبالهم ، ولا يشغلونه عن اللَّه مع تبحّره في الكتاب والسنة ، وتحققه بالعمل ، فيجاور في الحرمين ، يأخذ مما فيهما من الخيرات ، ويسلم مما فيهما من العوائد ، وأما المتوسط فيشتغل فيتعبونه بسبب أمور الدنيا وأحوالها .

(1/293)

وقال رضي اللَّه عنه وذلك يوم 21 محرم سنة 1130 : ولما وَصَلنا من مكة وتوصّلنا إلى شبام ، ما انْمَرَّتْ لنا الطرق من كثرة الناس ، وقد قلنا : إن كان أُذِن لنا في التنقل في الأرض ، ما أخذنا معنا إلا واحداً كما فعل الشيخ عمر العطاس ، ولكن من بعد تلك الحركة [أي مسير الحج] ، ما وقعت لنا حركة إلا إلى هود ، ومرادنا نتوقّى الشهرة ، ويفعل اللَّه ما يشاء ، ولا دخلنا بلداً إلا وفيها أناس من أهل الصلاح مرموقين ، إلا في هذا الزمان ، ما تلقى حتى من يواظب على الصلاة ، وكان في بلدان حضرموت ناس مكاشفون ، ويقال إن في الهجرين من آل العفيف كلهم إذ ذاك يكاشفون حتى أخدامهم ، وما كاشَفَنا إلا ثلاثة ، يعني المتقدم ذكرهم ، ومرة قال : ما عاد يمكننا ذلك ، يعني عَوْدة إلى الحرمين ، إلا إن كان خرج المهدي في حياتنا ، وطلب منا المجيء إليه لا بد ما نخرج لمبايعته .
قال : وأقبل علينا الناس كثيراً( ) ، ومرادنا السلامة منهم على طريقة سلفنا ، لأن الظهور فتنة ، وأرسل إلينا السيد محمد شليه( )، قال للرسول : قل له يسلم عليك ، ويشير عليك بعدم المجاورة ، فقال له الرسول : إنه ما له نية في ذلك ، فقال : ولو ، عادك قل له زيادة . ونحن كنا عازمين على أن لا نجاور ، وكنا نخف أنفسنا خوفاً من أن تحصل لنا إشارة في المجاورة ، ونحن عارفون أن المجاورة على هذا لا

تنبغي ، ولا تنبغي المجاورة إلا لأحد رجلين ، إلى آخر ما تقدم ذكره آنفاً .
ومرة أخرى قال : فأجبناه بأن المجاورة ليست لنا على بال ، ولا نَوَيْناها أصلاً ، لما رأينا أحوال أهل الحرمين .
وقال رضي اللَّه عنه : قلنا لأهل الحرمين : لو مكثنا معكم لتشاكينا معكم إلى السلطان ، لما نرى من أحوالكم .
وقال رضي اللَّه عنه : لا تنظر من الحرمين ، إلا إلى البيت الحرام والحجرة الشريفة ، ولا تنظر إلى ماعداهما .

(1/294)

وقال رضي اللَّه عنه : ما أحسن ذكر الحرمين ، ولو كنا إلا بجدة أو نحوها بالقرب من مكة ، لكنا نعتمر في كل شهر ، ولكن كان أمر اللّه مفعولاً .
فقلت له : إن الناس منتظرون ومشاوفون لوعدكم الذي أنتم موعودون به من العود إلى الحرمين( ) ، فقال : لا ، ذلك قد مضى وقته ، والوعد متوقف على شروط ، ولا تَمَّتْ ، ألا ترى إلى العشرة من الصحابة مع كونهم قد بشرهم النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم بالجنة ، ومقطوع لهم بها ، ما ركنوا إلى الوعد، وما زال بهم الخوف ، وإنما ذاك أن رجلاً كان يكاشف ، فكاشفنا بأشياء وقعت صدقاً.

(1/295)

وقال لي نفع اللَّه به يوماً وذكر أيام حجه ، ونزوله مع رفقة معه ، نحو العشرة ، بدار حسين بافضل ، قال : فقال لنا : الحذر إذا بدت لكم حاجة ما تقولون لنا بها ، فقلنا : إن بدت لنا حاجة تطلب إلى المخلوقين ، فما أحد أولى منك ، وقدنا عندك ، وإن قضى اللّه سبحانه الحوائج كلها فما بقي كلام ، فاعلم هذا أنت ، واعمل عليه ، قال : ولما كنا بجدة قادمين للحج ، جاءتنا كتب كثيرة من عند محبين يطلبونا أن نقصد عندهم ، وأول ما سبق منها ووصل

كتاب حسين بافضل الدّويِّلة ، وقال : إن عندي داراً بَنَيْتُها ، وما تركت أحد ينزلها قبلكم ، ومرادي أن أول من ينزلها أنتم ، فأجبناه إلى ذلك ، فلما قدمنا ونزلناها قلنا له : لا تتكلف لنا بشيء ، ومعنا حوائجنا كلها ، يعني ما نحتاج إليه ، فقال : أنتم في بيتي ، ولا بد من ضيافتكم الليلة ، فأضافنا ، فلما كان غدوة ، أرسل لنا عشرة حمران( )، فلمناه على ذلك ، فقال : إنما هذه حق الحطب ، فلما كان الليلة الأخرى ، فعل عَشاء ، آخر الأمر إنه قام بالمؤنة كلها ، ولا ترك لنا عذراً ، حتى إنه اكترى لنا إلى المدينة كراء مرجعاً ، فليلة أردنا الخروج من المدينة ، رأيت في النوم كأني خرجت من الدار التي نحن فيها ، وهي دار محمد أمين ، قاصداً إلى مسجد النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فعارضتني في الطريق امرأة أرادت تُقَبِّل يدي ، فوضعتُها في كمي ، ثم قَبَّلَتها ، وقالت : ما أشبه هذه اليد بيد السيد محمد بن علوي ، وقالت لي : قال جدك النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : عادك امكث في المدينة لا تخرج منها ، وكنا قد أمرنا أن تُشد الرحال للسفر ، وإذا رجل خلفي يقول لي : هذه رَحْمه ، يعني بها المدينة ، لأنها تسمى بذلك ، فأعجبني اسمها تفاؤلاً بالرحمة ، فمكثنا في المدينة لذلك أربعين يوماً .
قال رضي اللّه عنه : وأخذنا بالحرمين عن جماعة من آل الوفا وأخذوا عنا ، والحاصل أخذنا قواعد الإسلام الأربعة عن أربعة .

وقال رضي اللَّه عنه : جمعنا من الكتاب والسنة ما لم يستطع حمله إلا المهدي ، فإن أدركناه أديناه إليه ، وسلمنا من تلك الأمانة .
وسمعت غير مرة من غير واحد يقول عن شيخه السيد عمر العطاس رحمه اللّه قال : من جملة من يصل إلى اللّه على يد سيدنا عبداللّه ممن اسمه عمر أربعون ، قال سيدنا : ونقل لنا عن الشيخ عمر المذكور ، أن أولاد فاطمة في آخر الزمان ، يفوشون ، يعني يزيدون .
أقول : ولهذا إن السفياني ، لما كان أصله العداوة

لهم ، لكونه من بني أمية ، وعداوتُهم لبني هاشم تالدة خالدة ، إذا رأى كثرتهم يتتبعهم بالقتل حسداً وبغياً .
وقال رضي الله عنه : إذا اجتمعت بالطبيب فلا تستبعد أن تنال من حكمته شيئاً .
وقال رضي اللّه عنه : لا نتحكم لأهل هذا الزمان ، ولا نتحكم فيهم ، فإن تحكمنا فيهم وضعنا على كُلٍّ قَدْر استطاعته بالتخفيف .
وقال رضي اللّه عنه : ما بقي شئ من الأمور التي يحتاج إليها السالكون إلا وضعناه في كتبنا ، فمن أراد شيئاً من ذلك ، وجده فيها ، ومقصودنا أن نجعل لهم بعضاً من أحكام التوحيد.
وقال رضي اللّه عنه : القيام بما أخذ المشايخ فيه العهد على المريدين ، كتمسك الأعمى بيد البصير ، فينبغي أن يبقى لازماً لها( ) حتى يصل حيث طلب ، فإن أخل بشيء من ذلك فقد فلّتَ يده منه ، وراح عنه ، وضاع عليه الطريق .
وقال رضي اللّه عنه لي:لو نعمل بكل ما نعلم ، لملّنا كل شئ حتى الثياب التي فوق أبداننا.
وقال رضي اللّه عنه : قد نعزم على الأمر نفعله ، فلم يتفق ، ولكن يجعله اللّه على يد أحد من الأولاد أو الأصحاب .
وقال رضي اللّه عنه : سمع بعض أجلاء السادة شريفاً يقول : أبي وجدي ، فقال له : قَعْ( ) كما جدك ، وإلا فأنت سيرة وصورة ، ولا شئ في المقصورة .
ما قال في السماع ونحوه

وقال رضي اللّه عنه : السماع يدل على ما في ضمير صاحبه ، من خوف ورجاء أو شوق أو محبة ، وإذا خرج عنه يزيده من حاله ذلك ، ويحصل له بذلك تخفيف وتروح ، كما نقل عن سيدنا علي كَرّم اللّه وجهه ، إنه لما كثرت عليه العلوم ، ولم يجد من ينقلها عنه ، وقف على فم بئر ، وتنفس فيها ، ففاض الماء على جوانبها ، فنبت منه اليراع .
وقال رضي اللّه عنه : نود أن نحضر السماع في بعض

الأحيان ، ولكن نخاف أن الروح تخرج ، ثم قال : إن الروح قد تقوى في الجسم ، حتى تخرج عنه ، أو كلمة قريبة من ذلك .
وقال مرة : إن حضرناه ربما يغير علينا ، ويحصل لنا بذلك تنسم ، ولكن ربما يغير على الحاضرين بتغيرنا ، وإن تماسكنا ما نخلو في الباطن من شاغل وتعب ، فبقي إذن تلاوةُ كتاب اللَّه وذكرُ اللَّه أفضل .
وقرئ عليه رضي اللَّه عنه شئ من نظم السودي( )، مما فيه غَزَل وذِكْر العود والطار( ) ، فأعجبه ذلك النظم كثيراً ، فقال نفع اللَّه به : أدركنا ناساً على هذا ، وكنا نفعله ، ولا تركناه لأجل الناس ، إنما هو لأنا ما رأينا من يحسنه ، وقد أردنا أن نربي عليه أحداً يتعلمه كما ينبغي ، لكن ما أحد قَبِلَ التعلم ، وكان رجل من آل العمودي من بِضَة يُسَمِّع للشيخ محمد بن علوي ، وكان غالب وقته في السماع ، وأمره بالجلوس عنده حال مرضه الذي مات فيه ، فهو جالس ، وأتى أهله( ) إليه يشوفونه ، فأراد أن يقوم ، فأومى إليه أن اجلس ، وكلما رأوه عنده ما أمكنهم المجيء ، وكلما هَمَّ بالقيام أمره بالجلوس ، حتى مات وهو عنده ، فذكر أن آخر ما تكلم به أن قال : ياسيدي يارسول اللَّه ، ومكث عند قبره سنة ما يميل عنه إلا للصلاة أو لحاجة .

(1/298)

ولما حججنا ، قرأ علينا ثم أصبح وحلقه مشحّم( )، فقال : أخاف أن السيد محمد ما أراد أن أقرأ عليكم ، قلنا : لا ، نحن والسيد محمد شئ واحد . وكنت عزمت أن لا ألبس الشاية لأنها من لباس المترفهين ، فيوماً كنت في المواجهة في زيارة الرسول صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فجاءني بشاية فوضعها على ظهري ، وألبسنيها من غير ما أدرى ، فلما كان ذلك في المواجهة ، اتخذت ذلك رخصة ثم لبستها بعد ذلك ، وسَمَّع لنا فأعجبنا تسميعه ، وأرسل إلينا السيد علي بن عمر يقول : إن معي لكم وصية من غيري ، ما هي مني ، إنما أنا رسول ، إن فلاناً يقول ما يحسن منكم التسميع ، لكون الناس يقتدون بكم ، فقلنا له قل له : هذا أمر لا بد فيه من الحَجْب ،

وسقط عليَّ بعد هذا بعض الكلام ، ثم قال سيدنا :
وإنما يحسن( ) مع صفاء الوقت ، وانشراح الصدر ، ومساعدة الإخوان ، وقد عدم ذلك اليوم ، وإن حَرَّمه جماعة فقد أباحه آخرون لم يطلع أولئك على دليلهم ، فيكفي في تحليله ، أن الإمام البكري أبا الحسن وابنه محمد كان يحبه كثيراً ، وأمر بالعود يضرب عنده في مرضه، حتى مات وهو يقول : اعشق ياقلبي ، أو كما قال.
وقال رضي اللَّه عنه : إن أصل الدِّرِّيج( ) أن قابيل بن آدم ، ولد له ولد فمات فحزن عليه ، فعلقه في الهوى مدة ينظر إليه ، فتدخل الريح في جوفه ، ويسمع له عند ذلك صوت حزين ، فاتخذ أخياطاً من الشجر وفعله كالدريج ، فذلك أصله،ولذلك لا يخرج من أهل الباطن ونحوهم إلا حزناً.
وقال رضي اللَّه عنه : أول ولد وُلِد لآدم بعد نزوله إلى الأرض مات ، ولم تعلم حواء بوفاته ، فلما رأته لا يتحرك ، قالت لآدم : لِمَ لا يتحرك؟ ، فقال : إنه مات فصاحت ، فقال لها: لك ولبناتك الصياح ، ولي ولأولادي الوقار .
وذكر رضي اللَّه عنه السماع يوماً ، فقال : قرائن الأحوال تحسّن الأمور وتقبّحها، فقد يكون السماع في نفسه مباحاً، ولكن إذا حصلت القرائن التي تلحقه بالتحريم أو الشبهات ، صار كذلك.

وقال رضي اللَّه عنه : مع الجراءة ما عاد انتفع الناس ، والغالب أنه لا يقع الإمهال كثيراً إلا للجريء .
وقال رضي اللَّه عنه : من لم تقومه التقوى والقرآن ، لم يقومه إلا السيف والسنان( )، وما بغوا أهل الزمان إلا السيف والنصال .
وقال رضي اللَّه عنه : لا يأمن الإنسان نفسَه أبداً ، ولكن يجنبها الأمور التي يخشى عليها منها الفتنة ، ولا يغتر بقوّته عليها، فربما غلبته أو فتغلبه .
وقال رضي اللَّه عنه : للروح مطالب( )، وللنفس مطالب أخرى( ) وقد يجتمعان ، فإذا اجتمعا في مطلب طاب للشخص عيشه في ذلك ، وزاد نشاطه ، ويحصل فيه من النشاط أكثر مما يحصل له في فعل

شيء غيره ، لأن كلاً من النفس والروح سَلِمَ من منازعة الآخر ، واجتمعا على ذلك ، ولهذا قال عمر بن عبدالعزيز : إذا اجتمع الروح والنفس في شيء كان كالشَّهْد بالزُّبد .
وقال رضي اللّه عنه غير مرة : والعجب من قلة خواطر النفس حالة الأكل ، ما لم يحصل مثل ذلك في الصلاة ، لأنها حينئذ مجتمعة( ) على مطلوبها، بخلافه في الصلاة .
وقال رضي اللّه عنه : من لم يحكم على نفسه ، لا يمكنه أن يحكم على غيره ، وإذا رأيتها جَمَحَت لما لا ينبغي ، فتَرَقَّها( ) إلى عكسه ، كما تترقى ولدك ، وإذا لم تقدر على منعها من الحرام ، وتعكت( ) عليك ، فسيبها في المباح ، ولكن خل الناس على ربهم ، ومن اطلعتَ عليه منهم على أمر، فإن كان يقبل النصيحة فانصحه ، وإلا فاتركه.
وقال رضي اللّه عنه : خروج النفس عن مُقتضى الطبيعة أمر عَسِر ، ولا تخرج منه إلا بكسر أو بعَصْر ، ومن طبعها محبة المدح ، وكراهة الذم من الغير ، ولهذا لو ذم نفسه ، فقال : أنا ظالم ، مثلاً ، فلو قيل له ذلك لضاق منه وتبرم .
وقال رضي اللّه عنه : إن النفس كسلانة عن الخير فليقهرها الإنسان على فعل الخير وما ينفعها ، وإلا جرته إلى الشر ، لأنها مجبولة عليه ، وفعل الخير يعسر عليها، لأنه خلاف طبعها، فليُكرهها ولا يدعها وطبعها .

(1/300)

واستأذنه رضي اللّه عنه بعض الفقراء في صوم عشر ذي الحجة ، وذلك سنة 1124، فقال : صُمْها لا تخلها، واغتنم ما أمكنك من هذه النفس السوء ، إذا أمكنك منها فرصة في شيء من أمور الخير فانتهزها، وخذ منها لها ، لأنك إنما تخبئ( ) لها، لأنها محتاجة ، بخلاف القلب فإنه مستغن بمعرفة اللّه وذكره ، كالملائكة ، فإن غذاءهم ذلك ، ومن طبع النفس الخداع والغرور، والخُلف بالوعد، فإنها توعد بالخير ولا تفي بما وعدت .
وقال رضي اللّه عنه : إذا وقع للنفوس التي لم يكن

لها رياضةٌ مَظهرٌ ، ظهرت ، ولما جلس في الضيقة خارجاً لصلاة الظهر، يوم الخميس ثالث رمضان سنة 1128، سكت ساعة ، ثم قال : النفوس في هذا الزمان مثل غرماء السوء ، خذ منها ما جاء ، ولكنك إخلص ، فقلت له : إن الغرماء ينقادون بالبينة وبأمور أخرى ، وأما النفس فلا تكاد تنقاد ، قال : نعم ، لأنها عدو محبوب ، فإذا كان غريمك ابنك الذي هو أحب الناس إليك ، أو أحد من أهل بيتك ، فماذا يكون الحال ، وأنت تريد منها لها وهي مع ذلك تنفر، فقلت له : وهذه الأعمال القليلة الحاصلة منها، اللّه أعلم ماذا يكون الحال فيها، وقرائن الأحوال تدل على أنها لا شيء ، فقال رضي اللّه عنه : الأعمال حيث وُجِّهت ، فإذا حَذَفتَ بحصاة إلى جهة الغرب ، ما ترجع إلى جهة المشرق .

ما قال في تأني الحاكم

وقال رضي اللّه عنه : لا ينبغي للحاكم في هذا الزمان أن يحكم لأحد بمجرد دعواه ، حتى يُحْضِر خَصْمَه ، ويجمع بينهما ، لأنه غير مأمون عليه ، فقد قيل : إنه أتى شخص إلى ذي القرنين حاملاً عينه في يده وقال له : إن فلاناً قلع عيني فاحكم لي ، فقال له : ادعه ، أخاف إنك قلعت عينيه كلتيهما ، فكان الأمر كذلك .

وقال رضي اللّه عنه : كلما جاوز حد الوسط والاعتدال ، فهو شر وبلاء ، وخصوصاً في العادات ، فإن ذلك في العبادات قد يُغتفر ، إذا زيد على القدر الممكن ، إما لشغف بالعبادة أو للاحتياط .

ما قال في القضاء والقدر

وذكر رضي اللّه عنه أمان الطرق فقال : إذا أراد اللّه أمان الأرض ، وضع الأمان في قلب الخائف والمخيف ، فحصل الأمان ، هذا فعله وعليهم الأسباب ، ولهم الاختيار وإليه القدرة والفعل ، هذا في هذا العالَم ، لأنه عالَم الأسباب والحكمة ، فترى الإنسان لو أراد يسافر أو يفعل أو يترك ، ونحو هذا كل ذلك باختياره ، وأما في الآخرة فإليه تعالى الفعل والقدرة ، ولا عاد لهم اختيار ولا سبب ، بل لو أرادوا

فعل شيء ما قدروا ، وتولته الملائكة دونهم ، ثم تلا قوله تعالى : {يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ}( )، وقال : هذا في الآخرة ، لأن إذ ذاك معاد شيء أسباب ، ولأن الأسباب قد استوفوها في الدنيا، وقد فُسِّر قوله تعالى : { وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ }( ) المطر ،{وَمَا تُوعَدُونَ } الجنة ، لأنها في السماء ، فيُنزِّل لهم اليوم المطر من السماء الذي هو سبب الرزق ، ثم يسكنهم الجنة في الآخرة .

وقال رضي اللَّه عنه لرجل يأمره بالحج ، وذكر حديث : ((إنما الأعمال بالنيات)) ، ثم قال : الإنسان ينوي ويتحرك ، ويُتِمُّ اللَّه ما أراد ، فقد توافقُ الحركةُ القضاءَ والقدر ، فإن وافقتهما تم العمل ، وإن لم توافق ذلك لم يتم العمل ، ولكن يبقى الإنسان على ما نوى من خير وشر .

وذكر رضي اللَّه عنه التفريط في الأمور، فقال : الحزم لا يَرُد القدر فكيف التضييع ، وأنت إبق على المطلوب منك ، حتى يغلبك القدر وأما إنك ترمي بنفسك في البئر، وتقول : مقدر عليَّ . استغفر اللَّه ، هذا لا يجوز .

(1/302)

وقال رضي اللَّه عنه : حالُ المشيئة فيه تفصيل طويل ما هو حال الجبر ، وفيه كلام طويل يعرفه الإنسان من أفعاله الاختيارية والاضطرارية ، فلينظر الإنسان كل أمر ، إذا شاء فَعَله ، وإذا شاء تركه ، فهو محل التكليف والثواب والعقاب ، وهو غير كلام أهل الجبر ، إنه مكتوب عليّ ومقدر عليّ ، وكلهم محجوجون ، فمن أين علموا أنه كتب عليهم ، وقد احتج إبليس لعنه اللَّه بين يدي اللَّه تعالى بهذه الحجة ، فما نفعته : قال اللَّه سبحانه له : لأي شيء ارتكبتَ معصيتي ، وعصيتَ أمري ، قال : يا رب هذا أمر قد كتبتَه علي ، قال اللَّه سبحانه : متى علمتَ أني كتبتُه وقَدَّرتُه عليك ، قبل الفعل أم بعده؟، قال : بل بعده ، قال تعالى : بهذا أخذتُك . والتفاصيل الغامضة ما يعرفها إلا العالِمون ، ولكن اللَّه من

اللَّه( ) ، وهذه المسألة مذكورة من زمن رسول اللَّه صلّى الله عليه و آله وسلّم بوجوهها الثلاثة ، كما في قصة الذي أُتِيَ به إلى النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم مراراً ليُحَدَّ في الخمر ، فلم يقل كُتِبَ علي .
وقال رضي اللّه عنه في حديث ابن عباس الذي فيه : ((واعلم أن الأمة لو اجتمعت)) الخ ، أي غير مُستقلين بذلك ، بل سعوا فيه ، ووافق القدر في حصوله ، فالإيمان بالقدر إجمالاً واجب ، فلا يُحتج به في فعل معصية أو ترك طاعة ، فإن هذه بدعة وهي تضر بالعامة ، وهي حجة لا تنفع ، يحتجون بقَدَرِ اللّه ، فالإيمان واجب ،وبعد ذلك إذا أصَبْتَ معصية تبَ منها واعمل الطاعة وأنت مع ذلك تؤمن أنها بِقَدرِ اللَّه .
وقال رضي اللّه عنه : ما الرضا إلا بالأقضية المُرّة ، وأما من وقع له ما يريده فرضي به ، فلا يظن أنه رضي بذلك عن اللّه ، وكذلك من يعمل على ما يهواه ، ويقول هذا مقدّر علي ، فإن هذا مبتدع ، واللازم عليك أن تُسَلِّمَ لقضاء اللَّه فيما كرهت ، وتعملَ بطاعته .

(1/303)

وقال رضي اللَّه عنه : في أوقات الشدائد لا ينبغي للإنسان أن يشفق إلا على دينه ، لأنه الذي يبقى معه في قبره وفي الآخرة ، وأما الدنيا فزائلة ، ولا بد من زوالها ، شئت أو كرهت ، إما زالت عنك ، وإما زلت عنها، إما زالت عنك اليوم ، وإما زالت عنك غداً.
وقال رضي اللّه عنه : إذا رَجَعت إلى خيرة اللّه ، ففيها كل شيء، والأشياء التي على أيدي الناس كلها عنده موجودة ، وإلا فالعلامات علامات سوء ، إذا نظرت إلى أحوالهم في أمور دينهم ودنياهم ، من صلاتهم وزكاتهم ومعاملاتهم ، وما تُذكَر هذه الأمور ، إلا لتُعرف أواخرها ، لأن اللّه لا يأخذ بغرَّة ، ولا بد للشيء من مقدمات ، وهذه الأمور مقدمات الساعة ، وكل أمورهم ما شيء منها وقع في محله ، وكلها عسعسة( )، ولا تكون العسعسة إلا في الغَدرى ، ووَصفُه تعالى نفسَه بقوله : { يُدَبِّرُ الأَمْرَ }( ) في غير محل من القرآن ، تعرف أن التدبير أمره مهم ، ولا شيء يستقيم إلا به ، وأين الرجل الصالح اليوم ،

ما عاد إلا شر وشر منه .
وقال رضي اللَّه عنه بعدما انجر الكلام إلى ذكر القَدَرية والجَبْرية ، فذكر : إن بعض الصالحين جاءه قَدَري ، ليحاجه فقام القَدَري وقعد ، فقال : ها أنا قمت بنفسي وقعدت ، فقال له الصالح : فقم إذاً ، فرام القيام فلم يستطع ، فانقطعت حجته ، وأما الجبرية المحتجون على اللَّه ، فإذا قام أحدهم للمعصية مختاراً ، وقال : إنما أقامني اللَّه لها ، فنقول له : تكذب على اللَّه ، إن اللَّه نهاك عنها ، ولا نراك مكرهاً عليها ، ومن قال لك إفعلها ، ولكن اللَّه تركك من حفظه ، فأخذ بيدك الشيطان فَجَرَّك إليها .

(1/304)

وذكر رضي اللَّه عنه أفعال الناس في المقادير الكائنة بها ، وحركات الناس على مقتضاها، فقال : المقادير أرواح ، وأجسادها الأفعال الصادرة من الخلق ، فالأجساد تُرى ويُدرك كنهها، والأرواح لا تُرى ، ولا يُعرف كنهها، فكذلك الأفعال في المقادير ، فيسافر الرجل ويقول أريد مكان كذا ، ولا يعلم ما قُدِّر له ، فربما مات قبل مقصده ، وربما وافق القدر فوصل إلى حيث أراد ، فالمقادير لا يُعلم بما جرت به ولو عُرِفت الأفعال . ففي الدنيا تخفى الأقدار وتظهر الأسباب ، وفي الآخرة تظهر الأقدار وتخفى الأسباب .
وقال رضي اللَّه عنه لرجل يريد السفر : المقدورات لا بد لها من أوقات ، المقدورات لا بد لها من أوقات ، كذا كررها مرتين ، ثم قال : وما ليس بكائن فلا قُدِّر ولا وُقِّت ، اللَّهم خِرْ لنا واختر لنا .

(1/305)

وتكلم رضي اللَّه عنه يوماً في القضاء والقدر، فقال : هذه الأشياء هي أفعال العباد ، فيؤمِن بأنها من اللَّه ، ولا يحتج على اللَّه بالقضاء والقدر ، بل يجتهد ويختار الأحسن حتى يُغلب ، وقد عَلَّمك اللَّه القضاء والقدر فخذ به ، لأن اختيارك من فِعْل اللَّه

فماذا تحتج به ، كما إذا حضر الطعام عندك وأنت جائع أو قَصَدك عدو من سبُع وغيره ومعك سلاح وأنت قادر فتترك ذلك فلا تأكل ولا تقاتل ، وتقول : إن قدر اللّه شيئاً هو يكون ، فهو قَدّر لك بأن أعطاك الاختيار والقدرة ، وفَصَّل لك أنواع الخير والشر ، وبيّن الأحسن والأسوأ ، فاجتهد أنت وتَحَرَّ ما يحسن ، ولا تجلس وتعتذر ، ومعك خصلتان يعتل بهما الناس ، وما عرفوهما ، لأنهم أخذوهما بجهل ، جاهل عن جاهل ، ولا يعلمونهما : القضاء والقدر ، والتوبة ، فيحتج بالقضاء والقدر، مع التقصير في حقوق اللَّه ، والاحتجاج بهما مع المعصية معصية أكبر من تلك المعصية ، وفي التوبة ربما تاب من بعض الذنوب فَنَقضها . وما جاء في طلب الرضا بالمقدور هو يعني في أمور الدنيا من فقر أو غنى ، أو ربح في تجارة أو خسران ، أو مرض أو صحة أو موت وأمثال ذلك ، لا بأن ترضى بترك واجب أو فعل محرم ، لأن اللَّه لا يرضى لعباده الكفر ، وكذلك فروعه ، فمن قال لك ترضى لنفسك بالمعصية ، ولم يرضها لك ربك( ).
وقال رضي اللَّه عنه : ما وقع من أفعال اللّه هو الأصلح على أي وجه كان ، وفيه حِكَم لا يحيط بعلمها الخلق ، لأنهم لم يحيطوا علماً بكل شيء ، وإن كان يَظُن في الشيء أن الأصلح خلافه ، فيقول : لأي شيء يكون الشوك ، وإنما الفائدة في الثمر، وكذلك لا حاجة إلى نحو الحيات والعقارب ، ففيها حكم ومنافع ، لا يحيط بها الوهم ، أقل الحال أن لا يبطر الخلق إذا كان كل شيء على ما أرادوا .

وقال رضي اللَّه عنه : المُصِرُّ على الذنوب مع رجاء العفو متمنٍّ ، والمعتل مع ذلك بالقضاء والقدر مبتدع ، وهذه مسألة قديمة ، حتى اعتل بها الكفار، ولكنها شاعت عند العامة ، فأول ما يلام على المعصية إحتج بذلك ، وجعلوه كالجبر ، وليس هذا عذراً لمن بقي معه الاختيار ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : هذه مسألة مهمة في الدين ، إحفظوها : لا يحتج الإنسان بالقضاء والقدر، حتى يعطي الأشياء غايتها ، ومن كان طبعه لا يقبل

الرياضة ، فلا تُتعب نفسك معه وتُتعبه .
وسمعته رضي اللَّه عنه مراراً يقول : لا عاد عمدة في ذي الوقت إلا على المقادير فقط ، لأنا نرى التدابير والسعي ما ينفع( )، ولا يبلغ الإنسان ما أراده .
وقال رضي اللَّه عنه : من العجائب أن الإنسان قد يصيبه السبب الداعي إلى الهلاك ، ولكن حيث لم يقدّر عليه لم يضره، وإن عظم السبب، وقد يصيبه السبب جدًّا، فيضره لأنه مقدر عليه .
وذكر رضي اللَّه عنه القضاء والقدر، فقال : هو مضر بالعامة ، حتى غيَّرهم ، وليس هذا مقصود الإيمان ، فإن مقصوده العمل مع الاحتجاج للَّه تعالى على النفس لا بالعكس ، وهذا( ) هو مذهب الجبرية ، ومذهب القدرية خير منه ، (وسقط بعد هذا بعض الكلام) ثم قال : ضَعُفَتْ في هذا الزمان النيات والمروءات والهِمَم ، وضعفُها أكثر من ضعف الدين .

ولما مر في القراءة في "الفصول العلمية" : إنه يقع كثيراً في كلام أهل التصوف : أنه ينبغي للعبد أن يرضى بما أقامه اللَّه فيه من الأشياء ، ولا يطلب الخروج من ذلك ، لأن اختيار اللَّه لعبده أحسن من اختياره لنفسه ، ولكن قد يلتبس الأمر على بعض المغترين من الجاهلين ، فمن الظلمة الغشَمة من يحتج بإقامة اللَّه تعالى له فيما هو فيه ، ومن المخلطين الذين يعملون الربا ، ويأخذون المال من غير حِلِّه ، ووضعه في غير حَقِّه ، من يحتج بمثل ذلك ، وذلك بهتان عظيم وضلال مبين ، وإنما تكون إقامة اللَّه للعبد إذا كان فيما يحبه( ) من الأمور والأحوال ، ويكون عاملاً بطاعة اللَّه ، وطالباً وراغباً في الترقي إلى ما هو فوق حاله ومقامه ، إلى آخر ما قال . ثم قال : هذا الكلام ذكره ابن عباد في أوّل "الحِكَم"( ) والفرق أن من كان في طاعة واعتقد إقامة اللَّه له فيه ، فهو كذلك ، وإن كان في معصية فاعتقد ذلك ، فهو الاحتجاج على اللَّه ، ومثل هذا : الاعتمادُ على القضاء والقدر مع ترك العمل ، ومثله التعلق بالحقيقة دون الشريعة .

وذكر رضي اللَّه عنه الأسباب فقال : إذا أراد اللَّه أمراً جعل له سبباً ، لأنه سبحانه لا يكلم الناس ، فيقول لهم افعلوا كذا ، واتركوا كذا ، ثم قرأ :{ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاّ وَحْياً}( ) الآية ، واللَّه سبحانه هو الفاعل .
وذكر رضي اللَّه عنه رجلاً فقال : إنه فعل أموراً لم يشاورنا فيها، ولكن الفعل فعل اللَّه ، فما وقع فقل : فعل اللَّه ، وما لم يقع فقل : فعل فلان .
وقال رضي اللَّه عنه : ما يليق في تفسير القرآن ، وشرح الأحاديث إلا الخشوع والخوف ، لأنها رقائق ، ولا يحسن فيها البحث ونقل الأقوال ، ومسألة القدر فيها إشكال لا يزول ، وهي على ثلاث درجات :
مذهب القدرية وقد انقرضوا ، حتى لم يبق اليوم منهم أحد ، والجبرية ، ومذهب أهل السنة وسط بينهما (وسقط هنا كلام) .

وتكلم رضي اللَّه عنه في تعاطي الأسباب ، وعدم الاعتماد عليها، فقال : كل الأشياء من اللَّه ، ولكن لا تَنْسُب إلى المليح إلا المليح ، والشر ليس إليك ، وأما قولك : كله من اللَّه وللَّه ، فلا يعرفه إلا العلماء الأكابر ، وإذا قال : هذا وقع لي من اللَّه ، فلا شك أنه من اللَّه ، ولكن بأسباب موقوفة على أسباب ، فخذ الشيء من الوجه الذي أذن لك فيه ، ولا تكن كالذي رأى في يد رجل شيئاً فنهبه منه وقال : هذا جاءني من اللَّه ، فنهب هو منه شيئاً آخر ، فقال : وهذا أيضاً جاءني من اللَّه ، فإذا كان أحد معه شيء ، فقال : هذا من اللَّه ، فلا ينبغي لآخر ليس معه شيء ، أن يقول : كيف يعطيك ولا يعطيني ، فإذا أراد مثل ذلك فينبغي أن يعرف الوجه الذي حصل له هذا منه ، فيعمل فيه مثل عمله ليحصل له مثل ما حصل له ، وناس كثير يغلطون في الصواب ، فيحتاجون إلى التعليم ، ولو أراد شيام أو الشحر ـ مثلاً ـ لاحتاج إلى جَمَّال( )، فينبغي أن يعرف أمور الدين بهذا الوجه . وإذا قال أعطانيه اللَّه فيحتاج إلى شاهد من الشريعة ، قال اللَّه تعالى في قسم الفيء : { وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}( )،ثم قسمه تعالى

بنفسه بقوله:{لِلْفُقَرَآءِ المُهَاجِرِينَ }( ) ، ثم قال : والدنيا كلها مفروغ منها ، والناس فيها بين ناج وفائز ، وهذه أمور قد فُرغ منها ، ولا مدخل للعمل فيها ، ولكن إذا مات الإنسان على الإسلام فلا يبالي بشيء .
وشكا إليه رضي اللَّه عنه رجل ضيق الحال ، فقال : ما عاد معك اليوم إلا الرضى والتسليم ، لكن بشرط موافقة الأمر ، فإذا وافق الأمر الرضى بالقضاء والقدر ، تَمَّ أمره . ثم أمرني بتقسيم أسوكة ، فبقي يتكلم ولا عقلت منه شيئاً .

(1/309)

وذُكِر له رضي اللَّه عنه يوماً رخاء الأسعار، فقال : ضَمُّوها للناس ، وباءوا بإثم احتكارها وحدهم ، لأن المحتكر ملعون ، يحشر مع قَتَلة النفوس ، وذلك من غير اختيار منهم ، ومن أبغضه اللّه وأراد به شراً يَسّره لفعل الشر ، شاء أم أبى ، ومن أحبه اللّه وأراد به خيراً يَسّره لفعل الخير ، شاء أم أبى ، وكل فعل يفعله الإنسان باختياره في الظاهر أو في الباطن ، ففيه المدح والذم .
وذكر رضي اللّه عنه أقواماً في معرض المدح ، وآخرين في معرض الذم ، ثم قال : الأفعال أحد يُمدح بها وأحد يذم ، والأسباب من فوق .
وقال رضي اللّه عنه في حديث( ) محاجة موسى لآدم ، وقوله : فحج موسى آدمُ ، إن هذا أمر قد مضى وتاب منه آدم ، وكم قد بقي يبكي ذنبه ، حتى بكى عليه نحو مائتي سنة ، ما إنه جلس يضحك ويحتج بالقضاء والقدر، ولو أن العمل ما هو إلا بالقضاء والقدر، لكن إلى الإنسان منه شعبة ، هي محل التكليف ، وبِحَسبها يثاب ويعاقب ، وهي الاختيار، فما دام يميز بين الفعل والترك ، ويعرف الأحسن منهما ويمكنه ذلك مع الاختيار، فلا حجة له ، والحاصل : إن المدح والذم متعلقان بالاختيار، حتى إن الإنسان قد يثاب مع عدمه ، فيما لو فعله معه لَذُمَّ به ، كمن يسقط في بئر وهو غافل ، أو فَعَل ما فيه تلفه ، وأما المضطر المجبور، فلا ثواب له ، ولا عقاب عليه ، لعدم الاختيار .

وقال رضي اللَّه عنه : لم تظهر مجاري القضاء والقدر إلا بعد تعدي خطة الاختيار، وما يتكلمُ في القضاء والقدر وفي الرجاء مع العامة في هذا الزمان إلا الأحمقُ .
وقال رضي اللَّه عنه : لا يمكن الإنسان مادام في الدنيا أن يمسك المحفر بِعُروتيه أبداً ، بل إن تمكن جداً قبض بإحديهما ، وإن حركه كثيراً سقط كل ما فيه أو بعضه ، فينبغي أن يأخذ بها( ) بالتي هي أحسن ، لئلا يرجع به خالياً.
ومر في عقيدة الرائية وقت الدرس قوله :
ولا كائن قد كان أو هو كائن سوى بمراد اللَّه من غير حاصر

فتكلم رضي اللَّه عنه عند ذلك في القضاء والقدر فقال( ) : هذه الأشياء هي أفعال العباد ، فيؤمِن بأنها من اللّه ، ولا يحتج على اللّه بالقضاء والقدر ، بل يجتهد ويحسن الأحسن حتى يُغلب ، وقد عَلّمك اللّه القضاء والقدر ، فخذ به ، لأن اختيارك من فِعْل اللّه ، فماذا تحتج به ، كما إذا حضر الطعام عندك وأنت جائع أو قَصَدك عدو من سبُع وغيره ومعك سلاح وأنت قادر ، فتترك ذلك فلا تأكل ولا تقاتل ، وتقول : إن قدر اللّه شيئاً هو يكون ، فهو قَدّر لك بأن أعطاك الاختيار وهداك ، وفَصَّل لك أنواع الخير والشر ، وبيّن الأحسن والأسوأ ، فاجتهد أنت وتَحَرَّ ما يحسن ، ولا تجلس وتعتذر ، ومعك خصلتان يعتل بهما الناس وما عرفوهما ، لأنهم أخذوهما بجهل ، جاهل عن جاهل ، ولا يعلمونهما : القضاء والقدر ، والتوبة ، فيحتج بالقضاء مع التقصير في حقوق اللّه .
والاحتجاجُ بهما مع المعصية معصية أكبر من تلك المعصية ، وفي التوبة ربما تاب من بعض الذنوب ، فَنَقضها . وما جاء في طلب الرضى بالمقدور هو يعني في أمور الدنيا من فقر أو غنى ، أو ربح فيها أو خسران ، أو مرض أو صحة أو موت ، وأمثال ذلك ، لا بأن ترضى بترك واجب أو فعل محرم ، لأن اللّه لا يرضى لعباده الكفر ، وكذلك فروعه ، فمن قال لك ترضى لنفسك بالمعصية ، ولم يرضها لك ربك( ).وما

وقع من أفعال اللَّه هو الأصلح على أي وجه كان ، وفيه حِكَم لا يحيط بعلمها الخلق ، لأنهم لم يحيطوا علماً بكل شيء ، وإن كان يَظُن في الشيء أن الأصلح خلافه ، فيقول : لأي شيء يكون الشوك ، وإنما الفائدة في الثمر، وكذلك لا حاجة إلى نحو الحيات والعقارب ، ففيها حكم ومنافع لا يحيط بها الوهم، أقل الحال أن لا يبطر الخلق إذا كان كل شيء على ما أرادوا.

(1/311)

أقول : رأيت في بعض القصص : أن رجلاً أنكر خلق الخنفسا وقال : لا فائدة فيها بوجه ، فابتلاه اللَّه بقرحة عجز عنها الحكماء وأيس من بُرئها ، فسمع رجلاً ينادي على أدوية لأمراض ذكر منها : من به قرحة صعبة فدواها حاضر ، فشكى له ما به ، فقال : إئتني بخنفسا ، فرضَّها وجعلها على قرحته ، فبرئت بسرعة ، فعجب من ذلك وتاب من اعتراضه وعلم أن للَّه حِكَماً في كل شيء .
وقال رضي اللَّه عنه( ) : الإصرار على الذنوب مع رجا العفو تَمَنٍّ ، والمعتل مع ذلك بالقضاء والقدر مبتدع ، وهذه المسألة قديمة ، حتى اعتل بها الكفار، ولكنها شاعت عند العامة ، فأول ما يلام على المعصية إحتج بذلك ، وجعلوه كالجبر ، وليس هذا عذرٌ ما بقي الاختيار .
وذكر إقامة اللَّه للعبد فقال : من كان في طاعة واعتقد إقامة اللَّه له فيه ، فهو كذلك ، وإن كان في معصية واعتقد ذلك ، فهو الاحتجاج على اللَّه ، ومثل هذا : الاعتمادُ على القضاء والقدر مع ترك العمل ، ومثله : التعلق بالحقيقة دون الشريعة .
وقال رضي اللَّه عنه يوماً في مجلس الدرس ، في معنى نسألك اللطف فيما تجري به المقادير ، معناه : إن المقدور لا راد له ، ولكن يسئل اللطف في ذلك ، كما قال أبو الحسن الشاذلي : لا نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح منك فيما تريد ، وأما نسألك الرضا بعد القضاء ، فذلك عند الحاجة إلى الرضا ، وأما قبله فإنه عازم عليه ، وما يدريك عند حصوله ، وأما برد العيش بعد الموت فذاك شيء

آخر ، وقبل الموت يرغبه في الدنيا ، فمن سأله اللَّه كرهه اللَّه منه ، كما يبغض الدنيا ، ودعا النبي صلَّى الله عليه و آله وسلّم لذاك الرجل الذي يكرهه : بكثرة المال والأهل ، وكذا دعا بذلك لأنس بن مالك ، فما الفرق بينهما؟، إن هذا دعاءٌ مع المحبة بسؤال امرأة صالحة فصار نافعاً ، وذاك بخلافه فصار ضاراً.

(1/312)

قال بعضهم : إذا أردت أن تسأل أحداً عن الدنيا ، فسل عنها من هو في سكرات الموت . وأكثر الناس قلوبهم مرضى ، فيشتهون ما لا يُشتهى( ).
ما قال في ذم الدنيا
وذكر رضي اللَّه عنه الدنيا فقال : إن المحب لها كلما ظفر منها بشيء غرق فيه على قدره ، إن قل أو كثر، لأنها كالبحر، فأول ما يدخله تغرق فيه أقدامه ، ثم إذا دخل أيضاً غرقت رُكَبُه ، ثم وسطه ثم يغرق كله ، وسرورها يعود على حزنها ، وحزنها يعود على سرورها ، فإذا سَرّته أحزنته ، وإذا أحزنته سَرّته ، ثم ذكر قصة المرأة التي مر بها عيسى عليه السلام مع غنمها وهي في أسوأ حالة من الجدب ، وضعف الغنم ، وهي فرحة ، ثم مر عليها بعد مدة فوجدها في حالة حسنة من الخصب وسمن الغنم وهي محزونة ، فقالت : أنا في الحالة الأولى فرحة بتوقع الأخرى ، وحزنة فيها( ) لتوقع الأولى .
وقال رضي اللَّه عنه : الولاة كالحيات ، العافيةُ في سكونهم ، وما يجيء من تحركهم إلا الشر ، والناس في هذا الزمان ما معهم من الدنيا إلا الهم والتعب ، ولو أن أحداً معه شيء من الدنيا فقال لك : خذه بما معه من الهم والتعب ، لأبيت منه( ) واخترت الراحة من ذلك ، فقد قال عيسى عليه السلام : الدنيا قليل ، وما بقي من القليل إلا القليل ، قد شُرِبَ صَفوُه وبَقي كَدَره .
وقال رضي اللَّه عنه : إذا أراد الإنسان من متاع الدنيا شيئاً عن حاجة إليه وضرورة ، فإن اللَّه يعينه وييسره ، وإن أراده بطراً من غير حاجة فليقدر .

(1/313)

وذكر رضي اللَّه عنه الزهد فقال : كل الناس راغبون ، إلا إنها رغبة دون رغبة ، فينبغي أن يعرف الإنسان قَدْره ، ولا يدّعي ذلك ، فيَلقى اللَّه مُدَّعياً ، وبهذا تعرف أن الزهد عزيز ، وأنت لا تُظْهر للناس أنك زاهد ، فإن كنت كذلك فلا عليك من قول الناس ، وإلا صرت مدَّعياً ولقيتَ اللَّه كذلك إذا ظهر لك الحال في الآخرة ، وفي الدنيا ما أنت سالم بما أنت عليه ، وقد رأينا أناساً يدّعون الزهد ، وهم بَعْدُ لم يصلحوا لطلب الدنيا لجهلهم وقِلّة ورعهم ، فكيف بالزهد ، فيسمعون مثل هذه الأشياء في الكتب فيَدَّعونها .
وقال رضي اللَّه عنه لرجل : ما ترى لو وَقَعْتَ على كنز، أو على مال ، ماذا كنت تصنع ، وانظر أن للنفس حالة قبل وجود الشيء ، وحالة عند وجوده ، وحالة بعد وجوده ، وإذا حصلت أمور الدنيا فاسأل من اللَّه السلامة فيها ، وقبل حصولها اسأل اللَّه السلامة منها، فإنما هي فتنة..
وقال رضي اللَّه عنه : لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا إلا مع الحاجة الظاهرة إليه ، فإن الاستكثار من أمور الدنيا ، ما هو شيء أصلاً ، فلا تجعل لنفسك منها شيئاً ، ولا تقل ربما تدعو إليه حاجة ، فحاجة الآخرة والدين أهم إليك من هذا ، غير إنا ما نحب أن نكثر على الناس فيما هم فيه( )، وكلما قدر الإنسان يضيِّق على نفسه في هذا الزمان ، لوجه اللَّه لا لشيء آخر ، فإن ما عند اللَّه خير وأبقى ، قال : وهذا عزيز ونادر جداً، ومعناه : طمأنينة تحصل في قلبه لا يضطرب ، ولو ما عنده شيء ، ورزقه في خزائن اللَّه ، لكن أين من يطمئن بذلك قلبه .

وقال رضي اللَّه عنه : ما كان من أمور الدنيا لا تتعلق به ، واتركه لغيرك ، من خادم ونحوه ، واشتغل أنت بأمور الدين والأمور الإلهية ، وأمور السماء ملكوتية ، وإن كان فيها مُلك ، لأنها من قول كن ، وإن كان فيها مثل أنهار وغيرها، من أمور المُلك ، وأما هذه الأرض العليا فهي مُلك ، وما فيها كله ملك من الحرث وغيره ، وفيها الاحتياج إلى كثرة الأكل

والمعاش ، وما أسفل منها لا يحتاجون إلا إلى قليل كالجن .
وقال رضي اللَّه عنه لبعض الناس يسليه عن شيء ذهب عليه من المال : الدنيا كلها ما تسوى شيئاً، وإنما فيها صيانة المؤمن وسِتْره واستغناؤه عن الناس ، ويعمل منها صالحاً إن وفّقه اللَّه ، وإلا فما هي شيء أصلاً .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل الدنيا المحبين لها إن كان جعل اللَّه في قلوبهم شيئاً من الزهد تَخُفُّ( ) بسببه في قلوبهم استقاموا على الأحسن ، وإن حصل لهم غرضهم وهواهم تعبوا في أنفسهم ، وأتعبوا غيرهم ، إلا إن كان حصل لهم مانع ، والأموال الحرام ما تروح إلا في الحرام ، ومرة قال : المال الحرام يرجع من حيث أتى ، كالحية التي دخلت جحراً ليس له إلا ثقب واحد ، ولم تدخله إلا تلك المرة .
ومرة قال : إذا أردت أن تعرف مالاً هل هو حرام أو حلال ، فانظر فيماذا يصرف في حلال أم حرام ، فإن المال الحرام يأبى أن يصرف إلا فيما هو أصله ، وشبّه رضي اللَّه عنه أموال أهل الزمان بالنار ، لكونهم في غير الطريق يسهل عليهم إخراجه ، وفي الطريق يعسر عليهم ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه في قولهم : يبنون ما لا يسكنون ، أي إذا أردت أن تسلم من آفات الدنيا ، فلا تبن قبل أن تدعوك الحاجة إلى البناء ، من ضيق منزل ، وكذلك في أمر المعيشة ، لا تقدر الحاجة إليها قبل وقوعها ، لئلا تكون من الذين يخبأون ما لا يأكلون .

وقال رضي اللَّه عنه : الدنيا كالبقرة الصعبة ، إن أمسكها الإنسان برأسها كسعته( ) برأسها ، وأن أمسكها بذيلها رمحته ، فلا أجدر بالعاقل من تركها.
وقال رضي اللَّه عنه : من طلب الدنيا للدنيا لا وزن له ولا ينتفع بها، ولا يحصل له بها الستر ، ولو حصل له منها ما عسى أن يحصل فهو مذموم الحال ، ومن طلب الدنيا للدين ، ولو سأل على الأبواب لم يضره ذلك ، بل يعظمه اللَّه وملائكته .

وقال رضي اللَّه عنه : من استوى عنده هاك وهات ، فهو من الزاهدين ، فقيل : هذه رتبة شديدة ، فقال : ورتبة أخرى أعلا من هذه وأشد منها ، وهي أمثل( ) : أن يكون هات أحب إليه من هاك( )، وهي أشد ، ثم ضحك وقام ضاحكاً ليدخل المصلى للصلاة ، وكان كلامه ذلك عند جلوسه في الضيقة .
وقال رضي اللَّه عنه : الصديق إذا قضى لك حاجة بعد السؤال ، فلا خطر لقضائها، وإنما المليح أن يقضيها إذا علم احتياجك ، وأما إذا سألته إياها فلم يقضها ، فلا تعده حتى من المعارف( ).

وذكر رضي اللَّه عنه أقواماً يعسر عليهم قضاء الحاجة ، فقال : فلان له أكثر من عشرين سنة ، ما استقضينا منه حاجة ، ولو بالثمن حاضراً ، لأنا لا نصحب اللئام ، ولا نداخلهم ، ولا نستقضي منهم حاجة ، فإن طلبوها منا قضيناها لهم ، وكان واحد عندنا له شيء قليل من الدراهم ، وطلبنا منه حاجة بقيمة مثلها ، فقال : تلك ما فيها خوض( )، ولم يقضها( )، فأرسلنا له دراهمه ، ولم نقبلها لأن ذكره لها لا معنى له ، ولو اعتذر بأن ما معه شيء في الساعة كان أحسن ، قال : وآخر طَلَبْنا منه كذلك ، وقلنا له : نرهنك شيئاً في مقابلته ، فقال : ماذا؟، قيل : كذا، قال ما أريد إلا كذا ، فتركناه ، وأمثال هؤلاء أحسبتم إن اللّه سلط عليهم الدولة سُدَى ، ما سلط عليهم إلا بسوء أعمالهم ، كما قال السيد أحمد( ) : الدولة ما هم الظَلَمة ، ما الظلَمة إلا أهل البلاد ، والحاصل : إن اللئيم ما هو ممن يُعَرَّج عليه في شيء ، فلا تستقض منه ، فإن استقضى منك فاقض له .
وقال رضي اللَّه عنه : الدنيا لا تخلو أن تكون سجناً للمؤمن من كل الوجوه أو بعضها ، ولو لم يكن إلا أن الروح فيها مسجون في الجسم .
وقال رضي اللّه عنه : علامة الزاهد في الدنيا إنه إذا دخل عليه منها فوق حاجته ، يستوحش منه ، فيرد الباقي أو يخرجه في الحال بلا مهلة ، وهذا أقل الزهد ، وعلامة الراغب فيها ، أن يستأنس بما يحصل

له منها ، ومن عرف الدنيا زَهد فيها ، ولو كان لم يؤمن بيوم الحساب .
وذكر رضي اللّه عنه جماعة من السادة معهم شيء من الدنيا، فذم دنياهم وضعف أمرها، وقال : من رأيته من السادة معهم دنيا تحسب أن معهم شيئاً منها، وما معهم منها شيء، لأنه قاعدة : من دخل في أمور الدنيا وليس آباؤه وأجداده من أهلها، فلا يحسنها ولا يعرف مواقعها وتدبيرَها، كالشجاع الذي أهله ليسوا شجعاناً، فإنه لا يحسن أمور الحرب وتدبيرَه ، وكذلك في كل شيء، كما قيل في المثل: ولد الصانع خير من متعلم سنة.

(1/317)

وقال رضي اللّه عنه : من أراد أن يسلم من الدنيا ، فلا يمدّن عينيه ؛ فإن مَدّهما راح دينه ، أما سمعت قوله تعالى :{ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ }( ) الخ ، والدنيا ما تسوى الاستغراق بها.
وقال رضي اللّه عنه : إن خير الدنيا مبشر بشرها ، وشرها مبشر بخيرها ، كما في قصة الراعية التي مَرَّ عليها عيسى عليه السلام .
وقال رضي اللّه عنه لرجل : فلان رِزْقه متيسر ، وهو يسمع ، ثم أقبل عليه بالخطاب ، وقال له : وكان أهلك فيهم كرم ، فهل فيك كرم مثلهم ، فقال : نعم ، إلا ما تأتت الأمور، فقال له سيدنا : الأول فالأول ، فالأول إطعام الطعام ، ثم القهوة ثم الماء، والدنيا من وقت آدم إلى هلم جراً ما تسوى عند اللّه جناح بعوضة ، وما فيها إلا الإيمان والنية الصالحة ، والعمل الصالح ، وكان أهل ذاك الزمان ، إذا قيل لأحدهم : هاك ، قال : أنت أحق به ، لزهادتهم وقناعتهم ، وكانت أمور الدنيا لا تضيق بهم ، واليوم إلا يتناهبون ، ما تحسبهم إلا أعداء ، وإيش يُسكِّن قلوبهم الملآنة حرصاً ، لأن الحرص إلا نار .
وقال رضي اللّه عنه : من تعلق قلبه بحب الدنيا وإعراضه عن الآخرة ، يكون ذلك من أحد سببين ، إما غفلة مع كونه موحداً ، وإما شك في اليوم الآخر والعياذ باللّه من ذلك ، ويُعرف ذلك منه عند الموت ، فمن كان إذ ذاك خائفاً من أمور الآخرة فذلك من

الغفلة ، وهو مؤمن ، وإن كان بقي خائفاً على أهله وعياله ماذا يكون حالهم بعده ، فهو شاك .
وقال رضي اللّه عنه : أمور الدنيا لها ثلاث حالات : إقبال وإدبار واستواء ، وهو أحسنها وأقلها ، كاستواء الشمس ، واستواء القمر، وأما أمور الآخرة إذا تمت فأطولها مدةً حالةُ التمام في الخير والشر .
وقال رضي اللّه عنه : الدنيا ما فيها فراغ ، إنما فيها التفرغ ، فإنك إن لم تكن مشغولاً بظاهرك ، فأنت مشغول بباطنك ، فإذا حصل الحزم فما عاد شيء وقت .

وقال رضي اللَّه عنه : لا تخص الدعاء بأمور الدنيا فقط إذا دعوت ، ولكن إذا سألت اللّه شيئاً من أمور الدنيا ، فاسأله قبله شيئاً من أمور الآخرة ، فإنه سبحانه أكرم من أن يعطي بعضاً ، ويترك البعض ، بل يعطي ذلك جميعاً .
وقال رضي اللَّه عنه : زهد الرجل وخروج الدنيا من قلبه أدل دليل على ولاية اللّه له ، وأنه من أولياء اللَّه .
وقال رضي اللَّه عنه : خذ من الدنيا ولا تتركها تأخذ منك ، وإن كان ولا بد فخذ منها وتأخذ منك ، والحذر الحذر أن تأخذ منك ، ولا تأخذ منها.
أقول : والذي ظهر لي أن معنى الأخذ منها كما جاء في الحديث : ((خذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك)) ، الخ ، وأخذُها منه تَرْكُه ذلك واللّه أعلم .
وقال رضي اللّه عنه : اتباع أمور الدنيا هي قولك : باافعل كذا ، وافعل كذا ، فهذه هي الشُّعب شُعَب الدنيا ، التي من تَتَبعها لا يبالي اللّه به في أي واد من أودية جهنم أهلكه ، ولكن إنما هي أقوال تَتْبع أوهاماً، وتَتْبعها الأعمال ، وأهل الزمان يريدون صبراً.
وقال رضي اللّه عنه : الدنيا للدين مثل الغشاوة للمصحف ، وما زاد على ذلك فهو مضر ، فقد قال بعضهم : الدين مثل العمامة ، أي يُرفع كما ترفع العمامة فوق الرأس ، والدنيا مثل النعل ، أي توضع ، واليوم انعكس الأمر ، أي وُضِع ما من شأنه أن يُرفع ، وُرِفع ما من شأنه أن يوضع .

وقال رضي اللَّه عنه : اسأل ربك العافية ، والرضى بالدون من أمر الدنيا ، وانظر مَنْ هو فوقك ، وفَضُل عليك فيها ، هل هو يجمع ذلك لينفقه في سبيل اللَّه أم لا ، ولا شك أنك لست بفاعل خيراً منه .
وقال رضي اللَّه عنه : من تأمل أحوال الأنبياء ومن تبعهم من العلماء والصالحين في الدنيا ، عرف أنه لم يسترح فيها ويطمئن بها إلا أحمق جاهل .

وقال رضي اللَّه عنه : الهَمُّ الذي ليس لأجل أمور الدين ، ما فيه فضل ، وهو ضِيقُ الصدر ، والآخر يسمى الحُزْن ، والدنيا بجملتها ما تسوى اشتغال القلب بالهَمِّ لأجلها ، بل هي أحقر وأقل من ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : ما طالبنا أهلَ الزمان بالزهد ، فأين الزهد اليوم ، وإنما طلبنا منهم التوسط ، فيأخذون أمورَ الدين بأيمانهم وأمورَ الدنيا بشمائلهم ، وكل الناس في هذا سواء ، إلا بين آخذ بيده ، وآخذ بيديه ، ولو أردنا الزهد التام ، لَكُنَّا رحنا إلى جبل لبنان( ).
وقال رضي اللَّه عنه لرجل يباسطه : هل عندك الآن واحدة من كافات الشتاء( )، فإذا كان عندك ثنتان أو ثلاث ففيه كفاية ، لأن الدنيا كلما علت منها كِفَّة ، تَوَطّت كفة ، فإن ارتفعت كلها انحطت كلها .
وذكر رضي اللَّه عنه أحوال الدنيا ، وأناساً مضوا ، فقال : إنها راحت بالناس ، أحد يروح ، وأحد يجيء ، وعلى هذا السبيل ، وإنما الشرف : الطاعة وفعل الخير .
وقال رضي اللَّه عنه : لا نسلِّم لأناس يدّعون أنهم متورعون في أمور ينكرون على من يتعاطاها تنطّعاً حتى يكون كذلك في جميع الأشياء ، وإما إنه يكدّ نفسه في درهم ، ويأكل رأس الفيل ، ثم هو ينكر أشياء درج عليها من هو خير منه .
وذكر رضي اللَّه عنه التفضيل بين الفقر والغنى ، فقال : دع التفضيل حتى ترى فقيراً و غنياً متدينين متمسكين ، حتى ترى أحوالهما ، فتفضّل أحدهما على الآخر ، وأما أهل الزمان فما فيهم حجّة ، ولا بهم حجّة ، فدعهم حتى يجيئك من تحتج به ، فأول ما

تحتج على أهل الزمان بالزكاة ، ويكفي في هذا( )
شأن رسول اللّه صلّى الله عليه و آله وسلّم وأصحابه
وأن الغالب من أولياء اللّه كانوا متجردين عن الدنيا ،
ومن كان في يده شيء منها ، إنما يمسكه لينفقه ،
ولا يبالي كيف كان ، وأما هؤلاء الذين أحدهم يبيع
ويشتري ، ويقامر ويخون ، وأوقات لا يصلي ، ولا
يبالي بالدين ، فما هؤلاء ، فلا يُفاضَل بينهم ،
ويُتركون فيما بينهم وبين اللّه .

وقال رضي اللَّه عنه : الدنيا مثل البحر، وإذا رأيت
الإنسان كلما له يتوسط البحر، خَف عليه ، وإذا رأيته
كلما له يتقرب إلى الساحل ، فارْجُ له الخير ، وقد
ضرب اللّه لها الأمثال ، وشبّهها { كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ
السَّمَاءِ}( ) وغير ذلك ، وقد كان الأكابر من السلف
قُرْب مماتهم يتجردون عنها بالكلية ، وكان الشيخ
عبداللّه العيدروس رضي اللّه عنه في آخر عمره ،
كلما رأى عنده مما فيه زينة الدنيا، يغيّره ، حتى
مسامير الباب.
انظر ما قال في الرياء
وجرى ذكر الرياء في المجلس يوماً ، فقال رضي اللَّه
عنه لي : إن الإخلاص عَسِرٌ ، تراك تعتقد في نفسك
بينك وبين اللّه أنك على حالة مذمومة ، ثم لو قال لك
أحد : يا كذا ، على الذي تعتقده في نفسك ، غضبتَ ،
قلتُ : لقد تعجبتُ من ذلك ، فقال : هذا غضب الطبع
، وقليل من يخرج منه ، فقد غضب النبي صلّى الله
عليه و آله وسلّم ، ولكنك ارم أنت بنفسك في
الأرض( ) ، فإن كنت على حالة مرضية عند اللّه ،
فيزيدك بذلك رفعة ، وإن كنت على خلاف ذلك ، فما
تسوى الكلام .
وقال رضي اللّه عنه في معنى قول الفضيل رحمه
اللّه : (ترك العمل لأجل الناس رياء) : أي إن
الشيطان مراده منك بطلان العمل بالرياء أو العُجُب ،
أو غير ذلك ، حتى لا يحصل لك منه نفع ، فإذا تركته
بالكلية فذاك مراده منك .

وقال رضي اللَّه عنه : كل فعل قَصَد به فاعله الناموسَ( )، لا يقبله اللّه ، ولا ينتفع به صاحبه في الآخرة أصلاً ، كالذي يفعل بصدقته رياء ، إلا أن يكون قد وافقت صدقته مثلاً يتيماً محتاجاً ومضطراً ، فيحصل له ثواب من وجه آخر ، كأن دعا له بسببه ، أو بنى نحو سقاية يرائي بذلك ، فشرب منها رجل فقال : اللّهم اغفر لمن بناها ، ففي مثل هذا لا مانع منه ، وذلك من المروءة إذا تَكَرّم وأعطى أحداً فذاك شأن العقلاء ، وذلك في المباح ، بأن لم يقصد به التقرب ، ولا الرياء والمفاخرة ، وقد حكم سيدنا علي بالنهي عن أكل طعام المتفاخرَين اللذَين كل واحد منهما شيخ جماعة ، فذبح أحدهما كذا وكذا من الجُزُر ، ففعل الآخر أكثر ، وتكرر منهما ذلك مراراً ، فلما علم بذلك أمر بإلقائه على المزبلة ، وذلك كمن يوصي أن يُفعل له خَتْم ، ويُجعل على قبره ختمة ، ويجتمع الناس عند ختمه وضيافته ، ونحو ذلك الذي يقصد به الناموس، وقد انقلبت أمور التربة عندنا في هذا الوقت، كلها لأجل الناموس .

وقال رضي اللّه عنه : الرياء منه حثيث ، ومنه دقيق ، وتكتبه الملائكة باختلاف أنواعه ، إلا إن منه ما لا تطلع عليه الملائكة ، كالدقيق منه ، لكنها تعرفه بالقرائن ، فتكتبه بقرائنه .

وقال رضي اللّه عنه : من عمل شيئاً من الطاعات وظن أنه مخلص في ذلك ، فليجرب نفسه ، فإن عرض له ما منعه عن ذلك ، وتأسف على عدم فعله ، فهو مخلص ، وإلا فلا ، وإن اهتم بفعل طاعة ، وادعى الإخلاص فيها فليطرح جميع أغراضه ، فإن بقي على همته فهو مخلص ، وإلا فلا .

وذكر رضي اللّه عنه الرياء فقال : العاقل إذا سمع أحوال الرياء ، لا يتهم إلا نفسه ، ولا يتهم غيره ، وأما أهل هذا الزمان زمان البركة ، إذا سمع ذلك أحدهم ، وعلم أنه فيه قال : وَرَىْ فلان ، ولو أحد أعطاه شيئاً ما ذكر فلان .

وقال له رضي اللَّه عنه رجل : إني أريد الحج ، ولكن ما خَلُصت لي النية ، لمجرد قصد الحج ، فإن نفسي تمنيني أن آخذ حجة ، فقال له : إذا أردت أن تعرف النية الدينية ، فَنَصِّل كل ما حواليها من النيات الأخرى ، فتعرفها حينئذٍ ، وأين النية الخالصة ، ولكن حَيَّا اللَّه الإنصاف ، بأن يَتَّهم نفسه في صدق النية ، فإن لم تكن إبل فمعز ، وإن لم يكن وابل فَطَل ، ولكن ينبغي للإنسان أن يحمد اللَّه حيث لم يجعله ينوي نية سيئة ، ولم يَهِم بقطع طريق أو مراياه للناس .
وقال رضي اللَّه عنه : المسافر معان ، سواء كان سفره في بر أو بحر ، إلا إن عليه أن يحرر النية ، لئلا يضيْعَ سعيُه ، فإن المسافر سفراً مباحاً ، سعيه ضائع ، وكذا المسافر لزيارة أو حج ، إذا لم يصحح النية سعيه ضائع ، إذ معلوم أن من حَجّ أو جاهد مرائياً أن سعيه ضائع ، والرياء هو الفعل بالقصد ، لا الخواطر التي تخطر من غير اختيار ، فإن قلوب الضعفاء تكثر فيها الخواطر من هذا الجنس ، حتى يتخلى القلب من الخلق ، وقليل خطورها في قلوب المتقين ، فإذا خطر فيها خاطر نادراً ، بادر( ) إلى الرجوع ، وهو معنى قوله تعالى : {إِنَّ الذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ }( )، وذلك حين يتخلى القلب وينخلع من كل ما سوى اللَّه تعالى ، وذلك هو الكبريت الأحمر ، الذي يعز وجوده ويُتحدث به ولا يوجد .
وذكر رضي اللَّه عنه يوماً المباهاة ، فقال : إن أناساً صحبوا أحداً من الصالحين ، فتباهوا بصحبتهم ، فأذهب اللَّه عنهم بركتهم ، لأن المباهاة بأمور الدنيا تُذهب البركة ، كيف المباهاة بأمور الدين ، والناس اليوم نزلوا .

وقال رضي اللَّه عنه في قول الإمام جعفر الصادق : (ومن خان اللَّه في الستر ، هتك ستره في العلانية) أي إذا كان يُحَسِّن الصلاة في الملا مع الناس أكثر منه خالياً ويرائي ، ويُرى في الملا خاشعاً خاضعاً ، وليس كذلك في الخلوة ، فهذا هو الخائن في الستر

الذي يهتك ستره ، ويقرَّب في الآخرة من الجنة ، حتى يرى حورها وقصورها ، ثم يُصْرف عنها ، فيقول : يارب لم أريتنيها؟، فيقال له : هذا أردتُ بك لأنك راقبتَ عبادي ولم تراقبني ، وتلك الأمور ينبغي أن يراقبها الإنسان من نفسه في الخلا والملا ، فإذا رآها وارتقب حاله فيهما فليتكلف تركها ويكرهها ، وأما من كان على حالة فيهما ، ولكن قد تَعْرض له عند الناس خواطر رياء وحياء ، وهو يكرهها ولا يعمل بمقتضاها ، فليس كذلك ، ويعرف من نفسه ، ولا ينتظر من يعرِّفه ، لأن الناس مأمورون بالسِّتر والكف عن التطلع إلى عورات الناس وإفشائها ، فليراقِب هو ربه ، ويراعي قلبه ، أو كما قال بمعناه .
وذكر رضي اللّه عنه أناساً يَتَلبّسون بصلاة غير جائزة فقال : إنما فعلهم هذا معصية ، لأن من تَلَبّس بطاعة باطلة ، فهو عاص ، ولكن ماذا نقول في هذا الزمان ، ومن استحسن الباطل ما عاد معك له إلا السيف ، إن كان معك سيف فاقهرهم على الحق .
ومرة ذكر مثل هذا الكلام ، وذكر له مثلاً ، فقال :
ومن عشق علته فليس له طبيب .
وقال رضي اللّه عنه : الكتمان في هذا الزمان ، أحسن من الإعلان ، إلا لأحد أمرين : إما لضيق في صدره ، أو لحاجة له في إظهاره ، لأن الزمان إنما هو شوك بلا ثمر، ولم تزل الأمور تَتَناقص إلى قيام الساعة ، وقد يضيق صدر الإنسان ، حتى من أمر أو أمرين ، ومن كتم أمره أو غفل عن أمر ، حتى لم يعرفه ولم يطلع عليه ، ولا هو سلطان يلزمه أن يتطلع على الأمور ، فذلك خير له ، وقد سلم من الإثم والشاغل .

وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي للإنسان أن يفتش عن نفسه ، ولا ينخدع بغرورها ، فكم ممن يبرئ نفسه من شيء ، وهو ملابس له .
انظر ما قال في سبب نزول المحن
وقيل له رضي اللَّه عنه : إن الجراد أصاب حرث بعض البلدان ، فقال نفع اللّه به : قد أمرناهم يدعون بقلوبهم وألسنتهم متضرعين إليه بالدعاء كذلك ، لأن

الإنسان ما له إلا ربه ، وما له من غيره من غياث :
{إِنَّ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوه }( ) الآية ، وإن اللّه وَجَّه إليهم مصائب وأمَرَهم بأشياء من الخيرات ، إن فعلوها صرف عنهم تلك المصائب ، وسَلّط عليهم موانع تمنعهم من الخير ، سَلّط عليهم شياطين وأهواءهم ونفوسهم ، فإن جاهدوها ، وفعلوا ما أمروا به ، فواسَوْا محتاجاً ، وأقرضوا مستقرضاً ، وأطعموا جائعاً ، وكَسَوا عرياناً ، ونحو ذلك ، صَرَفَ عنهم ما حل بهم ، وإن لم يفعلوا ضاعَفَها ، فإن فعلوا زالت عنهم ، وهكذا ينبغي أن يفعلوا كلما عادت تلك إليهم عادوا إلى الخير ، ليزول عنهم أو كما قال .
انظر ما قال من الإشارة إلى سيل نجم الحوت قبيل مجيئه
وما قاله عنه بعد مجيئه رضي الله عنه
وقال رضي اللّه عنه : للأسماء الإلهية سَرَيان في المخلوقات ، ما( ) غير ما يدري الخلق بذلك ، أسماء الرحمة في أهل الرحمة ، وأسماء العذاب في أهل العذاب .

ثم قال نفع اللّه به : رحمة اللّه في عذابه ، وعَذَابُه في رحمته ، وقد يكون الشيء مما يُرسله اللّه على بعض عباده ، يكون مَظْهره العذاب ، وباطنه الرحمة ، فهو في الظاهر عذاب ، وفي الباطن رحمة ، فظاهره العذاب وباطنه الرحمة ، ويكون رحمة وتخفيفاً في حق أقوام ، وعذاباً في حق آخرين ، وهو شيء واحد ، كما جاء في الخبر ما معناه : ((إذا أرسل اللّه على قوم عذاباً فهو تعذيبٌ للمعتدين ، وثواب للمحسنين)) . وفي قصة الذين يخسف بهم ، وفيهم أهلهم وأسواقهم ، فيبعثون على نياتهم ، ثم ذكر : إن خمساً من الأمم الذين أهلكهم اللّه بالعذاب ، وقد ذكر الجميع في هذه الآية : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ }( ) الآية .
أقول : قوله نفع اللّه به : للأسماء الإلهية سريان الخ ، فيه إشارة لمن يفهم الإشارة ، لما يقع في الكون

من المظاهر الإلهية ، وقد وقع بعد هذا الكلام ، بنحو أربعة أشهر إلا ثلاثة أيام ، وذلك في آخر رمضان من سنة 1124 السيل الهائل العظيم ، سيل الحوت الذي أخذ جملةً من النخيل، فكلامه مقدِّمَة له وإشارة إليه، كشفاً منه رضي اللّه عنه.
وقال رضي اللّه عنه : أهل البيت ودائع نبوية ، فينبغي لكل إنسان أن يستوصي بتلك الودائع النبوية ، وهم وإن كثروا لا يبلغون عشر معشار الخلق ، وأهل بلدتنا في بواطنهم تعظيم السادة ، ومن طبعهم ذلك ، ولكن هنا أناس ، ذكرهم من أصحاب الدولة ، لا يرون احترامَهم وتعظيمَهم ، فإذا أخذوا على هذا مدة ، فما يدرون إلا وقد جاءهم مثل هذا السيل العظيم ، وَنَبَرَهُمْ ولكن لا يعتبرون .
وسلّى رضي اللّه عنه رجلاً في مال كثير أخذه عليه هذا السيل ، فقال نفع اللّه به : إن الدنيا ما نقص منها زادَ في الآخرة ، وما الدنيا إلا ذاهبة بكل حال .

وذكره يوماً ــ أعني هذا السيل ــ فقال نفع اللّه به : إذا فعلوا هم ما يَبغون( )، فعل اللّه بهم سبحانه ما يبغي( )، لأنهم ما اتقوا اللّه في حقّه ، فما أبقى فيهم ، وأقوى رابطة لهم باللّه الصلاة وقراءة القرآن ، فانظر ماذا يفعلون فيهما ، يتَعْتعون في القراءة ، ويقرأ الرجل المقرأ في نَفَس واحد ، ولا معهم توحيد [أي كامل] .
وقال رضي اللّه عنه : إنهم غيروا فَغَيَّر اللّه عليهم ، جَارَ الدولةُ في الخُبَر( )، فأخذ النخلة بأصلها ، ومثالهم في ظلمهم للناس وانتقام اللّه منهم ، مَثَل من يقول لرجل : اترك فلاناً يضربك أو يقتلك ، فإن فلاناً يضربه أو يقتله( )، فإن الغِيَر وأعمال السوء نار ، فنارُكَ منك ، وسمعنا فيما سمعنا : إن منازل النار مكتوب عليها أسماء أهلها، يدخلونها بأعمالهم ، وإنما يدخلون الجنة برحمة اللّه .
وقال رضي اللّه عنه : وما كلٌّ يسقط ، ولا كلٌّ يسير ، ولا كلُّ أحد يَصِل ، وكلُّ الناس يسيرون ، إلا منهم سائر إلى الجنة ، ومنهم سائر إلى النار، حتى إنه ما يموت أحدهم إلا وهو على باب النار .

وذكر رضي اللَّه عنه قوماً في معرض المدح ، وآخرين في معرض الذم ، فقال : الناس في الفعل ، منهم الممدوح ومنهم المذموم ، والأمر من فوق( )، ولعل في الناس من له عمل مثل عمل قوم نوح ، حتى جُوزوا بمثل جزائهم( )، وكان من عملهم الاستكبار وقلة الحياء ، والإصرار على المعصية إذا نُهوا عنها، قال اللَّه تعالى : {وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}( ) الخ . وقال تعالى : {مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا}( )، إلى آخر ما حكى اللَّه عنهم ، فكذلك في الناس الآن من يصر على المعصية ، فإذا نُهيَ عنها قال مَرْحباً بلسانه ، وأصر بعزمه ، واستكبر ولا يستحي من اللَّه ، فجوزوا بهذا السيل( )، كما جوزوا أولئك بالطوفان ، فقد قال فلان من السادة: إن هذا السيل من بقية طوفان نوح ، والجزاء من جنس العمل ، قال اللَّه تعالى : {فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ } الخ .

وقال رضي اللَّه عنه لرجل يسليه : عسى أن يقع الأجر والعوض إن شاء اللَّه ، والأجر، أو قال العوض واقع لا محالة ، لأن اللَّه سبحانه ما يأخذ شيئاً إلا أعطى خيراً منه .

وتكلم رضي اللَّه عنه يوماً على أهل النخيل الذاهبة( )، فقال نفع اللَّه به : الرجل عنده أربعمائة نخلة ، يأخذ ثمرها ولا يتصدق منها حتى بمائة سعفة ، ولا يعمل خيراً قط ، ثم إنهم يتأسفون( ) على أنهم لم يبيعوا ويتخلصوا منها بأي وجه ، وهذا من قلة الخيرية ، ولو لهم نية في الخير لتأسفوا على أنهم لم يكونوا فعلوا منها خيراً ، فإذا لم يكن شيء من الدين فأين العقل والمروءة .

وقال له رضي اللَّه عنه رجل : إن هذا السيل أذلَّهم ، فقال : إن الإنسان قده ذليل بالنسبة إلى ربه ، وإنما أظهر ذله ، والإنسان إذا وقع في شدة أو حصل له مرض ، أو شيء من الأمور، يستبين ضعفه وذله ، وإلا فهو ضعيف ذليل من أصله ، فقد قال سيدنا

علي : الإنسان ضعيف ، تقتله شرقة ، وتؤذيه بقة ، وتنتنه عرقة ، وقال بعضهم : الإنسان أنف في السماء، واسْتٌ في الماء.
وقال رضي اللَّه عنه : إن هذا السيل أشغلهم عن الغِيبة ، حتى لم يتفرغوا لها ، وبقوا مشغولين به عنها، والرب يغضب ويرحم ، والرحمة تحيط بالغضب ، وإذا غضب ورضي لا يعود إلى الغضب سريعاً .
وقال رضي اللَّه عنه : هذا( ) غضب نزل ، وماعاد معهم فيما مضى إلا الإستغفار ، ولكنهم يراقبون اللَّه فيما بقي ، ويخشونه ويتقونه ، ويؤدون حقوقه ، وأفعال القوي( ) قوية ، لا تثبت لها أفعال الضعيف( )، لأن فعل الضعيف ضعيف ، وحق هؤلاء أن لا يتعرضوا لسخطه إلا بقدر ما يطيقون ، ولا معهم استعداد ، ومن يؤمن بالآخرة ، أيصلي صلاة غير معتبرة؟ ، أو يزكي زكاة غير معتبرة؟ ، ولا يستحيون من اللَّه ومن ملائكتهم الذين يكتبون كلامهم وكثرة هذيانهم ، وإذا أردت تعرف هل في الإنسان خير أم لا ، فانظر إن كان يضحك حال جلوسه في المسجد وتلاوته القرآن ، فاعرف أن ما فيه خير، وإذا لم يكن فيه حينئذ خير، فمتى يكون ذا خير ، ولا يكون جلوسه في المسجد معشار أوقاته ، فلا يجعلها أيضاً كلها للَّه ، ومع هذا تجري عليهم مذاكرات فلا يعتبرون ، والظاهر أن صحائف الشر لا ترفع إلى اللَّه ، بل ترد من السماء الدنيا، وإنما تصعد الملائكة بصحائف طاهرة فيها الخير ، فترد أو تقبل عند ذلك .

وقل ما ذكر رضي اللَّه عنه هذا السيل العظيم ، إلا تكلم في مانعي الزكاة وذمَّهم ، فمما قال فيهم بعد أن قيل له : إن الحطب قد كثر للمساجد ، وانتفعوا به لحرارة الماء لها، فقال نفع اللَّه به : إن الحطب لا يعيض في النخل ، لكن حيث استحقوا ذلك بتركهم الزكاة ، يضم الإنسان كذا وكذا من التمر، ولم يُر أنه أعطى فقيراً واحداً ، أما سمعوا قصة أهل الجنة( ) فيعتبروا بهم ، ولا نفع فيهم الوعظ في الخطب

على المنابر والتذكير ، ولو جاءهم من يطلبها( ) إلى دورهم ما أعطوه شيئاً ، فأعطاهم سَحقة ولا يمهلهم( ) حتى ساعة زمانية ، فليأخذوا من تركهم الزكاة : { وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون }( )، {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم }( ) ، {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَالِمِين }( ) ، ولم يجعل أحد منهم للَّه حِمل حطب في مسجد ، ولكنه إذا دخل الجابية ، تحسبه كذا (ونسيت ما قال) ومن تأمل صنيعه في النخل ، علم أنه ما جاء إلا بقصدها، وهذا نتيجة قطع الحطب والتخبير( ) وترك الزكاة ، وقد نهيناهم عن هذه الأشياء فحصل لهم كما حصل لأصحاب الجنة من ثقيف حيث حكى اللَّه عنهم : {فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ }( ) إلى آخرها، وما قصه اللَّه في القرآن إنما يراد به الاعتبار ، لا الحكاية والأسمار ، وما يأخذ اللَّه سبحانه إلا بوجه ، يقنمون( ) الثمرة ، وهو( ) ينظر فلا يعطى.

وقال رضي اللَّه عنه : إن هذا السيل عقوبة جاءت على غفلة ، وعسى أن تكون مصحوبة باللطف ، وما ظننت أن هذه الهملة( ) يكون منها مثل هذا السيل المهول ، ولم نسمع بمثله ، ولم يحصل في الإكليل الأول ولا الثاني ما حصل مثل هذا ، وبين كل سيل من هذه السيول المدة المتقاربة نحو 74 أو 75 أو قريبا من ذلك .

أقول : وقل ما جلس رضي اللَّه عنه مجلساً إلا وذكر هذا السيل ، ولهذا طال كلامه فيه ، وكثر ما ذكرناه عنه مما يتعلق به ، وذلك فيما قارب قرب وقته ، ولما بَعُدَ قَلَّ ما يذكره.

وكنت يوم الاثنين في 24 شهر رمضان ، قبل مجيء هذا السيل بيومين ، جالساً في حلقة مع جماعة سيدنا نقرأ القرآن بحضرته بعد صلاة الصبح ، كما هو مرتب ذلك في هذا الوقت ، في العشر الأواخر من رمضان ، فبعد ما قرأت المقرأ وأنا مستند قاعد مستقبل القبلة ، وسيدنا جالس في المحراب ، إذ

أخذني النوم قليلاً ، فرأيت قبة فيها قبر، ولها باب واحد، وفي القبة ثقبان ، قبلي وشرقي ، وكأنَّ عتم ماء يجري إلى القبلي ، فيدخل منه الماء إلى القبة ويجري فوق القبر ويسفح منه إلى الثقب الشرقي ، ثم يخرج منه يجري في العتم إلى نخيل كثيرة وبساتين يسقيها ، وكأن ذلك القبر قبر النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، وكأني أقول في نفسي : يا سبحان اللَّه هذه البقعة ، أعني البقعة التي ضمت أعضاءه الشريفة ، أفضل من العرش والكرسي وما دونهما ، وهذا الماء متروك هكذا يجري عليها ، وفي خاطري أن ذلك الموضع الروضة الشريفة ، وكأني أتمثل بهذين البيتين ، من قصيدة البكري :

لما حَوَتْ والفلكُ الأكبر ... قد حَسَدَتْها سدرةُ المنتهى

كانت قناديلَ بها تزهر ... ودت نجوم الأفق لو أنها

وبقيت في رؤياي هذه إلى أن وصلني المقرأ ، فحركني الذي أقرأ بعده ، فحكيت لسيدنا عندما قام من مجلسه ذلك ، فقال رضي اللَّه عنه : هذا أمر بايقع لا يتحمله إلا هو صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فلما وقع السيل ثالث يوم من الرؤيا ، قال نفع اللَّه به : إنه كان يريد أن ينزل ما هو أعظم من ذلك ، لكنه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم تحمل منه ما لا يتحمله غيره .

وقال رضي اللَّه عنه : إن سيلاً سابقاً كان يسمى قاحش ، وهذا نابر ، والنبر أشد من القحش، لأنه ينبر الأرض فيخرج منها النخل ، وذاك يقحش ما عليها، وهذا السيل نابر واللَّه جابر.

وذم رضي اللَّه عنه أقواماً غرسوا في أماكن النخيل التي أخذها هذا السيل ، فجاء سيل آخر ، فأخذ ما غرسوا( ) فقال نفع اللَّه به : لو سمعوا كلامنا ما رجعوا يفعلون ، وإن كان ولا بد فيصبرون السنة ، ينظرون أولاً ، وإذا رأيت مظاهر القهر، فاخشع ولا تبطر ، وعند مظاهر الرحمة يكون أمر آخر ، كيف نخيلكم تلك بأجمعها مع كثرتها أخذها في مدة قريبة ، من وقت السحر إلى بعد الشروق ، ثم أنتم

تعودون على القرب إلى الغرس ، فهذا الفعل منكم كالمغالبة منكم للقادر القوي. وذكر هنا لذلك مثالاً ، وهو : إن رجلاً فقيراً كان قام له رجل آخر غني بكل ما يحتاج إليه ، وأعطاه من المال حتى أغناه ، فقال اللّه تعالى لذلك الرجل الغني : نحن أفقرناه فأغنيتَه( )، فأمتناه فأحيه إن كنت تقدر على ذلك ، ولعل ذلك على لسان أحد من الأنبياء ، انتهى ما أردنا ذكره من قوله فيما يتعلق بأمر هذا السيل ، وعاش سيدنا بعده ثماني سنين وشهراً وثلاثة عشر يوماً .
وقال رضي اللّه عنه ما معناه : قد يقابل الأمرَ من اللّه شيء من العوارض فيمنعه ، فإذا جاء أمر برحمة قَابَلَتْها حصولُ معصية فامتنعت ، أو حصول عذاب فقابله صدور طاعة فرجع ، حتى إنه جاء عن اللّه تعالى إنه قال : ربما وجهت على أحدٍ العذابَ فيمنعني منه القائمون بالأسحار، ثم حكى : إن رجلاً كان عابراً في سفينة في البحر، فانكسرت بهم السفينة ، فألقاه البحر إلى جزيرة في البحر، فصعدها فرأى فيها مسجداً ، وفيه سبعة من الأولياء منقطعين للعبادة ، فهبت ذات يوم ريح شديدة في البحر وفي الجزيرة ، فلما رأى شدتها قال : لا إله إلا اللّه ، فلما قالها سكنت الريح في الحال ، فالتفت إليه واحد منهم وقال له : هداك اللّه ، إن هذه الريح أرسلها اللّه ليغرق بها جملة مراكب من الكفار غاروا على المسلمين ليأخذوهم ، فلما ذَكَرْتَ اللّه سكنت عنهم .

أقول : ويشهد لذلك حديث الجامع الصغير( ) : ((إذا أُذِّنَ في قرية ، آمنها اللّه من عذابه في ذلك اليوم)) ، قال المناوي في شرحه : وهنا فائدة ذكرها الإمام الرازي : إن الماء زاد ببغداد يوماً حتى أشرفت على الغرق ، فرأى بعضُ الصلحاء كأنه وقف على( ) دجلة ، وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا باللّه ، غرقت بغداد ، فجاء شخصان أي ملكان فقال أحدهما للآخر : ما الذي أُمِرتَ به ، قال : بتغريق بغداد ، ثم نُهيتُ عنه ، قال : ولِمَ؟ ، قال : رفعتُ لملائكة( ) الليل ، إن البارحة افتض ببغداد سبعمائة فرج حرام ، فغضب

اللَّه فأمرني بتغريقها ، ثم رفعت ملائكة النهار بسبعمائة أذان وإقامة ، فغفر اللَّه لهؤلاء بهؤلاء ، فانتبَهَ وقد نقص الماء . انتهى .
وقال رضي اللَّه عنه : أهل هذا الزمان أحاطت بهم ذنوبهم ، ولو أنهم يمتثلون ويفعلون ما نأمرهم به لكان فرج اللَّه عنهم ما بهم ، ولكن راح بهم العصيان .
انظر ما قال فيما يدفع المحن
وقال رضي اللَّه عنه : إنما تستدفع الامتحانات بالصدقات ، سيما المحن المالية ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكانوا( ) يزدادون بالبلاء والمحن خضوعاً وذلة وافتقاراً إلى اللَّه تعالى ، ويجأرون ويكثرون من الصدقات عند ذلك ، وهؤلاء( ) لا يزيدهم ذلك إلا بخلاً وافتجاعاً على الدنيا وحرصاً ، وما بهم إلا أعمالهم السيئة ، فحيث لم ينصفوا ويؤدوا حق اللَّه من أنفسهم بأنفسهم ، من أداء أوامره واجتناب نهيه كما ينبغي ، انتصف اللَّه منهم بنفسه ، والدنيا في أيديهم كالعدانة فيها الدجاج .
أقول : يعني بالعدانة المزبلة . وحركتُهم في دنياهم واشتغالهم بأسبابها من غير معاملة صحيحة ، ولا نية للَّه صالحة ، مع قلة أو عدم إخراج واجب ومندوب ، كحركة الدجاج ، وبحثها في المزبلة ، كما قال ابن المقرب الشاعر الاحسائي( ) :
لا يُعرف المعروفُ في ساحاتهم إلا كما يُحكى عن العنقاء

وإذا انتَدوا( ) بَحَثُوا النَّدا( ) فكأنهم دُجَجٌ تُبَاحِثُ عَذْرَةً بفضاء
ثكلتهم الآباءُ إنَّ حياتهم غمُّ الصديق وفرحة الأعداء
وقال رضي اللَّه عنه : أدركنا زمناً إذا وقعت على الناس شدة وابتُلوا ، رجعوا إلى اللَّه ، وتابوا واستغفروا ولزموا الطاعات وتركوا المنهيات ، وخافوا أن قد عجل عليهم من العذاب في الدنيا ، ثم يرجعون على أنفسهم باللوم على التفريط ، وأهل هذا الوقت إذا نزل بهم شدة تركوا الواجبات ، فضلاً عن المندوبات ، وارتكبوا المحرمات ، ثم إنهم يتمنون

ما لم يستحقوا ، فهيهات أنى يكون لهم ذلك .
وقال رضي اللّه عنه : أعطوا المحن أحكامها، فإن من أعطاها إياها كانت عليه نعمة ، وإلا صارت كل محنة محنتين ، أو ثلاثاً .
انظر ماقال في العلم وفي أهل العلم أو تفسير حديث
وتكلم رضي اللَّه عنه في العلم فقال : من رأيته يعلّم العلم النافع ، كعلم كتاب اللّه ، وسنة رسول اللّه ، وينطق بذلك ، ثم لا يظهر عليه العمل به ، فذلك عالم سوء ، فإن لم يكن ما عَلّم من العلوم النافعة ، فلا يسمى عالماً أصلاً ، وأما العالم بأحكام الفقه ، لو كان كذا ، لو كان كذا مما لم يقع ، فإنما هذا صناعة لا علم ، ومَنْ عَلِم البيع والشراء ولم يبع ولم يشتر له فضل بذلك؟، لا ، بل إن فعل فائدتُه أن يتقي اللّه في ذلك ، فالفضل حصل من التقوى ، لا من ذلك .
ثم تكلم كثيراً حتى انجر به الكلام إلى أن قال : لا تنكر على أحد من أهل الحق ، ممن علم اللّه إخلاصَه ونصيحَتَه ، حتى تختبر ، أو كما قال .
وتكلم رضي اللّه عنه في أهل الزمان وأَكثرَ ، ثم قال : إن شهود الزمان فَسَقة ، وكذا قضاته وعدوله ، وإنما تُقْبَل فتاويهم وشهاداتهم للضرورة ، وإذا تأملت حال العُبَّاد فيه ، فضلاً عن غيرهم ، تراهم في كل مباح من أكل ونوم ونحو ذلك في غَفْلة ، أين الآداب ، أين الأذكار الواردة في هذه الأشياء ، هيهات ، ذهب الدين ولم يبق منه إلا الرسوم .

وتكلم رضي اللَّه عنه أيضاً في هذا الزمان وكثرة اختلافهم ومخالفتهم في أشياء من ظاهر العلم ، ثم قال : إن أهل الزمان ليسوا بأهل مجادلة( ) وإنما هم أهل شقاق ، فإذا قال تعالى في حق أهل الكتاب : {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }( ) فكيف بالمسلمين ، وهذا في أشياء من العلوم الظاهرة ، فكيف لو أظهرنا لهم كلمةً صوفيةً ، أو قال : فكيف لَوْ هُوَ في التصوف .
وقال رضي اللَّه عنه : إن اللَّه تعالى يبغض العلم

الذي يَمْنَع من العمل ، ويبغض العمل الذي يمنع من العلم المهم ، والعمل بلا علم سقيم ، والعلم بلا عمل عقيم ، وفرق بينهما ، وإن كان كل منهما آفة .
وقال رضي اللَّه عنه : ما قَطَع أهلَ الزمان من معرفة العلم العجزُ ، إنما قطعهم الزمان ، لأن من عَلَّم شيئاً لم يُحفظ منه ، ولو أملاه( ) لم يُحفظ ، وإن حُفِظَ شيء فيبقى مصرًّا عليه( )، فينساه ، فلو ألقيت في الأرض دراهم ، فلم تجد من يلتقطها لم تَرْم مرة أخرى .
وقال رضي اللَّه عنه : خذ مع أهل الزمان بالرفق ما أمكنك ، ولا تشدد عليهم ، فإن حبالهم رامّة( )، وما كنت تعلّمه أحدهم في يوم اجعله في ثلاثة أيام ، لأن قلوبهم مائلة أو قال منصرفة ، وخصوصاً الصغار ، ما معك منهم إلا الترقوة واللطف بهم والرفق ، ومثال أهل الزمان كالبعير الشارد ، فلا تضربه فتزيده شروداً .
وقال رضي اللَّه عنه : المبتدي الذي لم يتبحر في العلوم ، إذا نظر إلى الخلاف في العلوم ، تفرق قلبه وتشتت همه وفاته التحصيل ، سيما في الإلهيات والنبوَّات ، وربما يقع في شبهة ، ولا معه من العلم ما يزيلها به ، وأما إذا تمكن في العلوم ، فلا بأس أن ينظر في الخلافيات ليعلم ذلك ، وذكر حجة الإسلام : إن العلم كالسلطان ، إما مَلَكَ وارتفع إلى أعلا المراتب ، وإما لم يتمكن من ذلك ورجع إلى أسفل المدينة ثم تمثل :
فإياك والرتب العالية ... بِقَدْر الصعود يكون الهبوط

وقال رضي اللَّه عنه : وأصول الإعتقاد ثلاثة : التوحيد والنبوة واليوم الآخر( ).
وقال رضي اللَّه عنه : ذكر : إن سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم كانا في سفر صائمَين ، ففتح لهما بشيء ، فأخرجه إبراهيم ولم يدّخره إلى الإفطار ، فقال له سفيان : تحتاج إلى شيء من العلم يا إبراهيم ، فسكت إبراهيم ولم يَرُد له جواباً ، فلما آن وقت الإفطار ، جاء أحد إليهما بطعام كثير من خبز وتمر ، فالتفت إبراهيم إليه وقال : يا

سفيان تحتاج إلى شيء من اليقين ، لكن هؤلاء قلوب مجردة في الأبدان بلا نفوس ، أبدانهم في الدنيا وقلوبهم في الآخرة . وقراءة أحوال هؤلاء إنما هي للتبرك ، وإلا فلا مَطمع في العمل بمثل عملهم ، لأن الناس كلهم ناشبين مخاليبهم في الدنيا ، وهم فيها كَعَرقِ الموقف ، بعضهم إلى ساقه ، وإلى ركبته ، وإلى حلقه ، وإلى رأسه .

ولما قرأت بحضرته قصيدته التي فيها ذكر القطب منشداً بها، ووصفه وهو قوله( ):

بطريقة الإجمال فاسمع سائلي ... ... إن شئت تعرفه وتعلم وصفه

ورع تقي زاهد في العاجل ... ... هو سيد متواضع متخشع

ومن العبودة بالمقام الحافل ... ... الشرع سيرته الحقيقة حاله

يرعى الوجود بعين لطف شامِلِ ... ... بَرّ رحيم بالخلائق كلهم

خيرِ الأنام بعاجل وبآجل ... ... يمتد من بحر البحور محيطِها

فقال نفع اللَّه به : هذا وصف جامع لصفات القطب ، حتى يعلم الواقف عليه أن من خالف ذلك لم يكن قطباً ، إلا إن كان بالمعنى الأعم ، لأن القطب : السيد في كل طائفة ، وهذا الوصف إنما هو في القطب الذي هو أفضل أهل زمانه من الأحياء ، ولو علت درجات أحد منهم( )، ولا يقوم في مقام القطبية إلا ظاهر، فإن لم يكن فيه أهلية للظهور ، يستنيب أحداً ممن فيه أهلية للظهور ، فقلت له : أيكون القطب المتقدم أفضل من المتأخر؟، فقال : لا يشترط ، فقد يكون في المتأخر مزايا لم تكن في المتقدم لاختلاف الزمان ، ولا يكون في كل زمان إلا واحد ، وما ذكر عن جماعة في زمان واحد أنهم أقطاب ، فلعل أن يكون كل واحد منهم قطباً في جهة .

وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ): ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)) ، أي أعلمته أني محارب له ،

وذلك لأن الولي لا ينتصر لنفسه ، فيكون اللَّه سبحانه هو الذي ينتصر له ، ثم أنشد :
يكون مِيراً يوم عَزْله ... إنَّ الأمير هو الذي
لم يفُت سلطن فضله ... إن فات سلطان الولايةِ
وقال رضي اللَّه عنه : إذا رأيت اللَّه قد عدل عن كلمة إلى أخرى في شيء من الألفاظ ، إمَّا في ذكر أو غيره ، فخذ بما ذَكَر ، وإن كانت الأخرى تماثلها في اللفظ أو مع المعنى ،كما ذُكِر في الوضوء( ) : يوم تَبيض ، ويوم تَسود ، أي بفتح أوليهما كما جاء في القرآن.
ورأيت بخط ابنه السيد الجليل علوي ، مما نقله عن والده رضي اللَّه عنه ، قال سيدي : أهل هذا الزمان أخذوا السيوف إلا ليقطعوا بها الطريق ، ما أخذوها ليؤمِّنوا بها الطريق ، ويشير بذلك إلى العلماء. انتهى .
وقال سيدنا رضي اللَّه عنه : قد قلنا لرجل تفَقّه ، فقال : الفقهاء إلا كذا ، يعني يذمهم ، فقلنا له : الزم التقوى والورع ، فإن أهل التقوى والورع يعظّمهم الناس ويعتقدونهم ، فخذ لك سراجاً ولا تبرزه للّهبوب ينطفئ ، ولا تُعْلِقه( ) في النهار، فلا يبقى له أثر ، لأن الأمر إلا نبوة .

وقال رضي اللَّه عنه : التوسع في علم الفقه زيادة مليحة ، ولا تضر إلاَّ مَن قلبه مُظْلم ، وإلا فالعلم نور وحياة ، وقد ذكر الإمام الغزالي : إنه لم يختلف أحد في أن قوله تعالى : { أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ } ( )، أن المراد به العلم ، ولكن العلم يحتاج إلى نور: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ }( ) .
وقال رضي اللَّه عنه : إن أهل الزمان قد بَعُدوا من الدين جدًّا ، حتى إنهم إذا سمعوا شيئاً على قاعدة الشرع لم يطرق أسماعهم ينكرونه لعدم اطلاعهم على ذلك ، بسبب همَّتهم في الدنيا ، وعدمها في الدين ، ولو تَولّينا مثلاً شيئاً من الأمور ، لرأيتم ما لم تطلعوا عليه ، إلا إن كان قد سمعتموه .
وذكر رضي اللَّه عنه في حديث المَلَكين يناديان كل صَباح ، ينادي أحدهما : اللَّهم أعط منفقاً خلفاً ،

والآخر ينادي : اللَّهم أعط ممسكاً تلفاً ، قال : هذا فيمن لم يخرج الزكاة ، فيمنع حق اللّه الواجب ، أو لا يتصدق مع قدرته على ذلك ، بل يبخل عن ذلك ويخبئ المال وينميه ويحرص عليه ويحب زيادته .
وقال رضي اللّه عنه في حديث( ) : ((غَيرتان إحداهما يحبها اللّه والأخرى يبغضها اللّه ، ومَخْيَلتان إحداهما يحبها اللّه والأخرى يبغضها اللّه)) ، وفصلهما في الحديث ، فقال سيدنا : المخيلة روحنة يجدها المتصدق في نفسه عند الصدقة ، يفرح لكونه وُفِّقَ لذلك ، وعندما يُسأل فيَرُد السائل ، يرى في نفسه انقباضاً ، إن كان هو بصيراً بأخلاقه ضد ذلك ، أي ضد تلك الروحنة ، وكذلك المخيلة في الجهاد يفرح إن وفق لذلك .

(1/338)

وقال رضي اللَّه عنه في حديث : ((الرجل يحب القوم ولَمَّا يلحق بهم)) ، أي يحبهم ويتشبَّه بهم ، ولم يبلغ درجتهم ، فلا بُدّ في ذلك من التشبه ، وهو إنك إذا سمعت عنهم ، أن أحدهم يصلي الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة مثلاً ، ومثل ذلك مما لا يكاد يدخل في قوة البشر ، فتقوم من الليل ما تيسر ، فهذا تشبه بهم في صلاتهم كذلك ، وأما من نام الليل كله ، حتى يكاد يفوت صلاة الصبح ، ويعتل بالمحبة لهم ، فقد احتج بعض الناس بذلك فأجابه بعض الصالحين ، بأن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم ، وهم مخلدون في الشقاء ، ما نَفَعهم ذلك ، لعدم تشبههم واقتدائهم بهم .
قف على شدة تواضعه لربه
وقال رضي اللّه عنه : إنا لا نأذن لمن وَصَفَنا ، ولا نحب أن نُذْكَر بأكثر من أنا من أهل البيت ومتمسكين بالعلم ، ولنا إلمام بأهل التصوف ، ونحن لا نريد الظهور وعسى في تريم ، لو بات إنسان فيها بلا عشاء ما عَشّوه ، ولو اجتمع عندنا فقراء محتاجون ما سلفونا شيئاً لنفقتهم .
وقال رضي اللّه عنه : الدنيا لا تخلو أن تكون سجناً للمؤمن من كل الوجوه أو بعضها، ولو لم يكن إلا أن الروح فيها مسجون في الجسم .

وذكر رضي اللَّه عنه العلوم وما يشغل عنها من طلب المعاش ، فقال : المعاش شَغَلَ الناس عن قراءة العلوم وعن العمل بها ، وقد قال سفيان الثوري : لو اشتغلت بِبَصلة ، ما فهمت مسألة . وما جعل اللَّه لرجل من قلبين في جوفه ، فعسى السكون والصلاح ، فإنه لا تصلح أمور المسلمين حتى تسكن ولاتهم .

(1/339)

وقال رضي اللَّه عنه : كل شيء يمكن فيه التعلّم ، وإن كان الطبع بخلافه ، فَطَبْعٌ وتَطَبُّع ، فالعلم بالتعلّم ، والحلم بالتحلم ، فلو غضب مرة وحلم مرة عاد أسهل ، ومن الناس من يعجِز عن القيام ، فإذا قُوِّمَ قام ، ومنهم من فيه حركة ، ويقوم من نفسه بقوة ، فالحاصل إن طبع الإنسان قابل للتعليم ، إلا إنَّ ما كان مطبوعاً أهون ، ويتكلف به المكتسب ، ولهذه الأشياء نهاية ، إذا انتهت إليها فلا تعاوده ، وغالب الحركات في الصغر. وكلما كبر قَلّت ، والأشياء في الأكثر مستطاعة ، فَلْيُوَطّنْ نفسه عليها ويقاسيها في الخلوة ، ونحن منذ طالعنا في العلوم ، ما أخذنا منها إلا كلّياتها وجُمَلَها ، والأصولَ التي يُعْتَمد عليها ، وأما الفروع النادرة التي لا يحتاج إليها ، ويرتبون عليها واجباً وحراماً من غير دليل ، لا يقبلها خاطري إلى الآن ، وخصوصاً الفقهيات ، كنت غير مائل خاطري إليها .

وذكر رضي اللَّه عنه الكتب والمطالعة فيها ، فقال : لا ينبغي أن يُنظر فيها إلا لطلب الفائدة ، لا للَّهو والفضول ، بأن يريد أن يقف على كُنْه ذلك الكتاب ، من غير أن يقصد منه تحصيل فائدة ، لأن الفضول ما هو في الدين ، إلا إن كان كتاب أدب ، يريد يقف عليه للفرجة ، فلا بأس ، ككتاب "الفرج بعد الشدة " أو كتاب نحو أو لغة ، فكتب الأدب شيء ، وكتب علوم الدين شيء آخر، ولكن لو جَعَل المطالعة في كتب الأدب إعانة على معرفة العلوم الدينية فهو أحسن من ذلك ، فيرجع فضوله دينيّاً ، وذلك نادر ، أي كون الفضول يرجع دينيّاً ، وأما الدين فلا يرجع فضولاً ، إلا كان عند سفساف الناس .

وذكر رضي اللَّه عنه العلوم واختلافاتها، فقال : أكثِروا من كل شيء ، ولكن ينبغي أن يأخذ منها ما تحتمله بديهته ، وقد ذكروا : إنه ينبغي أن يأخذ( ) في فن واحد يُحكمه ، ثم يتطرف من كل شيء ، وقد تفننوا في كل فن ، حتى أعجزوا الطالب ، فإذا كان الكتاب عشرين مجلداً أو أكثر ، متى يتم مطالعته ، ولا يتمه حتى ينسى أوله ، وهذا الجمع تسخير إلهي ، وقد يمكث في تصنيف كتاب من أول عمره إلى آخره ، كالإمام النووي في المجموع ، فإنه يؤلفه من صغره( ) ، وقد قال فلان : لو ذَهَبت الكتب كلها، وبقي المجموع كفى منها، فنقول له ولأمثاله : وأما المبتدئ فما يفعل بالمجموع.
وقال رضي اللَّه عنه : أكثرَ الناسُ في كل شيء من كل شيء ، فليأخذ الإنسان بما أمكنه ، وإلا إذا عجز عن الكل يترك البعض ، لأن من نظر فيها مع كثرتها أورثه ذلك حَيْرة ، كما إذا اعترضت له عشر طرق، ما يدري أيتها يسلك، فليسلك الطريق الكبيرة ولا يأخذ في بنيّات الطرق.
وقال رضي اللَّه عنه : في قوله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((يَشيب ابن آدم ، وتشب منه( ) اثنتان : الحرص وطول الأمل))( ) ، هذا خاص بمن كانت في قلبه من صغره ، كلما كبر ازداد حرصه عليها ، وأما من عاش في صغره بالزهد ونحوه ، فبالعكس من ذلك ، ودليل ذلك من الحديث الآخر : ((يموت المرء على ما عاش عليه)) ، أو إن معناه : إن صاحب الدين والزهد في الدنيا كلما كبر ازداد زهداً فيها وتقللاً منها ، وصاحب الدنيا المحب لها كلما كبر ازداد ضعفاً( ) وعجزاً عنها وعن التمتع بها وفي قلبه تعلق بها ، ورغبةً فيها وطلباً لزيادتها ، أو كما قال .

وقال رضي اللَّه عنه : هذا مقرا( ) فيه عبرة ، لو تأمل الناس فيه كفاهم ، قَصَّ اللَّه فيه أحوال قوم ، ودعا فيه قوماً لاستجابة اللّه ورسوله ، وحَذّر فيه

أقواماً عن الوقوع في الفتنة ، وأخبر كلاً أن اللَّه مع المتقين ، ورغبهم في التقوى وهو :{ إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ}( ) إلى {وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِين} آخر المقرا .

وقال رضي اللَّه عنه : الرجوع في العلم إلى الأصول ، وجميع الفروع والنوادر ترجع إليها، والتصانيف على مقتضاها وإن اختلفت العبارات فهو قصد كل منهم ، ولهذا يقول بعضهم : يُفْهم من قول فلان كذا ، وتُحمل العبارة الفلانية على كذا ، ونحو ذلك ، وقد قررها المتقدمون كما ينبغي ، فأتى هؤلاء المتأخرون ، ورأوها محررة ، فأرادوا أن يضربوا بسهم معهم ، فألّفوا وعَرَّضوا وطَوَّلوا ، منهم مَن قَارَب ومنهم من أبعد ، أو كما قال .

وذكر رضي اللَّه عنه عَجَلة الناس في نقل الكلام ، ثم قال : ما عاد أحسنوا السكوت ولا الكلام ، وإذا لم يحسنهما كان لا شيء ، وما عاد مع الإنسان اليوم إلا يطوي لسانه ، حتى إن لم تقع سلامة يقع أقل منها: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا}( ) ثم ذكر الدَّولتين الأموية والعباسية ، ثم قال : الحاصل أنه لم يكن فيهما مثل عمر بن عبدالعزيز ، ثم امتد الكلام إلى ذكر الأئمة ، وقوة العلم والدين في ذاك الزمان ، ثم قال : وما عاد الناس اليوم إلا في الذيول والكبول ما عاد شيء نور ، وإلا كان اهتدى الإنسان ، لكنها ظلمة لا يُهتدَى فيها، ولكن رحمة اللَّه مرجوّة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((في كل زمان من أمتي سابقون ، وليجدن ابن مريم من أمتي قوماً هم مثل حواريه)) ، وآية من كتاب اللَّه تكفيك ، فإن لم تعرف معناها فاسأل عنه( ) أهل العلم به ، وإذا كان في الأمر شيء عن النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فلا لأحد عنه معدل ، وما كان عن الصحابة فَيُتَّبَع ، وما كان عن غيرهم فيؤخذ منه ويُتْرك ، كما قال أبو حنيفة : وقد كان الذي عليه المعول شيء قليل ، إما آية يحفظها ويعرف معناها ، أو حديث كذلك ، وهذا هو الدين الذي كان من قبل ، وإنما اتسع الأمر بعد ذلك ، حتى صار الكتاب الواحد

في مجلدات ، ثم نقحه الإمام النووي رحمه اللَّه بعد ذلك هو وحجة الإسلام المجدِّدَين للدين ، ثم قال : لا يهمك في هذا الزمان إلا نفسك ومن يهمك ، كصاحب السفينة الذي هو الربان ، فإنه إنما يراعي نفسه خوفاً من الغرق ، وكذلك من معه ، لأن نفوسهم وأموالهم عنده .

(1/343)

وقال رضي اللَّه عنه لبعض القراء : تأنّ ، مرات متعددة ، وقال له في بعض المرات : تكرير الكلام لا يحتاج إليه ، فإنه إذا تكرر سقط وَقْعه على النفوس ، ولهذا ترى عيال العالِم أكثر تساهلاً في كلامه من غيرهم ، لتكرر كلامه معهم ، ونحن ما عاد نعاقبهم ، كما كان الأولون يعاقبون ، لأنا مدْبرين( ) وهم مقبلين ، وهم من طبقة ونحن من طَبَقات ، وإنما نريد منهم أن يأخذوا ما تيسر مع الإصغاء والاستماع ، وفي الحديث : ((في آخر الزمان خير العيال البنات)) ، لأن الولد إذا كَبِر( ) ما يريد لك معه وجود ، لا في مال ولا أمر ، فإن كثروا كان أكثر لذلك ، والبنت تكون في ميزانك ، بسبب اهتمامك بها وبمعاشها ، والولد تكون في ميزانه( ).
وقال رضي اللَّه عنه : الزمان مفتون ، وكان الزمان الأول إذا أردت خيراً نفعك الآخر ، واليوم لا اهتمام في ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : والعلم يؤخذ إلا من أهل العلم المتعلمين ، وأهل الاستقامة المستقيمين ، وأما هؤلاء الذين لم يتعلموا كذلك ، فهم ضرر على الناس ، فنصف العالِم لا ينفع ، وإذا قَصُر نظرك خَلّ غيرك ينظر لك طريقك إن كان فيها شَخْر أو شوك .
ومرت القراءة في حِكَمه رضي اللَّه عنه ، فقال : هذا على التحقيق هو الأصل ، ولكن أهل الزمان تاركون له ، ولو كان في شيء من أمور الطب تزاحموا عليه ، والدنيا على الحقيقة هي التي لا شيء ، الأول : إنها مضمونة( )، والثاني : إنها ذاهبة ، ثم التفت إلى القارئ وهو بعض القراء ، فقال : وأخرى إن ذَنَبها أملس( ).
وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ) : ((ماء زمزم لما

شرب له)) ، يعني من شربه لمرض شفاه اللَّه ، أو لجوع أشبعه اللَّه ، أو لحاجة قضاها اللَّه ، أي لأنها في الأصل للاستغاثة أغاث اللَّه بها إسماعيل عليه السلام ، وقد جَرّبه الأئمة في المطالب ، فوجدوه صحيحاً من خَبَره عليه الصلاة السلام ، ولكن يحتاج لنية وإخلاص ما هو لكل الناس .

(1/344)

وقال رضي اللَّه عنه : عجبت كل العجب من رجلين ، أحدهما من يستعير الكتب ، فإذا غفل عنها صاحبُها أخذها ، والآخر من يزني ويغتسل من الجنابة ، أقدم على هذه الكبيرة ولم يراقب اللَّه تعالى فيها ، ثم هو يغتسل من جنابته .
وقال رضي اللَّه عنه : أكثر العلم إلا فِعْلٌ وترك ، ما المقصود إلا أن يعمل ويتفكر ، حتى إذا ظهر له شيء سأل عنه ، فيعلم ويعمل ، فاعلموا لتعملوا ، والعلم إلا بالعمل ، وإلا كان ضياعاً ويُنسى ، وأما الأخلاق فيحصل للإنسان منها نصيب مع الرياضة ، ودَرَسَةُ الوقت لَبَّسوا على الناس ، فأخفوا عنهم مثل سيرة الشيخ سعد بن علي ، وسعد باعبيد المعلم ، وهو مذكور في الجَوْهر( )، كان يرتِّب ليله ونهاره ، وكان يصوم ولا يفطر إلا بالماء ، مشغولاً بالمذاكرة ، لأن عندهم الاستقامة خير من الكرامة ، لأن الاستقامة ما يُخاف فيها الاستدراج ، بخلاف الكرامة فإنه يُخاف منها الاستدراج ، وكانوا موزِّعين أوقاتهم .
وذكر رضي اللَّه عنه العلماء ، فقال : سبحان اللَّه ، قد يجيء العالم يريد أن يُنَكِّت على أحد من العلماء ، ويستدرك ويعترض ، فلا تحس به إلا وقد وقع في أمر، كل ذلك طلباً للكمال ، فلا كمال للإنسان ، لأن اللَّه منعه الكمال خوفاً من الكبر والإعجاب ، وخصوصاً بالعلم ، لأنه أشرف الأشياء ، فإذا كان يتكبر ويعجب بالذهب والفضة ، وهما مثل الحجارة ، فكيف بالعلم الذي هو أعز الأشياء .
انظر معنى الشكر
وقال رضي اللَّه عنه : الشكر في حال الشدة الصبرُ وترك الاعتراض ، والشكر في حال الرخاء البذلُ وتعظيم النعمة ، وأما أهل هذا الزمان فشكرهم

مجرد لفظ : الحمد للَّه ، وتوبتهم قول أستغفر اللَّه ، في اللسان( ) فقط ، مع خلو القلب من التحقق بذلك ، ثم قال : أكثر ما يُدْخل الناس الجنة التقوى وحسن الخلق ، وأكثر ما يُدخلهم النار الأجوفان البطن والفرج ، وقد ورد : ((أشقى الناس من أدخلاه أجوفاه النار)) .

(1/345)

وقال رضي اللَّه عنه : الفقيه مَن فَهِم أسرار الدين . والذي عِلْمه إلاّ أَيُّما أفضل ، أو كذا أفضل من كذا فما هو إلا موسوس .
وقال رضي اللّه عنه : ما تظهر بركات الصالح على من صحبه إلا بعد موته .
وقال رضي اللّه عنه : لا يُفتح على أحد في العلم حتى يطلبه ويعتقد أنه خلي منه ، لأن المظاهر الدنياوية قد تنقص من المظاهر الأخراوية .
وقال رضي اللّه عنه : من شأن أهل الحق ترك الجدال ، وإن جادلوا فبكلمة واحدة ، لقوله تعالى : { وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ }( ).
وقال رضي اللّه عنه لرجل : أتعرف الحديث الوارد في يا أرحم الراحمين ، فلم يعرفه ، وقال لآخر : هل تعرف حديث يا ذا الجلال والإكرام ، فلم يعرفه ، فقال نفع اللّه به : راح بالناس الاهتمام بأمر المعيشة ، حتى اشتغلت بذلك بواطنهم وظواهرهم ، وهم في ذلك كما قيل( ):
فصادف قلباً فارغاً فتمكنا ... أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
تَربَّوا على ذلك من صغرهم حتى كَبِروا ، ورأوا أقرانهم على مثل ذلك ، والدنيا لئيمة ، إذا وَقَعَت في القلب ارتحلت عنها الآخرة ، لأنها كريمة ، فلا تكاد تخطر له الآخرة على بال ، إلا إن كان نادراً ، حق الإيمان .
وتكلم رضي اللَّه عنه : في حديث الكلمة التي تقال صباحاً ومساء أربع مرات : اللّهم إني أصبحت أشهدك الخ ، وفيه : ((من قالها مرة أعتق اللَّه ربعه من النار، وثنتين نصفه ، وثلاثاً ثلاثة أرباعه ، وأربعاً كله)) ، ثم قال نفع اللّه به : إن هذا عِتْق اليوم أو

الليلة مما يصيبه في أحدهما من الذنوب ، فإن قالها مرة صباحاً أو مساء ، عتق عنه ربع سيئاته التي أصابها في ذلك اليوم أو في تلك الليلة ، ومَرّتين نصفها ، وثلاثاً ثلاثة أرباعها ، وأربعاً فكلها ، ولكل من العتق على قدره خصوص لخصوص وعموم لعموم ، أو كما قال .

(1/346)

وقال رضي اللَّه عنه : في حديث : ((إن اللَّه حمى أمتي أن تجتمع على ضلالة)) ، يعني إنهم لا يجتمعون كلهم عليها ، بل لا بد من قائم على الحق ولو قليل ، وما ورد إنهم( ) السواد الأعظم ، لعله لم يصح ، لأنه لم يبق في زمن بني العباس ، من لم يقل بخلق القرآن إلا القليل ، أحد يُظهره ويدين به ، وأحد يُظهره ، وظهوره وخفاه بحسب ملوكهم ، فالناس على دين ملوكهم، يعني : يُظهرون ما يكون عليه ملوكهم ، إما إنه كذلك وإما تقية وخوفاً.
وقال رضي اللَّه عنه لرجل وهو يذاكره في الأنساب : لا بد لك من معرفة ثلاثة أشياء هي ألزم عليك من البحث عن أشياء لا فائدة فيها : أن تعرف نسب النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم إلى عدنان( )، وأن تعرف كم عدد أزواجه ، وأن تعرف العشرة المبشرين بالجنة .
وقال رضي اللَّه عنه : إن أهل الزمان ما صححوا إيمانهم بالنظر والسؤال ، حتى إن عامتهم إيمانهم قاصر عن إيمان المقلدين لقلة بصائرهم ، وقد أدركنا الناس يعلمون الصغار : (قل رضيت باللَّه رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ، ولد بمكة وبعث بها ، وهاجر إلى المدينة ومات بها) ، فما زال الأمر ينقص حتى لم يبق لأمثال هذه الأشياء أثر ، فإذا كان هذا في أمور الإيمان ، الذي هو الأصل ، فماذا يكون غيره ، وعلى هذا ينقص الدين شيئاً فشيئاً ، حتى يُرفع ولم يبق منه شيء ، ثم رجعت فراستهم في أمور الدنيا .
وقال رضي اللَّه عنه لي يوماً : أيٌّ ترى أعم ، الصلاح أو الفلاح؟، قلت : اللَّه أعلم ، قال : الصلاح عمل ، والفلاح جزاء ، ألا ترى حيث يذكر اللَّه الصلاح ، فيذكر

أعمالاً يمدح فاعليها ثم يصفهم بالصلاح( )، ويذكر ما يجازي به أقواماً فعلوا الخير ، ثم يصفهم بالفلاح( ).

(1/347)

وقال رضي اللَّه عنه : إن عيسى عليه السلام ذُكِر مع أمِّهِ في القرآن في نحو أربعين موضعاً ، وذِكْرُه معها في الغالب ، وقد يفرد أحدهما عن الآخر ، وذلك صريحاً وكناية ، وإنما كَرَّر اللَّه ذكر مريم ، لأن امرأة عمران قالت : رب إني وضعتها أنثى الخ ، فاستحقرتها لذلك بكونها لا تصلح لخدمة بيت المقدس ، فلما استحقرتها نَوَّه اللَّه بذكرها وكرره ، وفيه دليل على أن كل من اتضعت منزلته عند الخلق ، ارتفعت عند الخالق ، يعني مع الإحسان في جانب الدين والدنيا . وفي ذكر مريم سِرٌّ .
وقال رضي اللَّه عنه : فَاضَل العلماء بين أزواجه عليه السلام ، والسكوت عن هذه الأشياء أحسن ، لكن إذا دَعَت الحاجة إلى الكلام ، لم يسع العلماء إلا أن يتكلموا بالصواب ، وإلا أدَّى إلى الوقوع في الباطل .
وسئل رضي اللَّه عنه : عن رؤية النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم للأنبياء ليلة الإسراء ، كل واحد منهم في سماء ، أرؤية أرواح أو أجسام؟، فقال نفع اللَّه به : رؤيته لهم على قدر درجاتهم بالنسبة إلى القرب من اللَّه تعالى ، ويمكنه عليه السلام أن يرى الأشياء قبل وجودها ، فقيل له : كيف رؤية آدم لداوود عليهما السلام ، واعجابه حسن صورته ، هل هو في الحسن أكمل من يوسف عليه السلام ، وهو المشهور بذلك؟، فقال نفع اللَّه به : إن اللَّه أطْلعه على داوود ، ولم يطلعه على يوسف ، وإلا فهو أكمل في الحسن ، فقد ورد إنه أعطي شطر الحسن ، وإنما أطلع اللَّه تعالى آدم على داوود دون يوسف ليظهر تفرده تعالى بالعلم .
وقال رضي اللَّه عنه : من سألَنا عما لم يكن ، لما( ) يكون؟، لا نجيبه ، وكثير من الناس سألونا فأجبناهم ، وطلبوا وصايا فكتبناها لهم ، ولكن كلهم لم يبارك لهم في ذلك لعدم انتفاعهم بذلك ، لأنهم إنما أرادوا مجرد علم يحكونه ، وإنما رأينا البركة حصلت في

المكاتبات والوصايا التي جعلناها لأناس من غير سؤال منهم لذلك ، بركة بالنسبة .

(1/348)

وقال رضي اللَّه عنه : الناس اليوم كمن يشل المحفر بأحد أذنيه ، لا عذر من أن يَطّيّر( ) منه شيء ، لأنهم لم يأخذوا الأمور بأطرافها .
وقال رضي اللَّه عنه : الهوى يعمي عن الحق ، كالريح ، إذا اشتدت تعمي العين عن النظر ، فكذلك الهوى يعمي البصيرة عن الحق ، والهوى شدة ميل النفس إلى الشيء بالباطل ، ولما رأى نفع اللّه به أن هذا الكلام قد شَقَّ على من سمعه من الجماعة ، قال لمن كان يخاطبه في معرض التسهيل : إذا حصل لك شيء من غير تعب ألا تريده ، فكل يريد شيء بلا شيء ، أما سمعت قول بامخرمة : فتشت في قشاشي لقيت فيه ماشي يا اللّه بشيء بلا شيء . ولو كنت لم تدر إلا وقلنا لك هذا الزاد والراحلة فقم سافر ، لشق عليك جدًّا ، أتريد أن ندخلك الخلوة ثلاثة أيام ، فانظر كيف تخرج هاربا ، وقُدَك في خدمة لنا ، فمن أمرناه بأذان أو قراءة مثلاً أو بساقة( ) أو حاجة ، أو أي أمر فهو في الخدمة ، ونحن إذا تكلمنا أسندنا الكلام إلى واحد ، وقَصْدنا الكل ، لأنا لو جردنا لكل واحد خطاباً حرنا معهم ، وفي الكلمات تكون عشر كلمات من الطالب ، وكلمة من المعلم ، وإن تكلم هو بمراده قبل أن يسأله ، يأخذها ويسكت ، قال له رجل : اللَّه ينفعنا بكم ، فقال رضي اللّه عنه : اللّه ينفعكم بنا ، وينفعنا بكم ، فقد قيل : إن المعلم ينتفع من المتعلم أكثر مما ينتفع المتعلم منه ، وقد أتكلم مع الجماعة في بعض الأوقات بأشياء لم يفهموها ، لنستذكر بها أشياء كنا نعلمها فنسيناها حتى كأنا لم نقف عليها ، وقد قرئت علينا رسالة القشيري أكثر من عشرين مرة( )، وإذا مرت علينا كأنا ما سمعناها ، ولولا التبرك بذكر أحوال الصالحين ، تركنا باب الإصطلاح منها ، لأنها أين الآن من يعرفها ، ومن يتحقق بها، وفيها أيضاً إشكال ، مثل السكر، وما استشهد في ذلك من الأبيات فإن أكثرها من قول أهل الخمر، وهذا هو الذي حصل

بسببه الإعتراض على الصوفية ، ونحن لنا بهذه الأشياء معرفة

(1/349)

وذوق ، ولكنا صادفنا قوماً ليسوا كذلك ، ولكن بعدما يرق باطنه ويصفو ، تظهر له أمور، حتى إن الشاطحين بعدما صفت بواطنهم ، ورأى من رأى شيئاً منها ، ظنَّ ما ظن ، فحصل( ) عليه الاعتراض في ذلك ، كقول أبي يزيد البسطامي : سبحاني ، والسلامة في اتباع السلف وما هم عليه من الزهد في الدنيا ، كأويس القرني والحسن البصري ، ولكن جزى اللَّه الإمام الغزالي خيراً حيث تتبع طريقة الصوفية ، فرأى أنها حق ، وأسسها وبَيّن ما اختُلف فيه ، بسبب تغير الأسماء الاصطلاحية ، ومثل الإمام النووي في زهده والبغوي في تقللّه ما بعد هم في طريق الصوفية ، وإنما هم على طريقة السلف ، فكيف يريد هؤلاء أن يصيروا ويتحققوا بحقائق الصوفية ، وهم يعجز أحدهم أن يرد عن نفسه الخواطر في الصلاة ، وربما تراوده نفسه في الصلاة بشهوة ويعجز عن ردها ، فلا يطمعوا في حال أولئك ، فرحم اللّه امرأً عرف قدره ولم يتعد طوره ، ولا خير إلا في أسلوب عالم عامل ، من الانزواء عن الدنيا والتقلل منها جدًّا ، إلا قدر الضرورة أو على قدر الحاجة ، مع التمسك بالكتاب والسنة ، وهو المهيع ، ويترك عنه الإشارات والأشياء المشكلة الغامضة ، فإن طريقة الصوفية لا يكاد يقبلها العقل ، ولا يصدق بها ، وإن كان لك نصيب ، فهو يأتيك ، فأين كنت يوم خلق اللّه السماوات والأرض أو كما قال .

(1/350)

وقال رضي اللَّه عنه : نحن قد سئلنا عن أمور مشكلة فأوضحناها ، حتى عن كيفية الجنة والنار ، ولكن ذلك يخص السائلين عن ذلك ، ولو جاءنا واحد ليس بزاهد في الدنيا ، وطلب أن نعرّفه كيفية الزهد ، لم نبيِّن

له ذلك ، إذ لو حصل له قصعة طعام ، جعل يأكل منها نهمته ، أو وقع له درهم رَبَطه بعشرين رباطاً ، ونسي في جميع ذلك الزهد، أو طلب أن نبين له الجنة ، وهو على حالته تلك لم نُبيِّن له ، لأنه إيضاح لغير مطلوب ، بل لغير متأهل لذلك ، فقد ذُكِر : إن ابن المبارك قال لأصحابه : البارحة اجترأت على ربي فسألته الجنة ، هذا مع ما هو عليه من العلم والعمل والزهد ، فكيف بهذا أو كما قال .

وقال رضي اللّه عنه : ينبغي للإنسان إذا كان عند عالم ، أن يكون على ما يريده ويأمره به ، لا على ما يريده هو ، وإلا فوّت أكثر مما حصل ، إلا أنه ينبغي أن يعرف من هو العالم صاحب الطريقة من غيره ، فيفرق بين صاحب الطريقة وصاحب العلم ، فإنه لا يجري صاحب العلم في طريق إلا ويجري صاحب الطريقة في طريق فوقه ، وبعض العلماء المتبصرين من قطاع الطريق على عباد اللّه ، فلهذا ذكر الإمام الغزالي أنه لا ينبغي أن يدخل الطريق حتى يحكم علوم الأصول على طريق الصوفية ، لا على طريق المتكلمين ، ويعرف من هو الداعي إلى اللّه حقيقة ، ولا يتبع كل من نعق ، ثم قال نفع اللّه به : فإذا كان العالم يبات نائماً شبعاناً ، فعالم إيش هذا ، فلنفرض هذه مسألة يجوّب عليها، وكل من دخل على السلاطين ، وأكل أموالهم ولا نفع المسلمين ولا شفع فيهم ، فهو كذاب مراءٍ ، فلا تصدقه .

ثم قال رضي اللّه عنه : علم الأصول عِلْمان علم أصول الدين كالعقائد ، ولا بد أن يأخذ الإنسان منه قدر الحاجة ، كعقيدة الإمام الغزالي ، وعلم أصول الفقه وهو عَسِر ، لا يكاد يُفهم ولا يجب على كل أحد ، فينبغي أن يأخذ من الأصولَين قدرِ الضرورة ، ثم بعد يأخذ في كتب الرقائق التي ترقِّق قلبه وترغبه في الآخرة ، وتزهده في الدنيا ، ليأخذ في العبادة فيجتهد فيها ، ويكثر من تلاوة القرآن جهده ، فإذا لم يمكنه( ) في بعض الأوقات ، أكثَرَ من الذكر ، ويلازمه في كل أحواله ، فإن العمر قصير والبطالة ذاهبة بأكثره ، وليجعل غاية اعتنائه ومطالعته في المهم

منها ، فيطالع المهم ويحفظ المهم ، وإن أراد مطالعة غير ذلك جعله في نادر من الأوقات .
وقال رضي اللَّه عنه : العلم علمان : علم الإيمان وعلم اللسان ، أعني المهم منهما ، فيأخذ من ذلك ما يعرف به قواعده ويتسلى به .
وذكر رضي اللَّه عنه أناساً فقال : إن اللَّه ما قبل أعمالهم لأنهم عملوا بلا علم ، ولو قبلها لرفعت ورحمهم ، ولا يقبل اللَّه عملاً حتى يكون أوله علم وآخره إخلاص .
وقال رضي اللَّه عنه : الأعمال تُرفع من الأرض إلى السماء ، ثم من هناك ترفع وتقبل ، أو ترد ولا تقبل ، وأماكن العبادة والعباد معروفون عند الملائكة لاعتيادهم لنقل العمل منهم من أماكنها ، ألا ترى كيف أنكروا بطن الحوت لأنه ليس موضع عبادة ، وعَرَفوا صوت يونس عليه السلام ، فلما سمعوا صوت تسبيح يونس من بطن الحوت ، قالوا : صوت معروف في مكان مجهول ، لم يدروا أين هو ، لعدم اعتيادهم لنقل العبادة منه . ...

(1/352)

وقال رضي اللَّه عنه : لو أدركنا ناساً يرغبون في العلم ، لجعلنا واحداً يقرأ فقط ونتكلم معه ونُملي عليه والبقية يستمعون ، ولكن هؤلاء ما بَغَوا إلا كثرة قراءة ، ولا بالوا فهموا شيئاً أم لا ، وأنا يعسر علي إخراج الكلام ، ولا أسْخَى به ، وقد كانوا إذا حضر أحدهم مجلس علم يتفقد نفسه ويقول : ماذا حَصَّلت من علم أو من زهد في الدنيا ، وأمر القراءة والكلام إنما هو إلى العالِم والبقية يحفظون ويكتبون ، على أنَّ بعضهم كان يغضب من الكتابة ، ويقول : لا ، بل احفظوا كما حفظنا ، أو كما قال .
وذكر رضي اللَّه عنه علم الحديث وأكثَرَ فيه ، ثم قال : ما جمعنا كتب الحديث إلا لأجل المهدي ، فإنه إذا خرج لا يأخذ بفتاوي الفقهاء ، بل إنما يأخذ بالكتاب والسنة ، ويَدَع ما عداهما ، أما ترى الاختلاف الحاصل بينهم ، ولولا ما جرى عليه سلفنا من الأخذ بمذهب الشافعي ، كان أحببنا أن نأخذ بمذهب مالك ، لأن فيه مسائل إذا تأملتها رأيت أنها هي السنة ، لأنه

عالم المدينة ، وعمدته ما أجمع عليه أهل المدينة ، ولكن الشافعي مالكي ، لأنه تلميذه أخذ عنه ، ولكن لما تأخر عن مالك ، وقد أتقن مذهب مالك ، وعثر على علوم وأحاديث أخرى لم يقف عليها مالك ، فخالفه في بعض المسائل ، ثم جاء بعده الإمام أحمد، وتتبع مذهب الشافعي وحَرّره ، فكَانَ المذاهب الثلاثة لذلك مذهباً واحداً .
وسمع رضي اللّه عنه في كتاب قرئ عليه فيه : إن اجتماع أهل المدينة على أمر : إنه سنة ، فقال نفع اللّه به : أما قلنا لكم لولا أن سلفنا كانوا على مذهب الإمام الشافعي لأخذنا بمذهب مالك ، وذلك لأنه من أهل المدينة ، وأخذ بما اجتمع عليه أهل المدينة ، ولكنا نظرنا في ذلك فما رأينا بينهما كثير خلاف ، ومذهب الشافعي مذهب مالك .
أقول : وهذا يدل على أن سيدنا كان مجتهداً لا مقلداً.

(1/353)

وذكر رضي اللَّه عنه شأن الصلاة ، فقال : من رأى صلاة الإمام مالك بن أنس ، علم أنها السنة ، لأنَ مسكنه المدينة ، فرأى من اقتدى بصلاة رسول اللَّه صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فهو على الإقتداء به فيها ، ويليه الإمام الشافعي ، لأنه من مكة فهو على قدم الاقتداء ، ولو كان الإمام مالك أقدم في السِّن ، والحجاز محل الدين ومنه خرج ، وهو الوسط فيها ، والإمام أحمد أخذ بالاحتياط ، والإمام أبوحنيفة أخذ بالعلم ، وقول أهل الحجاز جواز السماع ، أي الإمامان مالك والشافعي ، وقول أهل العراق السكوت ، أي الإمام أحمد وأبوحنيفة ، قال : وينبغي أن يحفظ وحكاه عن أرجوزة ألفت في ذلك .
وتكلم رضي اللّه عنه في القُصَّاص فقال : كانوا يفتشون أحوالهم وينظرون ماذا جاء وماذا حدث ، وقد ذكر الإمام الغزالي إن العلم نافع من حيث إنه ينفع به غيره ، أي نفعاً غير نفع العلم( ) به ، فيعلّم أحداً يكون يعمل بعلمه خالصاً به للّه ، كما إن أباسليمان( ) تاب لما سمع القُصَّاص ، ولو عمل بلا علم ما نَفَعه ذلك ، فمن هذه الحيثية ، فَضُل العِلْمُ

العملَ ، ويوم تتأمل زمانك ، ترى الناس في نزول ما هم في صعود ، ولَوَنَّ واحداً منهم رأى كتاباً صُنِّف جديداً ما يعجبهم إلا من حيث يتنفس به ، ولا يتأسف على أحد من الأكابر أنه ما أدركه لينتفع به ، ومن الناس من تردَّد إلى الأخيار ، فصار منهم ، ومنهم من تردد إليهم ، ولا حصَّل شيئاً ، وإنما جعل مجالستهم كالعادة ، وما ينفع السراج في الهبوب ، فإنه يذهب ولا يبقى ، وإنما ينفع مع القلوب ، ويكون كالسراج تحت الصَّحْفة ، وما عاد مقصود الناس أن يستمعوا ليعرفوا ، وإنما مرادهم أن يعذروا أنفسهم ، وكان بعض الناس من أهل تريم راح الهند ، ومدة ما هو هنا ما جاءنا ولا تردد إلينا ، فلما راح الهند طلب أن نحصِّل له "رسالة المريد" فتعرف أنهم إنما طلبوا الكتب لأهواء وأغراض ، وقد قال الشيخ أبوبكر بن سالم :

(1/354)

ومن فاتنا يكفيه أنا نفوته ... ومن صَدَّ عَنَّا حَسْبه البين والقلا

وكان الشيخ مع كبر حاله وبلوغه في السلوك ، ما تبعه من الناس إلا القليل ، وقد نفع اللّه على أيدينا ناساً كثيراً أكثر ممن انتفع على أيدي من قبلنا ، إلا إنه نفع على الطريق العام ، الذي يضطر إلى نفعه الخاص والعام ، الذي جاء فيه التفصيل عن اللّه ورسوله ، ويكفي الناس عن غيره ولا يكفيهم غيره عنه .

وقال رضي اللّه عنه : لا ينبغي للطالب أن يبتدئ بمطالعة كتب الشاذلية حتى يطالع أولاً غيرها قبلها ويُحكمها ، ككتب الإمام الغزالي ، ثم يطالع بعد ذلك كتب الشاذلية ، ليستفيد ، فإن ابتدأ بها أولاً رَجَع يحتج بالأقدار ، وبقي كلحم على وَضَمْ .

وقال رضي اللّه عنه : الناس غافلون ، وإلا ففي نفوسنا أشياء غامضة ، لو رأينا أحداً يفهمها لأظهرناها وبَيَّناها لهم ، لكن لما رأيناهم ورأينا أحوالهم ، قلنا لِمَن ، وهذا ميراث لنا من سيدنا علي ، فإنه قد شكا ذلك ، إلا أن الميراث كلما طال الزمان ضعف ، وقد سمعنا فيما بلغنا عنه ، أنه لما

ازدحمت العلوم في قلبه ، وشكا من عَدَم من يحملها عنه ، أتى إلى بئر وتنفس فيها ، ففاض منها الماء على جوانبها ، فنبت على جوانبها من ذلك شجر اليرع .
وقال رضي اللَّه عنه : العلوم لها مقار ولها ناس ، فإن وقعت في أهلها فذاك ، وإلا صارت كالهزل ، وإن كانت في الأصل جدًّا ، ومن العلوم ما هو كالرَّوَط( )، وهي التي توضع مع غير أهلها ، وينبغي للعالم أن يستصْلح نفسه أولاً ، ثم يستصْلح العامة .

وقال رضي اللَّه عنه : كان الأولون قريبين المرتبة من النبوة ، ما بينهم وبين النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم إلا نحو ثلاثة أو أربعة ، والمتأخرون إنما اقتضبوا من كتب الأولين ، وأما اليوم فقد بَعُدَ العهد جدًّا ، حتى قال السيوطي : وأين العلماء والعلم ، فما عاد بقي علم ، والعمدة ما في الكتاب والسنة ، وما خالفه فلا تتوقف في رَدِّه ، وما أشكل عليك فَكِلْه إلى قائله ، وما ثبت عن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فهو أحق أن يُتَّبع ، وما لم يصح فخذ فيه بالأرجح ، وإن لم يكن ترجيح فاجتهد إن كنت من أهل الاجتهاد وإلا فخذ بما رَجّحه أحد من أهل الاجتهاد .
وقال رضي اللَّه عنه : الحسد لا يترك صاحبه يقرّ بالحق ، فمن في قلبه حسد ، إذا قلت كلمة وأنت فيها صادق ، قال لك : تكذب ، قبل أن يتعرف صدقك ، فلا يدعه دخان الحسد من التوقف حتى يتبين الأمر . وإجمال الأمور : إن كلما قَبِلَه الكتاب والسنة هو الحق ، وما لم يقبلاه هو الباطل ، وما المقلَّد إلا رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، وإنما اختلفت الطرق عنه من حيث الصحة والضعف من جهة الإسناد ، فإذا رأوا أحداً حدَّث بحديث مرتين واختلف لفظه فيهما ، أو رأوه ينشد شعراً خالياً ونحو ذلك ضَعَّفوه ، وتكلموا( ) فيه ، وقد قال بعض أهل الحديث : إنا لنتكلم على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة ، وهذا لأن المبتدعة قد فعلوا إسنادات ، بعضها على متن صحيح ، حتى يوصلوه إلى الإمام جعفر الصادق أو غيره من أهل البيت،وبعضها

على كذب علي مقتضى أقوالهم ومذاهبهم الباطلة.
وقال رضي اللَّه عنه : ينبغي في هذا الزمان أن المطلوب هو الذي يدوّر للطالب ولو هو خلاف ما عليه السلف ، وليحصل له التذكر، لأنه لولا المذاكرة نسي ، ولأجل الثواب.
وقال رضي اللَّه عنه : كانوا يكون للواحد مشايخ كثيرة ، وإن اختص بواحد واشتهر نسبته إليه ، لأنهم إذا لحق أحدهم أحداً صحبه وأخذ عنه ، لأنهم إنما يأخذون العلم .

(1/356)

وقال رضي اللَّه عنه : السائل المتعنت لا يبارك له ، ومن حين يأتي والشيطان يلقي في أذنه ما ألقاه في آذان المنافقين بحضرة رسول اللَّه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، إلا أن أحوال النفاق مختلفة ، فحالُ متعنت ، وحالُ منافق ، ثم ذكر قصة الخليل بن أحمد لما جاءه السائل المتعنت وسأله ، فسكت وفكر في جوابه ، إلى ستة عشر قولاً ، ولم يجبه ، وقصة الشيخ عبدالقادر والذين معه لما دخلوا على ذلك الولي الذي يختفي متى شاء ، وقصتهم مشهورة .
قف على ما قال في نظمه

(1/357)

وقال رضي اللَّه عنه : ما لنا في الشعر رغبة البتة ، وإلا فنحن قادرون على ذلك ، لو أردناه لفعلنا نحو ثلاثة مجلدات ، ولكنا لما رأينا خصوصاً في هذا الزمان ، الناس في غفلة جدًّا حَثّنا ذلك على شيء منها( ) ، لأنها تشيع في العامة وغيرهم ، فعسى أن تُنَشِّط عاملاً ، أو تُيَقِّظ غافلاً ، وفيها الوعظ والتذكير وغير ذلك ، ولعل أن تَرُدَّ أحداً إلى الإقبال على اللَّه ، ومن طبعي أني لا أذوق بنظم أحفظه ، ولم يبق في الحفظ شيء مما نظمناه ، حتى لولا نسمع من ينشد به لما عرفناه ، وإذا حدثت في الذهن شيء من القصائد لا نكتبها ، فإذا أخذت مدة ولم تَزُل عن الخاطر كتبناها ، وفي شهر رمضان لم يمكنِّي أن

أفعل شيئاً من النظم ، ولو بيتاً واحداً ، وقد تكلفت ذلك فيه فلم يمكن ، وأما في غيره فلا يعسر علي متى أردته منه ، ولم يحصل منا في رمضان شيء من المؤلفات إلا رسالة المريد والراتب لا غيرهما ، والإتحاف( ) ابتدأنا فيه في رمضان من سنة 1073 ، وتم في ذي الحجة ، ثم ذكر من استملى منه كتبه ، وهم مذكورون في غير هذا الموضع ، ثم قال : وهذه الأشياء حمدنا اللّه عليها ، وقد كانت في معرض فسحة ، نجمعها لهم من كتب شتى ، ولا هم داريين به ، وما أنا خائف من جمع ذلك إلا من الديوان ، لأنه يُري الإنسان أشياء يظهر كأنه ذائق لها ، كما من ذكر عن أحد أنه يوبخ نفسه ، أنت كذا كنت كذا ، فترى الإنسان منهم يقول شيئاً ثم ينكره ، ويقول : ما قلته ، فهذا قد كان بلسان الحال ، قد كان ثم راح منه ، لكنا نوينا في الديوان : أن كل ما قلناه مما لم نكن متلبسين ، على لسان من هو له أهل ومتلبس به .

وقال رضي اللّه عنه : ما يوجد في نَظْمنا مما يخالف قواعد النحو فهو مما أنشأناه قبل القراءة لنا فيه ، وقد مضى على الإخلاص ، ثم إنا لا نغير منه شيئاً لأجل الفصاحة ، إلا إن كان يتغير منه المعنى ، وقد قال بعض العارفين : أعربنا في ألسنتنا فلم نلحن ، ولَحَنَّا في أعمالنا فلم نعرب ، ومرة قال : إن الصالحين يكثر لحنهم في قصائدهم لذهولهم ، وإن كانوا فصحاء ونحاة ، وربما تبينوا بعد ذلك شيئاً من اللحن ، فلا يصلحونه لمُضِيّه على الإخلاص ، وإصلاحه ربما عرض فيه رياء .
وقال رضي اللّه عنه : وربما خطرت لنا الأبيات فنذكر الإعراب فنتركها ، وإلا فتعرض غير معربة ، ولا حاجة لنا بالنظم ولا بالإعراب ، ولما أنشأنا الرائية التي في الشيخ عبدالقادر ، وكنا أنشأنا فيه أبياتاً على نمطها ، فلم يتم لنا ذلك ، ثم إنا في هذه الأيام احتجنا إليها لأمر مهم ، وقد فعلنا في الفقيه المقدم والعيدروس أيضاً قصائد لأجل أمور أسهل من هذا ، وأما هذا فهو في بلادهم ، فلم يحتاجوا إلى التنبيه ، وهم أشد غَيرة منا عليها ، وأما السيد عبدالقادر فلم نكن ببلده

، ولأن لنا به اتصالاً من حيث رحم أهل البيت وغير ذلك .
وقال رضي اللَّه عنه : إن الشيخ عبدالقادر رضي اللَّه عنه من الذين أُذِن لهم في الظهور ، المكرهين عليه ، وهو من ذوي الغارات الظاهرة ، حتى إنه كان ذات يوم يتوضأ فاستغاث به مستغيث قد نزل به العدو ، فخلع قبقابه في الحال فضربهم بها ، ثم الأخرى كذلك ، فوقعت كل واحدة في واحد من مشايخ العدو ، فَفَرَّج اللَّه عن أولئك ببركته ، ثم إنهم أتوه بالقبقابين وقد رأوا عليهما رطوبة الماء ، وكان بينه وبينهم حينئذ مسافة أيام متعددة .
وقال رضي اللَّه عنه : إنا لم نحتج لتسويد عند إنشاء قصيدة أو تصنيف كتاب ، كما يُعتَاد ، بل مسودتنا هي المبيَّضة ، لا اختلاف بينهما ، إلا إن أشكلت كلمة على من يرى ، أبدلناها بأوضح منها .

(1/359)

وأنشد بين يديه رضي اللَّه عنه بقصيدته التي مطلعها( ) : قل للذي جد بالأظعان يا حادي ، فقال نفع اللَّه به بعد تمامها : هي من قديم القصائد ، فإن لم تصح لنا( ) فهي على لسان من تصح له ، وكذلك كل ما هو بهذا المعنى .
وقال رضي اللَّه عنه : يقال مِنْ أحسنِ نعم اللَّه على الإنسان في الدنيا ثلاث : أن يرى ولد ولده ، وأن يأكل من غرس يده ، وأن يُنشَد بين يديه بشعره ، وقد حصلت لنا كلها بحمد اللَّه .
وأنشد عنده بقصيدته( ) : بشر فؤادك بالنصيب الوافي ، الخ . فقال نفع اللَّه به عند قوله (راحُ اليقين أعز مشروب لنا) : الراح والكأس ونحو ذلك مما يذكر في كلامهم ، المراد به اليقين .
وأنشد عنده أيضاً بقصيدته( ) : قل لأحبابنا بسُوح المقام . فقال رضي اللَّه عنه : لا تخلو أبيات من هذه القصيدة من زحاف ، بالنسبة إلى هذا البحر ، لأن ما لنا كثير نظم فيه( ) ، وعادتنا إذا اطلعنا على رِكّة في بعض القصائد بعدما أنشأناها كذلك لا نتكلف إصلاحه ، وربما فعلنا ذلك بالقصد ، قال : وفيها أشياء ما توجد في الرائية ، من فصاحة وغيرها ، ولو شرح هذه

الأبيات عالم منصف ، خلي عن الحسد والمنافسة ، لأتى فيها بجميع مناسك الحج ، ولا ينافس الإنسان إلا أصحابه( ) .
وأنشد أيضاً بقصيدته( ) : الناس في ضيق وفي حرج . فلما فُرغ من إنشادها ، قال نفع اللَّه به :
اللسان الآن غير اللسان في ذلك الوقت ، فيختلف اللسان ، وإن كان اللسان الحسي واحداً ، فلسان الحال ولسان الوقت ولسان الداعي وأمثال ذلك ، فربما يتكلم في البداية ، وفي النهاية كلام آخر ، وربما تكلم في وقت بكلام يستحسنه ، ثم يكرهه في وقت آخر، وربما أنكره ، كل ذلك لاختلاف الألسنة المتقدم ذكرها ، أو كما قال بمعناه .

(1/360)

وعندما أنشد عنده بقصيدته( ) : يا جيرة الحي عليكم سلام . قال رضي اللَّه عنه : هذا ومثله من نداء النفس للروح وخطابها معه ، ويفعل ذلك المتغزل لحصول النظم ، ويذكر نُعمان ، وهو المكان الذي أخذ اللَّه فيه العهد على بني آدم ليصرف وَهْمَ السامع عن ظن كون ذلك في الحضرة الإلهية أو النبوية وهو دون ذلك إذا ثَبَتَتْ وهو دونها ، لتنزهها عما يوهمه الغزل .
وقال رضي اللَّه عنه لبعض الفقراء : طالع في كتاب مقال الناصحين لباجمال( ) ، فإنه مليح ، فقال : إني أطالع في تفسير البغوي ، فقال نفع اللَّه به :
البغوي ، والإحياء ، والبخاري ، وهذه الكتب الكبار كالمدن الكبار والأمصار إذا دخلها الإنسان يحير فيها ، فيحتاج إلى من يعرّفه ، وأما الكتب الصغار فهي كالقرى الصغار، ينبغي أن يدخلها الإنسان يتنفس فيها ، فينظر إلى ما يعجبه ويستحسنه ، وتلك يدخلها بعض الأحيان ، ويأخذ ما يستحسنه من هذه ومن هذه .
وقال رضي اللَّه عنه : من يقرأ القرآن لا يمكنه أن يقول بالجهة ، فيفرق بين معراج النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم وتكليم اللَّه سبحانه لموسى عليه السلام من الشجرة ، لأن الأمور الإلهية لا يدركها أحد، وما أوهم إشكالاً من كلام المحققين ، فلا ينبغي

أن يسارع إلى الإنكار عليهم ، بل يدَعهم ، ويسعهم الكتاب والسنة ، ويجعلها من قبيل المتشابهات الواردات في الكتاب والسنة، ولِمْ جاءت هكذا حتى احتاج الناس فيها إلى التسليم ، وإما إلى التأويل .
وقال رضي اللّه عنه : التغزل في اللّه ورسوله لا يجوز ، ومن فعل ذلك يكاد يكفر ، وإنما هو في الروح والنفس ، فما كان من ذكر المطل والخلف والجفا ، ونحو هذا فهو تغزل في النفس ، لأنها موضع القساوة ، وما كان من ذكر الوصل وذكر اللطافة والأنس ونحو ذلك فهو في الروح .

وذَكَرتُ له رضي اللَّه عنه : إني رأيت في الحسا ، في كتاب "الغنية" للشيخ عبدالقادر، ما يشبه كلام المجسمة ، فقال نفع اللّه به : اطلب ذلك الكتاب وأسمعنا ما رأيتَ ، فطلبته من عند السيد عبدالرحمن بن عبداللّه بلفقيه( )، وأسمعته ذلك ، فلما سمعه أقَرَّه ، وقال : لا بأس به ، وفي كلامه من السعة أكثر مما يسعه ظاهر الآيات والأخبار ، فليحمل أقل ما في الحال على ما يحتمله ظاهر الآيات والأخبار ، لأنه الظاهر ، أو قال : الأصل أو كلمة نحوها ، وإنما صرف عنه بالتأويل ، واللغة واسعة ، فلا حرج ، وشأن الأمور الإلهية وذِكْرها في العلو أعظم شأناً منه في السفل فأين ما يوصف به السماء السابعة وما حولها وبأن سكانها الملائكة على طبقاتهم ، مما يوصف به الأرض السافلة ، وأن سكانها الجن ، وإحاطة علمه تعالى بكل شيء ، لا يفيدهم شيئاً ، وأين الأمور الإلهية من قياس العقول ، قلت له : إن الأشاعرة في تلك الجهات يقولون ، إن مثل هذا الكلام مدسوس على الشيخ ، فقال : هذا إن صح عنه( )، وإلا فقد دُس على الشعراوي في كتبه ، وذلك غير بعيد .
وقال رضي اللَّه عنه : التنزيه على قسمين ، قسم أضافه الحق إلى من لا إيمان له من المشركين والملحدين ، وقسم نَزَّه نفسه عنه من غير أن يقع ، فربما يقع في خاطرٍ شيءٌ فنفى ذلك.

(1/362)

وقال رضي اللَّه عنه : إذا أردت أن تنفي الجهة في حقه تعالى ، وتعلم أنه غير محتاج لجهة ، فأثبت حدوث العالَم ، فإذا ثبت فلا خفا في ذلك ، فأين كان قبل وجود الموجودات ، وأين يكون عند قيام الساعة ، وعندما يطوي السماواتِ والأرضَ بيمينه ، فيعدمهما ، فيُعْلَم غناه عن الجهة ، فأين كان قبل ذلك وبعده ، وقد يُغلط في لفظ الشمال في حق اللَّه سبحانه ، من يقول له شمال ، وإن كان قد جاء في بعض الأحاديث ، وإنما كلتا يدي ربنا يمين ، اليمين الكبرى بها فضله واليمين الأخرى بها عدله ، فلا يوصف بشمال ، وكذا يقال فوق الفوق ، وفوق التحت ، ولا يجوز أن يقال تحت التحت ، لأنه فوق كل شيء ، والأمور التي لا تدركها العقول كثيرة ، منها ما هو في الوجود ، ومنها ما هو في القدرة ، لم يبرزه اللَّه سبحانه ، ولا يعرف الإنسان منها إلا ما يألفه ، فيقيس عليه ما يقرب منه ، وأما ما لا يعرفه ولا يألفه طبعه ، فلا يعرفه أصلاً ويرى ما عداه محالاً ، وما لم يره أو يعلمه لا يمكنه أن يتعقله ، فخل الخوض في الحق( )، وانظر إلى الملائكة ، إنما غذاهم الذكر ، لو قيل حي لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، يقال : ما هذه الحياة؟، وكيف تكون؟، ويستبعده ، وكذا الجنة حيث يقال : طولها كذا، وعرضها كذا، وصفتها كذا، فإذا استبعد يقال له : نعم ، لو كان ذلك في هذا العالَم الضيق ، وهنالك عوالم شتى ، منها ما هو في الوجود ، ومنها ما هو في القدرة .

(1/363)

وسمع رضي اللَّه عنه شيئاً من كلام ابن الفارض فيه غزل ، فقال : هذه الأمور لما كانت في أوصاف المخلوق ، أنكرها عليه بعض الناس ، ظنوا أنه يريد بها الخالق ، وهذا خطأ منهم ، لأنه لما كان ذلك في وصف الخلق ، تبين أنه ليس في الخالق ، فإذا صرح المخلوق بالمخلوق ، فهو بالمخلوق أحق ، وأجاب عنه بعضهم ممن يقول بالشاهد ، بأن ذلك في النور

الساري في المخلوقات ، وهو من نور اللَّه سبحانه ، وكل هذه أمور باطلة ، قال : وفي نظمه فصاحة وملاحة ورقة ، كأنه كان متمرناً عليه ، وفي نظم الطرائفي وغَزَلِه مثله ، ويقول عند التخلص رجعت عنه ، فمثل هذا يبريهم ويفيد غيرهم ، ويسمى هذا التشبيب ، ومثله في كلام ابن علوان ، لأنه كان مجتهداً في علم الأدب ، ليكون في مرتبة أبيه عند الولاة ، ثم ذكر قصة جذبه ، كما ذكره في "طبقات الخواص"( ) للشرجي ، وكثيراً ما يذكر آل طه ، وآل يس حتى توهم بعض الناس أن له نسباً حسياً في الأشراف ، ومرة قال : كان أبوه حسن الخط ، فخط كتاب "البيان" ووصل إلى بغداد ، فتعجبوا من حسن خطه ، فقال بعض أهل تلك الجهة : ما حسبنا أن في اليمن إنسان ، حتى جاءنا البيان بخط علوان ، وكان مؤلفه( ) من أهل اليمن ، قال اليافعي في تاريخه : إنه ممن يقول بذلك القول من الشافعية .
وقال رضي اللَّه عنه : النظم تحن إليه الأرواح أكثر مما تحن إلى النثر ، بشرط أن يكون السامع مجرداً عن الهوى ، لئلا ينزل الأشياء على أغراضه ، وقد سأل الشعراويَّ الجنُّ عن مسائل ، فأجابهم وجعل الجواب نظماً ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأنهم يطربون إلى النظم خيراً مما يطربون إلى النثر ، ولا يجوز تنزيل الغزل على الحضرة الإلهية ، ولا ما فيه الخُلْف على النبوة ، بل ما كان فيه الوفاء والمدح على الروح ، وما كان فيه الخُلف والجفا والمطل على النفس ، لأن هذا طَبْعُها .

وأمر رضي اللَّه عنه منشداً ينشد ، ثم قال : كل ما في النَّظم من المدح ، فنَزّله على الروح أو الكعبة أو الجنة ، وكل ما كان فيه من الذم ، فنَزّله على النفس والدنيا ، والحذر من تنزيله على ما تنزله العامة عليه ، من كونهم ينزلونه على الحق سبحانه ، أو على النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فهذا لا يجوز ، فإذا صرح المخلوق بالمخلوق ، فهو بالمخلوق أقمن وأحق ، ويكون في معشوق حلال ، وإن احتمل ذا وذاك فيمكن حمله على شيء من الحضرات الإلهية .

وذَكَرَ رضي اللَّه عنه : أن لابن عربي نظماً ، ثم قال : لكن يرتفع في نظمه ، وآخرون وإن كان معهم حقيقة ، يتنزلون في نَظْمهم للناس لقوله عليه السلام( ) : ((كلموا كل إنسان بما يعلم ، أتريدون الخ)) ، وهذه الأشياء من علوم الحقائق ، يستحبون بها لكونها لا تتعلق بعمل ولا حكم ، ومن حق النظم أن يكون في وعظ أو تذكير ، أو حَثّ على خير ، أو تحذير من شر ، أو تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة .

وقال رضي اللَّه عنه لبعض المنشدين : ما فيه ذكر النساء وأوصافهن أنشده في محاضر الأعراس ، وما كان فيه غَزَل ونحوه في مجالس الضيافات ، وما فيه ترغيب في خير ، أو مدحٌ للنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم وما جرى مجرى هذا ، ففي مجالس الأخيار .

وقال رضي اللَّه عنه : إن أبا مخرمة قصد السودي ، واجتمع به ، وكان إذ ذاك قد حصل في حضرموت قحط شديد ، فأنشأ السودي فيه هذه القصيدة ، مكاشف له:

(غُرَيِّبْ مُطِّرَتْ بلادك)( )

، والشيخ يعني بامخرمة ، قد يفعل قصائد على ألسنة العامة يطلبون ذلك منه .

وذُكر عنده رضي اللَّه عنه يوماً السودي وبامخرمة ، وقيل : كان وقتهم صالحاً ، كثير الخير والأخيار ، فقال : كان في وقتهم سحاب يمطر عليهم ، وأما الآن فكما قال الجنيد لما قيل له : ألا تفعل السماع؟، فقال : لمن؟، فقيل : لنفسك ، فقال : مع من؟، وهذا لأن الأشياء إنما هي في أوقاتها ومع أهلها .

وقال رضي اللَّه عنه : الغَزَل حجار الأساس يُبنى عليه النظم ، ولا يحسن النظم إلا بالغزل ، وقد جَرَت به عادة العرب ، ولا بد فيه من ذكر أوصاف النساء ، ولما كان العشق إنما يعرف في النساء ، حتى جرت العادة بالتغزل فيهن ، جرت عادة الصالحين أيضاً في قصائدهم بالتغزل بهن ، وإن كان مقصدهم غير مقصد غيرهم ، وقال لي رضي اللَّه عنه يوماً : أنشد ، فأنشدت بقصيدة ابن علوان : ألا عرِّج أضاء

لك السبيل ـــ وبعدها بقصيدة سيدنا : اللَّه لا تشهد سواه ولا ترى ـ الخ فلما فرغت منها أنشد هذا البيت :
واللَّه أكبر من إشارة عالم ... اللَّه أعظم من إشارة عارف
وهذا البيت أيضا:
وكل إلى ذاك الجمال يُشير ... عباراتنا شتى وحسنك واحد
ثم قال نفع اللَّه به : إن الحوت إذا غار عنه الماء هلك ، وعكسه الضب إذا وقع في الماء مات ، وذكر النظم المقول في ذلك وهو :
فكم تلبث النفس التي أنت قُوتُها ... إذا كنت قوت النفس ثم هجرتها
يعيش ببيداء المفاوز حوتها ... ستبقى بقاء الضب في الماء أو كما
فقلت : قولكم : اللَّه أكبر غار بحر الحوت ، هو إشارة إلى ماذا؟، فتبسم ضاحكاً، وسكت قليلاً ثم قال : ولما تجلى الحق لموسى كيف كان حاله؟، إلا خر صعقاً ، والجبل صار دكًّا، وأهل الحق يرمزون في النظم ، ويشيرون فيه إلى أسرار وأمور تقع في خواطرهم لا يمكنهم التصريح بها ، ولكنهم يتنفسون بمثل ذلك ، ويتسلّون به .

وقال رضي اللّه عنه : العلم دليل الفعل ، فإن لم يكن فعل( )، فهو خسارة على الطالب والمطلوب ، والأحسن للمحترف إذا لم يسهل عليه أن يعمل بما في البداية( )، أن يعلم بما يَدُلّه من علوم الإيمان( ) وعلوم الإسلام( )، ويشتغل بحرفته ، ويترك طلب العلم [أي ما زاد على الواجب]، ويَسْلم من خَطَره ، ويَدَعه على غيره ، سواء كان برًّا أو فاجراً ، فإن قدر أن يعمل بها فليطلبه ، فإن العلم يزيده خيراً ، وإلا فمن عجز عن القليل ، فلا شك أنه عن الكثير أعجز ، وفيها( ) ميزان عجيب ، أو قال عظيم ، ذكره مصنفها فليجرب نفسه به .
وتكلم يوماً رضي اللّه عنه كلاماً على أهل الجهة وعوائدهم ثم قال : هذه أوعية ملآنة ، ما عاد تقبل

التعليم ، فأين يُطرح فيها .
وقال نفع اللّه به : الغلو مذموم ، لأنه يولد غلوًّا في الجانب الآخر ، فالغلو يولِّد غلوَّاً ، والتفريط يولِّد تفريطاً .
وقال رضي اللَّه عنه في حديث( ) : ((العلم لا يحل منعه)) ، أي لأهله ، أو العلم الواجب من كيفية الصلاة والطهارة وأمور العبادات ، لأن العلم أنواع ، شيء يبذل لعامة الناس ، وشيء للخصوص ، كالمال ينقسم إلى جهات مختلفة ، شيء منه لأهل الخُمُس ، والفيء ، وشيء للفقراء والمساكين ، وغير ذلك .
وسألته رضي اللَّه عنه عن حديث( ): ((يستوفى للقرناء من الجماء)) ، فقال نفع اللّه به : لعل ذلك مبالغة ، ويبقي هذا على ظاهره ، لأن ذلك في قدرة اللّه تعالى ، وأمور الآخرة كلها تمر على ظاهرها ، ولا حاجة فيها إلى تأويل شيء ، إلا إن كان حديثاً واحداً ، واحتيج إليه ، فإن كان وردت أحاديث عند ذلك على معنى يترك( ) ، ويجعل من الأمور السمعيات ، لأنها عند أهل العلم لا تؤول ، وقد جاء تخصيص بعض الحيوانات بدخول الجنة ، ولكن ذكر الإمام الغزالي : أن من ظَنّ أن اللّه تعالى سيحيي كل بقة وبعوضة حتى يسألها، فقد انحل عن غريزة العقل ، فلعل ذلك إنما هو في حيوان له خطر.

وقال رضي اللّه عنه : إذا كان فضيلة في النفس سَهُل على الإنسان تناولها في أقرب وقت ، وحصل له الفتح كما كان ذلك للإمام الغزالي حتى صنف في وقت شيخه إمام الحرمين .
وذكر رضي اللّه عنه جماعةً اجتمعوا في الطلب ، فقال : إذا كان شيء مناسبة ، حصل الإتحاد كالماء مع اللبن ، والماء مع الدهن ، وإن كان إلا كالعود مع الماء لم يحصل .
وقال رضي اللّه عنه : ما العلم إلا معرفته والعمل به ، وتعليمه لمن تأهل ، وإلا كان متلاعباً بالدين ، والدين أعمال واتصاف ، فيطالب نفسه بالعمل ، فمن لا ينصح نفسه ، ما نصحه الناس ، خصوصاً في هذا الزمان المبارك ، لو رأوك تسيء الصلاة ،

وعرفوا أنك لا تقبل ، ما كلمك واحد.
وقال رضي اللّه عنه : قولهم : إذا ضاق الأمر اتسع ، هو أن اللّه هو الذي يضيقه ، وهو الذي يوسعه ، ما هو أنت ، فإذا ضيقته من حيث الأعمال ، فاذهب إلى أهل العلم يعرّفونك ، وقد قال بعضهم في المعاملات : معاملة الحق بالحقيقة والسنة ، ومعاملة الخلق أيضاً بالحقيقة والسنة ، ومثلوا لذلك بقصة صاحب الدَّين الذي جعله في الخشبة ورماها في البحر ، ثم بعد ذلك سافر إليه بدَينه ، فهذا عمل بالحقيقة والشريعة ، ومعاملة الحق بالحقيقة فقط ، ومثلوا له بحال أصحاب الغار الثلاثة ، يتوسل كل منهم بأصلح ما علم من عمله الصالح في انطباق الصخرة عليهم ، ومعاملة الحق والخلق بالسنة ، وأما الذي يعامل الخلق بالظلم ، فلا تبالي بما يقع له ، فإنه لا يموت مستور الحال ، لتهاونه بأخذ أموال الناس ، أو كما قال .
وقال رضي اللَّه عنه : قولهم : فيها أفلاك ، يحذفون الكلمة ، ومعنى ذلك فيها أفلاك دائرة ، يعني تدور عليك بما تحب ، بعدما كنت فيما تكره .
% % % % %
وبفضل الله سبحانه وتعالى كان هذا نهاية الجزء الأول من كتاب تثبيت الفؤاد . فله الحمد أولاً وآخراً .
وتتميماً للفائدة ننقل ماوجدناه مكتوباً على ظهر بعض النسخ التي تمت المراجعة عليها:-

(1/368)

---

1 - الموجود على النسخة الأم ، نسخة الحبيب أحمد بن حسن الحداد :
وكان الفراغ من نساخة تحريره بعد صلاة الظهر من يوم الثلاثاء 19 جمادى الأولى سنة 1170 على يد العبد الفقير إلى الرب القدير، المعترف بالقصور والتقصير، الراجي لعفو الله الكريم الجواد ، الشريف أحمد بن الحسن بن عبد الله بن علوي الحداد عفا الله عنه وعن والديه وأحبابه والمسلمين ، (أي وعمره - أي الحبيب أحمد بن حسن - إذ ذاك 44 سنة ، حيث كان وجوده في شوال سنة 1127هـ) .
وأفيدك أيها القاريء الكريم : أن الإمام المدقق

الحبيب علوي بن أحمد بن حسن الحداد ، قد قرأ هذه
النسخة وراجعها وحققها ، فقد وجد بخطه مايلي :-
قرأ في هذا الكتاب ، تثبيت الفؤاد بذكر مجالس
الحبيب عبدالله الحداد - علوي بن أحمد بن حسن بن
عبدالله الحداد باعلوي أول قراءة فيه ، وثانية ،
وثالثة ، على جده القطب العارف بالله الحسن بن
سيدنا الغوث عبدالله ، جعل الله في ذلك البركة
والعاقبة الحسنة آمين . ثم قرأ فيها الحبيب عبدالله
بن علي الحداد ، وكتب مايلي :- بلغ مقابلة على الأم
المنقول منها التي هي بقلم الحبيب أحمد بن الحسن
بن الحبيب عبدالله الحداد حسب الطاقة والإمكان
نحن والمحب المنور أحمد بن عبدالرحمن عقبة
الشبامي بتاريخ 13 شهر رجب الأصب سنة 1313
هجرية . قال ذلك وكتبه الفقير إلى ربه عبدالله بن
علي الحداد عفا الله عنه آمين . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . ثم طالع في تلك
النسخة الحبيب علوي بن محمد الحداد ، وكتب
مايلي :- طالع في هذا الكتاب الفقير إلى ربه
الجواد ، علوي بن محمد بن طاهر بن عمر الحداد ،
رزقه الله الإنتفاع بما فيه ، وغمر بفيوض المعارف
واديه ، وجعله وذويه من المتبعين للحبيب الأمين .
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الميامين .
وأسأل من الواقف على هذا الكتاب أن يدعو لي
بصلاح ظاهري وباطني ، وكمال الإتباع للحبيب وآله ،
وكمال اليقين والتمكين ،

والإنتظام في سلك الصالحين ، وبحسن الختام ،
والوفاة على الإسلام .
فأعظم بها من نسخة ، كتبها وحررها الحبيب أحمد
بن حسن الحداد ، ثم راجعها وقرأها مراراً الحبيب
علوي بن أحمد بن حسن الحداد على جده الحبيب
الحسن بن عبدالله الحداد ، فأكرِمْ بهم من قاريء
ومستمع . ثم الحبيب عبدالله بن علي الحداد ، ثم
طالع فيها الحبيب علوي بن محمد بن طاهر الحداد .
2 - الموجود على نسخة الحبيب أحمد بن عبدالرحمن
الحداد :

وقد تمت المراجعة على الجزء الثاني منها ومكتوب على ظهرها :- كان الفراغ من نساخة تحريره ، ضحوة يوم الخميس 20 من شهر جمادى الآخرة سنة 1252هـ . بقلم الفقير الحقير ، راجي عفو ربه الجواد ، أحمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن حسن بن عبدالله بن علوي الحداد . عفا الله عنه ووالديه ، آمين . وأيضاً مكتوب عليها :- بلغ بقراءة الفقير إلى مولاه ، علي بن حسن بن حسين بن أحمد الحداد ، على والده في مصلى الحاوي ، بعد صلاة العصر آخر جمادى الآخرة سنة 1254 هـ . وهي ملك الحبيب حسن بن حسين بن أحمد الحداد .

3 - الموجود على ظهر نسخة الحبيب الإمام ، حجة المتأخرين : عيدروس بن عمر الحبشي :

(1/370)

... ... وكان الفراغ من نساخة تحريره ، ضحوة يوم الثلاثاء 11 خلت من شهر رمضان المعظم من سنة 1293هـ . على يد العبد الفقير الحقير إلى مولاه ، أقل العباد : علي بن حسن بن حسين بن أحمد بن حسن بن القطب الغوث عبدالله الحداد علوي ، عفا الله عنه وعن والديه وأولاده وأجداده وأحبابه ومحبيه ، آمين . وذلك بعناية محبه وخلاصته ، الموفق عمر بن أحمد عبادي بنذياب ، كان الله له عونا ومعينا ، ووفقه لما يرضيه ويرتضيه ربُّ العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . ثم انتقل هذا الكتاب إلى ملك إبراهيم بن عمر بن أحمد بن عبدالله عبادي بنذياب ، خاص له . وابراهيم بن عمر المذكور قد وهب هذا الكتاب بالهبة الصحيحة لسيدنا وبركتنا الحبيب القدوة البركة عيدروس بن عمر بن عيدروس الحبشي ، وصار ملكاً من أملاكه ، تقبل الله ذلك بمنه وكرمه،آمين. وذلك بتاريخ يوم الاثنين 26 خلت من شهر جمادى الأولى سنة 1301هـ . ثم صار إلى ملك الفقير إلى مولاه محمد بن عيدروس بن عمر الحبشي ، عفا الله عنه .

... وعلى النسخة المذكورة أيضاً : تشرف وسعد إن شاء الله تعالى بمطالعة هذا السفر الجليل وسماعه ، العبد الحقير علي بن محمد بن عيدروس الحبشي ،

وأنهى قراءته في شهر ربيع الأول سنة 1365هـ ، رزقه الله كمال محبة قائله ، والانتظام في سلكه ، آمين . ثم انتقل إلى ملك الفقير عبدالله بن عبدالقادر بن أحمد الحداد ، مشترى من الأخ علي بن محمد بن عيدروس الحبشي . اهـ.

(1/371)

ونحمد الله سبحانه وتعالى أن مَنَّ علينا ووفقنا لقراءة هذا السفر المبارك ، وبذل الجهد لمراجعته على النسخ التي ذكرناها ، وانتهى بنا المطاف على أن يكون الضبط والتحقيق على نسخة الحبيب أحمد بن حسن بن عبدالله الحداد (النسخة الأم) ، وهي النسخة التي حققها الحبيب علوي بن أحمد بن حسن الحداد ، حيث وجدناها في قمة الضبط ، ومهمشة بفوائد وتدقيقات من قبل الحبيب أحمد بن حسن نفسه ، وعليها عناوين المقالات . وتلك النسخة هي التي وجدت عند الحبيب البركة أبي بكر العطاس بن عبدالله بن علوي الحبشي ، حيث تكرم بها علينا في آخر أيام حياته ، فجزاه الله خير الجزاء ، وقد كان انتقاله [أي الحبيب أبي بكر العطاس] إلى الدار الآخرة يوم الأربعاء 29 من شهر رجب عام 1416 هـ . فرحمه الله رحمة الأبرار .

... كما قام بتخريج بعض الأحاديث ، وتوضيح معنى بعض الألفاظ الدارجة ، وإسناد بعض الأبيات التي يستشهد بها إلى قائلها - السيد عبداللاه بن علي الحبشي ، فجزاه الله خيراً .

كما تشرف وقام بنساخة السفر ، ومزيد المراجعة السيد عدنان بن يحيى بن أحمد العيدروس .

وكان الوقت المخصص للمراجعة والقراءة ، هو مابين صلاة الصبح إلى الإشراق من كل يوم إلا يوم الجمعة . وكانت المراجعة بمساعدة ومجهود كل من الشيخ المحب محمد بن سالم بن عبدالله الخطيب ، والشيخ المحب أبي بكر بن زين بن أبي بكر الراقي بافضل . وقد استغرقت المراجعة قُرابة الخمس سنوات .

... ومن الجدير بالذكر : أن بعض الألفاظ تم إيرادها كما وجدت بالأم ، لا كما ينبغي من حيث حركات

الإعراب . كما أن هناك جُمَلاً تعد بالأصابع لم يتوضح لنا معناها ، فأثبتناها كما هي بالأم . ونلتمس من كل من يجد ملاحظة نحو المراجعة من كل ما ينسب إلينا أن يفيدنا عنها مشكوراً .

(1/372)

... نسأل الباري جلَّتْ عظمته : أن يتقبل منا وأن يعفو عنا بمحض الفضل والجود والكرم ، وأن ينفعنا ويدخلنا في دائرة الإمام الحداد ، وأن يكفر عنا السيئات ، ويرزقنا كمال الاتباع للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يشمل بالمغفرة والدينا وأحبابنا وذريتنا وجميع المسلمين ، وأن يعم نشر هذا الكتاب في أرجاء المعمورة ليعم به النفع إنه سميع مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . والحمد لله رب العالمين .
المشرف على المراجعة الفقير إلى الله الملك القدوس : يحيى بن أحمد بن عبدالباري العيدروس . عفا الله عنه . حرر في جدة صبح يوم الخميس السابع من ذي القعدة من عام 1418هـ. ومن يُمن الطالع أن هذا اليوم يوافق يوم وفاة الحبيب عبدالله بن علوي الحداد ، حيث كان انتقاله في السابع من ذي القعدة من عام 1132 هـ - أي قبل حوالي 286 سنة - نفعنا الله به في الدارين آمين . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
....
آخر الجزء الأول من كتاب " تثبيت الفؤاد "
ويليه (إن شاء اللَّه) الجزء الثاني الذي أوله: ((ودخل عليه رضي اللَّه عنه السيد زين العابدين)).

(1/373)

فهرس الجزء الأول حسب العناوين

(1/375)

(1/376)